

أسامة عجاج المهتار

بدا

في العقيدة والإدارة



مؤسسة الدراسات الثقافية

بَدَدَ

في العقيدة والإدارة

أسامة عجاج المهتار

بَدَدَ

في العقيدة والإدارة

بَدَد
في العقيدة والإدارة
أسامة عجاج المهتار

تصميم الغلاف: بطرس المعري

الطبعة الأولى - 2025

ISBN: 978-969-649-269-6

الناشر:

مؤسسة سعاده للثقافة - بيروت شارع الحمرا - بناء رسامي - الطابق السابع -

هاتف: +96170838826

إن الآراء الواردة في مطبوعات مؤسسة سعاده للثقافة لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات تبتناها المؤسسة.



مؤسسة سعاده للثقافة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من المؤلف.

فهرس المحتويات

11.....	الإهداء.....
15.....	كلمة شكر.....
17.....	مقدمة.....
21.....	هذا الكتاب.....
23.....	القسم الأول: في العقيدة وتطبيقاتها العملية.....
25.....	الشارة - من رسالة إلى صديق.....
33.....	مقابلة مع مجلة تحولات، «التحديات الوجودية».....
37.....	حول مبادرة «وحدة القوميين الاجتماعيين».....
40.....	مقابلة مع تحولات، «مبادرة وحدة القوميين».....
43.....	سايكس - بيكو: بين النزعة الفرديّة والإرادات الأجنبيّة.....
56.....	الحزب السوري القومي الاجتماعي والحريات الفردية.....
60.....	جمع القوى.....
63.....	القوى الحيّة.....
66.....	لعلاقة استراتيجية بين سورية وروسيا الاتحادية.....
70.....	أغرب من الخيال.....
73.....	الحيوية.....
76.....	دراسة حالة.....

79.....	بين الدوائر.....
81.....	فلننس، فلنوقّع.....
86.....	«قرضة ووفاء» - بالإذن من سعيد تقي الدين.....
92.....	الردّة.....
95.....	سعاده... طقسًا.....
98.....	ليته لم يحدثه.....
100.....	سرّ سورية.....
102.....	«البحث عن سورية الكبرى».....
106.....	البحث عن زيوسودرا.....
110.....	كلام الله.....
113.....	القسم الثاني: في الإدارة الحزبية.....
115.....	عبارات مُهمّلة.....
119.....	لنفترض.....
122.....	الهاجس بين الردّة والاندثار.....
125.....	في الجدوى واللا جدوى.....
130.....	الخلل الكبير.....
135.....	إدارة التغيير.....
139.....	دور «النظرة» في الإدارات المحلية.....
149.....	إطار إدارة الاستراتيجية عند سعاده: إدارة - سياسة - حرب.....
155.....	«حركة الشعب العامة».....
161.....	المقاييس.....
171.....	أنا موجود.....
173.....	ولا كلمة.....
176.....	نحو استراتيجية مواجهة.....

182.....	الأسئلة الأساس
185.....	الهدية
187.....	المشبهه
190.....	أنا مهتم
193.....	التغيير المؤسسي، المناظير
199.....	التغيير المؤسسي، سعادته وجذرية التغيير
209.....	التغيير المؤسسي، المستقبل الغائب
216.....	الحليف المحتل
219.....	راهنية سعادته والتحديات المعاصرة
226.....	ما بعد الحزب
229.....	النموذج
232.....	لدرء الأخطار القادمة
234.....	الكابوس
236.....	حركة الشعب العامة بين الحقيقة والتمني
238.....	تركة العام: المجاعة
240.....	القيادي السابق
243.....	القسم الثالث: تركيبة الوجدان المذهبي
245.....	محاكمة المشروع الإسرائيلي
248.....	العذاب المبرر
254.....	«واو الوصل»
257.....	كسر القيد
261.....	القرارات التاريخية الصعبة
265.....	قيمة المواطن في حد ذاته
269.....	لأننا لا نخاف التفكير

274.....	يقتلونهم ويصلون عليه
277.....	البوابات
279.....	حقوق الطوائف، حق الشعب
282.....	«الحلقة الانفجارية»
285.....	ما بدي خوفكن...ولكن
288.....	الميثاقية
291.....	جلسة الموازنة اللبنانية
292.....	أموال الآباء في الأبناء
295.....	القسم الرابع: بين العروبة والإسلام
297.....	رد على الدكتوراة بثينة شعبان: صانع الأزمة، صانع الحل
303.....	الحقوق القومية بين العروبة والإسلام
308.....	الدولة، قائد أم مرآة؟
311.....	القسم الخامس: فلسطين
313.....	قاموس الأراضي المحتلة - فلسطين: سورية الجنوبية
315.....	نهج فلسطين، نهج التحرير
317.....	أن نزرع الأمل
320.....	ماذا عن اللاذقية؟
323.....	متساوون في العبودية!
325.....	نقطة تحوّل
328.....	جدك قتل جدّي
331.....	وعد كامبون Cambon - بلفور الفرنسي يسبق نظيره البريطاني بستة أشهر
337.....	إبراهيم متري رحباني: السوري المتنور في مواجهة الانتداب
344.....	«إرهاب الشعب الفلسطيني»
347.....	مشية العار

351.....	القسم السادس: مواجهة التَّغُول
353.....	مواجهة التَّغُول: القوميون في المغتربات
356.....	مواجهة التَّغُول: الشروط الضرورية
359.....	الملزمة
361.....	المظلة
364.....	الاعتراب بين الواقع والمرتجى
369.....	ختام

الإهداء

إلى الشباب السوري الذي يتعرف على أنطون سعادته بالفكر، على أمل أن يسهم هذا الكتاب في الإضاءة على النهج المطلوب لوضع فكر هذا الرجل الخلاق موضع التنفيذ.

بَدَد: حاجة، طاقة.

بَدَد كلمة غريبة. إنها تعني الشيء ونقيضه. إنها تعني هباء، كما أنها تعني الحاجة والطاقة. (قاموس المعاني) في الجزء الأول من هذه المجموعة نظرنا إلى أزمة الحزب السوري القومي الاجتماعي الموصلة إلى التبدد فالهباء.

في هذا الجزء ننظر إلى عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي في تطبيقاتها العملية من حيث هي شحنة طاقة هائلة، وإلى الإدارة الغائبة عن هذا الحزب العظيم من حيث هي حاجة ملحة.

كلمة شكر

إلى جميع الرفقاء المخلصين الذين صارنا سوية على مدى سنوات لتثبيت ما رأيناه ضرورة لكي يعود حزب سعادته إلى ما أرادته سعادته. أخص بالذكر ثلاثة رفقاء لمساهماتهم في أن يبصر هذا الكتاب النور، وهم الرفيقة حنان عابد، والرفيق عطا سهوي، وصديق العمر الأمين أحمد أصفهاني.

مقدمة

بقلم أحمد أصفهاني

لو أن الرفيق أسامة عجاج المهتار لم يطلب مني وضع مقدمة لكتابه الجديد «بدد» الصادر في جزئين، لكنت شعرت بجرح أليم. أما وأنه فاتحني برغبته هذه فور حديثنا عن مشروع النشر، فقد حملني مسؤولية خاصة أثقلت عليّ بحيث بات ألم الجرح خياراً أهون! للوهلة الأولى ظننت أن المهمة ستكون مسألة سهلة بالنسبة إليّ. إرتحت لخطوته هذه، نظراً إلى الصلات الحزبية والشخصية والعائلية التي نمت بيننا على مدى أكثر من خمسين سنة. البداية كانت في النشاط الحزبي مع الطلبة الجامعيين مطلع سبعينات القرن الماضي، ثم ترسخت عاماً بعد آخر حتى يومنا الراهن. وبين الحاضر والماضي أحداث تروى وأخرى تنتظر رفع الحظر عنها.

سأعود إلى الكلام عن روابطنا الخاصة لاحقاً، فنحن الآن أمام كتاب عنوان جزئه الأول «في أزمة الحزب السوري القومي الاجتماعي المستعصية». هو خلاصة تجربة حزبية غنية. إنها تجربة جيل أو جيلين في الحزب السوري القومي الاجتماعي نقرأها ونعيش إشكالاتها كما قرأها أسامة وعاش إشكالاتها وسعى إلى تغيير مسارها الانحداري.

لكن من الظلم أن نعتبر محتويات الكتاب بمثابة حصاد العمر للرفيق أسامة، أو أنه شخصياً يسلم بحتمية «التبدد». هذه المقالات والأبحاث والإصدارات هي بعض من فعل النهضة التي لا تقتصر على التبشير. فقيمة الكلمة أنها تصبح فعلاً اجتماعياً يحقق غاية عليا، أو تشق الطريق نحو تلك الغاية. وقد كنتُ، شخصياً، شاهداً على ذلك الفعل، وفي أحيان كثيرة كنتُ شريكاً على درب الجلجلة.

أن تقرأ كتابات الرفيق أسامة بذهن منفتح يعني أن تكون جاهزاً للتفاعل مع الرسائل

المتضمنة فيها. الأفكار تصلك على شكل تموجات متلاحقة، وتصدمك بقدرتها على الكشف من دون قفازات حريرية: موجة أولى حارة ومتوترة وعنيفة ودقيقة تتشبث بخناقك بحيث تعجز عن استنشاق نسمة محيية. ثم موجة أخرى هائلة تمسح الآلام عن جبينك، إذ تضع بين يديك آليات التخطيط الإداري الناتج عن تفكير استراتيجي يستهدي العقيدة القومية الاجتماعية.

يراقب الرفيق أسامة عوامل التراجع في مسار الحزب، فيطلق صيحات التحذير منبهاً القوميين الاجتماعيين، أعضاء ومسؤولين، إلى أننا ننحدر نحو هاوية لا قرار لها. لكنه لا يقتصر فقط على إطلاق ناقوس الخطر وتعرية السلطويين الفاسدين الذين يُمعنون في نحر هذا الحزب الطليعي. ذلك أن الجزء الثاني من الكتاب «في العقيدة والإدارة» يتضمن الاقتراحات العملية التي يرى الرفيق أسامة أنها المدخل الوحيد والضروري لتحديث العمل الإداري بما يحقق مهمة إخراج الحزب من أزماته «المستعصية».

قبل خمس عشرة سنة تقريباً، أصدر الرفيق أسامة كتاباً هو الأول من نوعه حتى الآن، على حد علمنا. كان «إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية» (2009) دليلاً عملياً لتجاوز الإشكالات الداخلية بالآليات العلمية معاصرة. ولعل الغضب الذي يلون بعض مقالات كتاب «بدد» يعكس إحباط المؤلف من نجاح «حزب السلطة»، على حد تعبيره، في تهميش «حزب العقيدة»! مقالات هذا الكتاب هي صورة طبق الأصل عن شخصية الرفيق أسامة. عليك أن تتخيله أمامك يفكر ويشرح ويناقش وينفعل. غاية الحزب، بالنسبة إليه، هي سر وجودنا. لا حلول وسيطة فيما يتعلق بمصير الحزب، وبالتالي مصير الأمة. «لنا الصدر دون العالمين أو القبر»! مقياس الحكم على الممارسات يجب أن يخضع لقيم النهضة. وبوصلة الرفيق أسامة نادراً ما تؤشر إلى الاتجاه الخطأ. ونظراً إلى الأزمات التي أصابت الحزب والقوميين خلال العقود الثلاثة الأخيرة، عندما عصفت بنا رياح السموم المنحرفة، فقد هيمن على الكتاب، كما على المؤلف، إحساس بأننا وصلنا إلى حافة الهاوية.

أنا لست حيادياً في الكتابة عن هذا الإصدار الجديد. لقد اختار الرفيق أسامة بعضاً من مقالاته لتكون دليل عملنا للمستقبل بقدر ما هي دروسنا من الماضي. جرت العادة بيننا أن يطلع واحدنا الآخر على كتاباته قبل توزيعها. وكنا نتفق كثيراً ونختلف قليلاً، وفي الحالتين تغتني معارفنا وتتوحد. ولم نغيّر عاداتنا مع هذا الكتاب أيضاً، «فلكل امرئ من دهره ما تعودا». كان منطلقنا واضحاً ومحددًا، سواء في فهم طبيعة التحديات الحزبية والقومية أو في سبل العلاج والمواجهة وحتمية التغيير. وعلى الرغم من التباعد الجغرافي (كندا - بريطانيا)،

فقد انخرطنا في مشاريع إعلامية وتنظيمية متنوعة. وحملنا معاً (ومع رفقاء آخرين) مشروعاً طموحاً لوضع الحزب على السكة المناسبة لتحقيق غايته. ربما كان المشروع أكبر من طاقتنا. انفقنا كثيراً ولم نتفق أحياناً، وهذا من طبيعة العمل ومستلزماته... غير أننا لم نختلف إلى حد اللاعودة. حرصنا دائماً على تحييد عناصر عدم الاتفاق ريثما نستكمل سبر احتمالات المشروع الذي نعمل عليه.

وأعتقد أننا استنبطنا طريقة خاصة بنا لفكفكة التعقيدات. إذا تشعبت نقاشاتنا حول نقطة ما، كنا نقرر ترحيلها مؤقتاً. وبعد يوم أو يومين نعاود بحثها بالكتابة هذه المرة. وربما لجأنا إلى الرسائل الصوتية عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وقد نثير النقطة ذاتها في اجتماع يحضره آخرون. كل ذلك تحت سقف وحدة الرؤية ووحدة الاتجاه... والثقة القومية التامة.

خلال عملنا الحزبي نشأت علاقات خاصة شملت العائلة كلها. الرفيقة سورية المهتار تنتظر حضورنا إلى «بيت الأمة» في نزلة أبو طالب (آخر شارع الحمراء) لكي تعد لنا حلوى الخبز الفرنسي المقلي والمغمس بالقطر. وما تزال هدية الشمع من صنع يديها، بمناسبة زواجي سنة 1980، تزين خزانة البيت في أوكسفورد. أما أولادنا فقد أصبحوا رجالاً ونساء، تعارفوا وتزاوروا وتواصلوا... وما زالوا يحافظون على الصلات بينهم بأساليبهم العصرية الخاصة.

أعتقد أن عنصر القوة والثبات في صداقتنا يكمن في أننا ننظر إلى المدى الأبعد، وأنا نركز بلوغ قمة عليا نطل من عليائها على قمم أعلى وأسمى. نحن جيل الطموحات الكبرى كما أننا جيل الإحباطات الكبرى. وعندما يستل الرفيق أسامة مبضع الجراح بيده، ففي اليد الأخرى إكسير الشفاء والحياة.

لست أدري متى وأين كان لقاءنا الأول مع الرفيق أسامة!

أستعين بالذاكرة، فلا تلبني.

الأمر الأكيد أنه عند كل منعطف حزبي أو قومي مصيري، أجد الرفيق أسامة عجاج المهتار

في صميم صورتنا الذاتية.

هذا الكتاب

في مقدمة الجزء الأول من هذه المجموعة قلت إن الصراع بين حزب الحزب وحزب السلطة مفتوح والغلبة فيه، لهذا التاريخ، هي لحزب السلطة. هل هذا صراع لا مفرّ منه؟ ليس بالضرورة. فأنا أعتقد مخلصاً أن قسماً كبيراً من أزمة الحزب يعود إلى غياب الإدارة الحزبية الفاعلة ودائمة التطوير. والإدارة تبدأ من فهم الغرض الأساس الذي من أجله تأسس الحزب السوري القومي الاجتماعي. ذلك أن مهمتك الأساس، كقائد في هذا الحزب، هي إدارة الموارد البشرية وغير البشرية لتحقيق الغاية التي من أجلها تأسس الحزب، والتي من أجلها انتميت للحزب.

الناحية الثانية المفقودة من الإدارة هي القاعدة الذهبية القائلة «لا تخلف بوعد أو بوعيد». كم من إمكانية خسرتها بسبب إخلافنا بوعد أو إهمالنا لموعد، وكم من خطأ كان بالإمكان تفاديه لو أن مخطئاً حُوسب، أو مُجرماً طُرد.

هذا الجزء من الكتاب يتناول عقيدة الحزب فيما هي تفعل بين القوميين وفي المجتمع، ويتناول عدداً كبيراً من النواحي الإدارية، في مختلف المستويات، فيُشَرِّحها استناداً إلى أمور حدثت في الواقع. هناك بعض الأبحاث النظرية، وهذه تحتاج إلى قراءة متأنية خاصة لمن يرغب في وضع الأسس الإدارية السليمة موضع التنفيذ.

هل يمكن وقف هذا الصراع الذي تكلمنا عنه بالتفصيل في الجزء الأول؟ نعم. وبداية ذلك أن تجيب قيادات الأحزاب الثلاثة التي تحمل اسم الحزب السوري القومي الاجتماعي، والمعارضات القائمة، بصدق، وبعد تفكير وروية، عن السؤال التالي: «لماذا نحن في هذا الحزب؟»
آمل أن يكون في مادة هذا الجزء من المجموعة ما يساعد للوصول إلى الجواب السليم.

القسم الأول:
في العقيدة وتطبيقاتها العملية

الشرارة

من رسالة إلى صديق

2020-11-18

وقعت على هذه الرسالة بين أوراق قديمة، ورأيت أن فيها ما يفيد اليوم بعد مضي أكثر من ثلاث وعشرين سنة على كتابتها. أرسلتُ هذه الرسالة إلى صديق عزيز من دمشق كان يدرس في أوتاوا ويحضر حلقات إذاعية كنت أغطيها آنذاك. ثم سافر إلى بلد آخر لمتابعة الدراسة، ولكن التواصل استمر. كُتبت هذه الرسالة بخط اليد وفي جلسة واحدة. وقد استثنيتُ ثلاث فقرات في مطلع الرسالة لا علاقة لها بالمضمون، كما قمت ببعض التنقيح الضروري. هذا، واعترف، أنني أشعر بكثير من التقصير، ذلك أن هاجس تحقيق غاية الحزب، والذي أرى من خلال هذه الرسالة أنه امتلكني منذ عقود، والذي خصصت له الكثير من كتاباتي، لم يصبح هاجسًا عامًا بعد، كما يجب أن يكون.

أوتاوا، كندا في 25 أيلول، 1993

صديقي العزيز فراس،

«... وماذا بعد؟ أضمن لك طيِّه نسخة عن بنود سرِّيَّة ملحقَّة لاتفاقية أوسلو. صحة هذه الوثيقة غير أكيدة مئة في المئة، ولكن الأرجح أنها صحيحة أو قريبة جدًّا من الصحة. في حلقة الأمس، حضر معنا أحد الطلاب الجنوبيين وركزنا على ضرورة عدم الخوف والإحباط بنتيجة هذه الاتفاقية لأنها غير ملزمة لنا. ودعوتي للطلاب اليوم هي لبناء القوة الحقيقية البعيدة عن الانفعالات والغوغاء. القوة النفسية أولاً، التي تملك الوضوح والرؤية لما تريد انطلاقًا من حيث

هي ومن حقيقة الواقع المزري الذي تنطلق منه، والقوة المادية التي تستطيع أن يكون لها الفصل في المسائل الأساسية.

في حلقة الأسبوع الماضي سألتني إحدى الطالبات عن كيفية الوصول إلى السلام في داخلية الإنسان. فأجبتها أن هذا لا يتسنى إلا حين يعيش الإنسان بانسجام مع مبادئه وقيمه. وأن لا أحد يستطيع أخذ القيم التي يختارها الإنسان لحياته منه. وأعطيت مثالاً عن السلام الداخلي الحقيقي حين أخذ سعادته إلى خشبة الإعدام وأرُكع على الأرض فشعر بوخز حصة تحت ركبته، فطلب من الجندي إزالتها. ففعل. فقال له «شكراً»، قبل أن يمزقه الرصاص. ترى هل يمكن للمرء أن يشعر، وهو أمام رهبة الموت، بوخز حصة أن لم يكن مطمئناً وفي حالة قصوى من السلام والهدوء الداخليين؟

وسئلت بالأمس عمّاداً يمكن لنا فعله ونحن أفراد قلة. فأجبت أنه حين دخل الإسرائيليون بيروت، وقف معظم الناس ولسان حالهم يقول: «يا ريت فينا نعمل شي!» ولكن رفيقنا خالد علوان سحب مسدسه وأطلق النار على ضابط وجنديين إسرائيليين في مقهى الويمبي، فقتل من قتل وجرح من جرح. وكانت رصاصات خالد علوان الشرارة التي أشعلت بارود بيروت وأخرجت الإسرائيليين منها. كذلك كان بلال فحص ووجدي الصايغ وسناء محيدلي، الشعلات التي فجرت أنفسها وفتحت الطريق أمام قوافل الاستشهاديين الذين أجبروا العدو على الانسحاب من معظم الجنوب.

لقد كان سعادته الشرارة التي أطلقت بداية عملية الوعي في نفوس الآلاف من أبناء شعبنا. المطلوب اليوم من كل نفس حصل فيها الوعي أن تكون هي شرارة أخرى تطلق شرارات من «الروحية الحقّة» التي تستطيع الفعل في النفوس وتغييرها والوصول بها إلى روحية النهضة القومية الاجتماعية بنظرتها الجديدة إلى الحياة التي تكلمنا عنها كثيراً. غير أن هذا لا يكفي. فمع القوة النفسية هذه يجب بناء القوة المادية. وهذه تُبنى أولاً بعد فهم أهمية مبدأ: «إن القوة هي القول الفصل في تثبيت الحق القومي أو إنكاره.» وهذا يعني أنه لا يكون لنا وزن في تقرير مصير الوطن إلا ببناء قوة للوطن أولاً، وبناء الإدارة الصحيحة لهذه القوة التي تستطيع توجيهها في الاتجاه الصحيح الذي يخدم مصلحة سورية.

كيف نبني القوة المادية في العصر الذي نعيش فيه؟ فلنبداً في محاولتنا الإجابة عن هذا السؤال من النهاية. بمعنى أنه إذا تمثلنا أن سورية قد توحدت وأنها تحت قيادة قومية واحدة، ففي خاتمة أي من الدول نراها؟ هي طبعاً ليست ولن تكون في مصاف الدول الإمبراطورية

العظمى كالولايات المتحدة الأميركية اليوم، أو الاتحاد السوفياتي الراحل. وقد لا تصل، وقد لا نريدها أن تكون دولة صناعية على غرار الدول الأوروبية الكبرى كفرنسا أو ألمانيا أو بريطانيا. ولكنني أعتقد أنه يمكن لنا تمثّلها كدولة زراعية متطورة ترافقها صناعات خفيفة إلى متوسطة، ولها شبكات من الأسواق الخارجية تبيع فيها الفائض عن احتياجات سوقها الداخلي. وقد نستطيع أن نتمثل أيضًا قيام صناعات تقنية واختراعات حديثة في عالم الإلكترونيات أو ما شابه من الصناعات التي لا تحتاج إلى البنى التحتية للصناعات الكبيرة. وأذكر أنني في حديث إلى مجلة «الكومبيوتر العربي» من سنتين قلت: «إن العالم العربي لا يستطيع المنافسة في عالم صناعة السيارات أو الطائرات، ولكنه يستطيع المنافسة في عالم المعلوماتية على سبيل المثال».

لا بأس إذا شردت قليلاً هنا لأضع القاعدة التالية: لا غنى لأية أمة تريد البقاء في عالم اليوم من أن تخلق الحاجة إلى وجودها في عالم الأمم. بمعنى أنه لا بد لأية أمة تريد أن تحيا في أمن وسلام من أن تُقنع غيرها بضرورة وجودها، كما نشاء هي، لأن في عدم وجودها كذلك اختلالاً لسلام وأمن جيرانها. مثال على ذلك سويسرا. قد تكون سويسرا هي التي خلقت لنفسها المركز المالي والصناعي الذي تتمتع به وما رافقه من سلام لمدة تفوق الأربعمئة سنة. وربما تكون الدول الأوروبية هي التي خلقت هذا المُتنفس الحائد عن الحروب الذي تستطيع جميع دول العالم الالتقاء فيه وتخبة أموالها وتنظيفها. المهم أن الحاجة قد نشأت، ووجدت لها القبول بين سويسرا وبقية الدول، وعلى هذا الأساس يُضمن حياد سويسرا وسلامها.

ما الذي نستطيع تقديمه إلى العالم اليوم، انطلاقاً من العالم العربي، لكي يقتنع بجدوى قيام الأمة السورية الموحدة، وبحيث يكون وجودها عامل اطمئنان وازدهار للعالم العربي والعالم قاطبة، بحيث يصبح من مصلحة العالم العربي والعالم كله الحفاظ على وحدة سورية واستقلالها؟ رب قائل: «هذا لن يكون». ولكن لننظر إلى ألمانيا وكيف بقيت مقسمة منذ الحرب العالمية الثانية إلى أن تغيرت الظروف الدولية بحيث أصبحت وحدة ألمانيا مطلباً دولياً، فتحققت الوحدة في وقت قياسي. بالطبع لو لم تكن ألمانيا ترغب بالوحدة، ولو لم تكن قد هيأت نفسها لاقتناص الفرصة وترسيخها بالسرعة نفسها التي تغيرت فيها المعطيات الدولية، لما قامت هذه الوحدة. ومن يدري، قد تكون ألمانيا قد عملت كثيراً من وراء الستار لدفع عجلة الأحداث باتجاه أن تصبح وحدتها مطلباً دولياً لا مفر منه، والأرجح أنها قد عملت.

نستطيع مما تقدم إذن استخلاص قاعدة ثانية هي: «إن الأمم التي تدرك مصلحتها يجب أن تكون دائماً جاهزة للاستفادة من الفرص الدولية التي قد تحصل، أو لدفع عجلة الأحداث الدولية في اتجاه تستطيع معه الاستفادة من تلك الأحداث.»

نعود إلى السؤال: ما الذي تستطيع سورية تقديمه إلى العالم العربي والعالم قاطبة كي يكون لها مكان تحت الشمس؟ ونلاحظ فوراً أن العالم العربي، بل العالم قاطبة، يأبى أن تكون سورية موحدة، ويخاف من وحدتها ويعمل على تفتيتها عرقياً، وطائفيًا، وسياسيًا، واقتصاديًا. لماذا؟

فلننظر إلى بعض الوقائع والمفارقات. تقع سورية جغرافيًا بين أربع أمم هي تركيا، وإيران، والعربّة، ووادي النيل. علاقتنا التاريخية مع هذه الأمم هي علاقة مد وجزر، نقوى فنتمدد خارج حدودنا الطبيعية إلى داخل بلادهم، ويقوون فيتمددون إلى داخل بلادنا. هذه حقيقة. لن ندخل في تفاصيل الحروب والأحلاف بين هذه الدول. يكفي لموضوعنا القول إن الصراعات بين هذه الأمم الأربع غالبًا ما تنتهي بأحلاف تقتسم أجزاء من الفريق الأضعف. وحيث إن سورية هي الأمة الوحيدة التي لها حدود مشتركة مع كل من هذه الأمم، فإن احتمال قيام أحلاف بين هذه الأمم على حساب سورية يجب أن يبقى دائمًا في حساباتنا.

إذن، فموقعنا الجغرافي من حيث نحن في مواجهة أربع أمم تتوازي وإياها في الإمكانيات المادية ونتفوق عليها أو تتفوق علينا في الإمكانيات النفسية، هو من العوامل الأساسية الأولى التي يجب وضعها في نظر الاعتبار حين نريد تقرير توظيف إمكانياتنا وتقديم «شيء» للعالم يقوم على مصالح مشتركة.

نأتي إلى العالم العربي وعلاقتنا بالأمم الثلاث، أي العربّة ووادي النيل والمغرب الكبير. هناك هجرات متبادلة وإن كانت غير متكافئة بيننا وبين العربّة، أكبرها على ما أعتقد هو الغزو العربي الإسلامي لسورية. ولا أعتقد أن سورية كانت تطمح أبدًا لغزو العربّة بسبب قحطها وقلة مواردها. نستثني النفط طبعًا، وهو ظاهرة حديثة.

علاقتنا مع مصر، تاريخيًا، هي علاقة غزو متبادل. وقد يكون هناك تكافؤ في عدد المرات التي غزت فيها إحدى هاتين الأمتين الأمة الأخرى.

أما علاقتنا مع المغرب، فهي إجمالاً غزو من سورية للمغرب - الفينيقيون في الزمن البعيد، والأمويون في العصر الأموي - ونادرًا من المغرب إلى سورية. وباستثناء دولة الفاطميين، لا أعتقد أن ثمة احتلالاً مغربيًا لسورية. حتى دولة الفاطميين لم تمتد إلى سورية قبل أن تركزت في القاهرة بعد أن بنتها وجعلتها عاصمتها.

ملاحظة أخرى نسوقها هي أن أمم العالم العربي، باستثناء سورية، هي أمم ذات أكثرية دينية ومذهبية واحدة، والشيء نفسه ينطبق على كل من تركيا وإيران. في حين أن سورية هي

أمة متعددة الأديان والمذاهب التي هي بقايا لجماعات تاريخية دينية وأثنية، وأنها كالفسيفساء تتقارب قطعها، ولكنها لا تلتحم.

إذن، فالخوف والطمع التاريخيان هما ما يحكم علاقتنا بالأمم المحيطة بنا. خوف من قيام سورية موحدة لأن في وحدتها خوفًا تاريخيًا من امتداد سوري إلى أي من هذه الأمم. وطمع يحتم على هذه الأمم أن تحاول إبقاء سورية مجزأة لكي تمتد هي على حسابنا وتستولي على مواردنا. (قبرص وسيناء والأهواز والإسكندرون والشمال السوري كله).

إذا اعتبرنا أن لسورية مصلحة قومية واقتصادية وسياسية وعسكرية وأمنية ضمن العالم العربي، وإذا اعتبرنا أنها إن لم تكن قوة عظمى كالولايات المتحدة، فبإمكانها أن تكون جزءًا من قوة دولية اسمها العالم العربي، يصبح بإمكاننا أن نضع السؤال التالي: هل تستطيع سورية أن تقنع العالم العربي أن في وحدتها ضمناً له لا خطرًا عليه! وأن سورية الموحدة تستطيع أن تقدم للعالم العربي أكثر بكثير مما تستطيع تركيا وإيران؟ بل هل تستطيع سورية والعالم العربي أن ينفعا تركيا وإيران أنهم، مجتمعين في أحلاف سياسية واقتصادية، يشكلون قوة ذات وزن دولي في واحدة من أهم مناطق العالم؟ هذه بعض الأسئلة التي لا بد لأي مفكر يريد دراسة مستقبل سورية والتخطيط له، انطلاقاً من موقعها الجغرافي، من التفكير بها.

إسرائيل أدركت أكثر من غيرها، وقد يكون أكثر من معظم الحكام في الكيانات السورية، ديناميكية العلاقة بين مربع الدول المحيطة بسورية، فكانت علاقتها جيدة أقله مع اثنين من أعضاء المربع في أي وقت. فمنذ قيامها، كانت لإسرائيل علاقات سياسية مميزة مع إيران وتركيا بالرغم من أنهما دولتان ذات أكثريتين محمديتين. وحين قطعت الثورة الإسلامية في إيران علاقتها مع إسرائيل، كانت علاقة إسرائيل بمصر قد استتبت. وحتى في الوقت الذي كانت العلاقة مقطوعة بين إيران وإسرائيل، كانت تقوم علاقات ظرفية مصلحة تحت الطاولة كما حدث وقت بيع السلاح لإيران إبان حربها مع العراق. هذا ولا نعرف مدى حجم العلاقات السرية المالية والأمنية بين إسرائيل والسعودية، عبر الولايات المتحدة، وإن كنا لا نشك بوجودها.

إسرائيل إذن فهمت هذه العلاقات واستفادت منها حرباً وسلماً، مأللاً وأمناً. بل يمكننا القول إنها استدرجت بعض هذه القوى ودعتها للتدخل في شؤوننا بما يمنع قيام وحدتنا ويعطلها أو يؤخرها، لا هم، فإسرائيل تعرف أن مقتلها يكون في وحدتنا، وحدة حياة في سورية راسية على وعي لحقوقنا القومية، ومصالحنا، واستعدادنا للدفاع عنها بدون هوادة.

هل أطلت عليك؟ لا بأس. نحن بحاجة إلى هذا التصور وأعتقد أنه متى اتضحت أطر العلاقة

التاريخية بين سورية وجيرانها يفتح أمامنا العديد من الإمكانيات التي قد نستطيع وضعها في حيز التنفيذ العملي يومًا ما. نعود إلى الموضوع.

نحن لا نزال نحاول أن نتمثل سورية موحدة وفي علاقاتها مع جيرانها. ونحاول فهم العوامل التي، حتى هذا التاريخ، منعت ولا تزال تمنع قيام وحدة سورية، أو حتى قيام أية قوة سورية تعمل في اتجاه وحدتها. وقد نظرنا ببساطة إلى العوامل الداخلية التقسيمية وإلى العوامل الخارجية التاريخية، فلننظر الآن إلى العوامل الدولية، ونعني بها مصالح الدول الكبرى وعلاقتها بوحدة بلادنا واستقلالها.

في شكل عام، ودون الخوض في التفاصيل، يمكننا القول إن ما ينطبق على مصر وتركيا وإيران ينطبق أيضًا على فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا. فهذه دول قامت على وعي مصالحها. ومن مصالحها الحصول على الموارد الأولية الرخيصة وفتح أسواق الدول الأخرى لمنتجاتها الصناعية والزراعية. ومن مصالح هذه الدول أيضًا الحصول على مواقع استراتيجية عسكرية، دفاعية وهجومية، تستطيع بواسطتها تأمين خطوط المواصلات لها وقطعها عن غيرها إذا قضت الحاجة. من هنا نرى اهتمام بريطانيا بقبرص وعمان مثلًا، واهتمام تركيا بالإسكندرون، والولايات المتحدة بالقرن الأفريقي وغيرها.

بلادنا تحتل موقعًا ولا أهم. فعدا عن موقعها الاستراتيجي بين ثلاث قارات، فإنها تملك عددًا من الثغور البحرية والبرية كالخليج العربي وخليج الإسكندرون وبوابات كيليكيا، ومضائق البحر الأحمر، بالإضافة إلى جزيرة قبرص وموانئ المتوسط. بديهي إذن أن تحظى هذه البقعة من العالم باهتمام الدول الاستعمارية على مرّ العصور. وإذا كان لا يوجد للدول الاستعمارية الكبرى وجود عسكري مباشر فلانتفاء الحاجة إلى ذلك لأن مصالح هذه الدول مؤمنة عبر أنظمة سياسية موالية لها كما هي الحال بين لبنان وفرنسا، والأردن وبريطانيا، والاثنتان معًا مع الولايات المتحدة أيضًا، وكذلك الأمر بالنسبة للكويت. وفي المقلب الآخر كذلك كان الحال بين الاتحاد السوفياتي السابق وكل من العراق والكيان الشامي.

هذه هي الصورة الشاملة لأمتنا بداخيلتها الممزقة، والدول المحيطة بها، والدول الكبرى ومصالحها عندنا. فماذا عندنا في المقابل؟ عندنا، ولغاية الآن، قوى كامنة، وبعض القدرة على التحرك السياسي نراها تنقص كل يوم. وعندنا إسرائيل ووجودها المناقض لوجودنا ولحركة الحياة في أمتنا. فهي تتمتع الحيوية من أمتنا المجزأة لتسمن على حساب جوع شعبنا وتشريده.

وعندنا طبعًا أنطون سعاده وفكره وخططه العملية، وهذا أثمن ما نملك.

من كل ما تقدم، لنحاول رسم الأهداف التي يمكن أن نضعها لأنفسنا ونتأمل فيها. هذه الأهداف هي عينها «الغاية» التي شرحناها في إحدى الحلقات السابقة، وهي موضوع المحاضرة العاشرة من محاضرات سعادته فأرجو أن تعود إليها بتمعن. أما السرد السابق أعلاه، فهو لوضع هذه «الغاية» في الإطار الجيوسياسي والاجتماعي كما أراه في نهاية القرن العشرين. فإذا فهمنا الوضع وفهمنا الغاية أصبح بإمكاننا التقدم لدراسة الأدوات التي هي بين أيدينا، ولبناء الأدوات التي نفتقر إليها، وذلك للانتقال من الوضع إلى تحقيق الغاية التي نصبو إليها.

إن ما نملكه الآن هو قوتان: واحدة سلبية والأخرى إيجابية. وأقصد بالسلبية القوة الفاعلة وبالإيجابية المفعول بها، مع الملاحظة أن القوة السلبية متى فعلت في الإيجابية حولتها إلى قوة سلبية فاعلة مثلها. القوة السلبية هي الفكر الذي نملك، والإيجابية هي الشعب الذي لم يتعرف بعد إلى هذا الفكر. أما جميع القوى المادية الأخرى فهي إما منهوبة أو مستعملة ضدنا. بالطبع، حين نقول الفكر، لا نعني الكلمات والأحرف المتناسقة، بل القوة الحيّة والروحية الحقّة التي بها نحيا ونواجه. القوة الإيجابية موجودة في الوطن وحيث يوجد سوريون. أما السلبية ففي بعض أنحاء الوطن والمغربيات. إذن، فنحن حين نستعرض قوانا النفسية والمادية لا بد وأن نشمّل فيها قوانا البشرية المنتشرة في العالم والتي يمكن لها أن تشكل جزءاً مهماً من ثروتنا القومية، إذا عرفنا كيف نحولها من قوة إيجابية إلى قوة سلبية فاعلة. فمن أين نبدأ؟ نبدأ بأن تعم مبادئنا وتنتشر بين أبناء الشعب في الوطن والمغربيات لكي تتوحد نظرتنا إلى الحياة والكون والفن، ولما هو حق وخير وجمال. وهذا يبدأ من توحيد رؤيتنا لهويتنا القومية أي في الإجابة الموحدة عن السؤال الأساس «من نحن».

ونحن مسؤولون عن إنشاء مؤسسات مالية اقتصادية إعلامية ثقافية دبلوماسية لها مهمة أساسية هي إقامة العلاقات والمصالح المتبادلة مع مؤسسات في الأمم العربية لإيضاح مفاهيمنا وإزالة المخاوف من الوحدة السورية عند الخائفين، وإقامة العلاقات الاقتصادية التي تصبح عامل جذب عوضاً من عوامل التفرقة الموجودة. وهذا يعني الوصول إلى الاتحادات العمالية والجمعيات الثقافية والمؤسسات الكبرى من مالية واقتصادية وإعلامية واكتسابها إلى نظرتنا. وهذا يعني إقامة المؤسسات الدولية المشابهة في مناطق الانتشار السوري وللأهداف ذاتها.

رُبّ سائل: ولماذا لم يحصل كل هذا حتى اليوم بالرغم من مضي واحد وستين عاماً على تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ والجواب على هذا السؤال صعب ومؤلم. فإذا وضعنا جانباً العوامل الخارجية كالحروب الشعواء التي شنت ضد الحزب منذ قيامه، ومن جميع القوى

المناوئة التي ترى في الحزب تهديداً لبقائها، يبقى العامل الداخلي وهو الأهم في رأبي ويتلخص في اثنين: عدم العمل لتنمية «الروحية الحقّة» القادرة على الفعل والتغيير في المجتمع، وعدم وضع غاية الحزب في خطة عمل تستهدف تحقيقها وانتصار مفاهيم النهضة السورية القومية الاجتماعية.

أيها الصديق العزيز

إن هذه الرسالة تريك حجم المهمة الهائلة الملقاة على عواتقنا، والتي هي من حجم «بعث أمة من مقبرة التاريخ»، والتخطيط لإنشاء دولتها التي تحمي مصالحها وتؤمن حياة أرقى لشعبها. هذه المهمة إن لم نتولها نحن، فمن سيتولاها؟ لنلخص.

نحن نريد سورية موحدة، مستقلة وآمنة عبر اتفاقيات مع عالمها العربي ومع جيرانها الأقرب. ولهذا لا بد من نهوض القوى النفسية الحقّة التي تستطيع عكس مجرى التاريخ السائد سواء الداخلي منه أو الخارجي، لكي تبني من القوى المادية ما يؤمّن وحدة سورية واستقلالها وصيانتها. وهذا لا يتم إلا عبر الوصول إلى أكبر عدد من أبناء الشعب ونشر الوعي في صفوفه، وبإنشاء المؤسسات الدولية والإقليمية الرديفة، وبناء العلاقات المالية، والتجارية، والثقافية، وغيرها. إذا وصلنا إلى هذا كله، وصنّاه بقوتنا، نكون قد قدمنا الشيء الذي يجذب العالم العربي والعالم الآخر لاحترام حقوقنا ومصالحنا المصانة بقوانا الذاتية، وللنظر إلينا من موقع التعاون القائم على المصالح المتبادلة، لا من موقع الطامع فينا والمستغل لضعفنا، لأنه لن يكون ثمة ضعف بعد ذلك.

أتركك مع عبارة سعادته الرائعة «إن فيكم قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ».

ولتحية سورية،

أسامة

مقابلة مع مجلة تحولات، «التحديات الوجودية»

2011-2-1

«التقت 'تحولات' اسامة عجاج المهتار، الخبير في التخطيط الاستراتيجي والباحث في شؤون المشرق، أثناء تواجده في بيروت في شهر تشرين الثاني الماضي، حيث ألقى محاضرة بعنوان: الهلال الخصيب في القرن الواحد والعشرين، تحديات وجودية، في الجامعة الأميركية في بيروت وذلك بدعوة من رابطة الإنعاش القومي فيها، وكان هذا الحديث. ملاحظة تمهيدا للنشر: لم أكن أدري حين أعطيت هذه المقابلة، أن ما سيرد فيها لناحية، «خطر المجاعة والعطش وكل ما ينتج عنها من حروب ولاجئين وتغيير جذري في نمط الحياة، هذا إذا بقي لنا من حياة» كان قد بدأ، وسوف يلعب دوراً هاماً في الحرب التي سُنت على الجمهورية العربية السورية مع ربيع العام نفسه. أضْمَن في هذا الجزء، القسم الأول من المقابلة والمتعلق بالتحديات الوجودية. أما ما يتعلق بأزمة الحزب، فهو منشور في الجزء الأول من هذه المجموعة.

تحوّلات: عن أية تحديات وجودية تتكلم في محاضرتك عن التحديات الوجودية؟

موضوع المحاضرة كان خطر اختفاء الهلال الخصيب نتيجة التصخّر وانعكاسات ذلك علينا في ظل انفجار سكاني متفاقم وشح متزايد في موارد المياه. وفي الواقع، فإن ما لفت انتباهي لهذا الخطر كان مقالاً نشر في مجلة «نيو ساينتست» في شهر تموز 2009، وكان عنوانه: الهلال الخصيب سوف يختفي هذا القرن. ويمكن قراءته على الرابط التالي:

<http://www.newscientist.com/article/dn17517-fertile-crescent-will-disappear-this-century.html>

وما يزيد من الخطر هو أن عدد سكان دول الهلال الخصيب اليوم هو حوالي السبعة

وسبعين مليوناً مرشحين لأن يتضاعفوا خلال الثلاثين سنة القادمة. أما عدد سكان كل من تركيا وإيران فهو حوالي الثمانين مليون نسمة لكل منهما، مرشح أيضاً لأن يتضاعف في المدة الزمنية نفسها.

أما المياه، وحسب تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية، بعد مؤتمره الثالث الذي عقده في بيروت في شهر نوفمبر الماضي، وكان مخصصاً لمناقشة الإدارة المستدامة للموارد المائية، فإن عدداً من الدول العربية معرّض «لندرة المياه» مع حلول سنة 2015. هذا مع العلم أن معدل المياه المتوفرة في العالم العربي هو خمسمائة متر مكعب للشخص الواحد في السنة مقايسة بستة آلاف متر مكعب للشخص الواحد في السنة عالمياً. إذًا، نحن قد دخلنا دائرة الخطر الوجودي دون أن ندري، وسوف ندخل في نزاع كبير على مورد الحياة هذا، ونحن في النزاع الحلقة الأضعف.

تحوّلات: كيف تعرّف الخطر الوجودي؟

الخطر الوجودي هو الخطر الذي يهدد الحياة برمتها بسبب تهديده الموارد التي تقوم عليها الحياة. والحياة في الهلال الخصيب تقوم على شبكة من الأنهار أهمها، دجلة والفرات و قارون وسيحون وجيحون والعاصي. هذه الشبكة في معظمها أسيرة دول المنبع. فكل من تركيا وإيران، ومنطقة الحكم الذاتي الكردي في شمال شرق العراق، يتحكم بمنابع هذه الأنهار ويبني عليها سدوداً بعضها عملاق، دون أية اتفاقيات ترعى حق دول المصب. كل هذا سوف يعرض حياة الملايين من السوريين في كل من الجمهورية العربية السورية والعراق لخطر المجاعة والعطش وكل ما ينتج عنها من حروب ولاجئين وتغير جذري في نمط الحياة، هذا إذا بقي لنا من حياة.

تحوّلات: هل قدمت تصوراً لمواجهة هذا الخطر؟

أنا خبير إداري ولست خبيراً بالمياه أو البيئة. بالتالي فقد ركزت في المحاضرة، ومن ثم في حديث لإحدى المحطات التلفزيونية⁽¹⁾، على الخطوة الإدارية البديهية الأولى ألا وهي ضرورة قيام إدارة موحدة لهذا الملف تشمل الدول السورية وفاعليات المنطقة. هذه الإدارة الموحدة، إذا قامت، تضع التصورات التقنية لمواجهة التحدي. ولكن نقطة البداية هي الإدارة الموحدة، ذلك أننا نواجه مجتمعين متماسكين قويين هما تركيا وإيران، ونحن شعب مقسم ومعلّب في

(1) <https://www.youtube.com/watch?v=6kbvFbaGyvY&t=10s>

مجموعة دول متحللة اجتماعياً متنازعة سياسياً، فأى حظ سيكون لنا في مواجهة الكلابة المائية التي تشتد وطأتها علينا.

تصور أن نائباً لبنانياً يدعو اليوم اي في سنة 2010 لتغيير النظام اللبناني إلى نظام تتولى فيه كل طائفة شؤون طائفها. والأخطر أن العراق، أكبر كيانات الوطن السوري يعمل وفق هذا النظام اليوم إلى حد كبير. نعم سوف تقوم دول المنبع في سنين الوفر المائي بفتح سدودها العملاقة، لأنها لا تستطيع أن تخزن أكثر من سعة السدود، ولكن ماذا عن سنين الشح. العطشان لن يسقي أخاه قبل أن يسقي أولاده.

تحولات: هل هناك من بصيص أمل في هذه الصورة القاتمة؟

هناك بصيص أمل ذكرته في المحاضرة وهو النموذج السوري - التركي في إدارة المناطق المتنازع عليها حدودياً. إن هذا النموذج القائم على تحويل مناطق النزاع الحدودي إلى مناطق تعاون عبر تنمية اقتصادية مشتركة ومناطق صناعية حرة وتسهيل حركة الناس من وإلى، قد يكون نموذجاً يحتذى ويبنى عليه، شرط عدم التخلي عن الحق القومي في اراضينا المحتلة. غير أنني أخشى أن لا يكون هذا النموذج كافياً في غياب تنسيق بين دول الهلال الخصيب السورية.

تحولات: هذه ليست محاضرتك الأولى في الآونة الأخيرة، بل نلاحظ أنك تكثر من الزيارات

إلى الوطن وإعطاء المحاضرات. لماذا؟

في الواقع أن هذه المحاضرة كانت المحاضرة الخامسة في الوطن في أقل من سنتين. فقد أعطيت أربع محاضرات في كل من زهور الشوير وبيروت ودمشق وممرميتا بين تموز 2009 وآذار 2010 اشرح فيها منهجية أنطون سعاده في إدارة الخطة الاستراتيجية وفق مثلث الإدارة والسياسة والحرب، كما فصلتها في كتابي الأخير «إدارة الاستراتيجية في المؤسسة العقائدية». أما هذه المحاضرة الأخيرة في الجامعة الأميركية فكانت لقرع ناقوس الخطر عن التحدي الوجودي القائم، ولن أقول الآتي.

أما لماذا، فلأني ابن هذه النهضة السورية القومية الاجتماعية، والهيم السوري يصبح همماً يومياً لنا مهما نأت المسافات ومرت السنين. بنتيجة هاجس عدم نجاح الحزب السوري القومي الاجتماعي في تحقيق غايته، قمت بدراسة معمقة لتاريخ نشأته الأولى. ووصلت إلى نتيجة مفادها أن عدم فهم أهمية نظرة سعاده إلى الحياة أولاً، والتي يقول إنه أسس الحزب بسببها، والتخلي عن تحقيق غاية الحزب ثانياً، عن قصد او عن غير وعي لذلك، وعدم إدراكنا أن سعاده

استخدم منهجية عالية في إدارة خطته الاستراتيجية ثالثًا، كل هذه مجتمعة دفعتني لكتابة الكتاب المذكور، ولشرحه في جولة محاضرات لأن مادته أكاديمية وجافة إلى حد ما. أما اليوم فنضيف إلى هاجس ما حذرنا منه سعادته سنة 1934، من أننا «أمة واقفة بين الحياة والموت»، هاجس أننا مهددون فعليًا بالموت الجسدي جوعًا وعطشًا في السنوات القليلة القادمة. وهذا كان موضوع محاضرتي الأخيرة.

إذًا سوف أسعى لاعطاء أكبر قدر من المحاضرات عن هذين الموضوعين: التحدي الوجودي القائم والرد على التحدي الوجودي عبر استخدام فكر سعادته ومنهجيته.

حول مبادرة «وحدة القوميين الاجتماعيين»

2013-12-3

في عددها الصادر بتاريخ 30 نوفمبر 2013، نشرت صحيفة «السفير» مقالا بعنوان «مبادرة وحدة القوميين» (المبادرة)، بقلم السيد شوكت آشتي. في مقالته تلك، يطرح السيد آشتي عدداً من الملاحظات والاسئلة المحقة والتي تحتاج إلى إجابات من مطلقي الدعوة ومن الذين يحملون همّ الوطن السوري والحزب السوري القومي الاجتماعي. الجدير ذكره أن عدداً من الذين أطلقوا المبادرة كانوا من فريق لائحة «سورية مسؤوليتنا»، التي وضعت برنامجا انتخابيا وخاضت انتخابات 2012، على أساسه. (راجع الجزء الأول).

أرسلت هذه المقالة إلى السيد نصري الصايغ، المسؤول عن الصفحة «الرأي» في «السفير» لنشرها كرد على مقالة السيد آشتي، فرفض ذلك بحجة أنها «عقائدية» وأصابته بـ «خيبة أمل». فيما يلي نص المقالة.

الملاحظة الأولى التي يضعها السيد آشتي تتعلق بعدم تقديم أصحاب المبادرة ورقة عمل «يمكن الانطلاق منها والبناء على أساسها». في الواقع أن ورقة كهذه موجودة تحت عنوان «سورية مسؤوليتنا». هذه الوثيقة هي البرنامج الانتخابي الذي على أساسه خاض فريق من القوميين انتخابات المجلس الأعلى للحزب السوري القومي الاجتماعي في صيف 2012، ومن بينهم عدد من الذين أطلقوا المبادرة. وقد استعرضت تلك الورقة التحديات الوجودية التي تواجه الأمة والحزب، ووضعت خطة عمل لمواجهةها بدءاً من وحدة القوميين. وقد استغربت، وأنا احد المشاركين في وضع تلك الوثيقة، إغفالها من قبل الداعين للمبادرة بحيث بدت دعوتهم وكأنها آتية من فراغ، في حين أنها كانت في طبيعة أولويات برنامج العمل ذاك، وكان من المستحسن الانطلاق منها والبناء عليها.

بعد هذه الملاحظة الاولى يطرح السيد آشتي سؤالاً محورياً: «على ماذا يتوحد السوريون القوميون الاجتماعيون؟» وحول هذا السؤال المحق، أجد نفسي أسجل تساؤلاً ثانياً للمبادرين: «لماذا تجاهلتم الأساس الذي وضع في منهاج العمل ذاك لوحدة القوميين؟ «ألم تكن دعوتنا لأن يتوحد القوميون «على الأساس الاستراتيجي الذي وضعه سعادته للحزب السوري القومي الاجتماعي من نظرة وغاية وقيم وعقلية وأخلاقية ومنهجية لتحقيق غاية الحزب»!

في الكثير مما كتبه سعادته تتردد عبارات محدّدة مثل «وحدة الحياة»، «وحدة الروح»، «وحدة القصد»، «المبدأ الذي وراء النظام والهدف الذي أمامه»، «العقلية الاخلاقية الجديدة»، ناهيك عن عبارة «إن لنا نظرة واضحة إلى الحياة والكون والفن». وفي معرض حديثه عن «النظرة إلى الحياة»، يقول سعادته في كتابه، «الصراع الفكري في الادب السوري»: «وقد تأسس الحزب بسبب هذه النظرة». اذا كان الحزب قد تأسس بسبب نظرة ما، أليس حرياً بنا دراستها ودراسة تداعيات الأخذ بها، ووضعها في صدر الدعوة للوحدة؟

«وحدة الروح ووحدة القصد». وحدة الروح لا يمكن أن تنشأ إلا من الاشتراك في نظرة واحدة إلى الحياة، نظرة مثالية يقول عنها سعادته، تصح المطلب الأعلى الذي تتوحد النفوس حوله. هذا كلام كبير. ما هي هذه النظرة؟ إنها ما يلي، ونقلها حرفياً من كتاب الصراع الفكري في الادب السوري: «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى». هذه هي النظرة التي قال سعادته إن الحزب قد تأسس بسببها. أما وحدة القصد فتعني الاشتراك في عمل نظامي موحد يقود إلى تحقيق غاية الحزب، والتي هي السبيل لتحقيق مقاصد الحزب الكبرى، وتأهيل سورية لتلعب دورها الحضاري الإنساني المفقود.

هذه هي الوحدة الحقيقية التي زرعها سعادته في نفوس أعضاء الحزب بين 1932 و1938، ثم بعد عودته من مغتربه القسري سنة 1947، ولغاية اغتياله سنة 1949، وهي وحدة نفسية روحية نابعة من هذه النظرة المثالية، ووحدة مادية عملية نابعة من الاشتراك في حركة نظامية لتحقيق أهداف واقعية. أية مبادرة لوحدة القوميين لا تنطلق من هذين المفهومين، أي نظرة سعادته للحياة وتحقيق غاية الحزب، لا قيمة عملية لها بالنسبة لقضية الحزب، وسيان عندها توحد القوميون أم لم يتوحدوا.

ربُّ قائلٍ، ولكن كل هذا مُضمّر وأكيد. ربما، ولكننا نرى أن الأساس الوحيد الصالح لوحدة القوميين لا يمكن له أن يكون مُضمراً. يجب أن يُعلن وأن يكون واضحاً وضوح الشمس.

هناك العديد من النقاط الأخرى التي يطرحها السيد آشتي والتي لا مجال لتناولها بالتفصيل

هنا خاصة حول ما إذا كان الحزب هو «المُجسّد لإرادة الأمة أم لا، وعن تجربة الحزب مقارنة بغيره من الاحزاب، والعلاقة بين القومي والكياني، فهذه تحتاج إلى مراجعة هادئة وطويلة. ولكننا نذكر في هذه المقالة المختصرة أن سعادته قد تناول كلاً منها في أكثر من مكان خاصة لناحية العلاقة بين «القومي والكياني»، وقد وضع لذلك قاعدة جوهرية في ظل الاوضاع الكيانية القائمة مفادها: «نحن لا نتجاهل الامر الواقع ولا نتخلى عن المبدأ والهدف.»

النقطة الاخيرة التي أود إثارتها هي أن سعادته وضع منهاجاً للعمل او إطاراً لإدارة خطته في سبيل تحقيق غاية الحزب يقوم على ثلاثة مقومات هي الإدارة والسياسة والحرب. (رسائله إلى غسان تويني)، وقد وضع غاية أولية هي أن يصبح الحزب «حركة الشعب العامة»، وحرك الحزب كلاً من ضمن هذا الإطار وحقّق نجاحات كبيرة بين 1932 و1938، مُقدِّمًا نموذجًا لما يمكن أن تكونه هذه الحركة التي أرادها حركة نظامية شابة تضم كتلة كبيرة من مختلف ابناء المناطق السورية، تنمو باضطراد، وتسير موحّدة في خطة نظامية لتحقيق أهدافها. اما ما حدث لهذه الحركة ولهذا الخطة أثناء غيابه القسري، وعملية الترميم الهائلة التي اضطر لها بعد عودته، وما رافق ذلك من خيانات تعرّض لها، فهي دروس وعبر يجب أن نستفيد منها في إعادة بناء الحزب. إننا مع مبادرة الوحدة كما يجب أن يكون أي عاقل يفهم أسس الحزب وأسس العمل النظامي الهادف. ولكن على القيميين عليها أن يعيدوا النظر بالمنطلق الأساس الذي منه ينطلقون. نحن لا يهمننا أن نُطمئن حلفاءنا إلى أن خطنا السياسي لن يتغير بمقدار ما يهمننا إقناع رفقائنا أننا جادون في العمل لتحقيق غاية الحزب الذي انتمينا اليه، واحياء نظرتة عمليا في المجتمع. كل شيء خارج هذا الاطار، في رأينا المتواضع، هو مضيعة للجهد والوقت.

مقابلة مع تحولات، «مبادرة وحدة القوميين»

2014-1-25

مقدمة المقابلة

اطلقت مبادرة «وحدة القوميين الاجتماعيين»، مجموعة من الردود والمواقف تراوحت ما بين الفكري والعملي من جهة إلى الاتهامات العشوائية والشائعات من جهة ثانية. معظم هذه المواقف سُجلت إما في بريدٍ قراء بعض الصحف، أو على صفحات التواصل الاجتماعي. غير أننا نعتقد أن مبادرة من هذا النوع تحتاج إلى نقاش معمق يتناول الجوانب المختلفة المتعلقة بمشروع كهذا. من هنا قررت «تحولات» أن تفتح صفحاتها لمناقشة جدية لهذه المبادرة تستهلها بهذه المقابلة مع اسامة عجاج المهتار، عضو المجلس القومي في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

فيما يلي القسم المتعلق بالموضوع العقائدي من هذه المقابلة.

تحولات: كان لك مؤخرا موقف ناقد من المبادرة ومطلقيا. فهل انت مع مبادرة وحدة

القوميين ام ضدها ولماذا؟

لقد وجهت نقداً للمبادرة في رسالة جوابية على تساؤلات كان السيد شوكت آشتي قد طرحها في مقال له نشرته إحدى الصحف اللبنانية. وقد تعمدت الإجابة عن سؤالين من مجموعة الأسئلة التي طرحها السيد آشتي الاول يتعلق «بعدم تقديم اصحاب المبادرة ورقة عمل يمكن الانطلاق منها والبناء على أساسها». والثاني وهو السؤال الأهم، «على ماذا يتوحد السوريون القوميون الاجتماعيون.» فذكرت أن المبادرة لم تأت من فراغ، بل إنها كانت في صلب منهج العمل الذي خضنا الانتخابات الحزبية الاخيرة على أساسه وكان عنوانه «سورية مسؤوليتنا».

(أنظر الملحق رقم واحد في الجزء الأول من هذه المجموعة)، وقد ركزنا فيه على أن تقوم وحدة القوميين على الأساس الاستراتيجي الذي وضعه سعادته للحزب أي نظرتة إلى الحياة، وغايته وإخلاقه وقيمه. اما جوابا عن سؤالك ما اذا كنت مع الوحدة أو ضدها، فإنني ختمت جوابي ذلك بما يلي: «إنني مع مبادرة الوحدة كما يجب أن يكون أي عاقل يفهم أسس الحزب وأسس العمل النظامي الهادف. ولكن على القيميين عليها أن يعيدوا النظر بالمنطلق الأساس الذي منه ينطلقون. نحن لا يهمننا أن نظمئن حلفاءنا إلى أن خطنا السياسي لن يتغير بمقدار ما يهمننا إقناع رفقاءنا اننا جادون في العمل لتحقيق غاية الحزب الذي انتمينا اليه وإحياء نظرتة عمليا في المجتمع. كل شيء خارج هذا الاطار، في رأينا المتواضع هو مضيعة للجهد والوقت.»

تحوّلات: تركّز كثيرا على نظرة سعادته وغاية الحزب في حين يرى البعض أن هذه المبادرة هي مبادرة عملية وليست نظرية.

سمعت كلاما كهذا من أشخاص يعتبرون انفسهم مثقفين، فلنناقشه. نحن أمام مبادرة لتوحيد حزب عقائدي يكاد أن يتفتت ويتبدد اعضاءه. فعلام نتوحد ومن اين نبدأ؟ وهذا كان جوهر سؤال السيد آشتي. للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نبدأ بطرح سؤال أساس: لماذا أسس سعادته الحزب؟ والجواب الذي هو غير واضح لمعظم القوميين على ما يبدو لي اليوم هو التالي: **أسس سعادته الحزب بسبب نظرة إلى الحياة تقول «بطلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.»** هذا الكلام موجود في كتاب «الصراع الفكري في الأدب السوري.» عوضاً من أن يفكر القوميون، بدءاً من القيادات الحزبية، في كيفية وضع الخطط والسياسات انطلاقاً من هذه النظرة، نجد معظمهم يمر بهذا الكلام مرور الكرام. بعض يعتبره كلاماً أدبيّاً، وآخر يعتبره كلاماً عقائديّاً بحثاً، والاثنان يشتركان في اعتباره كلاماً «لا قيمة عملية» له.

تحوّلات: ولكنه فعلاً كلام نظري وإن يكن كلاماً جميلاً عالياً.

على افتراض أنك على حق، فما الخطل في الكلام النظري؟ ألا نعتمد النظريات لبناء العلوم التطبيقية والاجتماعية؟ ولكن هذا الكلام ليس نظرياً على الاطلاق. لناخذ الفقرة الاولى من نظرة سعادته «حياة أجود» ولنسأل، كيف نعمل لتحسين جودة الحياة؟ في رأيي يبدأ تحسين الحياة انطلاقاً من إزالة الخوف من اثنين وكل ما ينبع منهما: الفقر والاضطهاد. كيف عالج سعادته هذين الموضوعين؟ عالج سعادته موضوع الفقر عبر المبدأ الإصلاحي الرابع: إلغاء الاقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الانتاج وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة. وأردف ذلك في احد شروحه بالقول: «نحن حركة توزيع غنى لا توزيع فقر.»

الخوف من الاضطهاد يأخذ بعداً أكبر بكثير خاصة في هذه الايام حيث نرى عمليات الإبادة الجماعية في بلادنا على أساس ديني ومذهبي، سواء أكان ذلك من قوى خارجية مثل إسرائيل وأمريكا في فلسطين والعراق، أو داخلية كما يحدث اليوم في الشام. الاضطهاد الخارجي وضع له سعادته مبدأ لردعه هو المبدأ الإصلاحى الخامس: «إعداد جيش قوى يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن.» اما الاضطهاد الداخلى فوضع له أكثر من مبدأ بعضها يدخل في صلب العقيدة كالمبدأ الأساسى السادس: الأمة السورية مجتمع واحد، والمبادئ الإصلاحية الثلاثة الأولى: فصل الدين عن الدولة، ومنع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين، وإزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب على التوالي.

من هذه المبادئ يقول سعادته، «تنبع السياسات»، وهنا تكمن قيمتها العملية. فالسياسات يجب أن تنبع من مبادئ راسخة في العلم، علم الاجتماع في هذه الحالة، ومصصلحة الأمة العليا. المشكلة حين يأتيك من يعتبر نفسه من كبار المثقفين في الحزب، ومن تحمّل مسؤوليات عليا فيه، فيرى أن هذه المبادئ ليست سوى «كلاماً عقائدياً لا قيمة عملية له»!

سايكس - بيكو

بين النزعة الفرديّة والإرادات الأجنبيّة

2016-4-24

ورقة عمل كان من المفترض أن تُلقى في مؤتمر أعدت له «مؤسسة سعادته للثقافة» في أيار 2016. لكن المؤتمر ألغي، فتم نشر بعض الأبحاث في عدد خاص من مجلة «إتجاه».

سوف أدخل في صلب الموضوع بدون مقدمات. ثمة سؤال لا ينفك يطرق باب العقل منذ زمن بعيد: إذا كنا نحن السوريين نعرف أن معاهدة سايكس - بيكو كانت السبب الرئيس وراء العديد من المآسي التي رافقتنا منذ وضعها قيد التنفيذ حتى اليوم، فلماذا لا نمزقها؟ في هذا البحث، سوف نركز على عامل ضعف داخلي نعتقد أنه من أهم عوامل تمكين الإيرادات الأجنبيّة ليس فقط من تقسيم بلادنا وتفتيتها، بل في الإبقاء على معاهدة سايكس - بيكو حيّة ترزق في أشكال تُستحدث، لا تقل خطراً عن تلك الأصلية. أما عامل التمكين الذي نتكلم عنه فقد أطلق أنطون سعادته عليه اسم «النزعة الفرديّة».

الفساد

في كتابه «قبل وبعد»، والذي نُشر أول مرّة سنة 1953، يقول إسكندر رياشي نقيب الصحافة اللبنانية الأسبق:

«إننا لا نكون مبالغين ولا مختلقين إذا قلنا إن أهالي هذه البلاد ألقوا دروساً على الأتراك في فن الرشوة والارتشاء والاستثمار... ولكن ما بالغ فيه أهالي هذه البلاد

بالأكثريّة أثناء الحربين الكبيرتين هو أن العدد الأكبر من مئات الحِسان، كُنَّ يصلن إلى أسرة الأسياد الحاكمين الأتراك، ومن بعدهم الفرنسيين والإنجليز والأستراليّة، عن طريق الحنان الأبوي والبركة الأبويّة.»⁽²⁾

أهمية رياشي، بالنسبة لاتفاقية سايكس - بيكو ولانتداب الفرنسي، أنه كان، وباعترافه، أحد عملاء الفرنسيين المكلفين رشوة الناس لكي يؤيدوا الانتداب الفرنسي على قسم من سورية الطبيعية، والذي رصد الفرنسيون له مبلغ خمسة ونصف مليون ذهبية مصرية⁽³⁾، أي ما قيمته حوالي 350 مليون جنيه استرليني بعملة اليوم.

يحاول رياشي عبثاً أن يجد العذر لمواطنيه فيقول: «وجاءت هذه السوق» - سوق بيع الضمائر - «في أعقاب الحرب الكبرى، الناس في لبنان خارجون منها جياً عراة، يفتشون عن اللقمة فلا يجدونها، ففقدوا بعض توازنهم لما رأوا الفلوس ترمى أمامهم من الشبابيك.»⁽⁴⁾

نقول عبثاً، لأن رياشي يقدّم أحد كتبه بالقول: «للسذج المخدوعين، للناس الملاح الذين لا يزالون يعتقدون أن في لبنان زعماء سياسة، يحسبون الاستغلال جريمة والنزاهة فضيلة في بلاد كانت - على مدى الأجيال - تحسبُ القاتل بطلاً، والمتلاعب نابغة، والذي يمكنه أن ينهب ويسلب ولا يفعل «أهبل.»⁽⁵⁾

لا لم يكن رياشي أهبلاً. فنحن لا نرى في وصفه لنفسه ولمن عاصره من سياسيين وعملاء أي توبيخ للضمير حين كانوا يسهلون للأجنبي احتلال بلادهم، ويسخفون كل فكرة وطنية، ويضطهدون أصحابها. لا، فحياته وحياتهم، كانت كلها صفقات، وعمولات، وصخباً، ومجوناً، وحفلات رومانية وحسان... ولا ننسى النكيات.

نحن نرفض عزو رياشي الفساد إلى الجوع بعد الحرب العالمية الأولى. فالطبقة السياسية التي يصفها لم تكن جائعةً لا قبل الحرب ولا إبّانها ولا بعدها. لقد انتقلت، حسب وصفه، من الحزن التركي إلى حزن كل طامع محتل. وها هم أحفاد تلك الطبقة يفعلون الشيء نفسه مع الطامعين الجدد.

في الواقع أن رياشي نفسه يؤكد كلامنا، ويناقض كلامه عن «الجائعين العراة»، إنه يقول: «كان أكثر الذين أخذوا المال من الفرنسيين، بعد الاحتلال، ثمن الانتداب، من الزعماء الميسورين...»

(2) اسكندر رياشي، قبل وبعد رؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 37

(3) المصدر نفسه، ص. 22

(4) المصدر نفسه، ص. 403

(5) المصدر نفسه ص. 12

وأى منهم لم نشاهده في مطلع الاحتلال عند الكابتن 'دام' بالمفوضية أو عند الكولونيل 'نيجر' و'المسيو مرسيه' في السراي الكبير، يقدم خدماته ويعرض خضوعه».⁽⁶⁾

لا، لا يجوز الخلط بين الشعب الفقير المغلوب على أمره، وطبقة الفساد التي تستغله. فحالة الشعب، كما وصفها سعادته سنة 1937 لم تكن قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه سنة 1919 ولا تزال هي نفسها اليوم:

«نام الشعب عن تعهد شؤون حياته ومصالحه، فتعهد لها ذوو المصلحة في ذلك واستعباده. سكت أفرادها عن حقوقهم في الدولة وشؤونها، فاهتممتها جماعة تدعي أنها منه وليست منه. وتحولت الجماعة النفعية إلى طبقة حاكمة، وأنزل الشعب منزلة الطبقة المحكومة ولا رأي له في مصيره، بل الرأي رأي فئة جشعة طامعة، والإرادة إرادة نفر اتفقوا على أن يعيشوا على خراب الشعب وأن يتلذذوا بآلامه».⁽⁷⁾

ولكن ما هو منبت هذا الفساد وهل له من علاج؟ وهذا ما يعيدنا إلى النزعة الفردية.

النزعة الفردية

يطلق سعادته اسم «النزعة الفردية»⁽⁸⁾ على الحالة العامة التي يصفها رياشي، ويقول إنها «آفة متفشية... ومن أهم مواضيع حياتنا الاجتماعية والسياسية». فما هي هذه الآفة وما هي أسبابها وعوارضها وأخطارها؟

«النزعة الفردية تجعل الفرد وميوله غاية كل فكرة، ونهاية كل عمل، ومتى قويت هذه النزعة في الأفراد، خصوصاً الأفراد الصالحين للفكر والعمل، وتملكت من نفوسهم، صارت العدو الأول لكل غاية مجتمعية، والعقبة الكأداء التي تعترض نشوء النظام الاجتماعي العام. فطبيعتها مخالفة لطبيعة الاجتماع، لأنها ترمي إلى جعل السيادة في الفرد نفسه وليس في المجتمع ونظامه».

يحدّد سعادته أسباب النزعة الفردية كما يلي:

1. إنحلال نظامنا الاجتماعي السياسي وانحطاط مستوى ثقافتنا وتهذيبنا.
2. النمو في بيئة من الفوضى حيث لا نظام ولا مسؤوليات.

(6) رياشي، ص. 24

(7) سعادته، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 49-42، من «بيان إلى الشعب»، بعد أحداث بكفيا، سنة 1937.

(8) كل ما يرد عن النزعة الفردية مصدره صحيفة الزوبعة ومقالي «النزعة الفردية في شعبنا»، و«عودة على النزعة

الفردية في شعبنا» في كل من شهري حزيران وآب سنة 1942

أما مظاهرها فهي التالية:

1. عدم الشعور بالمسؤولية، والاجتماعُ على اللامبالاة والإهمال.
2. الطموحُ بغير استحقاق وصولاً إلى الغرور.
3. الحدّة، والاستهزاء، والاستخفاف بآراء الآخرين والتهكم عليها.
4. الازدراء بالاختصاص أو العلم أو الخبرة.
5. حسابانُ الكرامة الخاصة فوق كل الكرامات تلك. لا سيما فيما يتعلق بالشرف أو العرض العائليين.
6. النحوُ نحواً خاصاً للحياة لدى كل فرد من أفراد العائلة.
7. فقدان الشعور بمفهوم العمل العام أو التفكير بالمسائل المشتركة، ما خلا المسائل التجارية العائلية.

ما هي نتائج النزعة الفرديّة؟

1. التصادم الفردي
 2. انعدام الثقة المتبادلة والثقة بالرؤساء.
 3. محاربة كل غاية مجتمعية.
 4. تفكيك وهدم كيان الجماعة.
- رب سائل، كيف يمكن التوفيق بين قول سعادته «إن الشرف، والكرامة، والعرض الفرديين أو العائليين هما في طليعة اهتمام أصحاب النزعة الفرديّة»، والأوصاف التي يتناولها رياشي، وصراحته في وصف بيع الشرف والكرامة وحتى العرض العائلي «عن طريق الحنان الأبوي والبركة الأبوية؟»

الجواب هو ما نراه ونشده حولنا كل يوم من قبول بالانحلال في القيم، والأخلاق، وبيع الشرف والضمير، طالما هي «تحت الطاولة» بحيث يتساوى الجميع في قلة الشرف، فلا يعود للشرف الحقيقي من معنى.

تري، هل كان عبثاً قول سعادته، «لا يشعر بالعار من لا يعرف العار، ولا يعرف العار من لا يعرف الشرف، ويا لذل قوم لا يعرفون ما هو الشرف وما هو العار.»⁽⁹⁾

(9) «الزوبعة» العدد 20 في 4 أيلول 1944

سورية بين الإرادات الأجنبية والنزعة الفردية

إن موارد بلادنا، ناهيك عن موقعها الجغرافي الذي يتوسط ثلاث قارات، ويتحكم بواحدة من أهم عقد المواصلات وخطوط أنابيب الطاقة في العالم، تجعلها قبلة لكل طامع أجنبي. والطامع الأجنبي دائماً يحتاج إلى عميل داخلي يسهل له أموره.

المستعمر جبان. إنه لا يعتدي سوى على الضعيف ويفضل تجنّب القتال. إنه لا يريد جث جنوده عائدة إلى بلاده في صناديق خشبية. إنه يفضل أن يشتري استعمارها بالمال الذي يُعوّضه من خيرات البلاد المستعمرة. هذا ما تؤكده وثائق بعض من حضروا مفاوضات مؤتمر الصلح في باريس مثل إبراهيم متري رحباني الذي يصف كم كان كليمنصو حريصاً على شراء موافقة الأمير فيصل على الانتداب بالمال. وكيف كان لويد جورج يشجع فيصل قائلاً له إنه - أي كليمنصو - «رجل يمكن التفاهم معه».⁽¹⁰⁾ وهو ما يؤكده رياشي أيضاً، حين يخبرنا في مذكراته⁽¹¹⁾ عن جهود اللحظة الأخيرة التي بذلها الفرنسيون - قبل معركة ميسلون - والمبالغ الطائلة التي وضعوها بتصرف نوري السعيد وفيصل ليقبلا بالانتداب.

قلنا إن المستعمر جبان. لقد انهزم الفرنسيون أمام الأتراك بقيادة أتاتورك، الذي رفض اتفاقية «سيفر» وشروط الحلفاء المنتصرين، وأعاد احتلال جميع الأراضي السورية الممتدة من أورفة إلى مرسين التي كانت تابعة للقسم الفرنسي من اتفاقية سايكس - بيكو، بعد معارك ضارية ومجازر مرعبة ارتكبتها الأتراك بحق الأرمن والسوريين.

لقد عرّجنا على هذه اللوحة التاريخية للعبرة ليس أكثر. فالأمير فيصل الذي رفض المال الفرنسي قَبْلَ ميسلون، عاد وقَبِلَ عرشاً إنجليزياً على العراق بعدها، وكفى الملوّك شر القتال.

إن الصفات التي وضعها سعادته أعلاه للنزعة الفردية، هي المواصفات التي يطلبها الأجنبي في عملائه. وهذه هي نقطة التقاطع بين الاثنين؛ هنا عرض وهناك طلب. احتلال يستجلب استبداداً على أكثرية الشعب وثروات هائلة لأقلية منه. الإرادات الأجنبية تريد شريكاً محلياً مضارباً يبحث عن محتل خارجي مغامر. ونظرة سريعة على الذين حكموا لبنان في فترة الانتداب تُرينا أن معظمهم كان عاملاً للفرنسيين في فرنسا أو في الولايات المتحدة الأمريكية إبّان الحرب العالمية الأولى، أو كان خريجاً من أحد معاهدهم.

(10) Rihbany, Abraham Mitri, Wise Men from the East and from the West, Andrew Melrose Ltd., 1922, Chapter titled: East at Paris Conference.

(11) رياشي، فصل بعنوان «نوري السعيد بين الثلج والذهب»، ص. 431

النزعة الفرديّة والمؤسسات التربوية الطائفية

ما ينطبق من النزعة الفرديّة على الأفراد ينطبق أيضًا على كل الشخصيات الفرعية في المجتمع من عشائر، وعائلات، وأديان، وطوائف، ومذاهب. فإذا أخذنا عبارة سعادته أعلاه «النزعة الفرديّة تجعل الفرد وميوله غاية كل فكرة ونهاية كل عمل...» واستبدلنا كلمة «الفرد» بأي من الشخصيات تلك، رأينا حجم الخطر على سلامة المجتمع ورفي الحياة فيه. بل إن النزعة الفرديّة على مستوى الدين والمذهب أخطرُ بكثير منها على مستوى الأفراد. إنها لا تكتفي بأن تكون «غاية كل فكرة ونهاية كل عمل»، إنها تعطي شرعية «إلهية» للتعصب، والحقد، والقتل. فيصبح الله إلهنا وحدنا يساعدنا في محق أعدائنا الكافرين حكمًا، ويسدد رمينا فنقول: «وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى.»

ولا نحتاج إلى كثير عناء لنذكر الدور الخطير الذي تلعبه المؤسسات التربوية الدينية في بلادنا في تقوية النزعة الفرديّة وإعطائها بعدًا مقدسًا يصب في تأمين مصالح هذه الدولة الأجنبية أو تلك. فمعظم المدارس الدينية في بلادنا مرتبطٌ بدول أجنبية تؤمن المال والمناهج والمدرسين، وتلعب دورًا مزدوجًا خطيرًا: إنها أولًا تعلم الطلاب من أبناء طائفتها أنهم وحدهم أبناء الله، أما الباقيون فإلى النار. أما الدور الثاني، فهو ملء مراكز الدولة بالطلبة المتميزين في ولائهم لطائفتهم. يقول رياشي:

«وفي عهد ترابو بدأت دولة السكرتيرية. السكرتيرية اللبنانيون عند الحكام والمستشارين الفرنسيين... كان تسعون بالمائة من السكرتيرية تلامذة الجزويت، والعاشرين، ومدارس الفريز، وساعد الرهبان الفرنسيون هؤلاء في توظيفهم في مكاتب الحكام والمستشارين، عندما كانوا - اي الرهبان - أصحاب الكلمة النافذة عند مواطنيهم المحتلين.»⁽¹²⁾

واضح من كل ما تقدم أن أحد أسباب خضوعنا لاتفاقية سايكس - بيكو هو هذا التشابك بين النزعة الفرديّة وتلك المذهبية، وتقاطعهما مع الإيرادات الأجنبية المتنافسة علينا. لقد تزامنت الدعاوات الدينية علينا في الأربعينيات، من بابوية تدعو إلى قراءة التوراة «بتقديس»، إلى أخرى تدعو لخلافة مصرية، وثالثة لـ «إصلاح وهّابي» ما دفع سعادته إلى التحذير قائلا:

«كثير من السوريين المسيحيين الذين قرأوا والذين سيقرأون التوراة اليهودية بتقديس، لن يجدوا نكيرًا في محاولة اليهود الجديدة للاستيلاء على ديارهم وأموالهم،

(12) رياشي، ص. 281

بل يقبلون ذلك بتسليم كليّ «لأحكام الله ومشيئته». وكثيرٌ من محمديهم يغتبطون بدعوة الخلافة المصريّة التي تطمح إلى جعل السوريين من أتباع سيادتها لأنهم يرون في تحقيق الأغراض السياسيّة المصريّة الخفية «تعزيزاً» للمحمديّة. وكثير منهم يرحبون بالدعاوى العربيّة الوهابيّة الراميّة إلى إلحاقهم بسيادتها ويرون فيها «إعادة مجد العرب وإصلاح الإسلام». وهل يبقى مجال ضمن هذه الدعوات الغريبة لدعوة سورية قومية اجتماعية ترمي إلى إيجاد سيادة سورية وتنفيذ إرادة سورية وتحقيق نظام سوري؟⁽¹³⁾

ما أشبه الأمس باليوم!

الداء والدواء

من كل ما تقدم نستنتج أن النزعة الفرديّة هي القاعدة العامّة التي يقوم عليها البنيان الأخلاقي العام في المجتمع السوري اليوم. ورب معترض يقول إنها تمثل اللاأخلاق. في الواقع أن كلمة أخلاق، قاموسياً، وهي جمع «خلق» تعني: «مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان»⁽¹⁴⁾. أما الأخلاق الاجتماعيّة فتعني: «عادات أو قيم اجتماعية تختلف باختلاف الظروف». إذن: ليس لكلمة أخلاق بحد ذاتها ما يفيد قيماً (من القيمة) بل إنها تحتاج إلى صفة تعطيها معنى مفيداً، فنتكلم مثلا عن سمو الأخلاق أو انحطاطها، وسمو العادات والقيم الاجتماعيّة أو انحطاطها في هذا الظرف. ولكن حتى هذا الوصف المطلق لا يفيدنا كثيراً، بل إنه يدفعنا إلى السؤال التالي: سمو الأخلاق أو انحطاطها عمّاداً؟ وفي أي ظرف؟

بكلامٍ آخر، إذا كان «الفرد وميوله غاية كل فكرة ونهاية كل عمل»، يصبح أبطال إسكندر رياشي في كتبه هم نماذج في «سمو الأخلاق». إنهم يشكّلون عقلية أخلاقية منحطة - كانت ولم تزل قدوة لأجيال من السياسيين - بغض النظر عن نتائجها المدمرة.

من جهة ثانية، ولاستكمال الصورة، فإن جميع مؤسسات الدولة، أية دولة، تنبثق من عقلية مجتمعيها الأخلاقية أو نفسيته السائدة. فلا عجب إذًا أن تكون معظم المؤسسات في بلادنا على صورة ومثال سياسيينا وعاكسة للنزعة الفرديّة والنزعات المذهبية والطائفية المتوحشة في صراعاتها وتنافسها على الاستبداد واستباحة حقوق الناس.

إن هذه النزعات قد كلفتنا أجزاء مهمة من وطننا، وملايين الضحايا، وخسائر ماليّة تقدر

(13) الزوبعة» العدد 20 في 4 أيلول 1944

(14) معجم المعاني

بمئات مليارات الدولارات، وتدميرًا لبيئتنا ول مستقبل أجيالنا القادمة. لقد أوصلتنا إلى عكس نظرة سعادته القائلة «بِحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.»

وإذا كان خطر هذه الآفة بهذا الحجم فهل يمكن علاجها؟ سعادته يجب بنعم.

«قد يخطر في بال بعض المتأملين غير المتعمقين أن هذه الظاهرة جزء من طبيعة شعبنا لا يتغير ولا يتبدل، وكثيرون بنوا على هذا الاستنتاج تشاؤمهم ويأسهم من قيامة قائمة شعبنا، ولذلك لم يقبلوا ولم يلبوا الدعوة القومية الاجتماعية. ولكن الحقيقة ليست كما يتوهمون. فهذه الظاهرة هي نتيجة انحلال نظامنا الاجتماعي السياسي وانحطاط مستوى ثقافتنا وتهذيبننا.

إن هذه الظاهرة ليست طبيعة في السوري وإن تكن متفشية في أبناء الجيل الحاضر... إنها مرض طارئ يجب التغلب عليه. وطريق الشفاء هي الطريق عينها لجميع الأمراض: الاعتراف بوجود المرض وقبول العلاج حلوًا كان أو مرًا... يجب على القوميين الاجتماعيين أن يكافحوا النزعة الفردية مكافحتهم الاحتلال الأجنبي.»

العقلية الأخلاقية الجديدة

يصف سعادته غاية حزبه في المحاضرة العاشرة بأنها تنطوي على «تأسيس عقلية أخلاقية جديدة ووضع أساس مناقبي جديد.» هو إذن يرمي إلى الخلاص من عقلية أخلاقية قديمة وصفناها أعلاه، ووصفنا أخطارها، ولكننا سوف نضيف وصفا آخر ذكره سعادته في خطاب الأول من آذار سنة 1938. إنه يقول:

«النفسيّة العامة في الأمّة، نفسيّة خوفٍ، وجبنٍ، وتهيبٍ، وتهربٍ، وترجرجٍ في المناقب والأخلاق. ومن صفات هذه النفسيّة العامة الخداعُ، والكذبُ، والرياءُ، والهزءُ، والاحتيالُ، والنميمةُ، والوشايةُ، والخيانةُ وبلوغُ الأغراض الأنايية، ولو كان عن طريق الضرر بالقرب وعضو المجتمع.»

إنه أروع وصف لأقبح نزعة!

إذا كانت النزعة الفردية هي أساس العقلية الأخلاقية القديمة، فما هي مقومات العقلية الأخلاقية الجديدة التي يريد سعادته تأسيسها؟ إنها مجموعة من المقومات أهمها: الوجدان القومي والمحبة والصدق والنظام القومي الاجتماعي. وسوف نحاول أن نختصر في شرح كل من هذه المفاهيم كختام لبحتنا هذا.

الوجدان القومي

«إنَّ الوجدان القوميّ - أي الشعور بشخصية الجماعة - هو أعظم ظاهرة اجتماعية في عصرنا، وهي الظاهرة التي يصطبغ بها هذا العصر على هذه الدرجة العالية من التمدن. ولقد كان ظهور شخصية الفرد حادثاً عظيماً في ارتقاء النفسية البشرية وتطور الاجتماع الإنسانيّ. أمّا ظهور شخصية الجماعة، فأعظم حوادث التطور البشريّ شأنًا، وأبعدها نتيجة، وأكثرها دقة ولطافة، وأشدّها تعقّدًا، إذ أن هذه الشخصية مركّب اجتماعي - اقتصاديّ - نفسيّ يتطلّب من الفرد أن يضيف إلى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته، أمته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه، وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسية متّحدة الاجتماعيّ، وأن يربط مصالحه بمصالح قومه، وأن يشعر مع ابن مجتمعه، ويهتمّ به ويودّ خيره، كما يودّ الخير لنفسه.»⁽¹⁵⁾

من هذه العبارة نستنتج أمرين مهمين. فمن القسم الأول منها نفهم أنه لظهور شخصية الجماعة، لا بد وأن تكون قد ظهرت شخصية الفرد. وهذا يعني الفرد المتحرر والقادر على التمييز العاقل، واتخاذ القرارات المناسبة كما يُملي عليه عقله ووجدانه.

أما القسم الثاني من العبارة، والذي يتعلق بالمسار الإلزامي للشعور بشخصية الجماعة، أي كيفية تكوّن الوجدان القومي، فإن سعادته يصف هذه العملية الدقيقة واللطيفة والمعقدة بخمسة أفعال هي: «أن يضيف»، و«أن يزيد»، و«أن يجمع» و«أن يربط» و«أن يشعر». لا تنفي هذه العبارات الشخصية الفردية، بل تنطلق منها لتبني عليها وتخلق منها إنساناً جديداً يتميز عن سواه بوضع مصلحة مجتمعه فوق أية مصلحة أخرى مهما كانت المغريات كبيرة أو التهديدات جسيمة.

ولكن من هي الجماعة؟

ألا يشعر ابن طائفة ما، أو قطر سياسي كلبنان، أو العراق مثلاً، أو المنتمي إلى مذهب معين، أو عشيرة، أو عائلة، أو عنصر أن «جماعته» أو «قومه» هم أبناء هذه الطائفة، أو القطر، أو المذهب، أو العنصر؟ وأنه إذ يضع الأفعال الخمسة المذكورة أعلاه، من إضافة وزيادة وجمع وربط وشعور، موضع الفعل فيما يخص هذه الجماعة، إنما يقوم بواجبه القومي حيالها؟ ألم

(15) سعادته، أنطون، مقدمة نشوء الأمم.

يُضحى عشرات الآلاف من السوريين بأنفسهم في حروب طائفية ومذهبية في العقود القليلة الماضية دفاعاً عن هذه «القومية المذهبية أو الطائفية أو السياسية؟» الجواب بلى. وهذا يقودنا إلى موضوع الهوية في فكر سعادته.

«الأمة هي أتمّ متحد.» و«الأمة هي جماعة من البشر تحيا حياةً موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية - المادية في قطر يكسبها تفاعلها معه، في مجرى التطور، خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات. أما القومية فهي يقظة الأمة وتنبهها لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميزاتها ولوحدة مصيرها... إنها الروحية الواحدة أو الشعور الواحد المنبثق من الأمة. ليست القومية مجرد عصبية هوجاء أو نكرة متولدة من اعتقادات أولية أو دينية. إنها ليست نوعاً من الطوطمية، أو نكرة دموية سلافية، بل شعور خفي صادق، وعواطف حيّة، وحنو وثيق على الحياة التي عهدتها الإنسان. إنها عوامل نفسية منبثقة من روابط الحياة الاجتماعية الموروثة والمعهودة، قد تغطي عليها، في ضعف تنبها زعازع الدعاوات والاعتقادات السياسية، ولكنها لا تلبث أن تستيقظ في سكون الليل، وساعات التأمل والنجوى أو في خطرات الإنسان في برّية وطنه، أو متى تذكر برّية وطنه.»⁽¹⁶⁾

الوجدان القومي إذن هو الركيزة الأساس في بناء العقلية الأخلاقية الجديدة.

الإيمان الاجتماعي الجديد

في قصة «فاجعة حب» يتكلم سعادته على لسان الموسيقي «سليم» عن «إيمان اجتماعي». فعلام يقوم هذا الإيمان الاجتماعي وما هي نتيجته؟ يقول:

«... كان يرى الفورة السياسية أمراً تافهاً إذا لم تكن مرتكزة على نفسية متينة يثبتها في قلب كل فرد، سواء أكان رجلاً أم امرأة، شاباً أم شابة، أدب حي وفن موسيقي يوحد العواطف ويجمعها حول مطلب أعلى حتى تصبح ولها إيمان اجتماعي واحد قائم على المحبة، المحبة التي إذا وجدت في نفوس شعب بكامله أوجدت في وسطه تعاوناً خالصاً، وتعاطفاً جميلاً يملأ الحياة آمالاً ونشاطاً...»

ولا تقتصر المحبة التي يتكلم عنها سعادته على حياة المجتمع السوري فقط. إنها محبة إنسانية شاملة. فسعادته يقول: «إن في الحياة السورية مثلاً أعلى، هو العمل للخير العام في

(16) راجع نشوء الأمم، فصل الإثم الكنعاني

ظل السلام والحرية.»⁽¹⁷⁾ بل إن نظرة سعادته إلى الحياة، والتي يقول إن حزبه تأسس بسببها، منطلقها المحبة وطلب الرقي والخير الإنسانيين: «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.»⁽¹⁸⁾

الصدق

إضافة إلى الوصف الذي يقدمه لنا سعادته عن الكذب والرياء والذي اقتطعناه من خطاب سنة 1938، يعود سعادته إلى طرق الموضوع نفسه في المحاضرة العاشرة سنة 1948 فيقول بأسى: «مفقود من بيننا التصارح الفكري الخالي من السياسة، مفقود من بيننا الشعور بأنه يجب حين يخاطب واحد منا الآخر أن يضع السياسة في خزانة ويقفل عليها بالمفتاح، لأنه حين نبتدئ نخاطب بعضنا بعضًا بالسياسة فقد قطعنا من بيننا الروابط القومية الصحيحة.

بدون الوصول إلى حياة من هذا النوع يظل واحدنا لا يدري، أليس يسمع من مواطن يجالسه عبارات ثناء ومديح أو إطراء؟ هل هذا المديح صريح، ومخلص، صادر عن الوجدان بأن هذه هي الحقيقة؟ يظل الواحد يخاف من جاره، يخشى أن يكون متلاعبًا بضميره، بشعوره، بمهارته الدبلوماسية السياسية.»

التصارح القومي والصدق في القول والعمل إذن هو العامل الثالث في بنیان العقلية الأخلاقية الجديدة.

النظام القومي الاجتماعي

ربما يستغرب بعض نفرٍ إدراج نظام الحزب السوري القومي الاجتماعي كعامل من عوامل العقلية الأخلاقية الجديدة، ولكن سعادته نفسه اعتبر هذا النظام من «الأدوية المرّة» التي لا غنى عنها لمحاربة النزعة الفرديّة. كيف؟

في مقال النزعة الفرديّة في شعبنا يقول سعادته:

«والمصّح الوحيد لهذا المرض، كما لغيره من أمراضنا الاجتماعية، هو نظام الحزب السوري القومي الاجتماعي. والمقبلون على هذا النظام يجب أن يضعوا نصب أعينهم

(17) من محاضرة العروة الوثقى، الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، ص. 336

(18) سعادته، أنطون، الصراع الفكري في الأدب السوري، بيروت، 1978، ص. 72

وجوب وضع جميع قواهم تحت تصرف الإدارة العليا لمكافحة هذا الوبيل في نفوسهم كما في نفوس رفقائهم.»

أما في المقال الثاني «عودة على النزعة الفرديّة في شعبنا»، فإنه يتوسع في شرح مفهوم النظام وعلاقته بالفرد والمجموع في شكل عام وخارج إطار الحزب السوري القومي الاجتماعي فيقول:

«النزعة الفرديّة تجعل الفرد وميوله غاية كل فكرة ونهاية كل عمل. ومتى قويت هذه النزعة في الأفراد، خصوصاً الأفراد الصالحين للفكر والعمل، وتملّكت من نفوسهم صارت العدو الأول لكل غاية مجتمعية والعقبة الكأداء التي تعترض نشوء النظام الاجتماعي العام. فطبيعتها مخالفة لطبيعة الاجتماع، لأنها ترمي إلى جعل السيادة في الفرد نفسه وليس في المجتمع ونظامه. ولما كان الأفراد غير موجودين إلا في الجماعة، كانت النزعة الفرديّة، التي تعدّ الفرد كل شيء في العالم، أكبر عامل تفكك وهدم لكيان الجماعة، الذي هو الكيان الإنساني الحقيقي منذ ظهر الإنسان على مسرح الطبيعة. ذلك لأن كيان الجماعة لا يقوم إلا بخضوع أفرادها طوعاً أو كرهاً، لكيانها ونظامها، لا فرق بين أن يكون هذا النظام جيداً أو رديئاً. وإنما نلاحظ هذه الحقيقة من درسنا تاريخ التطور الإنساني وتواريخ أنظمة الجماعات والدول منذ أقدم الأزمنة التاريخية إلى اليوم. والأنظمة يصير تطورها وارتقاؤها ضمن دائرة الاعتراف بالنظام وتقديم حق الجماعة على حقوق الأفراد. فنظام الجماعة يتطور ولا يلغى، ويقوم على إرادة الجماعة حسب اختيارها أو قبولها وليس على إرادة الفرد.»

إذا كان الوجدان القومي الجديد يقوم على شخصية الجماعة، والمحبة هي المحبة الاجتماعية، والصدق هو قوام العلاقات في المجتمع، فإنه لأمر طبيعي أن يكون النظام هو النظام الجديد الذي يجد قوّته في «المبدأ الذي وراءه والهدف الذي أمامه»⁽¹⁹⁾. «إنه النظام الذي يقوم على قواعد حيوية تأخذ الأفراد إلى النظام وتفسح مجال التطور والنمو على حسب مواهبهم ومؤهلاتهم... إنه النظام الذي يرمي إلى صهر التقاليد المنافية لوحدة الأمة والمستمدة من الأنظمة الطائفية... إنه النظام الذي تتمركز فيه إرادة الأمة، فيضمن وحدتها ويمنع عوامل

القسمة.»⁽²⁰⁾

(19) من مقالة «النظام»، الأعمال الكاملة الجزء الثاني، ص. 241

(20) سعاده، الخطاب المنهاجي الأول

هل وصلنا إلى جواب عن السؤال الذي استهللنا به بحثنا: لماذا لا نمزق معاهدة سايكس - بيكو؟ طالما تقوم عقليتنا الأخلاقية كأفراد وكمجموع على النزعة الفردية وليس على الوجدان القومي، فإن مؤسساتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ستبقى قاصرة عن تحقيق طموحاتنا وسنبقى فريسة لتلك الإرادات.

ختام

إنه لمن المهم جداً أن ندرس تاريخ الاستعمار والإرادات الأجنبية التي طمعت بنا في الماضي وتطمع بنا اليوم. غير أنه لا غنى لنا عن دراسة القسم الآخر من معادلة الاستعمار: تلك النزعة الفردية التي بدونها تصبح كلفة الاستعمار شيئاً يفوق طاقة المستعمر. إننا كيفما نظرنا حولنا من فلسطين إلى العراق والشام فلبنان لا نجد سوى كم هائل من الدمار المادي والنفسي خلفته هذه النزعة القاتلة.

غير أنه من وسط هذا الدمار كله يشع بصيص أمل من وهج أولئك الذين يخوضون معركة الوجدان القومي إذ يواجه أخطبوط النزعات الفردية. إن الذين اشتروا تراب الوطن بدمائهم، من سعادته ومن سبقه، إلى شهداء الدفاع عن أرضنا القومية من مقاومة وجيش، وكل من قاتل بالكلمة لإعلاء صوت الحق، هم جميعاً الدليل الساطع على أن النزعة الفردية ليست طبيعة فينا نحن السوريين، بل شواذ استطال. إن نفسياتنا الخيرة الجميلة التي آمن بها سعادته هي القاعدة وهي التي نضارع في سبيل انتصارها.

الحزب السوري القومي الاجتماعي والحريات الفردية

2016-10-3

في مقال له بعنوان «حزب سعادته لا يقول بحريات فردية وفتوية، بل بحرية المجتمع والحقوق الفردية»، يكتب الرفيق يوسف المسمار ما نقله حرفياً:

قال سعادته: «إن لم تكونوا أحراراً من أمة حرة، فحريات الأمم عارٌ عليكم؛ الحرية تكون للمجتمع، للأمة. فإذا كانت الأمة حرة فكل أفرادها أحرار. وإذا كانت الأمة مستعبدة فكل أفرادها عبيد. والفرد الذي يريد أن يكون حرّاً بمعزل عن أمته ليس حرّاً مهما جدول وقدّم من الذرائع، والحجج، والتبريرات، والادعاءات، بل إن كل التبريرات ليست إلا حجة على كونه مستعبداً. نعم، أن للفرد حقوق، وهي حقوق مقدّسة ولا ينكرها إلا غشيم. ولكل فرد من أفراد الأمة أو كل عضو من أعضاء الحزب حقوقه التي تتفق أو تختلف عن حقوق الفرد أو العضو الآخر. فما اتفق من الحقوق فهي متساوية. وما اختلف منها فلكل فرد أو عضو حقه الخاص. وهذه الحقوق نشأت إما بحالة معدوديته في المجتمع، وإما بحالة انتمائه إلى منظمة أو حزب ولا يمكن أن يحرمه منها أحد. وإذا صح في حالة المجتمع الإثني أو القبلي أو الطائفي وجود حريات فردية فتوية إثنية، أو قبلية، أو طائفية، فإن مجتمع الجماعة الواعية المنظمة كالحزب السوري القومي الاجتماعي ليس فيه حريات فردية أو فتوية، بل حقوق فردية. والمجتمع الذي يقبل أن تكون فيه حريات فردية أو حريات فتوية هو مجتمع يحمل بذور تفككه وانهاره في داخله. ولذلك نفهم أن ليس في الحزب الذي أسسه سعادته موالاة ومعارضة، بل حقوق وواجبات وصلاحيات، وليس فيه أيضاً حرية فردية أو فتوية، بل فيه حرية

الأمة. الجماعة الواعية المنظمة وفيه الحقوق الفردية المرتبطة بالواجبات الفردية وهذا ما جعله عصياً على الأعداء في داخل مجتمعنا ومن خارجه رغم كل ما مرّ عليه من آلام وعذابات وجراح واضطهادات وتصفيات وملاحقات وسجون وتشريد وتهجير واغتيالات حتى ظهرت بدعة الانتفاضات والمعارضات ففتحت عليه جبهة جديدة إلى جانب جبهة العهد العتيق وعاداته وتقاليده البغيضة، وجبهة يهود الخارج، وجبهة يهود الداخل، فكانت الجبهة المستحدثة جبهة الفتويين في الحزب الذين يعتبرون أنفسهم أنبياء الإصلاح وملائكة الفهم والآلهة القديرة على إحياء كل رميم.»

ما يهمنا مناقشته من هذا المقطع الطويل هو العبارة التالية: وإذا صح في حالة المجتمع الإثني أو القبلي أو الطائفي وجود حريات فردية فثوية إثنية أو قبلية أو طائفية، فإن مجتمع الجماعة الواعية المنظمة كالحزب السوري القومي الاجتماعي ليس فيه حريات فردية أو فثوية، بل حقوق فردية.» وقد تعمدنا وضع المقطع بكامله كي تكون العبارة موضع البحث ضمن السياق.

لا نعرف إلام استند الرفيق يوسف في حكمه أعلاه. فليس في دستور الحزب شيء من هذا الحكم المبرم ولا عند سعادته. بل العكس، فإن سعادته في أكثر من مكان في كتاباته يركز تحديداً على الحريات الفردية. ولعل رسالته إلى غسان تويني تاريخ 7 نيسان 1946، وموضوعها فخري معلوف هي خير مثال. بالمختصر، رمى فخري معلوف الزعيم بتهمة «الإلحاد» بسبب بعض الآراء الواردة في كتاب «نشوء الأمم» وبسبب مناقشة أحد كتّاب مجلة «الزوبعة» علاقة الفاتيكان بالحركة الصهيونية، ما اعتبره معلوف هجوماً على رئيس الكنيسة الكاثوليكية المعصوم حسب رأيه.

تبدأ معالجة سعادته لموضوع الحريات الفردية في هذه الرسالة حين يقول في معرض حرية المعتقد، والمعتقد طبعاً هو المعتقد الفردي: «وأما قول فخري عن الزعيم إنه 'ملحد' فهو استنتاج أرعن، فضلاً عن أنه خيانة لمبدأ القومية الذي لا يجيز الطعن في أحد من أبناء الأمة الواحدة بسبب معتقده.» (الرسائل الجزء الثاني طبعة بيروت - نيسان 1979) ص. 579. ثم ينتقل ليقول بعد عدد من الصفحات ما يلي: «ومهما كانت أهمية القضايا الفلسفية أو الروحية التي يشفع بها انقلابه فلا مبرر لها مطلقاً من الوجهة الحقوقية والنظامية لأنه إذا صح أن انقلابه ناتج عن تولد عقيدة دينية قوية فيه فهو يعني أنه لا يريد أن يسلم بحرية الاعتقاد لغيره.» ص. 582.

ولا يكتفي سعادته بحرية المعتقد الفردي، بل إنه ينتقل إلى حرية الرأي - الفردي طبعًا، فيقول بعد أن يستعرض استبداد المعلوف برأيه و«عدم تسليمه بحرية الاعتقاد لغيره من بني قومه» ما يلي: «... ولكنه لا يقتصر في موقفه الجديد على ذلك فهو يخرق مبدأ المساواة في الحقوق وحرية الاعتقاد وحرية إبداء الرأي.»

بعد ذلك يعطي الزعيم لغسان تويني تعليمات محددة في كيفية التعامل مع معلوف، تتضمن ما يلي: ... لا يمكن الصداقة مع من يخون عقيدة أو جدت كيان الأمة في مجتمع صحيح موحدة الحياة والإرادة والمصير وضمنت لجميع أفراد المٌتّحد وأعضاء الدولة القومية الاجتماعية حرية الاعتقاد الخارج عن حد العقيدة القومية الاجتماعية وحرية الضمير والجهر بالمعتقدات المتعلقة بما وراء المادة...» ولكن أهم ما يرد في هذه الرسالة هو هذه العبارة التي يتضمنها البند «ب» من المادة رقم 6 والذي ينص على: «في كون حرية الرأي والاعتقاد مبدأ عامًا لا يمكن حرمان أحد منه إلا الذي يستخدمه لإفساد الأخلاق وإلقاء الشقاق وإثارة العداوات بين أبناء الأمة.»

نستنتج من هذا الكلام لسعادته أن حرية المعتقد والرأي والضمير الفردية، مضمونة ولا يمكن لأحد حرمانه منها إلا في حالات محددة.

ولكن حتى لو لم يكتب سعادته هذا الكلام، كيف يمكن لنا أن نفكر للحظة أنه يمكن للحزب السوري القومي الاجتماعي ألا يقول بحريات فردية! كيف يمكن لحزب أن يتصور أن المقبل للانتماء إليه بحريته الفردية - بمعنى أن شخصيته الفردية قد برزت واستقلت وأصبح هو سيد قراره - يمكن له أن يتخلى عن حريته الفردية هذه بمجرد الانتماء إلى الحزب. وكيف يمكن لشخص يقسم بشرفه وحقيقته ومعتقدده أن يتخلى عن حريته في اختيار معتقده (الخارج عن حد العقيدة القومية، بمعنى في أي شأن لا يتعلق بعقيدة الحزب خاصة في المسائل الماورائية). كيف يمكن لحزب، الحرية هي إحدى دعائمه، أن يمنع الحرية عن الرفقاء فيه! لا، أن هذا الكلام باطل وقد أبطله سعادته نفسه في رسالته إلى غسان تويني.

ثانيًا، إذا كان الحزب هو دولة الأمة، فهل يعقل أن يكون هناك دولة بلا حريات فردية من معتقد ورأي وضمير؟ طبعًا لا. هل يعقل أن تقوم دولة بدون حرية صحافة تكشف فساد الحكّام كائنًا من كانوا؟ هل يمكن أن نتخيل سعادته صامتًا أمام جهل البطريك عريضة وتدخله في شؤون الدولة، أم فساد النواب اللبنانيين إذ يعريهم في مقالاته «الأحزاب الببغائية»؟

إن المقصود من كل كلام الرفيق مسمار، كما يتّضح من نهاية الفقرة التي استشهدنا بها، هو

ربط الحرية قسرًا بالفئوية والفوضى، ليوظفها في الهجوم على المعارضة الحزبية وهذا ما لن ندخل فيه. لقد سبق لعدد من الرفقاء والأمناء أن ناقشوا مفهوم المعارضة وأهميته وضرورته خاصة في حالات الفساد والخروج العقائدي.

ليت الرفيق يوسف المسمار لم يستخدم نفي مبدأ الحرية الفردية عكازًا للهجوم على معارضي الفساد. فهو يعرف الفرق بين الاثنيين. كان يمكن له أن يقول إنه لا يرضى بفكرة المعارضة في الحزب، فيكون هذا رأيًا يقتنع به بعض ويناقشه بعض آخر ويرفضه آخرون. ولكن أن يحكم هذا الحكم المبرم على الحريات الفردية بالرغم من قول سعادته الواضح إن الحزب يضمها، فهذا ما نتمنى على الرفيق يوسف أن يعيد النظر به.

جمع القوى

2016-12-10

على القوى الحية المتبقية من السوريين القوميين الاجتماعيين أن تجد بعضها بعضًا، وأن تلتحم في كتلة مترابطة لمواجهة تحديات الواقع الحزبي الراهن. والواقع الحزبي الراهن هو ثلاثة مراكز انشاقية تتعاطى السياسة للسياسة، ويناكف بعضها بعضا، ويجمعها الجهل المطبق في أهمية نظرة الحزب إلى الحياة وغاياته، وأهمية وضع الخطط الحزبية والبرامج العملية لتحقيقهما. ويجمعها كذلك، وإن بنسب متفاوتة، الفساد والصنمية والانحراف.

وفي الوقت نفسه فإن «النخب الحزبية المثقفة» تتقول في أمور الحزب وكأنها لم تقرأ حرفًا من عقيدته، أو غاياته، أو نظريته إلى الحياة، وسوف نقدم أمثلة عما نقول. يتحفنا أمين في الحزب بالقول التالي: «الفكرة الرئيسية والغاية الثابتة من إنشاء الحزب هي توضيح هويتنا أي أننا سوريون إذن عرب عاربة...» لن نناقش موضوع العرب والعروبة عاربة كانت أم مستعربة. ولكن بودنا لقاء الضوء على القسم الأول من هذه العبارة. فهل صحيح أن غاية الحزب هي توضيح هويتنا؟ طبعًا لا. غاية الحزب - ونعيد ترتيبها لكي يسهل علينا رؤية المهام والنتائج المطلوبة منا وكيفية تحقيقها:

1. إعادة الحيوية والقوة إلى الأمة السورية عبر بعث نهضة تكفل تحقيق مبادئ الحزب؛
2. استقلال الأمة السورية استقلالًا تامًا عبر تنظيم حركة تكون هي حركة الشعب العامة؛
3. تأمين مصالح الأمة ورفع مستوى حياتها عبر إقامة نظام جديد ينطلق من عقيدة الحزب؛ والوجدان القومي والعقلية الأخلاقية الجديدة التي قال سعادته إن غايتها تنطوي عليها؛
4. السعي لإنشاء جبهة عربية عبر التفاوض مع باقي أمم العالم العربي.

إن اختصار غاية الحزب بتحديد الهوية أمر خطير، خاصة حين يخفي مآرباً عربياً وراءه. ألم يكن السوريون من فلسطين إلى مرسين يقولون عن أنفسهم إنهم سوريون لغاية 1920؟ بلى. ألا يقول معظمهم اليوم إنهم عرب؟ بلى. فإذا كانت الهوية هي الغاية فلماذا نغرق في بحر من دمائنا سواء قلنا إننا سوريون أم عرب؟ لا، تحديد هويتنا هو بداية الطريق لا منتهاها.

ويتحفنا رفيق آخر بمطولات مختصرها أننا في حزب لا حرية فردية فيه، لا حرية ضمير، أو معتقد، أو رأي، أو ملكية فكرية. هذا علماً أن سعادته قد أكد على جميع هذه الحريات، وعلماً أن أول دعائم الحزب هي الحرية، ويمر كلامه مرور الكرام.

ثم يتحفنا رفقاء بإعلاء لوحة كبيرة في لبنان تزينها الزوبعة، تقول إننا ناضل بالواجب والنظام والقوة لكي نحصل على الحرية!! هل يعني هذا أن السوريين القومييين الاجتماعيين الذين انتموا إلى الحزب بكامل حريتهم ليسوا أحراراً؟ من يدري. المهم أن الصورة انتشرت ولم يناقشها أحد.

وتنشر إحدى المديریات صورة للزعيم مع الإمام موسى الصدر، وينشر قوميون صور الزعيم مع الرئيس عون، وآخرون مع الرئيس الأسد. يا رفيقي، يا حبيبي ويا عيني، مع احترامنا لجميع الناس والقادة والرؤساء والمفكرين، فإن لنا نحن السوريين القومييين الاجتماعيين، الزعيم في حته، وكل الناس الآخرين في حته أخرى. هل ترى أيّاً من أتباع هؤلاء يضع صورة الزعيم مع أي من قادتهم؟ طبعاً لا. فلماذا هذا الانبطاح؟ ولماذا تجعل من الزعيم سلماً يتسلق عليه الآخرون؟ ثم تقرراً مسودة لورقة عمل داخلية، إذ بتعايرها لا علاقة لها من قريبٍ أو بعيد بنظرة الحزب، أو غايته، أو بأساسه الفكري والعقدي. ولا علاقة لها بنظام الفكر الذي ننتهجه. وتمر هذه الورقة على عشرات الرفقاء والأمناء فلا يطلق أحد منهم - سوى قلة قليلة - صفارات إنذار لا يابها الآخرون، ونتابع المسير.

بالطبع، لا لزوم لإعادة ما سبق لنا التعليق عليه عن الذي ينادي «يا عماء» لكل من تزوّج من أمه، ولا للذي يريد من زوجته ألا تنشر غسيل تعنيفه لها على السطح خوفاً من الفضيحة، ولا الذي يختار مصلحة الكنيسة على مصلحة الأطفال الذين يعتدي الكهنة عليهم فقد عالجنا كل ذلك في وقته. (أنظر الجزء الأول من هذه المجموعة)

إن هناك حالة من الجهل والتجهيل تكاد تُطبّق على الحزب بحيث تصبح الأوهام حقائق والأكاذيب وقائع والإشاعات صفات طبيعية تلتصق بالرفيق فلا يعود بالإمكان الخلاص منها.

إن معركتنا هي معركة الأخلاق والمعرفة، والاثنان لا ينفصلان. إن القوى الحية قد تراجعت

أمام ديكتاتورية المال والسياسة والأمن في الحزب. وعلى هذه القوى أن تنتفض انتفاضة أخيرة قبل أن يسدل ستار الجهل على هذا الحزب العظيم.
على هذه القوى أن تجد بعضها بعضًا، وأن تلتحم في كتلة مترابطة لإنقاذ الحزب، فإن اجتمعت فعلت.

القوى الحيّة

2016-12-14

في مقالنا السابق، «جَمْعُ القوى»، قلنا: «على القوى الحية المتبقية من السوريين القوميّين الاجتماعيّين أن تجد بعضها بعضًا، وأن تلتحم في كتلة متراصّة لمواجهة تحديات الواقع الحزبي الراهن». فماذا نقصد بالقوى الحيّة في الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ لعل أفضل وصف لما نقصده هو ما ورد في الخطاب التأسيسي في حزيران من سنة 1935:

«منذ الساعة التي عقدنا فيها القلوب والقبضات على الوقوف معًا والسقوط معًا في سبيل تحقيق المطلب الأعلى المعلن في مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي وفي غايته، وضعنا أيدينا على المحراث ووجهنا نظرنا إلى الأمام، إلى المثال الأعلى، وصرنا جماعة واحدة...»

كل كلمة في هذه العبارة مهمة وأساسية. ولكن بودنا التركيز على «المطلب الأعلى المعلن في مبادئ الحزب وغايته...» و«وضعنا أيدينا على المحراث ووجهنا نظرنا إلى الأمام، إلى المثال الأعلى»، فهذه العبارة تختصر شرطين ضروريين مفقودين من حياتنا الحزبية، أحدهما نفسي والآخر مادي، هما المثال الأعلى، والتركيز على تحقيقه.

والسؤال الذي نهرب من مواجهته هو التالي: هل نرى فعلاً في مبادئ وغاية الحزب السوري القومي الاجتماعي «مثلاً أعلى» لنا؟ إذا كان الجواب بالنفي، فلماذا نحن في هذا الحزب؟ وإذا كان بالإيجاب، فماذا نحن فاعلون لتحقيق هذا المثال الأعلى؟ والسؤال الذي يسبق هذين السؤالين، ولعلنا نخاف أيضاً من مواجهته هو: «هل يعيننا في شيء أن يكون لنا مثال أعلى؟» والمثال الأعلى هذا ليس شيئاً وهمياً أو مستحيلاً. كلا. إنه بسيط جداً ويتعلق بترقية حياتنا،

حياتك وحياتي، وحياء أولادك، وأولادي، والأحفاد. حياة مجتمعنا عامة. وترقية الحياة أمر يمكن قياسه، بل يجب قياسه باستمرار. والمؤسسات في الدول التي تحترم شعبها لها دور واحد فقط تُحاسب عليه هو مدى ترقيتها لحياة الناس في مجتمعاتها. الصحة العامة، والتعليم، ومستوى الدخل، والنظافة العامة، الحداثك والتحريج، والحريات الفردية والعامة، الازدحام والتلوث، كل هذه من الأمور القياسية التي تشكل حيز مسؤولية الدولة وقيادات الأحزاب والمنظمات والجمعيات الخيرية، وكلها تندرج تحت عنوان ترقية الحياة. إنها ترقية الحياة في المجتمع، إنها «مصلحة سورية فوق كل مصلحة».

لقد انطلق سعادته في تأسيسه الحزب من هذه النقطة تحديداً، ترقية الحياة. فوضع قاعدة وصفها بالذهبية هي «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى». ولم يكن استخدام أفعل التفضيل في الكلمات الوصفية الثلاث «أجود وأجمل وأعلى» عن عبث. فلو قال «لحياة جيدة في عالم جميل وقيمة عالية»، لوضع أحدهم مقياساً للجودة والجمال والعلو، وقال «وصلنا».

سعادته فعل العكس. لقد وَصَّعْنَا حِيَالَ تَحْدٍ مُتَجَدِّدٍ مَعَ كُلِّ إِنْجَازٍ نَحْقُقُهُ. «كلما بلغنا قمة...». مع سعادته لا يمكن لك أن «تخط المنجل» وتقول وصلت. فكلما بلغت مستوى من الجودة في الحياة، طلب منك جودة أكبر وكذلك الأمر مع الجمال ومع القيم.

لترقية الحياة، حياتنا، أنت وأنا والجيران وأبناء الحي والقرية والناحية، وضع سعادته غاية لنا موجزها أن نعيد الحيوية والقوة لسورية، ونحقق استقلالها وسيادتها، ونقيم نظاماً جديداً يؤمن مصالحنا، ونعمل لخلق جبهة عربية تتكاتف فيها نحن وأمم العالم العربي للدفاع عن مصالحنا المشتركة.

هذا فيما يتعلق بالشق النفسي من فهمنا لأهمية وخطورة أن تكون نظرتنا وغايتنا هما فعلاً مثالنا الأعلى، أي أؤمن ما عندنا، والشيء الذي في سبيله يرخص كل نفيس. وبالتالي، أن تنطلق جميع خططنا وسياساتنا وأعمالنا من هذا المثال الأعلى وفي سبيله.

ماذا عن وضع اليد على المحراث والنظر إلى الأمام. باختصار، المقصود هو التركيز على تحقيق المثال الأعلى. هو الشق المادي، هو أن نكون حركة الشعب العامة التي يثق بها الشعب ويمنحها قيادته. هو أن نكون القوة المنظمة، هو أن نعمل ليل نهار في سبيل الوصول إلى الشعب وتنظيمه وقيادته في معركة بناء قوته وتحقيق استقلاله وترقية حياته. هذا هو ما أقسمنا عليه.

وبعد، لفت نظري هذا الصباح تعليقان من رفيقين أحب وأحترم. الأول يقول: «... ما عدتم تشبهون أنفسكم». والثاني، جواباً على الأول يقول: «كان ممكن أن أعطي أكثر عندما كان عمري وطاقتي يسمحان لي ... واليوم أنا نادمة، ويخجلني هذا الشعور». لا يا رفيقي، لا يا رفيقتي. نحن نشبه أنفسنا كثيراً، ونكرر أنفسنا كثيراً، ونضع جهوداً جبارة، ولكن في المكان الخاطئ. إننا لا نُركّز على ما هو مطلوب منا، فلا نرى جدوى فيما نقوم به. إن تشطينا إلى ثلاثة تنظيمات، وجمود معظمنا، مرده إشاحتنا بوجهنا عن مثالنا الأعلى وتوجهنا إلى أمور كثيرة، حتى صحّ فينا القول، «مرتا مرثا أنت تهتمين بأمر كثيرة والمطلوب واحد».

المطلوب هو إعادة الشرطين الضروريين المفقودين من حياتنا الحزبية، المثال الأعلى والتركيز على تحقيقه.

لعلاقة استراتيجية بين سورية وروسيا الاتحادية

2017-7-27

هذا البحث هو الجزء الأكبر من ورقة عمل أرسلت في 6 كانون الثاني 2016، إلى مسؤول حزبي لكي تكون مدار بحث في لقاءات بينه وبين مسؤولين في الدولة الروسية. لا نعرف نتيجة تلك الاتصالات، ولكننا ننشر هذه المادة اليوم - مع تعديلات بسيطة - لراهنية الموضوع وللأهمية القصوى لسورية، عقدة العالم بدون منازع. للتوضيح، نستخدم كلمة سورية لتعني الأمة السورية كلها، ونستخدم الشام لندل على الجمهورية السورية.

تقع سورية في قلب منطقة تعج بالتحولات. وأبرز هذه التحولات نمو الدول الدينية والمذهبية والعنصرية، بدءاً من دولة اسرائيل اليهودية وصولاً إلى الإسلام السياسي وبرز أشكال مختلفة للدولة الدينية الإسلامية في إيران، والسعودية، وتركيا، ناهيك عن «تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش)، ولا ننسى مرور مصر المؤقت بدولة إخوانية لم تستمر طويلاً وإن تكن نارها كامنة تحت الرماد.

من جهة ثانية، ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي، اعتمد الغرب سياسة قضم وهضم تدريجي للدول التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفياتي، أو التي كانت تشكل جزءاً من منظومته العسكرية: «حلف وارسو» أو جمهوريات كانت تابعة له. وقد شهد هذا القضم نماذج مختلفة. فمن تفتيت يوغوسلافيا، وتقسيم تشيكوسلوفاكيا، إلى استقطاب اثنتي عشرة دولة من حلفاء روسيا السابقين إلى «حلف الناتو» الذي وصل إلى شواطئ البحر الأسود. بالإضافة إلى هذا، يعتمد الغرب إلى زعزعة استقرار أوكرانيا، وعدد من الجمهوريات الأصغر في جنوب وسط آسيا

مثل جورجيا. في كل هذا، كانت سياسة القضم والهضم تهدف إلى إضعاف روسيا الاتحادية وتقريب منظومة الناتو العسكرية من الحدود الأساسية لروسيا القومية.

تشكل تركيا في كل هذا تهديدًا مباشرًا لروسيا ومصالحها. فهي عضو في الناتو، وتتشارك مع روسيا في شواطئ البحر الأسود، ويمكنها مضايقة عبور السفن الروسية في مضيق البوسفور والدردينيل. كما أنها تستقطب مجموعات عرقية تركمانية متواجدة في روسيا نفسها، أو في عدد من الجمهوريات المنضمة لروسيا الاتحادية، وتعمل على أسلمتها من جهة، وإيقاظ النزعة التركمانية العنصرية فيها من جهة ثانية. ناهيك عن دعمها لانفصاليي «الإيغور» من الإسلاميين الصينيين.

وواضح الدور الكبير الذي تلعبه تركيا في زعزعة استقرار دول الهلال الخصيب، من العراق إلى الشام واحتلال جزء من قبرص، ناهيك عن سرقة نفط العراق ودعم الحركات الإسلامية فيه، وحصار كل من الشام والعراق مائيًا. ولا شك في أن قوة تركيا المتنامية تقوم إلى حد كبير على احتلالها لأراض سورية كبيرة واستراتيجية، منها القوس الشمالي الممتد من شرق العراق إلى غرب الشام ويشمل، إضافة إلى منابع المياه الكبرى حيث تقوم السدود التركية العملاقة في مناطق ديار بكر، وماردين، وأورفة، وسواها، كلاً من الإسكندرون وكيليكيا، وأنطاكية، وأضنة، ومرسين.

إن محاولات التفتيت الراهنة تشترك فيها إسرائيل من وراء الستار، وورقتها الأكبر هي الورقة الكردية. ولا حاجة لشرح أخطار الدولة الكردية على كل من الشام والعراق أولاً، ومن ثم على كل من إيران وتركيا.

أما سورية، فتتعرض إلى خطرين كبيرين: تفتيت دول سايكس - بيكو إلى كيانات عنصرية ومذهبية، أو توحيد قسم من دول سايكس - بيكو تحت راية «دولة الخلافة الإسلامية» وتشظي ما عداها.

تحاول تركيا أن تتوضع في مكان يضمن لها أن تكون المسيطر الأكبر، سواء كان الاتجاه إلى التفتيت الديني أو العنصري، أو التوحيد تحت راية «الدولة الإسلامية»، وتحاول أن تُبقي المسألة الكردية تحت السيطرة. ولا شك في أن محاولات التطبيع الأخيرة مع إسرائيل تصب، بقسمٍ منها، في محاولة البقاء على تماسٍ مع مخططات إسرائيل حيال الموضوع الكردي.

منذ غزو العراق من قِبَل الولايات المتحدة ودول غربية أخرى، تجري عملية ممنهجة لتدمير الهلال الخصيب تقوم على أربع قوائم: الحصار المائي، تدمير الدول الكيانية، زرع سلطات

فاسدة تسرق الشعب وتنهب مقدراته، وتعميم ثقافة دينية مذهبية حاقدة خاصة في بيئات ضربها القحط، أو تسود فيها البطالة نتيجة الهجرة الداخلية.

المطلوب

في مواجهة هذه الصورة، نحن نريد سورية مستقلة، وموحدة كدولة مدنية تقوم على مبدأ المساواة والعدالة الاجتماعية. دولة مدنية تقيم البديل النقيض للدولة الدينية، أو العنصرية، بمختلف أشكالها.

نحن نريد دولة تقوم على أساس نظرة تعمل من أجل «حياة أجد في عالم أجمل وقيم أعلى» لكل مواطنيها وللإنسانية جمعاء.

ونحن نعتقد أن هذه الدولة هي حاجة سورية بامتياز بمقدار ما هي حاجة روسية بامتياز، وأن حلفاً بين روسيا وسورية على الأسس المتقدم ذكرها يقدم فائدة تاريخية واستراتيجية للطرفين وللعالم.

هي حاجة سورية لأننا، وقد جربنا كل الأشكال الأخرى من دول شبه قومية قائمة على تقسيمات سايكس - بيكو، إلى دول ديكتاتورية، إلى دول دينية ومذهبية، وصلنا إلى مرحلة الانتفاء الوجودي ولا خلاص لنا سوى بدولة كما وصفناها أعلاه.

وهي حاجة روسية لأن روسيا بحاجة إلى دولة مدنية علمانية قوية في قلب الشرق الأوسط تقدم نموذجاً بديلاً من الدول الدينية المتصارعة من جهة، وتكون سدّاً في وجه مخططات الناتو ومطامعه في الشرق الأوسط من جهة ثانية.

ونحن نريد دولة مدنية علمانية تستطيع عبر عملية تنمية شاملة، ليس فقط أن توقف موجات الهجرة واللجوء، بل أن تستعيد جاليات اقتلعت من أرضها وهُجرت قسراً بعد تعرضها لمحاولات إبادة ممنهجة.

وهذا الحلف لا يمنع قيام تحالف مماثل بين سورية وإيران، ولكن على أساس الاحترام المتبادل وحل النزاعات القومية وأهمها الأحواز والسدود الكبرى التي تمنع إيران عبرها جريان المياه في الأنهار العابرة الحدود إلى العراق.

وبالتالي فهناك ضرورة لأن يصار إلى البحث الجدي مع الروس في سبيل الوصول إلى مثل هذه الدولة.

إن دولة من هذا النوع، متحالفة مع روسيا، يعني، على المدى البعيد، أن الاستثمار الكبير الذي توظفه روسيا في سورية اليوم لن يضيع، بل سيكون محمياً من قبل دولة علمانية قوية.

وتحالف من هذا النوع يبعد خطر التدخل المستمر من دول استعمارية تاريخية مثل فرنسا، وبريطانيا اللتين قسمتتا الهلال الخصيب عبر اتفاقية سايكس - بيكو، أو دول استعمارية مستجدة مثل الولايات المتحدة الأميركية، وقاعدتها الأولى في الشرق الأوسط، دولة اسرائيل. وكذلك يدعم، على المستوى الاستراتيجي البعيد، التحالف الروسي الصيني القائم. وإننا نرى في كل هذا حاجة استراتيجية سورية بمقدار ما هي حاجة استراتيجية روسية.

خطوات عملية

إننا ندعو روسيا للنظر إلى الهلال الخصيب ليس من منظور دول فاشلة قائمة على أنقاض سايكس - بيكو، أو على حلم بخلافة إسلامية، بل على دولة موحدة قوية تمتد من زغروس إلى المتوسط، ومن طوروس إلى الصحراء العربية، تكون حليفًا قويًا استراتيجيًا لروسيا الاتحادية في الشرق الأوسط.

وندعوها أيضًا للنظر جديدًا في مساعدتنا لتصحيح الأخطاء التاريخية التي زُرعت أسسها منذ قرن تمامًا في سايكس - بيكو، وما تلاها من معاهدات مجحفة انتزعت من سورية مناطق غنية وحيوية لها من كل الاتجاهات وأقامت في قلبها دولة عنصرية تتمدد وتتوسع.

وندعوها للنظر جديدًا إلى أن تركيا، التي تقوم قوتها على الاستمرار في الهيمنة على هذه الأراضي الشامية، والعراقية، والقبرصية، وسرقة مواردها، تشكل خطرًا استراتيجيًا على روسيا الاتحادية، وأن تحرير تلك الأراضي وإعادتها إلى دولتها الأصلية يجب أن يشكل هدفًا استراتيجيًا لروسيا كما لسورية. من هنا ندعو لرفع مستوى العلاقة بين روسيا الاتحادية والقوى التي تعمل فعليًا لبناء الدولة المدنية العلمانية العادلة.

العقبات

من المرجح أن تستفز هذه الخطوة القوى الاستعمارية التاريخية منها أو المستجدة، وكذلك العاملين لدول دينية، والقوى الفاسدة الداخلية التي ربيت في كنف المستعمرين القدامى وتعمل لخدمة المستعمرين الجدد.

إن مصارعة هذه القوى كانت وما زالت في صميم معركة الشرفاء العاملين لنهضة سورية ووحدتها واستقلال أراضيها وإقامة نظام مدني علماني عادل فيها، وعلى روسيا الاتحادية دعم مثل هذه القوى وإقامة أفضل العلاقات معها.

أغرب من الخيال

2017-8-1

تبدأ فصول هذه الرواية في 2014/07/22 حين اتصل بي رفيق من الوطن ليسألني ما إذا كان صحيحًا أن الزعيم قد استاء من زواج والدي الأمين عجاج المهتار من والدتي الرفيقة سيريا كرم. وأضاف الرفيق طالبًا جوابًا سريعًا لأن «النقاش بين الرفقاء، هنا في الوطن، حامي الوطيس.» استغربت الخبر، واستهجنته، وشرحت للرفيق استحالة أن يكون صحيحًا، وطلبت منه أن يتمنى على الرفقاء ألا يتلهوا في ترداد قصص لا يمكن أن يكون لها أساس في الواقع، واعتبرت أن الموضوع قد أقفل.

بعد فترة، اتصلت بي رفيقة صبية وأخبرتني أنها خطيبة الرفيق الذي اتصل، وطلبت إيضاحًا لأن أهلها يؤكدون أن الزعيم لم يرص عن زواج الأمين عجاج من خارج طائفته. وأضافت الرفيقة الصبية أن أهلها قوميون، ولكنهم غير راضين عن علاقتها بالرفيق الذي اتصل، والذي تبين لي عندها إنه من طائفة أخرى. هنا وضحت القصة. الرفيقة من طائفة غير طائفة الخطيب، والأهل يحاولون منعها من الزواج منه، فكيف السبيل إلى ذلك. السبيل هو القول إن الزعيم لم يرص عن زواج ما أرجح أنه كان أول زواج عابر للطوائف في الحزب، وهو زواج الأمين عجاج المهتار من الرفيقة سيريا كرم.

عدت لشرح الأسباب التي تمنع منطقيًا أن يكون الزعيم له مثل هذا الموقف وتمنيت للرفيقة ولخطيبها التوفيق، ولأهلها أن يعوا أنهم في منطقتهم يخالفون كل ما يجاهرون به من مبادئ. وبالأمس، في ذكرى ميلاد والدتي، نشرت صورة لها كما عهدي في كل سنة، فعلق أحد الرفقاء إنها صورة جميلة، ولكن الزعيم قال، والقول للرفيق: «لقد ربحتنا عجاج، ولكننا خسرتنا عرامون.»

صعقني هذا التعليق، فاتصلت بالرفيق الموجود في لبنان وعرفت عن نفسي وطلبت
إيضاحًا عما كتبه. فقال لي إنها قصة معروفة في التراث المحكي في منطقتهم: جاء الزعيم إلى
عرامون لتهنئة الأمين عجاج بمناسبة زواجه فقال ما قاله عن «ربح عجاج وخسارة عرامون».
وأراد الاستطراد في تفاصيل ما يزعم الناس أن الزعيم قاله، فتمنيت عليه التوقف والإصغاء.

تزوج الأمين عجاج المهتار من الرفيقة سيريا كرم سنة 1940 نتيجة حب جمع قلوبهما، وبعد
مرحلة تعارف استمرت ما يزيد عن السنتين. إذن، تزوج الأهل والزعيم في المغترب القسري. عاد
الزعيم سنة 1947 و فوراً دخل في معركتين متوازيتين هما معركة مذكرة التوقيف التي استمرت
لمدة ستة أشهر، ومعركة «الواقع اللبناني» و«الفلسفة الفردية» التي استمرت قرابة سنة.

ثانيًا، منذ أن غادر الوالد عرامون في العشرينيات من القرن الماضي لم يعد ليسكن فيها.
بل سكن بيروت ونقل نفوسه إلى المصيطبة. وحين تزوج الأهل، كان هناك معارضة شديدة
من داخل عائلته، وقاطعه عدد كبير منهم. إذن، لا يعقل أن يكون الزعيم قد توجه لتهنئته في
عرامون، وليس هناك في تراث الزعيم، لحد علمي، أنه قام بزيارة لقرية الوالد.

ثالثًا، هل قام الزعيم بزيارة الأمين عجاج في منزله في بيروت لتهنئته بعد عودته سنة
1947، فقال مثل هذا القول؟ لا أعتقد، فحياة الزعيم في هاتين السنتين كانت حافلة بالتحديات
الكبيرة بما لا يسمح له أن يقوم بزيارة شخص تزوج قبل سبع سنوات لتهنئته. هذا، ولو كان
الزعيم قد شرفنا في بيتنا لكان الأهل قد ذكروا تلك الزيارة، وكان ذلك اليوم واحدًا من أسعد
أيام حياتهم. وهذا ما لم أسمع انه حصل.

رابعًا، لقد رافق الأمين عجاج الزعيم بعد عودته في أكثر من مهرجان وكان الزعيم يحب أن
يفتتح الأمين عجاج المهرجانات التي يخطب فيها الزعيم بقصيدة قبل خطابه. فلو كان هناك
شيء مما يذكره الناس لما كان يحدث مثل هذا الأمر.

خامسًا، حين وقعت أحداث الجميزة، وقبل أن يظهر الزعيم في الشام، توقع الأمين عجاج
أن الزعيم قد أصبح في دمشق، فتوجه إليها، وقابله وكلفه الزعيم بالانضمام إلى الفرقة المتوجهة
إلى جبل الشيخ. هذا ما كان، وألقي القبض على الأمين عجاج في عرنة بعد استشهاد الزعيم،
واقْتيد إلى سجن الرمل والباقي تاريخ معروف.

غير أن كل هذا في كفة وهناك ما هو أهم من هذا بكثير في كفة أخرى. هل يعقل لزعيم
يدعو إلى فصل الدين عن الدولة وإزالة الحواجز بين مختلف المذاهب والطوائف أن «يستاء»
حين يقدم شاب وشابة على تطبيق هذا المبدأ عمليًا؟ بل ماذا يكون موقف الناس من الزعيم

لو أخذ موقفًا مثل هذا؟ هل يبقى في الحزب قومي واحد إذا اكتشف القوميون أن زعيمهم يدعو لأمر ويعمل بعكسه؟ ثم، هل يعقل أن سعادته، الذي كتب ما كتبه عن الحب في «رسائل حب»، أن يقدم على تشويه صورة حب نما في هذه النهضة واستمر حبًا صافيًا يصح في وصفه قول الزعيم في الصراع الفكري في الأدب السوري، «الحب الذي إذا قرب فمًا إلى فم سكب نفسًا في نفس؟»

يحزنني أن الذين يرددون مثل هذه الترهات لم يتعرفوا إلى عجاج وسيريا وعلاقة الحب التي جمعتهم. لم يتعرفوا إلى العشرات من الشباب والصبايا من قوميين، وأصدقاء، ومن طوائف ومذاهب مختلفة، الذين كانوا يزورون بيتنا في راس بيروت ليتعرفوا إلى الأهل، ويسمعوا قصتهم ويأخذوا بنصحهم عن الزواج المختلط وما سوف يواجهون من صعوبات. ليتهم يأخذون الوقت الكافي ليفكروا بما يقولونه ويقيسونه على حياة الزعيم، والمثل الذي ضربه لنا في حياته واستشهادته عن الصدق والبطولة والشجاعة والثبات على الموقف، ليدركوا أي أذى وإهانة يلحقونها بأنفسهم إذ يرددون كلامًا من هذا النوع.

لا يا رفقائي، لا تُخيفوا الناس بأقوال مزعومة تنسبونها للزعيم لكي تبعدوهم عمّن أحبوا من طوائف ومذاهب مختلفة. لا يمكن أن يكون الزعيم قد استاء من قصة حب دعا هو، بتعاليمه، الناس إليها. لا يمكن.

أمل أن يكون في هذا المقال خاتمة لمثل هذه الأقاويل.

الحيوية

2017-10-12

الحيوية: اسم مؤنَّث منسوب إلى حَيَاة؛ الفاعلية غير الاعتيادية؛ قدرة الحي على تأدية وظيفته؛ نشاط وعافية.» (قاموس المعاني).

لسنا في وارد الخوض في بحث لغوي، ولكن يجب أن يكون لكلمة «حيوية» أهمية خاصة في حياتنا. إنها أهم كلمة على الإطلاق في غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي. أما وأن لها أهمية خاصة هذه الأيام، فهذا ما سنركز عليه.

مع الأسف، يحفظ معظمنا غاية الحزب استظهاراً ويردها سَخْبَةً واحدة وبدون توقف. «غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً وتثبيت سيادتها وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها والسعي لإنشاء جبهة عربية.» (أزلنا الفواصل عمداً). ولكي نفهم هذه العبارة يجب تفكيكها إلى أقسامها، وكل قسم منها، مركب من ثلاثة أجزاء: فعلٌ ومُخرَجٌ ونتيجة. بالتالي يمكن إعادة كتابتها كما يلي:

النتيجة Outcome	المخرج Output	الفعل Action
إعادة الحيوية والقوة	تحقيق مبادئ الحزب ←	بعث نهضة ←
تثبيت سيادتها	استقلال الأمة ←	تنظيم حركة ←
رفع مستوى حياتها	تأمين مصالح الأمة ←	إقامة نظام جديد ←
سد منيع في وجه الاستعمار	التعاون بين الأمم العربية ←	السعي لإقامة جبهة عربية

«إعادة الحيوية والقوة إلى الأمة السورية» هي النتيجة القياسية الأولى التي بدونها لا يمكن تحقيق باقي النتائج. بكلام آخر المطلوب هو إعادة «الفاعلية غير الاعتيادية»، و«القدرة على تأدية الوظائف»، و«النشاط والعافية» للأمة السورية. لهذا السبب قلنا إنها الكلمة الأهم في الغاية، لأنه بدون هذه كلها، لن نستطيع تنظيم حركة، ولا تحقيق استقلال، ولا تأمين مصالح، ولا رفع مستوى حياة، ولا السعي لأي شيء.

إذا أردنا رؤية الحيوية في أسطح تجلياتها ما علينا إلا أن نجول بنظرنا إلى الأمم المجاورة لنا، وبعض القوى الداخلية. هذه إيران تتمدد في العراق بعد الأهواز، ويصل نفوذها إلى لبنان والشام. نعم هي حليف استراتيجي، ولكن له مصالحه وقسم منها على حسابنا. وها هي تركيا تتمدد في الشمال السوري فتبدأ بتريك إدلب بعد الإسكندرون وسواه. وها هي السعودية تتدخل في بلادنا من الشام إلى العراق وفلسطين ولبنان. وها هي إسرائيل تتمدد في أرض فلسطين التاريخية، وتلتف علينا من شمال العراق. أما مصر فجائحة في سيناء وأصابعها في فلسطين ودرعا، والأكراد يقيمون دولة عنصرية في الشمال، أما قبرص فبين تركيا واليونان وإسرائيل. كل من هذه الدول أو الفئات لديها من فائض الحيوية ما يسمح لها بالتمدد على حسابنا.

ولا يقتصر المدى الحيوي لهذه الأمم على الناحية المادية أو العسكرية، بل هناك ناحية أخطر هي حيوية النظرة إلى الحياة التي لكل منها. إننا نقبل بنظرات خارجية غريبة عنا تأتي من فائض الحيوية للأمم القوية. لقد تحوّل بعضنا من الاشتراكية والشيوعية إلى الرأسمالية المتوحشة مع تغيير موازين القوى. وبعضنا الآخر يستمد نظرتة اليوم من نظرات محمدية متطرفة. وكل منها تشكل خطراً وجودياً علينا لأنها تستدرج حروباً مذهبية لا تنتهي. وفي المقابل، هناك النظرة التي تقول إن الأساس النفسي للحضارة الغربية هو «القيم اليهودية - المسيحية»، فنرى كنائسنا بما فيها المشرقية تقول «آمين» غير عابثة بكوننا الشعب الوحيد على هذه البسيطة الذي يعتبر اللعنات التوراتية بحق آبائه وأجداده إلى يومنا هذا جزءاً من مقدّسه الديني!

هذه هي الحيوية إذ تفعل أو تخدم. هل يا ترى نستوعب الآن أهمية هذه الكلمة فيما ندفع ثمن فقدانها من دماء أهلنا وثرواتنا وأراضيها وأجيالنا الصاعدة. هل نفهم لماذا وَصَّعَهَا سعادته كالنتيجة الأولى المطلوبة، كالشرط الضروري لكل ما يلي.

ما هي العلاقة بين المبادئ والنهضة والحيوية؟ النهضة هي أن نخرج من الغموض إلى اليقين في ثلاث مسائل أساسية متلازمة تحددها مبادئنا: الهوية والحقوق والمصالح. الهوية السورية

الجامعة، والحقوق المنبثقة عنها والمصالح القومية في تثبيت السيادة والسلام المجتمعي،
والمساواة والتوزيع العادل للثروة والقدرة على حماية الوطن. عقيدتنا ومبادئنا الإصلاحية هما
المضاد الحيوي لكل ما يمتص حيوية الأمة. العقيدة سهلة، والمبادئ منطقية، لا يمكن لعاقل أن
يرفضها، فلماذا لم ننجح في تحقيقها في وسط هذا المجتمع الذي يحتاجها لحياته، لحيويته؟
لماذا؟

الجواب بسيط وموجع. لقد أهملنا، تاريخيًا، غاية الحزب. لم نعرف كيف نقرأها، ولا كيف
نترجمها فعلاً على الأرض. لقد أهملنا عامل استعادة الحيوية وانصرفنا إلى أشياء أخرى تمتص
حيويتنا وها نحن اليوم ندفع الثمن.

دراسة حالة

2018-11-22

ذكر رئيس تحرير الفينيق السابق، الأمين الجزيل الاحترام أحمد أصفهاني، أن عددًا من القراء من مناطق سوريّة مثل العراق، وعربية مثل تونس ومصر والإمارات، وممن يتابعون مجلة الفينيق بانتظام، أبدوا ملاحظات على أن المجلة باتت أقرب إلى نشرة حزبية منها إلى مجلة تُعنى بالفكر القومي الاجتماعي. وأضاف الأمين أصفهاني أن هؤلاء القراء، «لا يعينهم ما يجري داخل الحزب وإنما هم مهتمون بالفكر القومي الاجتماعي». وتساءل الأمين أحمد ما إذا كان من المفيد حصر المقالات التي تتناول موضوع الحزب بلائحة بريدية للرفقاء ترسل لهم على حدة وإراحة باقي القراء من تلك تفاصيل.

إنه ليسعدنا أن تلقى مجلة الفينيق اهتمامًا من قراء مثقفين ومهتمين، ومن اتجاهات فكرية مختلفة، لأن هذا يدل على أهمية الفكر القومي الاجتماعي الذي أرسى دعائمه أنطون سعاده، وعلى أهمية الدور الذي تقوم به الفينيق إذ تسد ثغرة في نشر هذا الفكر وتطبيقاته. ولكن السؤال والملاحظات وجيهة، وسوف نحاول في هذا المقال مناقشتها.

الملاحظة الأولى هي أن الفكر القومي الاجتماعي ليس فكرًا تجريديًا (Abstract) في المنظور الفلسفي، حيث «تبتعد الأفكار عن الأشياء». إنه فكر تطبيقي عملي ينبع من نظرة إلى الحياة مستقرة في الوجود الإنساني، تهدف إلى ترقية الحياة وتجميل عالمها ورفع مستوى قيمها. وتنطلق في ذلك أولًا، من أن «الحقيقة الأساسية الكبرى» للوجود الإنساني هي أنه وجود محكوم بالاجتماع، وأنه متمايز في متحدات يتفاعل قاطنوها والوافدون إليها مع بيئتهم، وبين بعضهم بعضًا، ومع جيرانهم، في وحدة حياة، بما يُنتج ثقافات وحضارات متميزة. ثانيًا، أن

العالم هو واقع أعم تتفاوت في قواها وفي مدى حيويتها المادي والنفسي، ما يُنتج طبقات من الأمم يستعمر بعضها بعضاً إما احتلالاً أو هيمنة ثقافية. ثالثاً، أن المبادئ، «من حيث هي نقاط انطلاق للفكر، هي في خدمة الشعب وحياته، وليس العكس». هناك نواح أخرى لهذا الفكر ليس آخرها مفهوم الوجدان القومي، ولا العقلية الأخلاقية الجديدة المنبثقة منه ولا النظرة المدرجة للحياة التي رأى فيها مؤسسه أنها هدية سورية للعالم قاطبة، وكل من هذه المفاهيم يحتاج بحثاً تفصيلياً منفصلاً.

الملاحظة الثانية هي أن لهذا الفكر تجربة عملية واحدة هي الحزب السوري القومي الاجتماعي. بالتالي، حين تقول مجلة الفينيق إنها «تُعنَى بالفكر القومي الاجتماعي»، فمن الطبيعي أن تضع تجربة هذا الحزب على المحك، بما يشبه دراسة حالة حيّة ومستمرة.

الملاحظة الثالثة هي أن لهذا الفكر منهجية تطبيقية على مستويات شتى. إنه فكر يؤمن بالعقل شراً أعلى في مقارنته لجميع الحقائق الإنسانية. ويعتمد مبدأ الأطراد الفلسفي في فهم مسار التاريخ والحقائق الإنسانية، ويعتمد إطاراً لتحقيق خطته يقوم على الإدارة والسياسة والحرب. وقد أثبت الحزب، في محطات مهمة من تاريخه استخدم فيها كل هذه القوى العقلية والإدارية، أنه مقاتل صلب وشريف في سبيل مبادئه وبلاده وعزتها ومقاومة محتليها.

الملاحظة الرابعة هي أن هذا الفكر الذي أطلق أوسع حركة ثقافية وأدبية وموسيقية وصحافية في الوطن السوري والعالم العربي بين الأربعينات والتسعينات من القرن الماضي، يعاني الآن من ضمور كبير في كل هذه المجالات الحيوية.

الملاحظة الخامسة هي أن الحزب، والذي يصادف هذا الشهر الذكرى السادسة والثمانين لتأسيسه، بالرغم من كل ما سبق، لم ينجح حتى اليوم في تحقيق أي شيء من أهدافه، ولا حتى غايته الأولية - أن يصبح «حركة الشعب العامة» - بل إنه يعاني من انقسامات حادة وشرذمة حقيقية تهدده بالتبدد.

هذه الأمور كلها هي في صميم المقالات الفكرية، أو السياسية، أو الأدبية التي تنشرها الفينيق، بما فيه متابعة أخبار الحزب والانقسامات التي يعاني منها، والتردي الأدائي والأخلاقي الذي يضره.

بالتالي، فإننا إذ نُقدر شعور القراء الكرام، خاصة من غير أعضاء الحزب، أو ممن هم من خارج الوطن السوري نقول لهم، إذا كنتم معنيين بهذا الفكر كفكر تجريدي نظري فقط، فإنكم تحرمون أنفسكم ومجتمعاتكم من قوة هذا الفكر الحقيقية من حيث هو قوة محرّكة لقوى

كامنة. إن في تجربة الحزب، بكل انتصاراته وانكساراته، وفي الاخطار المهددة لوجوده اليوم، دروساً وعبراً تفيد كل من هو مهتم بقضية ترقية مستوى الحياة في بلاده وتجميل عالمها ورفع قيمها.

لهذه الأسباب كلها، تنشر الفينيق ما تنشر عن الحزب السوري القومي الاجتماعي.

بين الدوائر

2019-8-26

هناك دائرتا احتلال تعصران الوطن السوري وتطحنان الشعب في حركتهما. دائرة خارجية تمتد من مرسين غرباً شاملة الإسكندرون وأنطاكية وكيليكيا، إلى ماردين وحكّاري شرقاً، فالأهواز جنوباً، لتعود وتمتد غرباً إلى قوس الصحراء العربية، الممتد كلسان داخل البادية السورية، وصولاً إلى سينا ومن ثم قبرص. قوس هذه الدائرة الشمالي يتمدد جنوباً من الغرب إلى الشرق بدءاً من محافظة إدلب وشرق اللاذقية وشمال حلب، وصولاً إلى محافظتي الرقة والحسكة في الشرق والشمال الشرقي، فکردستان العراق ذات «الحكم الذاتي».

الدائرة الداخلية هي الاحتلال الإسرائيلي الممتد كالسرطان من قلب الوطن السوري إلى أطرافه، احتلالاً وهيمنة أمنية مع طموحات اقتصادية وسياسية. قطر الدائرة الإسرائيلية تمتد ويتمدد في كل الاتجاهات.

ومع دائرتي الاحتلال، هناك دوائر نفوذ. ودائرة النفوذ، حسب التعريف الشائع في العلاقات الدولية، هو ذلك الفضاء الذي تتمتع فيه دولة ما بنفوذ متفرد ثقافي، أو اقتصادي، أو عسكري، أو سياسي، ونضيف من عندنا، ديني أو مذهبي أيضاً. دوائر النفوذ الممتدة في سورية متداخلة، متصارعة، منعكسة حروباً داخلية عندنا. فدوائر النفوذ السعودي والتركي والإيراني والمصري والقطري تتصارع في بلادنا. النفوذ الإسرائيلي يلعب على التناقضات كلها، أما النفوذ الثقافي الأميركي والأوروبي فحدث ولا حرج. كلها، في غياب النظرة السورية المستقلة إلى الحياة، تتزاحم على شبابنا، وشبابنا، يقع فريستها.

إن المواطن المسكين، من العراق إلى لبنان، يُعْتَصَر بين هذه الدوائر دون أن يدري في

معظم الأحيان أن المآسي المتلاحقة هي نتيجة حركتها. كل منطقة نخسرنا من سورية هي منطقة نخسر ريع مواردها لصالح البلد المحتل. وكل امتداد خارجي ثقافي أو ديني مذهبي على حساب ثقافتنا ومعتقداتنا الأصلية - السابقة لما يسمى بالديانات السماوية - فيه خسارة من استقلالنا النفسي وتوظف لصالح محتل أو آخر. نحن للآن، لم ندرس بالتفصيل الآثار الاقتصادية والنفسية والاجتماعية لهذه الاحتلالات. إننا لا نعرف، مثلاً، انعكاس حريق حقول القمح في الجزيرة على المواطن اللبناني، أو جفاف حوض دجلة والفرات على المواطن في الساحل. إننا نلمس أثرها جوعاً، وفقراً، وهجرةً، وتلوّثاً، وجفافاً. ولكننا لا نربط الأسباب بالنتائج.

هل نفهم الآن السبب الذي دعا سعادته لوضع «الإرادات الخارجية» في طليعة اهتماماته في الخطاب المنهاجي الأول⁽²¹⁾ سنة 1935 وقبل انكشاف الحزب:

«إن الغرض الذي أنشئ له هذا الحزب غرض أسمى، هو جعل الأمة السورية هي صاحبة السيادة على نفسها ووطنها. فقبل وجود الحزب السوري القومي كان مصير هذه الأمة معلقاً على إرادات خارجية وكانت أنظارنا دائماً تتجه إلى الإرادات الخارجية بعد أن نُكَيّف أنفسنا وفاقاً لها، أما الآن فقد غيّر وجود الحزب السوري القومي الموقف. إن إرادتنا نحن هي التي تقرر كل شيء، فنحن نقف على أرجلنا وندافع عن حقنا في الحياة بقوتنا. ومن الآن فصاعداً تدير إرادتنا نحن دفة الأمور. كل عضو في الحزب السوري القومي يشعر أنه أخذ في التحرر من السيادة الأجنبية والعوامل الخارجية المُخضعة، لأنه يشعر أن الحزب هو بمثابة دولته المستقلة التي لا تستمد قوتها من انتداب ولا تستند إلى نفوذ خارجي.»

إننا نشعر بالخجل إذ نقرأ هذا الكلام بعد أربع وثمانين سنة على وضعه كهدف أساس على القوميين تحقيقه. ونحن إذ نعيد التركيز على هذه الأساسيات فلأننا نراها مُهمّلة. إن إعادة الحيوية إلى الأمة السورية هي النتيجة الأهم من بنود غاية الحزب. بدونها، لا يمكن تحقيق بقية البنود من استقلال وسيادة ونظام جديد. هذه الحيوية تكاد تنطفئ بين دوائر الحيوانات الخارجية المتصارعة علينا. إعادة هذه الحيوية، هي مهمتنا الأولى.

(21) <http://antoun-saadeh.com/works/book/book02/119>

فلننس، فلنوقع

2020-2-27

انتشر خبر تقديم الأمين فارس سعد لاستقالته⁽²²⁾ من رئاسة الحزب السوري القومي الاجتماعي. لم نُفاجأ. لقد ارتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه سلفه. إنه لم يمارس صلاحياته كرئيس.

لن نطيل حول هذا الموضوع. إن المقالات التي نشرتها الفينيق حول الأزمة الحزبية (الجزء الأول من هذه المجموعة)، التي انفجرت سنة 2016، توثق رأي هذه المجلة والقائمين عليها حول أسبابها وسبل الخروج منها. ولعل أبرزها ما جاء في مقال «حزب بلا قيادة» نعيد الإضاءة عليه اليوم لأن القوميين يجدون حزبهم، وهم على أعتاب مؤتمر انتخابي بعد أشهر قليلة، بلا قيادة.

إن كون الحزب بلا قيادة قومية اجتماعية، ومنذ سنوات، بل وربما عقود، قد ساهم في إيصال الحزب والقوميين إلى الوضع الذي نَصفه في بقية هذا المقال والذي دفعنا لاختيار عنوان، «فلننس، فلنوقع».

المهم - فيما أَدفع هذا الكتاب للنشر - أنه حين كانت تلك الرفيقة تكتب ما سيرد في المقال، كان هناك من يخطط ويهيئ، من غزّة، للسابع من تشرين أول 2023.

ردا على مقال «نهج فلسطين، نهج التحرير» (في قسم فلسطين من هذا الجزء) حول ما سُمّي بصفقة القرن، وَصَلتنا رسالة من رقيقة في الحزب ورد فيها ما يلي: «ربما بعد عشر سنوات، لن نجد ما نفاوض عليه، فالأفضل أن نوقع ونقبل بما مُنح لنا لأننا لا نملك من أمرنا شيئاً، ولن نملك في المستقبل.»

(22) استقالة رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي <http://alpha-links.al-akhbar.com/1C4>

كانت هذه ثاني مرة أسمع أو أقرأ فيها عبارة كهذه، خلال شهر، من شباب جامعيين بعضهم في الوطن وبعضهم الآخر في المهجر. كذلك جاء في الرسالة نفسها، «علينا ألا ننكر أن القضية الفلسطينية إرثٌ ملّته الأجيال، أجيالنا وأجيال إسرائيل، وإذا وجدت اليوم من يتحدّث بحماسةٍ عن القضية، فاعلم أن هذا سيصبح من مخلفات الزمن البعيد. (خذ نفساً عميقاً)، كل الفلاسفة الذين أُعجب بكتاباتهم، هم من اليهود، حتى المفكرين السوريين أو العرب ممن يملكون (فكرًا بكرًا)، وليس (فكرًا هجينًا)، هم من أصول يهودية. طبعًا لا أؤيد إسرائيل، لكن اليهود سيشكلون رافعًا حضاريًا للأمة السورية المرتقبة.»

قبل هذا كله، وحين أعلنت الفينيق أنها سوف تفتح ملف الأراضي المحتلة، استلمنا رسالة جاء فيها ما معناه، «انس الإسكندرون وأنطاكيا وكيليكيا. لقد أصبحت تركيةً ولن تعود.» تلك الرسالة دفعتنا لوضع ما سميناه «قاموس الفينيق للأراضي المحتلة».

مثل هذ الكلام، وحتى الكلام عن فلاسفة يهود يسمعه المرء كل يوم تقريبًا من مواطنين في الشارع على سوّيات مختلفة من العمر والعلم والخبرة الحياتية. المفارقة أن هذه العبارات الثلاث جاءت على ألسنة رفقاء في الحزب السوري القومي، أو شبان تربّوا في بيوت قومية اجتماعية!

هذه الظاهرة تستدعي الوقوف عندها كما استدعتنا للوقوف من قبل ظاهرة «التطيّف» أو «التمذهب» التي نشهدها من قبل بعض القوميين، مثل الصوّر التي يرفعونها في بلداتهم للزعيم مع رجال دين، أو في استعمال مراكز المديرية لأغراض دينية ومذهبية. هذه كلها وقائع شهدها ولم تلق الاهتمام المطلوب من قبل المسؤولين، لا بل قوبلت بهز الكتفين، وعبارة، «لشو حامل السلم بالعرض؟»

هل الرأي الذي ورد في الرسالة فردي أم مؤشر لظاهرة تنتشر؟ في استقصاء سريع مع عدد من الرفقاء في الوطن والمهجر يتبين لنا أن هذه الظاهرة - الانحراف والقبول بالأمر المفعول - موجودة في أكثر من متحد. هل مرّ في تاريخ الحزب شيء مماثل لهذا؟ نعم. «الواقع اللبناني» و«النظرة الفلسفية الفردية» وما رافقهما أدت إلى قيام الزعيم بطرد عدد من قيادات الحزب المسؤولة عن هذه الانحرافات. الأساس هو نفسه: الاستسهال والاستنساب. المشكلة، اليوم، أنه لا يوجد من يحاسب.

هل يجب أن تشغل هذه المسائل بال قوميين؟ طبعًا. علينا أن نعرف ما الذي يدفع عددًا من الشباب القومي إلى اتخاذ مثل هذه المواقف أولًا، ومن ثم وضع الخطط لمعالجتها.

فجنوب لبنان ما كان ليتحرر لو ساد مثل هذا التفكير إبّان الاحتلال الإسرائيلي؟ وإذا تخلينا،
بفكرنا، عن الإسكندرون وكيليكيا وأنطاكية، ألا نتخلى غداً عن إدلب وشرق الفرات؟

لقد كان لنا جواب على ما ورد في الرسالة ننشره فيما يلي.

«رفيقتي العزيزة، لتحي سورية

لا مشكلة لدي فيما ورد في عرضك لمسار المفاوضات ونتيجته. لدي مشكلة مع هذا القسم
من الفقرة الرابعة:» فالأفضل أن نوقّع ونقبل بما مُنح لنا؛ لأننا لا نملك من أمرنا شيئاً، ولن نملك
في المستقبل. علينا ألا ننكر أن القضية الفلسطينية إرثٌ ملته الأجيال، أجيالنا وأجيال إسرائيل،
وإذا وَجَدت اليوم من يتحدّث بحماسةٍ عن القضية، فاعلم أن هذا سيصبح من مخلفات الزمن
البعيد.»

أنتِ الشخص الثاني، ومن جيلك، يقول لي مثل هذا الكلام في هذا الشهر. لعلمي من
مخلفات الزمن البعيد، ولكن لننظر بواقعية، إذ أن هذا ما أعتقد أنك تطلينه. وفي واقعتي،
سوف استند تحديداً إلى ما تفضلت به عن مسار المفاوضات المذلة فأسأل: هل أدى توقيع
الفلسطينيين في أي من مراحل التراجع إلى الحصول على أي شيء مما وقّعوا عليه؟ الجواب
بالنفي. لماذا إذن نتوقع أن نحصل على أي شيء إذا وقّعنا اليوم؟ في كتابي «خوفاً من ولكن»
هناك مقال أقول فيه إن إسرائيل لا تمنع التوقيع طالما انها غير ملزمة بالتنفيذ. بالتالي، لنفصل
بين أمرين: الحق، والقوة لتطبيق الحق. إذا لم يكن لدي القدرة اليوم على إحقاق حقي، فلا
يعني هذا أن أتنازل عنه.

في التفاوض، هناك مبدأ يقول ألا تدخل في مفاوضات إن لم يكن وسعك ركل الطاولة
والانسحاب ساعة تشاء. بكلام آخر، لا تدخل في مفاوضات من موقع ضعف. مشكلتنا مع
«أوسلو» وما سبقه من تنازل فلسطيني هو أنهم - قيادة منظمة التحرير آنذاك وما تلاها -
صدّقوا الوعود العربية والأمريكية، فدخلوا في اللعبة وأصبحوا على لائحة موظفي المؤسسة
الإسرائيلية غير القادرين على الخروج من تحت سيطرتها.

أنا إذ أعترف بهذا الواقع أقول إنه لا يُلزمني بالتخلي عن حقي في أرضي، بل العكس،
يلزمني بالتمسك به والعمل على بناء القوة التي تمكنني من استرداده.

أما بالنسبة لما ورد عن الفلاسفة والمفكرين والموسيقيين اليهود، فهذا موضوع معقد ولا
يمكن النظر له بتبسيط، ولا الوصول إلى النتيجة التي تفضلت بها دون تمعّن. إنك تستعملين
أسلوب السوريين في المخاطبة (راجع رحباني، المسيح السوري) لناحية المبالغة والقطع

والجزم. ومع أنني أدرك المقصود من قولك لا بد لي من مناقشته كي لا يصار إلى الظن أنني موافقك في كل ما ذكرت. بالتالي، هل كل الفلاسفة الذين تعجبين بكتاباتهم هم يهود؟ أليس هناك من مفكر واحد سوري أو عربي ذو «فكر بكر» من غير أصول يهودية؟ أعتقد أن الجواب عن السؤال الأول هو «كلا»، وعن الثاني «نعم». بالتالي، فإن هذا الإطلاق خطير، ليس لأنهم يهود. فإني كنت لأقول الكلام نفسه لو كنا نتكلم عن أية مجموعة. الخطر هو في الأثر الذي يتركه هذا الكلام خاصة على من هم ليسوا على سويتك الثقافية ويتأثرون بك، فيظنون أن ما تقولينه حق بالكلية، فيما الأمر ليس كذلك.

إنها لحقيقة أن عددًا ممن تركوا أثرًا مهمًا في الحضارة الغربية، خاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين، كانوا من اليهود. ولكن معظمهم كانوا من اليهود المتنورين الأوروبيين نتيجة ما يعرف بـ Emancipation أي «تحرير أو عتق» اليهود في أوروبا. كان لهذه الخطوة، والتي تمت بتدرج على مرّ القرون، أثران واضحان: إنها أتاحت لعدد كبير من اليهود التحرر من وصاية «الغيتو» واكتساب العلوم كباقي رعايا دولهم، ولكنها في المقابل أدت إلى تشدد أكبر لدى الحاخامات الذين قاوموا هذا الأمر وتحسّروا على خسارتهم لرعاياهم من اليهود نتيجة الاندماج، Assimilation. بالتالي، فإن عددًا من اليهود المتنورين في بريطانيا وغيرها كانوا ضد تأسيس دولة إسرائيل وضد وعد بلفور، ولكن هذا موضوع لبحث مستقل.

هل يمكن لليهود أن يكونوا «رافعة حضارية للأمة السورية المرتقبة؟» أولًا، إن الأمة السورية هي حقيقة وليست أمرًا مرتقبا. إنها أمة واقعة تحت عدد من الاحتلالات ومنتسخة نفسيًا، ومجزأة سياسيًا، ولكنها أمة حقيقية. ثانيًا، في عبارتك هذه نعود إلى الإطلاق. هل نتكلم عن «كل اليهود» أم بعضهم؟ ولكن لتجاوز هذه النقطة على صعوبة ذلك نظرًا للآراء المتناقضة التي تسود الطيف اليهودي من «ناطوري كارتا» الراضة دينيًا لدولة إسرائيل، إلى عتاة اليمين الإسرائيلي. أقول نتجاوزها فنسأل: أليس شرطًا ضروريًا لفرد أو مجموعة أن ينظر بعين المحبة والتعاطف والمساواة مع متحد أو مجتمع معين لكي يتمكن من أن يكون «رافعة حضارية له»؟ هل يمكن لجماعة تنظر «بقدّرٍ وتفوقٍ عنصريين» على أنها «شعب الله المختار»، وعلى أن «الله» قد وعدنا بأرضنا، وأنهم أسياد علينا وعلى سوانا من «الغوييم»، أن تنظر بعين المحبة والتعاطف والمساواة إلينا لكي تتمكن من أن تكون رافعة حضارية معنا، ولن أقول لنا. عليك بالعودة إلى سفر عزرا في التوراة وخاصة الإصحاح العاشر الآيات 12-10 لكي تعرفي أية عقدة نفسية وتاريخية تقف عائقًا أمام ما تقولين. اقرأ عزرا، وقرأ التفسير المسيحية له، ثم نتكلم عن الرافعة الحضارية.

ولا يجوز أن يفهم من كلامي أنه يتعلق باليهود حصراً. إنه يشمل أية جماعة تنظر إلى نفسها نظرة تفوق سواء استندت في ذلك إلى وهم ديني أم مذهبي أم عنصري، وصدقيني أن في بلادنا الكثير من هذه الأشكال. هل يمكن النظر لليمين اللبناني، أو العنصريين الأكراد، أو غلاة الشيعة، أو السنة، أو الدروز، أو العلويين «كرافعات حضارية»؟ اترك الجواب لك.

إنني أفهم انبهارك في بعض ما تقرئين. ولكنني أتمنى ألا تسمح لي للانبهار أن يعمّه بصيرتك عن الحقيقة والواقع. لقد أمضيت عمري في دراسة الحركة الصهيونية وتاريخ اليهودية والمؤسسة الإسرائيلية، وأقول لك بكل يقين إن هناك عدداً من الشروط الضرورية التي لا غنى للجوالي اليهودية من الأخذ بها، وهذا أمر صعب جداً إن لم يكن مستحيلاً، قبل أن يتمكنوا من الاندماج في النفسية السورية والقبول بها وفي النفس الحضاري المنفتح الذي مارسه في تاريخها الطويل. هذا لا يلغي العطاءات المذهلة التي قدمها بعض الذين ولدوا يهوداً سواء أمارسوا أم لم يمارسوا ديانتهم.

عفوًا، كان عليّ أن اطلب منك أن تأخذي نفسك طويلاً جداً.

ولتحي سورية.

«قرضة ووفاء»

بالإذن من سعيد تقي الدين

2021-3-1

«لا أستطيع أن أنسى رحابة صدر الأمين عجاج وزوجته يوم جئتهما «جيعان» بعد أن غادرت أُمِّي وأختي سنة 63 لحاقاً بوالدي إلى الأردن بعد الانقلاب المجرم، وتركنا أنا وعاطف وضياء دون قرش لنتدبر أمور معيشتنا. أول أسبوع استطعنا تدبير أمرنا، وبعد ذلك كان عليّ اللجوء إلى الأمين عجاج لتأمين ماكلنا على أمل أن نتلقى بعض المال من الأردن. كم كان جواب الأمين: تأكلون وإذا استطعتم تدفعون. هكذا كان إنقاذنا من المهانة وسؤال المذلة من الآخرين. هذا هو فعل الإيمان الحقيقي بما علمته العقيدة. وهنا يا رفيقي الحقيقي لا بد أن اذكر أفضال آل نمر المعلم شقيق الأمين يوسف المعلم، هذا النمر المعطاء أبقانا مستأجرين في بنايته تسع سنوات بدون بدل إيجار، بل كنت أعرف أنه كان يساعد والدي بالمال. هذا هو شعبنا وهذا هو فعل العقيدة الصحيحة في نفوس الأصحاء الأتقياء. هذا بعض الخاطر على البال وأنا في لندن، وفاء وعرفاناً بصحة الإنسان العقيدي؟» (من رسالة الرفيق صباح قبرصي). ملاحظة: بقي الأمين عبدالله قبرصي مختبئاً في لبنان لما بعد خروج الأمين عجاج من السجن في نيسان من سنة 1962. وكان هناك من ينصح بتسليم نفسه للسلطات اللبنانية. ولكن الوالد، بعد العذاب الذي تعرض له، اعترض بشدة قائلاً إن الأمين قبرصي لن يخرج حياً إذا فعل.

مصبغة سورية

شارع جان دارك _ تجاه موقف الجامعة الأميركية

صاحبها: عجاج المهتار

صباغ، تنظيف، غسيل، كوي، رثي

يا لطيف هالمصبغة شو صبغت قلوب بالجمال، وشو نظفت عقول من التعصب، وشو غسلت

حزن وزرعت محلو فرح، وشو كوت لسان كل طائفي حقوق، ويا لطيف شو رتت جروح كل

قومي أصيل... (خبر نشره أحد الرفقاء مفضلاً عدم ذكر اسمه).

عدد من الأخبار مرّ أمامي في الأيام القليلة الماضية، فتح خزّان الذاكرة بكل ما فيها من آلام وعنفوان صامت. فقد نشر الرفيق نبيل المقدّم رسالة من الرفيق صباح قبرصي عن معاونة القوميين بعضهم لبعض في الشدائد والمحن. وكان الرفيق قبرصي قد أرسل لي تلك الرسالة منذ سنوات. الخبر الثاني نشره الرفيق فايز فارس عن زيارته للأمين عجاج في مطعم البيت. والثالث، نشره رفيق من الشام عن «مصبغة سورية» التي فتحها الأهل في شارع جاندارك، في الأربعينات من القرن الماضي، والتي تقمصت «مطعم البيت» في مطلع الخمسينات.

رسالة الرفيق قبرصي كانت موضع حديث مع أخي الأكبر هانيبال، تذكرنا فيها ما بعد انقلاب سنة 1961. كانت مرحلة مليئة بالصعوبات خاصة وأنا خسرننا معظم زبائن المطعم (مطعم البيت في رأس بيروت) خوفاً من ملاحقات المكتب الثاني، ناهيك عن «زناخة» موظفي بلدية بيروت الذين «حطّوا بكعّار» المطعم بأمر من المكتب الثاني، فكل يوم «مخالفة» وكل يوم عقوبة مالية. سألت هاني ما إذا كان يتذكر الشخص الذي زارنا بعد خروج الأمين عجاج من السجن في نيسان من سنة 1962. أجاب بالنفي. قلت له «أنا لا أنسى دعني أخبرك هذه القصة.» كنا طلاباً داخلين في مدرسة المنصف الأهلية، أختي هدى وهانيبال وأنا. وأذكر أننا في ثاني يوم الانقلاب، بعد اعتقال الوالد وقبل أن نعود من عطلة الميلاد ورأس السنة إلى المنصف، جمعتنا الوالدة، وقالت لنا بلهجة حازمة، «مين ما سألكم، شو ما سألكم، ما منعرف. فهمتوا؟» فهمنا.

مرت الأيام ببلادة وبطء، زرنا خلالها الوالد في السجن مرة واحدة. ومما أذكره عن تلك الزيارة أمران: الرائحة النتنة وأحد الحراس الذي «لطّش» أختي هدى، وكانت في عزّ فتوتها وجمالها، فسمع من الوالدة، الرفيقة «سيريا» ما يلزم من «قاموس الآداب العالية» الذي ورثته من جدي، بو عساف إسبر كرم، وأضافت إليه من عندها الكثير.

في منتصف شهر آذار، يستدعي مدير المدرسة أختي هدى ويقول لها إن والدتي اتصلت وعلينا الذهاب إلى بيروت في نهاية الأسبوع. لم يعط سبباً فكانت تلك الزيارة موضع تكهن بيننا. أما أنا فكانت متأكّداً أن والدي خرج من السجن.

وصلنا المنزل في شارع الصيداني في رأس بيروت، وكنا نقيم في الطابق الخامس. أذكر أنني صعدت الدرج - ثمانين درجة - قفزاً. فتحت الوالدة الباب، فتجاوزتها. «أين أبي؟» سألتها حين لم أره. «أبوك لم يزل في السجن»، أجابت باستغراب. «ليش جبتونا عالي بيت لكان؟» سألتها محاولاً حبس الدموع في عيني. «تسلملي.» غمرتني، وقد فهمت ما حدث. «أختك آمال قد ولدت بنتا جميلة جداً.» واقتادني بيدي إلى الغرفة الثانية حيث كانت آمال وإلى جانبها طفلتها مكّداً.

أعترف، بعد كل هذه السنين، أن فرحتي بولادة مَكَّدَا نَعَّصها حزني بسبب بقاء أبي من السجن.

بعد شهر، جاء أمر ثانٍ بالنزول إلى بيروت. هذه المرة كنا على دراية أن الوالد قد خرج من السجن. فقد نشرت الصحف الخبر. رؤية الوالد كانت صدمة. أين الشعر المطعج؟ أين النظرة الثاقبة؟ كان ضعيفًا، حليق الرأس، مريضًا. عرفت بعد ذلك بسنوات حجم العذاب الذي تعرَّض له في السجن بسبب قصائده الساخرة من السجانين، وأشهرها تلك التي لليوم يردددها القوميون، ومطلعها، «فيقوا يا رفاقي فيقوا..»

المهم. رنَّ جرس البيت. فتحت الباب، فظهر أمامي، وأنا الطفل ذو الثماني سنوات، عملاق يحمل باقة زهر. «هون بيت عجاج المهتار؟» سأل بلهجة لم أسمعها من قبل. «نعم». أحبته بخوف. «تفضل..» سلمني الباقة ونزل الدرج مسرعًا. أغلقت الباب، فإذا بأختي هدى آتية لتر من القادم.

«شو هاو».

«زهور».

«بعرف زهور، مين عطاك هني؟»

«ما بعرف، واحد زلمي».

« كيف بتاخذ شي من حدا ما بتعرفوا.» انتزعت الباقة مني وركضت إلى الدرج، ولكن الرجل كان قد اختفى.

جاءت الوالدة إثر الهرج الذي حصل، فرأت باقة الزهور. أخذتها من هدى، فإذا في وسطها مغلف. فتحته. كان بداخله مائة ليرة لبنانية!

مائة ليرة! في تلك الأيام، بالنسبة لنا، كانت تفك حبل المشنقة. فقد كان زبائن مطعمنا السابقون، وأكثرهم من طلاب الجامعة الأميركية، إذ يقتربون من المطعم، يقطعون الطريق إلى الرصيف المقابل تفاديًا لمضايقات المكتب الثاني. كنا في ضائقة كبيرة، ولا شك أن تلك المئة ليرة قد حلت أكثر من مشكل.

لا أدري عدد المرات التي رويت فيها تلك الحادثة لرفقاء وأصدقاء، ولعل بعضهم قد زهق من كثرة تكرارها. وكان السبب في روايتها مزدوجًا، الأول هو نوع من الشكر لمجهول وضع نفسه في خطرٍ لمساعدة عائلة قومية في وقت الضيق، والثاني، لعل أحدًا يعرف ذلك المجهول، فيعطيني فرصة لشكره، ولو بعد سنين.

سنة 2004 قررنا في مديرية أوتوا، إقامة احتفال كبير بمناسبة مئوية سعادته. كان قراراً جريئاً بناء على توصية من القوميين فيما كنا نسّميه «يوم عمل» نعقدّه في كل ثامن من تموز، نقيم فيه إنجازات السنة السابقة ونضع أهداف السنة الآتية. قررنا أن نقيم احتفالية من ثلاثة أيام، محاضرتان بالعربية والإنجليزية يليهما حفل عشاء كبير، وتكريم للقدماء من القوميين ومن رحل منهم. وهكذا كان. وكان المحاضران، الراحل الكبير الرفيق أنطوان بطرس، والدكتور عادل ضاهر.

لا تنس عزيزي القارئ أن 2004 لا تبعد سوى ثلاث سنوات عن أحداث أيلول 2001، وسنة واحدة عن غزو العراق. وأن الوضع لأي ناطق بالعربية في أميركا الشمالية لا يحسد عليه. أعلنّا عن الاحتفال قبل موعده بوقت طويل، ودعينا القوميين من مختلف أنحاء القارة الشمالية، فلبوا النداء. أذكر أن أكثر من أربعين ريفياً ورفيقة وفدوا إلى أوتوا بما فيها وفد كبير من كاليفورنيا، في طليعته الراحلان العزيزان الشاعر خالد زهر الذي ألقى قصيدة في اللية الأخيرة، والرفيق رودلف تكلي، والاثنتان فجعا بهما قبل الأوان بكثير.

بعض الضيوف نزل في فنادق، وبعض آخر في بيوت قوميين أصدقاء. أما نحن كهيئة مسؤولة، فقد أقمنا حفلي عشاء للضيوف في أحد المطاعم. في العشاء الأول، وفيما أدور على الطاولات مرحباً بالضيوف ومتعرفاً عليهم، توقفت عند طاولة «الأستاذ» أنطوان بطرس. والأستاذ أنطوان كان مديري في «دار الصياد» لمدة سنة، ولكن تلك قصة أخرى. كان أنطوان، وإلى جانبه الرفيق غسان الياس من كاليفورنيا، يستمعان إلى كهل لا أعرفه. جلست بالقرب من أنطوان مستمعاً. كان الكهل يتحدث بلهجة نسميها في بيروت «غلاوي» مع لفظ الغين جيماً مصرية. قال متابعاً قصة دخلت في منتصفها: «آني كنت أزعر، ضريب مواس، أفرض خوة عالمحلات بالمصيطبة. تعرفت عواحد إسمو لبيب ناصيف، أم (قام) عملني أومي (قومي)، وصرت بني آدمين. هلاً لما صار الإنقلاب، (الانقلاب) وفاتو الأومبي (القوميون) عالحبوسات، رجعنا نبرم عالمحلات بس مش لنفرض خويي، صرنا نجمع مصاري لعائلات الأوميين.»

قاطعته بحدز. «تصديقاً لكلامك، نحن صار معنا شي من هذا» ورويت قصتي الشهيرة.

«وين كنتوا ساكنين؟»

«في شارع الصيداني، أنا ابن الأمين عجاج المهتار.»

«هيذا أني.» قالها ببساطة.

لا أستطيع وصف المشهد التالي بسهولة. ما أذكره أننا وقفنا، وتعانقنا، وكان لم يزل مراداً مع

انحناءة بسيطة في ظهره، وبكيت. أذكر أن الرفيق غسان الياس ضرب بيده على الطاولة: «رفقاء، سَمَع إذا بتريدوا، سَمَع.» وروى ما حدث للحضور. كان المارد الذي دق بابنا سنة 1962، لنتلقى بعد ثماني وثلاثين سنة، هو الرفيق طوني نصر، (البسكنتاوي).

صفت أخي هاني لمدة، ثم كمن استفاق من حلم قال لي، وأنا عندي قصة لم أروها لأحد من قبل. أنت تعرف أنني دخلت إلى مدرسة «الآي سي» سنة 1967 ولكن هل فكرت يوماً كيف تمكنا من دفع قسط المدرسة، وهي من أعلى مدارس بيروت؟ أجبتته بالنفي فيما بدأت ملامح فضول تتكون في ذهني، فسنة 1967 كان الطفر لم يزل ضيقاً ثقيلاً لا يرحل عن بيتنا.

قال: «كنت أتحدث مع الوالد في المطعم بعد ظهر يوم من صيف تلك السنة. كان لدي رغبة كبيرة في دخول 'آي سي' ولكن أتى لنا ذلك وقُسطها غَالِ جداً. كانت علاماتي ممتازة، فحصلت على منحة بنصف المبلغ، ولكن من أين باقي القسط؟ من أين ثمن الكتب والقرطاسية؟ استمع الوالد لي وأنا أشكو همّي صامتاً، وحين انتهيت اکتفى بالقول: 'بتنحل'».

«ما أن أنهينا كلامنا حتى دخل شخصان لا أعرفهما. وقفت معتقداً أنهما من الزبائن، ولكن أحدهما، حين رأى والدي، اتجه إليه، وبعد كلمات قليلة منه، وقف الوالد مذهولاً فرحاً وعانقه طويلاً. عرّفني الوالد على الشخص، ولكن مع الأسف، فإن اسمه لا يحضرنى الآن. وحين سأل الرجل عني، وعن دراستي أخبره الوالد بفخر، أنني متفوق، وأني حصلت على نصف منحة من الآي سي.»

«في اليوم الثاني، وفيما أنا في المطعم أساعد الأهل، دخل الشخص نفسه، وسلّم والدي مغلفاً قائلاً له: «هذا لقسط المحروس، تحيا سورية.»

«أكثر ما يزعجني» قال أخي، «إن أبي أخبرني باسم هذا الشخص، ولكني لا أتذكره. كل ما أذكره أنه من عكّار وأنه جاء في زيارة إلى الوطن من المكسيك بعد غياب طويل. والآن بعد كل هذا العمر، أشعر أنني مدين له بما أنا عليه. فلولا تلك المساعدة لما دخلت «الآي سي». ولولا ذلك، لما دخلت الجامعة الأميركية بمنحة كاملة، ثم بمنحة للماجستير، فالدكتوراه. هل تستطيع مساعدتي لأعرف من هو؟»

جاء دوري لأن أجلس ساهماً. «لا أعدك، ولكن سوف أحاول.»

عدت من زيارة أخي في مزرعته وفكرت بالموضوع. من هو القومي من عكار، صديق الوالد، الذي جاء لبنان من المكسيك سنة 1967 بعد غياب طويل، وقدم لنا هذه المساعدة؟ لم يطل بي التفكير كثيراً، فالشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي في كشف هذا السر هو الأمين

الجزيل الاحترام، وحافظ تاريخ الحزب، لبيب ناصيف. اتصلت بالأمين لبيب وأخبرته بالقصة. فكر ملياً ثم قال، «أعطني كم يوم. أعتقد أنني أعرف، ولكنني أريد أن أتأكد.»
بعد أيام قليلة، يتصل بي الأمين لبيب قائلاً. «توفيق الأشقر.»
«عفوًا؟»

«توفيق الأشقر، الشخص الذي سألتني عنه هو الأمين الراحل توفيق الأشقر.» لقد أرسلت لك مقالاً كتبه قريبه الرفيق فايز فارس.

منذ أيام، نشر الرفيق فارس خبراً على فايسبوك ضمّنه زيارته سنة 1967 مع الأمين توفيق الأشقر إلى الوالد في المطعم، فأحيا ذكرى الموضوع ودفعني لجمع هذه القصص الثلاث ومشاركة الناس بها. الغريب، أن لقاء سنة 1967 بين الأمين توفيق والأمين عجاج كان الأول. فالأمين توفيق الأشقر، على ما أخبرني نسيبه الرفيق فارس، غادر لبنان سنة 1927، وانتمى إلى الحزب في المكسيك، وقامت بينه وبين الوالد صداقة بالمراسلة استمرت لسنوات، وتوجت في ذلك اللقاء.

وبعد، هناك عبرة تربط كل هذه الأحداث. صاحب المروءة في كل منها لم يأت على ذكرها طوال حياته، ولم يطلب شكرًا. ولكن المتلقي هو الذي خبّر عنها. العبارة هي المحبة القومية التي تعمل بصمت ولا تطلب شكرًا، والأخلاق القومية التي تسعى جاهدة لمعرفة صاحب الخير لشكره. إنها «قرضة» سعيد تقي الدين «والوفا»، إن لم يكن للشخص المعني مباشرة، فلذكراه. والأهم، الاقتداء بمروءته حيث يمكن، ودائمًا بصمت.

الردّة

2022-1-3

والردّة في معناها القاموسي وليس الديني، هي «رجوع وعطفة». وليس هناك أفضل من هاتين الكلمتين لوصف حالة عدد كبير من القوميين حيال أحد الأغراض الأساسية من وراء تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، نعني به غرض تغيير التقاليد والعادات. وقبل أن ندخل في السبب الداعي للانشغال بهذا الموضوع، نذكّر بما كتب وعلمّ سعادته حول التقاليد والعادات ودور الحزب في تغييرها وصهرها.

«إنّ نظامنا يرمي إلى صهر التقاليد المناهية لوحدة الأمة. والتقاليد كما أوضحت في نشوء الأمم ليست شكلية، سطحية، بل لها مساس بالاقتناعات العميقة في نفس الإنسان، وهي تختلف عن العادات، فالعادات هي التي يمكن أن تتغير بسهولة لأنها تتعلق بسطحيات الحياة، أما التقاليد فلها علاقة بالاقتناعات النفسية العميقة...فالتقاليد التي تمثل إما مبادئ أو استمراراً لمبادئ ليست لأجل حياة الأمة وارتقاؤها فيجب أن تصهر لأجل الحياة وليس لأجل أن تكون الحياة لها.» (المحاضرة الثانية.)

والصهرُ في التعدين يعني إذابة المعدن أو المعادن بغية الخروج بمعدن جديد. وفي هذا المعدن الجديد، نادراً ما يرى أثر لأي من المعادن القديمة. نتابع مع سعادته:

«...إنّ غرض الحزب هو توجيه حياة الأمة السورية نحو التقدم والفلاح، هو تحريك عناصر القوة القومية فيها لتحطيم قوة التقاليد الرثة وتحرير الأمة من قيود الخمول والسكون إلى عقائد مهترئة... ونحن في الحزب في مدة نحو خمس عشرة سنة ونيف قد أنشأنا وكوّنا تقاليد جديدة تظهر فيها قيمة نظرنا واتجاهنا وفاعليتنا في الحياة. وإننا

حريصون جدًّا على أن تستمر هذه التقاليد الجديدة التي تؤمّن حياة جديدة فيها العز، والكرامة، والخير، والمجد.» (المحاضرة العاشرة).

إذن، التقاليد لها مساس بالاختناعات العميقة للإنسان، وبعضها مدعاة للخموم والسكون إلى عقائد مهترئة، وهذه العقائد المهترئة يجب «صهرها» لأجل الحياة، وأن الحزب نجح خلال خمس عشرة سنة، أي منذ تأسيسه ولغاية تاريخ المحاضرة، في إنشاء تقاليد جديدة تظهر فيها قيمة نظره واتجاهه وفاعليته.

ما الداعي لهذا الكلام كله؟

الداعي هو ما نلاحظه من تباين ناشئ في صفوف القوميين بين نظرتين إلى الموت حين نقرأ نعيهم لأحبّتهم. الأولى تقول «البقاء للأمة» والثانية تقول، «رضوان الله عليه» أو أي من مثيلاتها. بعض يكتفي بنعي حزبي صرف، وبعض بنعي ديني صرف، أما الأكثرية فـ «تَشْكُلُهَا» بخلط «من آمن بي وإن مات فسيحيا»، أو «أيتها النفس المطمئنة»، بـ «البقاء للأمة والخلود لسعاده»!

هذا التباين الذي يؤدي إلى نقاشاتٍ حادة وجارحة أحياناً، يخفي وراءه أمراً أكبر في نظرنا. إنه يحمل عقلية «رَجُلٌ في فلاحه النهضة ورجُلٌ في بُور المرجعيات الدينية». هذه العقلية نفسها يمكن سحبها في جميع مناحي الحياة، من التأخي مع الواقع السياسي والانخراط في ألعبيه، والذي أوصلنا إلى «الواقع اللبناني» وكل الوقائع التي تلت، وصولاً إلى استشارة المذاهبيات في خلافاً حزبية داخلية.

داخل الحزب؟ نعم. ولعل المثل الأكثر قباحة هو قيام فخري معلوف، الأمين الذي عوّل عليه سعادته كثيراً، وانتهى عضواً في أحد أكثر المنظمات الكاثوليكية تطرفاً، برمي سعادته بتهمة الإلحاد. السبب في ذلك ما ورد في كتاب نشؤ الأمم من نقض للتعليل الديني، وموقف سعادته من تدخل الكنيسة الكاثوليكية في السياسة. ولكن الأمر لا ينته مع تلك الحادثة التي حسمها سعادته نظامياً. إن هذه الظاهرة تنتشر، وسوف نعطي بعض الأمثلة الموثقة التي نحن على معرفة بتفاصيلها.

♦ قيام منفذية في الحزب بالدعوة إلى "إفطار عن أرواح شهداء الحزب". هذا استدعى سخرية مرّة، ولكن خطيرة في مدلولها، إذ كتب أحد الرفقاء معلقاً، "وماذا عن الشهداء المسيحيين؟"

♦ قيام مديرية في الحزب بإقامة "إفطار" في مركز المديرية. وحين اعترض معترض على

فتح هذا الباب وتداعياته قيل له، "ولكنك حين كنت مديرًا كنت 'تجرّنا' إلى الكنائس لنقوم بواجب التعزية."

♦ قيام مسؤول حزبي بالكتابة إلى عدد من القوميين واصفًا مديريتهم أنها "عصابة..." والنقاط الثلاث هي مذهب معين، بسبب كون غالبية أعضاء تلك المديرية من ذلك المذهب.

♦ موافقة مسؤول حزبي آخر على رسالة المسؤول الأول ووصفه إياها أنها "رائعة".

♦ قيام مسؤول حزبي باتهامي شخصيًا أنني اتخذت موقفًا معينًا بسبب "مذهبيتي"، علمًا أنه أخطأ في المذهب المسجل في قيدي العائلي، وأخطأ أكثر في اتهامي بما لا أعترف به أساسًا.

كل هذه الممارسات نُقلت إلى القيادات الحزبية العليا حين حصولها، فكان موقفها الدائم تثاؤبًا طويلًا. وليس هذا بالأمر المستغرب، أو ليست هي نفسها التي تنشر صورًا للزعيم مع مرجعيات مذهبية في استجداء سياسي رخيص ويائس!

من التقاليد الجديدة التي حاول سعادته غرسها في نفوس القوميين أولًا، نظرة جديدة إلى الحياة والموت تنطلق من حياة المجتمع وخلود الإنسان فيه من خلال أعماله، وعدم التدخل في المعتقدات الفردية حول الما وراء بين شخص وآخر. واستطرادًا أن الإنسان الحقيقي هو الإنسان - المجتمع، وأن الأفراد يأتون ويذهبون أما الأمة - المجتمع، فهي الباقية. وقد اختصر سعادته كل هذا، حيال الموت، بكلمتين: «البقاء للأمة».

قبل «البقاء للأمة»، كان كل سوري يعزّي أحبائه انطلاقًا من انتمائه المذهبي، وكله متمحور حول الجنة والنار وطلب «الرحمة» لروح الميت عبر استرضاء الله ورساله. وليس صعبًا على المتتبع لعبارات التعزية تلك معرفة انتماء صاحبها المذهبي، فنعي يبدأ بـ «من آمن بي وإن مات فسيحيا» غير «بالرضى والتسليم» وغير «أيتها النفس المطمئنة»، وهكذا.

لنكن واضحين. إن أخطر التقاليد البالية التي عمل سعادته على صهرها هي هذه التقاليد الدينية التي تنطلق من المرجعيات الدينية البالية المجزأة لوحدة الأمة، وتغذيها في أن معا. صهرها لا يكون بالردّة إليها والاتكاء عليها، بل بنبذها وبناء تقاليد جديدة فيها حياة للأمة.

قبل النهضة كان يمكن القول «رضوان الله عليه». في النهضة، لنا رؤية موحدة للحياة والموت نخترها بكلمتين: البقاء للأمة. نقطة على السطر.

سعادته... طقساً

2022-7-9

في شهر تموز من سنة 2022، أقامت مؤسسة سعادته للثقافة أسبوعاً من النشاطات تحت عنوان «المواكبة»، أي مواكبة المراحل الأخيرة من حياة سعادته، فكان هذا المقال.

... و«طقساً» هنا هي حالٌ، وتعريف الحال لغَةً هو: «الوقت الذي يكون فيه الإنسان الآن، وما ينطوي عليه من خير أو شر.» ومن هذا التعريف يمكن لنا أن نفهم أن الحال هو حالة مؤقتة، ولكن يمكن لها أن تطول أو تستقر. وما نراه من طقوس ومفردات ترافق ذكرى استشهاد سعادته، تتصاعد وتيرتها سنة بعد سنة، تدفعنا للتحذير من تحويل سعادته إلى أيقونة دينية نتمسح بها، أو «لطمية عاشورائية» نندبه فيها، ومن ثم نتابع حياتنا اليومية قاعدين عن المهمة التي دعانا إليها. إن ما يسمى بـ «المواكبة» التي ضجّت مواقع التواصل الاجتماعي بالدعوة إليها في الأيام السابقة للثامن من تموز بشكل متصاعد وصولاً إلى ذروة «لاقونا»، أمر يستدعي الاهتمام. وأول مرة سمعت بهذا المصطلح «المواكبة» كان من رفيقة انضمت إلى تنظيم عبد المسيح هرباً من تنظيم الروشة منذ سنوات. وصفت لي تلك الرفيقة الجو الديني الذي يسيطر أثناء المواكبة إذ يكون هناك وقفة عند كل محطة منذ تسليم سعادته إلى الأمن العام اللبناني في دمشق إلى لحظة إطلاق الرصاص عليه وما تلاها من دفن مستعجل، في جو من الرهبة المفروضة. الخطر هو في انتقال هذه الظاهرة من جماعة منغلقة على نفسها تمارس طقوسها في الظلام، إلى واحدة من أكبر المؤسسات الثقافية التي تحمل اسم سعادته، بحيث تقوم هي بالترويج لها ويقوم أعضاء فيها بالدعوة لها عبر مكبرات الصوت الافتراضية وبشكل يومي.

المواكبة هي تخدير جماعي حزين لا أكثر ولا أقل.

عودة إلى المهمة التي دعانا إليها.

نقرأ كثيراً ومن مثقفين قوميين هذه العبارة: «غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة»، نقطة على السطر. ومن هذه العبارة، استنبط أحدهم كلمة «نهضوي»، فأصبحت مقياساً عامّاً غامضاً لا يفيد شيئاً: فلان «نهضوي»، «النهضويون»، وإلى ما هنالك من مشتقات.

ما ينسأه، أو يتناساه الذين يكتفون بالجزء الأول، من القسم الأول، من غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي، هو القسم الثاني والثالث: تنظيم حركة وإقامة نظام جديد. ومع أن بعث نهضة وتنظيم حركة أمران متلازمان، بل إن تنظيم الحركة شرط ضروري لبعث النهضة التي أرادها سعادته، فإن القسم الثالث لا يمكن له القيام من دون حركة ونهضة. ونحن نستنتج من مراقبتنا لمسار حركة الحزب والمثقفين فيه خصوصاً، أن التركيز على «بعث نهضة»، هكذا في المطلق، وإهمال تنظيم حركة وإقامة نظام جديد ما هو سوى هروب من المواجهة لاستحقاقين داخلي وخارجي. الاستحقاق الداخلي هو كيف يمكن فعلاً بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئ الحزب، من دون حركة واحدة منظمة، «تفعل إدارة وسياسة وحراباً» لتحقيق أهدافها. أما الخارجي، فهو كيف يمكن إقامة نظام جديد يقضي على كل الأنظمة والتشكيلات الرجعية القائمة من دون هذه الحركة.

إن كون هذه الحركة مشلّعة دون أن يتمكن القوميون من وقف هذا التشلّع، هو مدعاة لسؤال خطير: هل انفصّ القوميون من حول سعادته، وتركوه ينادي أجيالاً لم تولد بعد؟ هل نفهم الآن خطر المواكبة؟ هل نفهم الآن خطر المحاضرات عن التاريخ السوري منذ ما قبل الزمن التاريخي، وعن حياة سعادته واستشهاده، فيما حزب سعادته مخطوف ومنهوب وبعيد عن تحقيق قضيته.

ويأتيك «مثقف» فيقول «لا حل». تشير إلى منهاج عمل كتبه قوميون صرفوا الساعات في بحث جذور المشكلة واستنباط الحلول العملية لها. فيمط شفثيه قائلاً، «آه، ذلك المنهاج، إنه طويل». طويل؟! عشر صفحات بضمنها ملخص تنفيذي وخلاصة، مع روابط إلى عدد من الملاحق الاختصاصية تعالج أزمة الحزب البنوية، لا قدرة المثقف على قراءتها. ولكنه يستلذ الجلوس عشر ساعات في مواكبة طقسية يبكي فيها على سعادته وعلى ما حل بحزبه!

قلنا إن الحال في اللغة هو حالة وقتية. وحال القوميون وبعض المثقفين في طليعتهم،

في هذه اللحظة التاريخية، هي انزلاق في طقوس دينية خطيرة لا تنقذ أمة ولا حزبًا. في هذه اللحظة التاريخية، المثقفون القوميون أمام مسؤولية تاريخية، فإما طلاق مع الطقوس وتنكب لمهام الحركة وإقامة النظام الجديد، وإلا الندب في هيكل لا علاقة له بسعاده القائد سوى بالاسم.

ليته لم يحدثه

2023-7-7

وكما حدث في تموز 2022، مما دفعني لكتابة مقال بعنوان «سعادة طقساً»، عاد وتكرر سنة 2023.

في مقالته الرائعة، «حدثني الكاهن الذي عرفه»، يقول سعيد تقي الدين إنه قصد بيت الكاهن الذي عرف سعادته قبل إعدامه أربع مرات قبل أن يتوفق ببقائه والحديث معه. ذلك الحديث الذي انتهى قطعة أدبية ملحمية وثقت اللحظات الأخيرة من حياة ذلك الرجل الفدّ قبل تنفيذ جريمة اغتياله.

ليت المرّة الخامسة كانت كسابقاتها، وليت سعيد تقي الدين لم يوثّق تلك اللحظات. عندها كنا خسرنا قطعة أدبية رائعة، وتوثيقاً لتلك اللحظة التاريخية، ولكننا كنا كسبنا تحرير سعادته من تحويله إلى أيقونة دينية، وتحويل استشهاده إلى درب الأمّ سنوية.

إن معظم ما نقرأه ونشده مع حلول الثامن من تموز يصب في هذا الاتجاه. بل إن مؤسسة ما يسمى بـ «المواكبة» وجعلها تقليدًا سنويًا يتخلله مسيرات وطقوس ترافق الساعات الأخيرة من حياة سعادته لحظة بلحظة، ما هو سوى تأكيد على ما نقول. وإن استخدام عبارات مثل «الفداء» و«حمل الصليب» و«القدسية» وعبارات من مثل «إن موتي شرط لانتصار قضيتي» وسواها هي أيضًا تصب في هذا الاتجاه.

ولا يعني نفي البعض كون المواكبة «عبادة أشخاص، أو طقوسًا، أو شعائر، أو كلامًا ببغائياً بلا فهم ولا تبصر» أنها ليست كذلك. بالنسبة لنا إنها هذا كله.

طبَعًا، لا يمكن تحميل سعيد تقي الدين وحده هذا الوزر. إنه نابغ من أمرين، الأول هو التقاليد الدينية المتجذرة فينا منذ ما قبل الزمن التاريخي الجلي، ولكن الأخطر هو غياب غاية الحزب - سواء الأولية منها أي أن يكون الحزب حركة الشعب العامة - أو الغاية العامة المثبتة في الدستور، غيابهما كليًا عن عقل القيادات التي تعمل تحت مسمى الأحزاب السورية القومية الاجتماعية.

هذان العاملان، مجتمعين، يؤديان إلى تحويل أعمالنا كلامًا وطقوسًا وشعاراتٍ وعباراتٍ لسعاده، نرددها كما يردد المؤمنون الأدعية والصلوات، ولا نرى المأساة التي تحل بحزبنا وأمتنا. والأخطر من هذا كله هو أن الذين يقودون هذه الحملة، سواء عن دراية ام لا، هم المثقفون القوميون. إن الأنشطة التي نراها على معظم المنصات التي تتعاطى الشأن الثقافي هي نشاطات رجعية، بمعنى أنها تنظر إلى الوراء فتصف التاريخ والثقافات السورية القديمة، وتحدثنا عن معنى الاستشهاد، وعن عظمة سورية، متجاهلة تمامًا الفيل القابع في غرفة الجلوس والذي كلما تحرك كسر ما كسر وحطم الفرش والأثاث. هذا الفيل هو أن حزب سعاده قد تحول من حزب غير اعتيادي إلى حزب دون اعتيادي - راجع مقالنا «البحث عن زيوسودرا»، وأن القوميين راضون بهذا الواقع.

لقد سررنا جدًّا أن الدعوة لما سُمي «ويبقى العرزال يجمعنا» قد ألغيت، ونأمل ألا تتكرر، علّ في هذا بداية لإعادة تصويب نظر القوميين إلى حيث يجب، قضية الحزب والوسائل الآيلة لانتصارها. ما عدا ذلك ما هو سوى طقوس وصلوات نقدمها للفيل القابع بيننا.

سرُ سورية

2023-2-11

بعد الزلزال.
«لو طالع بإيدو
بيها الأيام
بيلبس الأسود
ياسمين الشام.»
الشاعر عماد زهر.

تسع كلمات تختصر المشهد كله. ياسمين الشام، رمز الحب والفرح يتشح بالسواد حدادًا على ضحايا زلزال الوطن السوري من طوروس جنوبًا.

في المقلب الآخر، ترى «دال عونات» وفزعات من قرى الجنوب، والغرب وبيروت والشمال إلى كل دسكرة في الشام؛ من العراق من الأردن من فلسطين المحتلة، تسري كالدماء في شرايين عريضة ودقيقة وجهتها المناطق المنكوبة. دقق، بل سيل يجرف الحدود الاصطناعية قائلاً نحن جسم واحد وقلب واحد مهما قسمتنا الأيام وقست علينا الظروف.

وتسمع عن عسكري أوقف سيارة محملة بالمعونات خمس دقائق توجه فيها إلى مهجعهم وعاد بكيس أرز ليسند به جائعًا. وتسمع عن رسامين وأدباء يعرضون إبداعهم عونًا. ترى الجاليات السورية في شتى أنحاء العالم تجمع التبرعات، تضغط على سياسيين عقوقين ليرفعوا أظلم العقوبات عن أم الحضارات.

تنتشل طفلة وأخوها بعد أن حمته بكتفها لساعات، تفرح سورية كلها. يموت طفل، تبكي سورية كلها. وهناك، بين بسمه ودمعة، يختبئ سرُ سورية.

ليس هناك من وطن في العالم يحمل هذا الحب، ويعطي هذا الحب، رغم كل شيء. منذ فجر التاريخ وسورية تعطي بحب وفرح. كل يوم نكتشف عطاءً جديدًا من تحت طبقات التاريخ: تصحيح لأسطورة حواء وأدم بما ينفي الذنب والخطيئة ويحولهما بطولة وعطاء. قطعة آجر صغيرة عمرها آلاف السنين، تغير مجرى فهم الرياضيات وتقومه. قطعة موسيقية من فجر التاريخ تتحدى من يفك ألغازها.

وليس هناك من وطن كان من استفاد منه عاقبًا به حاقدًا عليه كسورية. اشطب هذه العبارة. فنحن نسامح وإن لم ننس.

ما هو سرُّ سورية؟ إنه كلمة واحدة من حرفين أولهما حاء. احزر الباقي. لهذا نقول كل يوم، سورية لك السلام. لهذا ندعو، «رب صن سورية»، لهذا نقول مع كل شهقة، تحيا سورية.

«البحث عن سورية الكبرى»

2023-3-26

في السنة الماضية صدر كتابان عن الحزب السوري القومي الاجتماعي باللغة الإنجليزية. الأول بعنوان بحثاً عن سورية الكبرى، In Search of Greater Syria بقلم كريستوفر سلمون، Christopher Solomon، والثاني بعنوان نهوض سورية الكبرى وسقوطها، The Rise and Fall of Greater Syria، بقلم كارل يونكر، Carl Yonker. والكتابان يتعلقان بدراسة تاريخ الحزب السوري القومي السياسي وممارساته. الكاتب الأول أمريكي من أصول سورية، إذ يقول في مقدمة الكتاب إن فرعاً من عائلته هاجر إلى الولايات المتحدة سنة 1907 من قرية صغيرة بين طرطوس وحمص، وأن ثمة قرابة بعيدة تربطه ببعض أعضاء الحزب. يعمل كريستوفر سلمون في مؤسسة استشارية متخصصة بشؤون الدفاع في واشنطن العاصمة. أما الكاتب الثاني، فهو أستاذ محاضر في جامعة تل أبيب، قسم الدراسات العربية والإسلامية حيث تتركز دراساته على القومية السورية والقومية العربية والإسلام الشيعي.

الكتابان يسردان تاريخ الحزب بإسهاب وبكثير من التفاصيل التي تصل في كتاب سلمون إلى انتخابات 2020. لن ندخل في عرض تفاصيل المضمون، بل سوف نركز في هذا المقال على السبب الذي حدا بكل منهما لوضع الكتاب، والنتائج التي خلصا إليها كل على حدة، ففي ذلك عبر مهمة. ولن نعلق على آراء يونكر حول ما حدث منذ عودة سعادته سنة 1947، ولحين اغتياله، ولا عن اغتيال المالكي، فكل منهما يحتاج لبحث منفصل.

يتفق الكاتبان أن الحزب السوري القومي هو واحد من أقدم الأحزاب في المشرق، وأن تاريخه غامض، ويستغربان عدم قيام الباحثين بوضع الدراسات عنه. ويعزوان ذلك، في شكل

عام، إلى كونه لم يتمكن من تحقيق أي من أهدافه الكبرى بعد مضي أكثر من ثمانين سنة على تأسيسه. وفي المقابل يستغريان قدرته على الصمود طوال هذه السنين، ويعترفان بتأثيره على عدد من الأحزاب والمنظمات سواء لناحية ولادتها، مثل الكتائب والنجادة اللذين أسسهما الفرنسيون لمناوئته، أو حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي - بالرغم من الخصومة العقائدية والسياسية معه - أخذ بالكثير من مفاهيمه في صياغة بعض سياساته.

يركز سلمون على الدور الذي يمكن للحزب أن يلعبه في المستقبل، فيقول في مقدمة كتابه:

«مع أن الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يزال صغيراً كحركة سياسية في المشرق، إلا أنه يقدم موضوعاً مفيداً لدراسة حالةٍ ترصد مسار المنطقة. إذا ضعف النظام السوري أو إذا أزيل بالكامل، فسيكون من الضروري رصد الحزب السوري القومي الاجتماعي كعامل مهم في إعادة ترتيب المنطقة الذي سيلبي انهيار الفرع السوري من حزب البعث العربي الاشتراكي. أما إذا تمكن الرئيس بشار الأسد من توطيد سلطته، فمن المتوقع أن يكافئ الحزب على موقفه خلال الحرب. ولكن، إذا بالغ الحزب في تقدير قوته، فمن المتوقع أن يعاقب على ذلك وأن يتعرض للاضطهاد.»

أما يونكر، فإنه يركز في آخر ثلاث صفحات من الكتاب على العوامل التي أدت إلى فشل الحزب، فيقول تحت عنوان: «حركة محبطة، إلى أين من هنا؟» ما يلي:

«إن قصة الحزب السوري القومي الاجتماعي هي قصة طموحٍ مُحْبَطٍ وغير محقق. فإذا ما حكمنا على الحزب وفق غايته يبدو فشله في أن يصبح حركة شعبية عامة، وأن يمتلك قوة سياسية معتبرة ودائمة، وأن يحدث التغييرات الاجتماعية والسياسية التي يريدها، واضحاً لأي باحث.» بعد ذلك يقوم الكاتب بتعداد أسباب عدم نجاح الحزب، والتي نختصرها بالعناوين التالية:

♦ القومية السورية الصارمة التي ينادي بها الحزب لم تلق قبولاً عاماً. كذلك لم تلق دعوته لتغيير البنى السياسية - الاجتماعية القائمة قبولاً، بل تكتلت القوى التي تقوم عليها هذه البنى ضده. ففي لبنان لقيت الدعوات العروبية واللبنانية قبولاً أكثر لدى الطائفتين السنية والمارونية. وفي الشام لقيت الدعوة العروبية نجاحاً أكبر لدى الأكثرية السنية فيما تمكن الحزب من استقطاب قوى من الأقليات الأرثوذكسية والدرزية والشيوعية (في لبنان والشام).

- ♦ الانتداب الفرنسي قمع الحزب، واستمرت في ذلك الحكومات المتعاقبة في كل من الشام ولبنان، وإن بدرجات مختلفة وفي ظروف تاريخية معينة.
 - ♦ إن التركيبة الطائفية اللبنانية وانعكاسها على الواقع السياسي تقوّض النظرة القومية في شكل عام، وتعيق من قدرة الحزب، خاصة في الانتخابات، إلى تحقيق مكاسب حتى في المناطق المؤيدة له. هذا الأمر سوف يزداد خاصة مع قيام تحدٍ جديد للحزب هو أنه تحول إلى حزب من أحزاب السلطة القائمة. فمع أنه لا يزال يدعو في خطابه النارية إلى العلمانية والمقاومة، إلا أن أداءه، في الواقع، لا يختلف عن الأحزاب اللبنانية الأخرى لناحية عقد الصفقات والتضحية بالمبادئ في سبيل المحافظة على النفوذ الضعيف الذي يملك.
 - ♦ عدم قراءة الواقع السياسي بشكل سليم واتخاذ القرارات السيئة. من هذه موقف سعادته من الحكومة اللبنانية فور عودته من المنفى سنة 1947، وإعلانه ثورة عليها بعد سنتين، اغتيال العقيد المالكي في الشام سنة 1955، والانقلاب الفاشل في لبنان سنة 1961.
 - ♦ في غياب سعادته، انقسم الحزب حول عدد من القضايا تتراوح بين ما هو شخصي، سياسي، عقيدي ودستوري، خاصة الخلاف بين السلطين التشريعية والتنفيذية.
- بعد هذا السرد لنقاط الضعف التي يعاني منها الحزب، يطرح الكاتب سؤالاً مهماً: «هل يعني كل هذا أنه يجب تصنيف الحزب السوري القومي الاجتماعي بأنه «حركة فاشلة»؟ ويجب على سؤاله بالقول:

«كما بيّنت هذه الدراسة، لا يكون جواب كهذا خاطئاً فقط، بل إنه يتغاضى عن الإنجازات التاريخية التي حققها الحزب في لبنان والشام. وأعظم هذه الإنجازات تشكيله حركة استطاعت اختراق الشقوق الاجتماعية والسياسية. ومع أن معظم أعضاء الحزب يأتون من شباب الطبقة الوسطى ومن الطلاب والتجار والمثقفين وذوي الاختصاص والموظفين، فإنه تمكن أيضاً من الوصول إلى الأرياف في كل من لبنان والشام. إن نظرة سريعة على لائحة كبار المثقفين والفنانين والسياسيين بين اللبنانيين والفلسطينيين والشوام، ترينا أنهم في فترة ما، خاصة أثناء وجود سعادته، انتموا إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. في الحيز السياسي، تمكن الحزب من بناء شبكة من العلاقات، ولكنها كانت دائماً محفوفة بالعقبات ولم تمكنه من تطبيق برنامجه

السياسي. بالرغم من ذلك، يمكن القول إن هذه العلاقات كانت ناجحة. لقد قدمت لحلفاء الحزب القوة التنظيمية والسياسية التي تحتاجها، وأتاحت للحزب حرية العمل والانتشار.

أما خاتمة الكتاب، فهي جديرة بالاهتمام. إنها تشير إلى قوة الحزب الحقيقية: سعادته نفسه. ينهي الكاتب كتابه كما يلي:

«بالرغم من كل نقائصه، وتاريخه المليء بالطموحات المحبطة، وانشقاقاته المتزايدة، فإن الحزب السوري القومي الاجتماعي قد تمكن من البقاء كحركة سياسية منظمة. إن إرث سعادته، وأفكاره، لا يزالان عامل جذب واستقطاب لعدد صغير، ولكنه مهم، من اللبنانيين والشوام. كيف تمكّن تراث سعادته والحركة التي أسسها من اظهار هذا الثبات والمرونة بالرغم من كل الصعوبات الحادة، الداخلية والخارجية التي واجهها؟ بالفعل، كيف يمكن للحزب السوري القومي الاجتماعي، بالرغم من تاريخه المليء بالانشقاقات والإحباط، أن يستمر في مسيرته، دون أن يرتدع، في صراعه من أجل سورية الكبرى، خلف رايات الزوبعة الحمراء؟»

البحث عن زيوسودرا*

2023-6-22

نشر في كل من الفينيق وصحيفة الأخبار اللبنانية في 22 حزيران 2023
«منذ الساعة التي عقدنا فيها القلوب والقبضات على الوقوف معاً والسقوط معاً في سبيل
تحقيق المطلب الأعلى المعلن في مبادئ الحزب السوري القومي وفي غايته، وضعنا أيدينا
على المحراث ووجهنا نظرنا إلى الأمام إلى المثال الأعلى.» سعاد، الخطاب المنهجي الأول،
1935.

«وقال آخر أيضاً اتبعك يا سيد، ولكن ائذن لي أولاً أن أودع الذين في بيتي.» فقال له يسوع
ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء.» يسوع الناصري، لوقا 6:9-61

كتاب نزار سلّوم الأخير، «البحث عن زيوسودرا، عن مشروع أنطون سعاد ومصير سورية»،
كتاب مفصلي في تاريخ النهضة السورية القومية الاجتماعية، وتاريخ التشكيلات المتناحرة
التي تنتحل اسمها. إنه مفصلي لأنه يضع كل من انتمى لهذه النهضة، سواء أكان ملتزماً بأحد
التشكيلات أم منكفئاً عنها، أمام سؤال مفصلي: هل أنت في حزب غير اعتيادي أم في حزب
اعتيادي؟ وهذا السؤال يقودنا بالاستطراد إلى سؤال أكثر حميمية، هل أنت شخص غير اعتيادي
أم شخص اعتيادي؟

لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن هذا السؤال هو محور الكتاب، ولكن إذا اكتفينا به، تجنّبنا
عليها، أي الحقيقة. فالكتاب أكثر بكثير من هذا السؤال. إنه جلسة استجواب لسعاد، ليس
فقط في مرحلة «أزمة الحزب البنيوية» التي يؤرخ لها سلّوم ابتداء من الثامن من تمّوز، 1949،

تاريخ اغتياله، بل يُسائله في مرحلة أخطر بكثير شهدت تكوّن «علة الحزب البنيوية»، أي إبان وجوده في قيادته بين 1932 و1947. ويميّز سلّوم بين الأزمة والعلة بالقول، «.. والفرق بين الأزمة والعلة كبير وجوهري، حيث تعود الأزمة إلى أسباب عارضة، فيما تعود العلة إلى سبب رئيسي بنيوي يوجد حصراً في الأساس، أي في الأصل، أي ابتداء من خط 16 تشرين ثاني، 1932.» (ص. 19)

يستهل الكاتب البحث بمقدمة يقول فيها: «أكثر من تسعين سنة انقضت على تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وها هو يكابد قدر الشيخوخة، إذ تحاصره الأسئلة الكبرى من مثل: ماذا فعلت في حياتك المديدة؟ ولماذا لم تنتصر؟ وأين أنت الآن؟ وكيف ترى المستقبل؟» ويصف وضع الحزب اليوم بأنه في «متاهة تنظيمية يحاول الخروج منها فيجد نفسه غارقاً في تلافيفها وعقدها.» إنه ينظر إلى «أجيال متعاقبة انتمت إلى الحزب، رغم كوارثه وهزائمه ومتهاته التنظيمية. انتمت ودخلت من باب النهضة حيث تجد سعادته وخطابه، ولكن لتجد نفسها مقيمة في (حزب عادي) ومأزوم دائماً. حزب استسلم أمام عناد سكان الأقفاس فالتحق بفلكلها متحالفًا أو مؤازراً لقوى الأمر الواقع.» (ص. 8-9).

يسأل سلوم: «أي سعادته نُساءل؟ سعادته رجل الفكر والسياسة، أم صاحب الرسالة والدعوة، أم سعادته البطل الملحمي؟» (ص. 22). قلّة ساءلت سعادته، ومن جاء بعد استشهادها من قيادات وأعضاء، عن مرحلة قيادته المباشرة للحزب. فإذا كان بالإمكان مساءلة مرحلة ما بعد استشهاد سعادته، فإن مرحلة قيادته، والتي انتهت باستشهادها، قد صبغتها دماؤه بالتراجيديا الملحمية. وهذه لا تخضع للمساءلة. ولكن نزار سلّوم يخضعها لذلك. إنه يفعل بقلق المحب، أو بمحبة القَلْب. إنه يسأل سعادته لماذا لم ينتصر في مرحلة قيادته للحزب؟ لماذا غادر البلاد سنة 1938؟ لماذا وضع النهضة والحزب والمؤسسات في سلة واحدة في بعض الأمكنة، وفصل بينها في أمكنة أخرى؟ إنه يسأل ما إذا كان نضبه منهجياً تولدياً أو مقدساً دينياً مغلقاً.

«هل نجازف إذ نعود للبحث عن (العلة) في الأسس الأولى، أو الجذور العميقة التي غرسها سعادته نفسه؟» يسأل سلّوم. (الصفحة نفسها.) ومن هنا يأخذنا في رحلة تفكيك وإعادة بناء لمرحلتَي التأسيس كما يراهما، الأولى سنة 1932 والثانية، سنة 1947. إنه يأخذنا إلى «الصندوق الأسود» لحطام الحزب علّنا نجد فيه أسباب سقوطه وتحطمه. إنه يكلمنا عن «الحامل» الذي «يختطف النهضة والعقيدة». إنه يمر على ماركس والأحزاب الشيوعية، ويسوع والكنائس المسيحية ليخلص إلى نتيجة قاسية: «المؤسسات وأنظمتها أقوى من العقائد ونصوصها.» (ص. 51).

وماذا عن العلة؟ العلة هي أن سعادته أسس حزباً غير اعتيادي، تحوّل، إلى حزب اعتيادي، مرتين. الأولى أثناء غيابه القسري، والثانية منذ استشهاده، وحتى الآن.

لعل الفصل الرابع من الكتاب وعنوانه «العلّة البنيوية» هو أهم فصول الكتاب ويجب قراءته بتمعن كبير. هنا يشرح سلّوم إشكالية كون عقيدة الحزب وغاياته ومؤسساته «لا تقارب أنظمة الأحزاب السياسية». وكيف أنه، استناداً إلى وصف سعادته نفسه، هو «حزب غير اعتيادي». وكيف أن الجملة النافية هنا (لا اعتيادي) تأخذ محتواها من جمل تعريفية واضحة مثل 'فكرة وحركة تتناولان حياة أمة بأسرها' أو «قضية الحزب هي قضية الآفاق للمجتمع الإنساني» وهو «فوق الدمج المنهجي، مرادف للعقيدة والنهضة والحركة.» (ص. 44).

لا ليس سهلاً نص نزار سلّوم إذ يفكك «علّة الحزب البنيوية»، ولكن العلة بحد ذاتها معقدة وتتطلب تأنيلاً في المقاربة، والمتابعة، والقراءة، والفهم. أكثر من هذا: إن هذا الفهم يردنا إلى السؤال المفصلي الذي بدأنا به هذا المقال، «هل أنت في حزب غير اعتيادي أم في حزب اعتيادي؟ / هل أنت شخص غير اعتيادي أم شخص اعتيادي؟» والسؤال مشروع لأنه إذا توخى سعادته تأسيس حزب غير اعتيادي، فهذا يتطلب أشخاصاً غير اعتياديين. ولإيجاد الجواب، يقدم لنا سلّوم معياراً هو مرحلة التأسيس الأول، 1932 - 1938، ومن ثم مرحلة التأسيس الثاني، 1947 - 1949، أي استعادة الحزب من «الواقع اللبناني» بعد أن تحول بفعل طغيان «المؤسسات» إلى حزب سياسي لبناني اعتيادي.

ولكن هذا المنحى من البحث يقودنا إلى سؤال أدهى من خارج نص سلّوم؟ إذا كان الحزب غير الاعتيادي يقوم على أشخاص غير اعتياديين، فمن أين تأتي بهم في ظل واقع ما دون الاعتيادي؟ سلّوم يجيب على نصف السؤال، حيث للمؤسس الذي «ينشق» عن الواقع صفات تؤهله لاجتذاب الإمكانيات وقيادتها، ولهذا يحتاج إلى صلاحيات «تحميه من فساد المجموع». لنفترض إذن أن هذا حصل، هل يمكن لمن انتمى للحزب، وأصبح شخصاً غير عادي أن يعود إلى «عادته»؟ والجواب نعم، طبعاً. وهذا يقودنا إلى مراحل «إدارة التغيير»، التي تبدأ من الوعي، فالرغبة، فالمعرفة، فالقدرة، ومن ثم التدعيم. والتدعيم هو من أخطر مراحل عملية التغيير، إذ أن الإنسان بطبيعته يميل للعودة إلى ما هو معتاد عليه. من هنا تأخذ عملية تدعيم التغيير كي لا تنزلق المؤسسة، أو الأفراد، أو المجتمع، إلى الحالة السابقة.

إن سفر سعادته سنة 1938، ومنعه من العودة لمدة تسع سنوات، كانا كافيين لكي يعود الكثير من قيادات الحزب غير الاعتيادي إلى مُنطلقاتهم ما دون الاعتيادية التي انتهت بالحزب

إلى «الواقع اللبناني». وبعد استشهاد سعادته، نسفت القيادات اللاحقة كل الأسس التي وضعها إبان تأسيسه الثاني سنة 1947، وعادت به ليكون حزبًا سياسيًا اعتياديًا.

كل هذا يأخذنا إلى سؤال آخر يعالجه سلّوم بالتلميح، أما نحن فسنشير إليه بالتصريح. سلّوم يلمح إلى «فساد الشعب» الذي وصفه سعادته في مقالته عن سلطة الزعامة، ولكن يمكن أن يستشف من ذلك أن فساد الشعب قد أصاب القوميين بالفساد حين قبلوا أن يتحول حزبهم إلى حزب سياسي عادي.

يقول سعادته عن «الواقع اللبناني»، «والظاهر أن الحزب قَبِلَ انتشار 'الواقع اللبناني' بحكم النظام فقط، لأنني وجدت أن مجموع القوميين الاجتماعيين لم يتقيدوا بفكر واحد من هذه الأفكار». ما مدى صحة هذه العبارة، وما هي قيمتها العملية؟ هل من فارق بين القبول بانتشار «الواقع اللبناني» والتقيد؟ بفكرته؟ لقد قَبِلَ معظم القوميين، أما الذين رفضوا، فهُمشوا أو طُردوا. والقبول كان حياءً، أو قلة دراية، أو كسلًا، أو تكسبًا، أو ممالأة. ولم يكن ممكنًا فك قيد «القبول» إلا بعودة سعادته، وتطهيره الحزب. أمّا لو لم يعد، لكان القبول قد تحوّل تقيدًا أكيدًا.

هذا كلام خطير، هل من دليل؟ طبعًا. لننظر إلى واقع التشكيلات الحزبية اليوم. أليست كلها أحزابًا سياسية اعتيادية يضربها الفساد والمحسوبية والصنمية من أعلاها لأسفلها؟ بلى. ألم تصبح جزءًا من الواقع الفاسد الذي جاء الحزب السوري القومي الاجتماعي - غير الاعتيادي - ليغيّره؟ بلى. ألم تتحالف في الماضي، وفي جميع المراحل وصولًا إلى اليوم، مع قوى مضادة لمبادئها ومتوافقة مع ما جاءت تحاربه؟ بلى. ألا يوجد فيها رفقاء ورفيقات مخلصون ومخلصات. بلى. هل لا يعرفون كل ما سبق؟ صمت.

ولكن أليس هناك من معارضة لهذا الواقع؟ بلى. هناك معارضات. ولكن معظمها لا يخرج عن إطار الحزب السياسي الاعتيادي. معظمها كان يضع يده على المحراث وينظر في جميع الاتجاهات ما عدا إلى الأمام. معظمها كان يبحث عن مقعد في جنة سلطة التشكيلات، ومعظمها مارس ممارسة التشكيلات الفاسدة نفسها. هذه حقائق محزنة.

هل من مخرج من كل هذا؟ لنعد إلى نزار وكتابه الرائع الذي نريد للقارئ أن يكتشف ويدرس مضمونه المهم. نذهب إلى الصفحة الأخيرة من الفصل ما قبل الأخير، وعنوانه «البحث عن زيوسودرا». في تلك الصفحة، 144، نقرأ، «إن هذه العقيدة لا يستقيم ثقلها مع حامل بمرتبة حزب سياسي، وهي تحتاج اليوم إلى حامل قادر على وضع مشروعها، الذي وحده سينقذ سورية التي نعنيها، من الضياع النهائي وربما من الفناء!»

كلام الله

2023-7-23

لم أعد أذكر أسمه، ولكن عضوا في الحزب السوري القومي الاجتماعي قال عن أحد الكتب الدينية، «هذا كلام الله.»

يعتبر اليهود التوراة كلام الله، والمسيحيون يعتبرون التوراة والعهد الجديد كذلك. أما المحمديون فيعتبرون القرآن وما أنزل من قبل، أي التوراة و«الإنجيل»، كلام الله أيضاً. يُفترض أن كلام الله منزل؛ إنه يتضمن الحقيقة الكلية وكل ما يحتاجه الإنسان في حياته وبعد مماته. أما ما يشوب كلام الله في بعض هذه الكتب من تناقض ولعنات ودعوات للقتل والسحل والإبادة والتشريد والكذب والرياء والسفاح والقوادة، (راجع سفري التكوين وتثنية في التوراة)، فكلها من متوجبات الإيمان وعلكة «الله يعمل بطرق عجيبة».

يمكن أن يتعامى المرء عن كل هذا ويضعه تحت خانة الإيمان الفردي حيث يمكن للمرء أن يؤمن بما يشاء وبما يريح ضميره في حياته ويُطمئن نفسه إلى آخرته. المشكلة أن كل اللعنات والدعوات للقتل موجهة إلينا نحن السوريين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. إنها ليست دعوات أدبية أو شعرية. إنها دعوات تفعل في السياسات الدولية، إذ أنها تشكل أساساً للبنية الدينية والقيمية الأخلاقية في الغرب.

لا أعتقد أن هناك شعباً على وجه البسيطة تتضمن كتبه الدينية مثل هذه اللعنات عليه منذ جوده الأولين حتى أجياله التي لم تولد بعد. ولا نعتقد أن هناك شعباً تتضمن كتبه الدينية «وعداً» لشعب آخر بقطعة من أرضه، وعداً مقدساً لا يخلف به الله، مع ما جلب ويجلب مثل

هذا الوعد على شعبنا من مآس. هذا الأمر لا يتعلق بالتوراة فقط، بل ينتقل منها إلى القرآن. سورة المائدة 21، والتي تقول: «يَعْمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خُسِرِينَ.» هذه الآية يفسرها بعض أنها دعوة «للنبي موسى المسلم وأتباعه من المسلمين» لدخول أرض الميعاد فلسطين. ولكن التفاسير المرافقة لهذا واضحة، عليهم محاربة «العماليق» الكفار المشركين أنفسهم الذين قاتلهم اليهود في التوراة. العماليق، للعلم، هم نحن. وبغض النظر ما إذا كانت الدعوة موجهة إلى يهود موسى أم مسلميه لاحتلال أرضنا فالنتيجة واحدة.

«هل لديك مشكلة مع كتب الدين هذه؟» يسألني أحدهم! نعم. لدي مشكلة معها طالما أنها تعتبر كلامًا كهذا «كلام الله». ولدي مشكلة أكبر مع رجال الدين الذين يروجون لها في عظاتهم وخطبهم، ومع جمهور المؤمنين بها كذلك.

أف! أل هذه الدرجة؟

نعم.

تخيّل ردة فعلك إذا وقف شخص في وسط الشارع حيث منزلك، حاملاً مكبر صوت، شاتماً أهلك، وداعياً عليك وعلى ذريتك بالقتل والسحل. ماذا تفعل؟ هل تقول آمين، أو تأخذ أكبر عصا في منزلك وتنهال بها على رأس الشّتام، كائنًا من يكون؟

وماذا تفعل إذا جاءك شخص ممسكًا كتابًا بيده وقال لك: «حسب كلام الله الموجود في هذا الكتاب، هذه الأرض ملكي، وعد بها الله أجدادي منذ آلاف السنين، وعليك مغادرتها فورًا؟ بل ماذا تفعل إذا جاءك شخص وقال لك: «عليك أن تطلق زوجتك وتتخلى عن أولادك لأنهم ليسوا من دينك؟» (راجع سفر عزرا)، هل تفعل؟

إذا كنت مؤمنًا أن هذا هو كلام الله وبالتفاسير الحرفية له، فعليك أن تعمل من وحيها كما يفعل ملايين البشر. وإذا كنت لا ترى أن هناك علاقة سببية بين مآسنا وبين ما هو موجود في «كتب الله» عن «كلام الله»، فحضرتك لا تفهم قوة الكلمة متى أُضفيت القداسة عليها ونُسبت مباشرة إلى الله. فكلام الله للمؤمنين أمرٌ لا يُعصى وعليك طاعته.

لم تبدأ حياتنا مع التوراة ولا مع العهد الجديد أو القرآن. حياتنا مستمرة منذ آلاف السنين، وكان لنا أديان انطلقت من طبيعة حياتنا وبما يخدمها. كتبنا الدينية اليوم تضعنا في حالة تناقض مرعب بين متطلبات الإيمان ومتطلبات الحياة خاصة لمن يستخدم عقله أثناء قراءة كتب الدين وليس ما نشأ عليه من أوهام ومخاوف.

كنا نتوقع من السوريين القومييين الاجتماعيين، خاصة أولئك الذين يضعون شعار «العقل هو الشرع الأعلى»، أن يلعبوا دورهم في تحرير النفوس من مثل هذه النصوص، بل في تحرير كتب الدين من مثل هذه الشوائب، فإذا ببعضهم يقول لك: «هذا كلام الله»، نقطة على السطر.

القسم الثاني:
في الإدارة الحزبية

عبارات مُهملة

2016-3-1

مادة هذا البحث أساسية لأننا سوف نعالجها في عدد كبير من المقالات. وهي أساسية لأنها تعنى بنظرة سعادته إلى الحياة، وبغاية الحزب، أي علّة وجوده.

قراءة سعادته تختلف جذرياً عن قراءة سواه من المفكرين. فعبارته دقيقة المبنى كثيفة المعنى وحيث «كل كلمة تعني مدلولها». في هذه المقالة، سوف أتناول ثلاث عبارات أساسية له، أشعر أنها لم تُعطِ الاهتمام الكافي، لا من الذين تعاقبوا على قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي، ولا من المفكرين الذين اعتنوا بدراسة سعادته وفكره.

العبرة الأولى هي التالية: «... فلما جاءت النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن، التي نشأت بسببها الحركة السورية القومية الاجتماعية...» (الصراع الفكري في الأدب السوري طبعة بيروت 1978، ص. 70). السؤال هنا هو التالي: إذا كانت الحركة السورية القومية الاجتماعية قد نشأت بسبب نظرة إلى الحياة والكون والفن، فما هي هذه النظرة؟ وهل لها دور في وضع سياسات الحزب وخططه؟ هل هناك من عبارة يمكن الإشارة إليها والقول «هذه هي نظرة سعادته إلى الحياة والكون والفن»؟

نبدأ من السؤال الأخير فنقول إن الجواب نعم، والعبارة هي التالية: «القاعدة الذهبية التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والأدب هي هذه القاعدة: طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمَل وقيم أعلى.» (المصدر نفسه ص. 72).

كيف نعرف أن هذه العبارة الثانية هي تلك المقصودة في العبارة الأولى؟ نعرف ذلك

من دليين: عبارة سعادته القاطعة حين يصفها بالقول: «القاعدة الذهبية التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والأدب..» أما الدليل الثاني فهو الوصف الذي يلي العبارة الأولى في ص. 70 والذي يمتد على فقرة طويلة يصف فيها سعادته «فعل» هذه النظرة في المجتمع، وصولاً إلى قوله في ص. 70-71: «لا شك عندي في أن ما يحدث الآن عند جميع الأدباء الذين اتصلوا بالنظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن، وفهموا قضاياها الكبرى في الحقوق، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، في الأخلاق، والمناقب، والمثل العليا...» وكلها قضايا جاءت الحركة السورية القومية الاجتماعية لتغير فيها بما يخدم ترقية الحياة. (يرجى العودة إلى المحاضرة العاشرة من «المحاضرات العشر» حيث يسهب سعادته في الكلام عن ترقية الحياة عند شرحه غاية الحزب.)

إذا قبلنا جدلاً أن هذه هي العبارة المقصودة، فإن القسم الثاني منها واضح، ولكن ليس القسم الأول حيث يقول سعادته: « طلب الحقيقة الأساسية الكبرى...» ما هي هذه الحقيقة وهل من جواب من عند سعادته نفسه عنها؟ الجواب هو أيضاً بالإيجاب، ونأخذ من الصفحة 72 من المرجع نفسه: «... والقفز إلى عالم الحقيقة الأساسية الكبرى التي يستقر عليها الفكر ويطمئن إليها الشعور ... حقيقة الفرد والمجتمع وحقيقة النفسية السامية التي انتصرت على قيود المادية المججلة...»⁽²³⁾، إذن، فإن هذه العبارة يجب أن تدرس مثلها مثل غاية الحزب، إذ إنها تقدم الأساس الفلسفي الأخلاقي المناقبي والنفسي الذي بسببه نشأت هذه الحركة العظيمة وقامت عليه.

العبارة الثانية هي غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي نفسها. «غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية، تكفل تحقيق مبادئه، وتعيد إلى الأمة

(23) الخطوة أو القفزة المطلوبة تكون باستعمال جميع القوى النفسية لرفس عالم النزعة الفردية والغايات المادية، وترك جعل حب إبراز الشهرة الفردية غاية أخيرة للفرد، والقفز إلى عالم ابتغاء الحقيقة الأساسية الكبرى التي يستقر عليها الفكر ويطمئن إليها الشعور، واتباعها حين توجد، سواء أوجدت بالاهتداء الذاتي أم بهدي هاد. هي حقيقة الفرد والمجتمع وحقيقة النفسية السامية التي انتصرت على قيود المادية المججلة في الحضيض وحلقت إلى السماء — السماء التي لا تخلو من ألم وعذاب ولكن ألمها وعذابها ليسا من أجل الشهوة المتلذذة في المهج، بل من أجل ما هو أسمى من ذلك بكثير — من أجل ما لو أطفئ لظى الشهوة الجسدية وقضت النزعة البيولوجية وطرها لظل لظاه بلذع النفوس ويعذبها حتى تجد له تحقيقاً — من أجل خذل الأقيح والأسفل والأردل والأذل، ورفع الأجل والأسمى والأنبل والأعز، فلا تكون هنالك اختلاجات حب إلا ضمن دائرة هذا الوعي الذي يرفع قيمة الإنسانية طبقات جوية فوق القناعة براحة النزعة البيولوجية ذات الارتباط المادي، الغافلة عن المطالب النفسية الجميلة في نظرة شاملة الحياة والكون والفن.

السورية حيويتها، وقوتها، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً، وتثبيت سيادتها، وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها، ويرفع مستوى حياتها، والسعي لإنشاء جبهة عربية.» غالباً ما تُقرأ هذه الغاية كعبارة واحدة أو تردد استظهاراً في حين أن كونها «غاية» يخضعها لشروط القراءة من ضمن مفهوم الإدارة الاستراتيجية، حيث لكل غاية موضوع استراتيجي، أي فعل، يأتي بمُخرج يؤدي إلى نتيجة استراتيجية، كما هي مبينة في الجدول أدناه والذي سبق لنا استخدامه في مقال «الحيوية».

النتيجة Outcome	المُخرج Output	الفعل Action
إعادة الحيوية والقوة	تكفل تحقيق مبادئ الحزب ←	بعث نهضة ←
تثبيت سيادتها	تؤدي إلى استقلال الأمة ←	تنظيم حركة ←
يرفع مستوى حياتها	يؤمن مصالح الأمة ←	إقامة نظام جديد ←
سد منيع في وجه الاستعمار	التعاون بين الأمم العربية ←	السعي لإقامة جبهة عربية

من قراءتنا للغاية بهذا الشكل، نلاحظ أن للألفاظ خاصيتها. فثلاث من ألفاظ الفعل جازمة واضحة المُخرج: «بعث نهضة/ تكفل، و«تنظيم حركة/ تؤدي»، و«إقامة نظام/ يؤمن». أما الرابعة فهي غير جازمة ولا مُخرج لها في الغاية وإن كنا نستشفه من مواد أخرى من تراث سعادته. «والسعي...» والسبب في هذا الاختلاف يجب أن يكون واضحاً: المواضيع الثلاثة الأولى هي مهمات ملقاة على عاتق القوميين، ويجب تنفيذها بغض النظر عن أية إرادة خارجة عن إرادة الحزب. أما الموضوع الرابع فيتعلق برغبة باقي الدول العربية لهذا السبب نقول: «نحن نسعى». بالطبع، فإن لكل من هذه المواضيع الاستراتيجية شروطها الضرورية التي يجب استيفاؤها لكي يصار إلى تحقيق غاية الحزب، ولكنها خارج نطاق بحثنا اليوم.

العبارة الثالثة هي في قول سعادته أمام المحكمة الفرنسية بعد انكشاف الحزب: «إن غاية الحزب الأولية أن يكون حركة الشعب العامة.» ما معنى هذه العبارة «حركة الشعب العامة»؟ من هم أعضاؤها؟ ما هو عددهم؟ ما هي النسبة الدنيا من مجموع الشعب السوري التي يجب أن يكونوا ضمن الحزب لكي يستحق وصفه بـ «حركة الشعب العامة»؟ كيف نصل إلى هذه النسبة؟ وكيف نحافظ على نموها؟

هذه أسئلة لا غنى من وضعها نصب أعيننا في جميع الأوقات والإجابة عنها بغية إيجاد الآليات التنفيذية لها. لقد وضعت بعض الأجوبة عنها في مقابلة مع مجلة تحولات منشورة في الجزء الأول من هذه المجموعة تحت عنوان: «مقابلة تحولات الثانية، أهلية الحزب»، فيمكن العودة إليها.

لنفترض

2016-8-15

أسجل، فيما أَدفع هذا المقال للنشر سنة 2024، أن القوى المناهضة للتغيير لا تزال أقوى من العاملين له.

لنفترض أن قسماً من الجسم الحزبي وصل إلى قناعة أن مسار الحزب، منذ استشهاده، هو مسار بعيد عن تحقيق غايته، ويقود الحزب إلى خطر زوال عقيدته وتبدد أعضائه. وأن هذا الخطر ظاهر لمن يُعمل بصيرته فيرى أن الحزب مشرذم في ثلاثة تنظيمات متنافرة ناهيك عن المنكفئين. وأن السلطات الحاكمة في هذه الأحزاب لا تستطيع خروجاً من واقعها لأنها أسيرة تاريخها أو فسادها أو انحرافها. ولنفترض أن هذا القسم من الجسم الحزبي قد صمم على تغيير هذا الوضع، وإعادة الحزب إلى موقعه الطبيعي ألا وهو موقع تحقيق غايته، والعمل بعقليته الأخلاقية، فما هي الخطوات التي عليه أن يتخذها؟

يبدأ التغيير من الإعلان ممن يهتمهم التغيير عن الأسباب الموجبة له، وعن الحالة النهائية التي يبغون الوصول إليها بعد التغيير. والفقرة أعلاه تقدم، في رأينا، الأسباب الموجبة للتغيير والهدف النهائي منه.

تمرُّ عملية التغيير في خمس مراحل اختصرتها مؤسسة Prosci بكلمة ADKAR والتي هي كلمة مركبة من اول حرف لكل من الكلمات الخمس التالية: Awareness, Desire, Knowledge, Ability, Reinforcement. ومعناها الوعي بضرورة التغيير، والرغبة فيه، والمعرفة في كيفية إحداثه، والقدرة على ذلك، ومن ثم تدعيمه متى تمّ.

بداية، على من يعي ضرورة التغيير أن يوسع دائرة هذا الوعي إلى أقصى حد لأن من طبيعة الإنسان مقاومة التغيير. والنجاح هنا يتوقف على فارق القوة بين الراغبين في التغيير والمعارضين له. ولكي يستطيع توسيع دائرة الوعي عليه أولاً أن يُظهر الحاجة إلى التغيير والفوائد الناجمة عنه لأصحاب العلاقة. وأصحاب العلاقة هنا هم السوريون القوميون الاجتماعيون وحلفاؤهم والمجتمع عامة.

من دائرة الوعي هذه تُبنى قاعدة الراغبين بالتغيير. فهناك مسافة كبيرة بين المعرفة بضرورة التغيير والعمل له مروراً بالرغبة في حصوله. إذن، نبدأ بالوعي، ثم الرغبة ومن ثم العمل.

نأتي الآن، إلى النقطة الأكثر صعوبة في هذا المسار، ألا وهي معرفة قواعد إدارة التغيير. وأول وأهم هذه القواعد الاقتناع أن عملية التغيير إن لم تُدر بعناية ووفق الأصول، يمكن لها أن تفشل. وأن الفشل ينعكس سلباً على مشروع التغيير في مداه البعيد. إنه يعطي الحجة لمقاومي التغيير بعدم جدواه، ويضرب عزيمة الراغبين إذ يعزز فكرة استحالتهم.

القاعدة الثانية هي في اختيار فريق العمل المناسب به التغيير. وفريق العمل هذا يجب أن تتوفر فيه مواصفات وخصائص لا غنى عنها أهمها ألا يعمل بنفس أسلوب العمل الذي أوصل المجموعة إلى طلب التغيير. فإذا كان بعض ما نشكو منه، مثلاً، هو العمل من دون نظرة وغاية، ومن دون تخطيط، وعدم الإصغاء للرأي المخالف، وصعوبة الاعتراف بالخطأ، والعناد؛ وإذا كان السكوت عن الخطأ والنزعة الفردية والتسرع طلباً للبهجة الإعلامية هي بعض ما نشكو منه في الإدارة التي نطلب تغييرها، فإن فريق العمل المناسب به التغيير يجب أن يكون متحرراً من هذه كلها.

أما إذا لم يكن، فإنه يصبح هو العقبة الكأداء التي تهدد عملية التغيير برمتها، وعندها يجب عليه، أدبياً، أن يتنحى وأن يفسح المجال لفريق عمل آخر، وإلا وجد نفسه معزولاً من ضمن عملية تغيير تستهدفه هو في الأساس.

القاعدة الثالثة هي التخطيط للتغيير وفق رؤية واضحة للنتيجة المبتغاة من عملية التغيير، وهذه النتيجة نتخيلها كما يلي:

استعادة الحزب إلى موقع تحقيق غايته، وتحتها ينطوي:

1. تعديل الدستور بما يعيده إلى فلسفة وضعه من قبل الزعيم؛
2. إنهاء حالات الشردمة عبر جمع القوميين تحت شعار «عقيدة واحدة، حزب واحد»؛

3. إنهاء حالات الفساد والإفساد عبر تقوية الأجهزة الرقابية واستقلاليتها، وتنظيف الحزب من الفاسدين؛

4. وضع خطة تدريبية للمسؤولين من أعلى الهرم الحزبي لأسفله؛

5. الانطلاق في العمل ليصبح الحزب «حركة الشعب العامة»، تحقيقاً لغايته الأولية. نعتقد أن معظم القوميين الاجتماعيين هم في وارد العمل في سبيل تغيير يصل إلى هذه النتائج إذا توفرت القيادة الصالحة لإدارة عملية التغيير هذه.

هذه هي المهمة الأولى الملقاة على عاتقنا جميعاً اليوم. البحث عن تحرروا من النزعة الفردية والعناد، وممن يملكون الوعي العقائدي والصفات القيادية والمهارات الإدارية لقيادة هذه المرحلة.

هل لدينا القدرة على التغيير؟ نعم، إذا وصلنا إلى حجم من القوة العددية المليئة بالإمكانات والكفاءات التي لا يمكن للسلطات الثلاث القائمة تجاهلها.

الهاجس بين الردة والانذار

2016-11-16

سعيد تقي الدين مدرسة في شتى مجالات الحياة. من مقالاته السياسية مقال طالما استوقفني وهو بعنوان، «أمام الحزب سبع سنوات»، من السياق، يتضح انه كُتب بعد اغتيال العقيد عدنان المالكي سنة 1955، وما تلاه من حملة شعواء ضد الحزب في الشام، وقبل الانقلاب الذي كان الحزب يعد له ووأده في مهده بسبب العدوان الثلاثي على مصر في 29 تشرين أول، 1956.

«يقول بعض علماء الاجتماع إن كل نهضة لا تنتصر في الثلاثين سنة الأولى من حياتها تفنى وتلاشى. والنهضة القومية عمرها ثلاث وعشرون سنة. الملاحظات الاجتماعية ليس لها دقة العلم. على أننا لو سلمنا بهذه النظرية فأمام الحزب سبع سنوات ليحقق النصر أو يتلاشى. برغم كل مواطن الضعف التي أوردناها، وبرغم الردة التي شرحناها، ففي يقيني أن هذه السنوات السبع المقبلة ستسجل النصر. وأكبر الظن أن النصر لن يأتي في سبع سنوات، بل في سبعة أشهر.»

تكمن أهمية المقال في ناحيتين، مفهوم «الردة الوراثية» Atavism والتي يسهب تقي الدين في وصفها وفي أثرها في الحزب من «ثرثرة ووشوشة»، إلى تعرض النفس إلى «ردات، إلى مفاسد وضعفٍ سيطر على هذه النفس قبل اعتناقها القومية الاجتماعية.» ثم إلى حديثه آنف الذكر عن مهلة الثلاثين سنة لينتصر الحزب فيها أو يندثر.

لم ينتصر الحزب سنة 1956 برغم تفاؤل سعيد، الذي كان من المخططين للانقلاب في تلك السنة. ولم ينتصر كذلك سنة 1958 أو سنة 1962. بل أكثر ما يحز في النفس أننا، وبعد أربع

وثمانين سنة على التأسيس، لا نزال نحتفل بهذه الذكرى عوضاً من الاحتفال بعيد النصر، وإن الردّات التي تحدث عنها سعيد سنة 1955 قد شرّشت في الحزب وأزهرت وأينعت.

لا لم يندثر الحزب برغم كل ما مرّ به منذ كتب سعيد مقاله، ولكنه لم ينتصر وهذا في حد ذاته مفارقة جديرة بالدراسة.

في رأينا أن عدم اندثار الحزب يعود إلى سعادته ونظرته إلى الحياة وعقيدته وأخلاقه، وتجسيده لكل من هذه المفاهيم في كل لحظة من حياته وصولاً إلى الشهادة. هذه العوامل تبقى كلها، عامل جذب واستقطاب لأجيال من الشباب السوري الذي يُقبل على الحزب، وينتمي إليه ومن ثم يجد نفسه إما في موقع الضجر بسبب عدم وجود خطة حزبية تلحظ له دوراً في تحقيق غاية الحزب، أو يبتعد عن الحزب متقرّزاً، بسبب ما يتكشف له من فساد ومرائية. أما لماذا لم ينتصر الحزب فلأنه، ولهذه اللحظة، لم يضع غايته موضع التنفيذ ولم يعدّ العدة لذلك. ولعل الانقلاب الذي كان يهيئ له الحزب سنة 1956 كان الأقرب إلى وضع مخطط لاستلام الحكم في الشام كخطوة تمهيدية لتحقيق غايته. غير أن هذه النتيجة لم تكن مضمونة حتى ولو نجح الانقلاب - تحديداً بسبب الردّات التي تكلم عنها سعيد - بما فيها الردّة إلى الديكتاتورية، وهي الردّة التي يعاني الحزب منها منذ سنوات.

بين عاملي الجذب والردّات، يراوح الحزب مكانه، والمراوحة في حد ذاتها تراجع. ولكن الواقع يقول لنا إن الوضع ليس مراوحة فحسب، بل تشرذم، وكيدية وسياسات بهلوانية، وعقد نقص، وخوف من لي الذراع، ونزعات فردية متضاربة، متزاحمة، حقودة، كلها تجعل دفتر الحساب يميل إلى الخسارة أكثر منه إلى الربح.

كيف نحقق غاية الحزب؟ لا. كيف نحقق غايتنا؟ فنحن الحزب وغايتنا غايتنا، مثلنا الأعلى. أم لعلّ سعادته كان واهماً حين كتب هذا الكلام؟ هذا السؤال، لليوم، لم يصبح الهاجس لدى كل سوري قومي اجتماعي. وحين نقول «هاجساً»، نعني ما نقول. فالهاجس، قاموسياً هو «مَا يَحْطُرُ مِنْ أَفْكَارٍ أَوْ صُورٍ بِبَالِ الْإِنْسَانِ نَتِيجَةَ قَلْبِي، أَوْ حَيْرَةٍ، أَوْ هَمٍّ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ شَيْءٍ مَّا». الهاجس هو ما يمنعك من النوم قلقاً على أمر يعني لك الكثير. وطالما أننا ننام ملء جفوننا، فهذا يعني أن لا هاجس يقصّ تفكيرنا.

ما هو دوري في خطة تحقيق غاية الحزب؟ هذا السؤال يجب أن يكون هاجس كل سوري قومي اجتماعي. وهو يفترض أن يكون هناك خطة ليكون لي دورٌ فيها. فإن لم يكن هناك من خطة، فإن الهاجس يوجب على أن أسأل عنها. فإن لم توجد سعيت لخلقها، فإن اصطدمت

بحايط من اللامبالاة، بحثت عن تلك القلّة القليلة ممن تعرف أهمية الأعمال النظامية وحاولت من جديد.

لم يندثر الحزب، ولكنه لم ينتصر. إنه اليوم أحزاب تدخل في دوامة الأحقاد. إننا في خطر أن نتحول رُومًا وموارنة، شيعة وسنة، نتحاقد دون أن نعرف لماذا، ونبعد، خطوة خطوة عن علّة وجودنا: نظرتنا الرائعة إلى الحياة وغايتنا، مثالنا الأعلى.

اكتب هذه الكلمات صبيحة عيد التأسيس. اكتبها بكثير من الألم، ولكني اكتبها بأمل لا ينضب. أمل استمده من سعادته، معلمي، وقدوتي وزعمي.
ولتحي سورية وليحي سعادته.

في الجدوى واللا جدوى

2016-12-14

منذ فترة قصيرة وضعنا ملاحظات على ورقة عمل عنوانها «أصداء قرار المجلس الأعلى» كان المقصود منها أن تكون أساساً لدعوة المجلس القومي إلى اجتماع استثنائي للبحث في أربعة أمور هي:

1. البحث في وحدة القوميين الاجتماعيين وسبل انخراطهم جميعاً في العمل الحزبي كمهمة أساسية لكل إدارة حزبية.

2. كيفية مساهمة كل السوريين القوميين الاجتماعيين في إنجاح الخطة الحزبية على كل المستويات.

3. كيفية استعادة الحزب لدوره خاصة على المستويات الأخلاقية والاجتماعية والثقافية.

4. مناقشة دور جريدة «البناء» وإدارتها.

الملاحظات تلك تناولت الشكل (غموض اللغة)، والمضمون (غياب المخرجات القياسية). في هذا البحث سوف نتناول الجدوى من عقد اجتماع للمجلس القومي لبحث هذه الأمور الهامة والنتائج التي يمكن لنا توقعها في حال انعقاده.

ونمهد لذلك بالقول إننا مع أي مجهود يتوخى إخراج الحزب من الأزمة الحادة التي تعصف به، والتي كانت سبباً لكتابة تلك الورقة. وسبق أن كتبنا في بحث سابق عن ضرورة توحيد جهود القوميين بغض النظر عن أي من التنظيمات الانشقاقية الثلاثة التي يتبعون لها، أو إذا كانوا من المنكفئين عن العمل الحزبي نتيجة الأوضاع القائمة. بالتالي، فإنه من واجبنا النظر في أية مبادرة موضوعياً وبحثها بإيجابية للوصول إلى النتائج الأفضل.

ولوضع الورقة في سياقها العام ننقل العبارة التالية التي وردت في رسالة من أحد الأمناء الجزيلي الاحترام الذي شارك في صياغتها حيث يقول:

«إن الورقة وُضعت أساساً لمحاولة خرق جدار تسلط الأكثرية والتلاعب بالعقيدة والدستور من ضمن قواعد نص عليها الدستور، فكانت فكرة طلب انعقاد المجلس القومي استثنائيةً. ولذلك أتت الورقة توصيفية باقتضاب دون التحديد والتحدي. أما لجهة المطالب، فحددت من ضمن ما نص عليه الدستور لجهة صلاحية المجلس القومي. أمل إعادة قراءة الدعوة من ضمن هذه المنطلقات.»

وبالفعل، لقد قمنا بقراءة الورقة أكثر من مرة، وبودنا الآن ليس مناقشة المضمون، بل فكرة اجتماع المجلس القومي وجدواها.

تنطلق الدعوة من وضع استثنائي هو «تسلط الأكثرية والتلاعب بالعقيدة والدستور»، وتتوخى معالجته من ضمن «قواعد نص عليها الدستور.» (نفهم من كلمة الأكثرية هنا أكثرية الإثني عشر عضوًا في المجلس الأعلى التي حاولت تعديل الدستور بشكل رفضته المحكمة الحزبية، وأدى إلى إقالة اثنين من أعضائها فيما بعد، ومن ثم استقالة رئيسها. يرجى مراجعة الجزء الأول من هذه المجموعة.)

سوف نبدأ في بحث جدوى الاجتماع من العبارة التالية «أما لجهة المطالب فحددت من ضمن ما نص عليه الدستور لجهة صلاحية المجلس القومي.» دعونا نرى ماذا ينص الدستور عن الدعوة لانعقاد اجتماع استثنائي للمجلس القومي وما هي الصلاحيات الممنوحة له في مثل هذه الحالة.

ينص القانون الدستوري عدد 8 لسنة 2001* في مادته الثالثة ما يلي:

«يمكن للمجلس الأعلى دعوة المجلس القومي إلى عقد اجتماعات استثنائية بناء على:

- ♦ اقتراح من رئيس الحزب
- ♦ قرار يتخذه المجلس الأعلى
- ♦ اقتراح خطي يتقدم به على الأقل ربع عدد الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس القومي، على أن يتضمن الاقتراح أسباب الاجتماع وهدفه". (هذا البند الأخير قد عدل سنة 2011، كما نقل لنا شفهيًا، ليصبح العدد خمسة وعشرين عضواً من أعضاء المجلس القومي.)

أما صلاحيات المجلس القومي فترد في المادة الرابعة من القانون الدستوري نفسه حيث تنص المادة:

«يمارس المجلس القومي الصلاحيات التالية:

- ♦ انتخاب أعضاء المجلس الأعلى، وانتخاب أعضاء هيئة منح رتبة الأمانة.
- ♦ التصويت على التعديلات الدستورية التي يعرضها عليه المجلس الأعلى، في الحالات التي نصت عليها المادة الثالثة عشرة من الدستور.
- ♦ مناقشة التقارير التي يعرضها عليه رئيس الحزب والمجلس الأعلى.
- ♦ تقديم الاقتراحات حول أوضاع الحزب العامة".

عملياً إذن، ليس للمجلس القومي من صلاحيات فعلية سوى تلك المتعلقة بانتخاب أعضاء المجلس الأعلى وأعضاء هيئة منح رتبة الأمانة، وكذلك التصويت على التعديلات الدستورية المتعلقة حصراً بتعديل كيفية انتخاب رئيس الحزب والمجلس الأعلى والمجلس القومي. بل نضيف أنه ليس من حق المجلس القومي أن يدعو نفسه للانعقاد، بل عليه انتظار دعوة من المجلس الأعلى. ولكن حتى هذا ليس مضموناً، فالعبارة تقول «يمكن للمجلس الأعلى» وليس «على المجلس الأعلى».

أما حيال الوضع الخطير الذي دعا مجموعة من الأئمة الجزيلي الاحترام للتدارس ووضع ورقة العمل المشار إليها آنفاً، والتي تصف تسلط الأكثرية والتلاعب بالعقيدة والدستور، فإن جُل ما يستطيع المجلس القومي عمله هو «تقديم الاقتراحات حول أوضاع الحزب العامة»! ولكن لمن تُقدّم هذه الاقتراحات؟ إنها تُقدّم للمجلس الأعلى ذي «الأكثرية المتسلطة والمتلاعبة بالعقيدة والدستور»!!! ومن جاء بهذه الأكثرية المتسلطة والمتلاعبة بالدستور؟ المجلس القومي نفسه الذي ندعوه للانعقاد لتقديم الاقتراحات حول تسلط هذه الأكثرية وتلاعبها بالدستور. هل أن المجلس الأعلى ملزم بالأخذ بمقترحات المجلس القومي؟ طبعاً لا.

رب قائل إن عدد أعضاء المجلس القومي هو في حدود الثمانمائة عضو لم يحضر منهم العملية الانتخابية سوى ما يقارب النصف، وإنه إذا تسنى لنا الاتصال بالنصف الآخر الذي لم يحضر فربما نستطيع إقناعه بالحضور هذه المرة. وإذا حضر، فربما يمكننا الحصول على أكثرية توافق على المقترحات التي لا بد وأن تكون قد وضعت قبل انعقاد الجلسة الاستثنائية لمعالجة التسلط والتلاعب بالعقيدة والدستور. كذلك، يضيف آخر، ربما يكون بين الذين أتوا بهذه

الأكثرية من ندموا على إتيانهم بمجلس أعلى متسلط ومتلاعب كهذا، فيكون لهم موقف مخالف لذلك الذي اتخذوه في صيف 2016. ممكن. ولكن دعونا نرى كم «إذا» شرطية و«يمكن» و«ربما» تتضمن هذه العبارة.

جمع توافيق خمسة وعشرين عضوًا أمر ليس بالمستحيل. بعدها يمكن للمجلس الأعلى أن يدعو لاجتماع استثنائي. وإذا تمكنا من اقناع عدد من النادمين بحضور الاجتماع وتغيير موقفهم، وإذا تسنى لنا الاتصال بالنصف الآخر الذي لم يحضر وإقناعه بالحضور، وإذا كان لهذا النصف الآخر، أو على الأقل لنصفه موقف مغاير، فعندها، ربما نتمكن من الخروج بعدد من المقترحات التي يمكن للمجلس الأعلى أن يأخذ بها أو لا يأخذ بها.

ولكن، يقول آخر، لا يستطيع أحد أن ينفي ما للمجلس القومي من سلطة معنوية حتى ولو لم تكن له سلطة فعلية، إذا اجتمع وأخذت أكثريته موقفًا ناقدًا من ممارسات «الأكثرية المتسلطة والمتلاعبة بالعقيدة والدستور». صحيح، وهذه هي الإيجابية الوحيدة - معنويًا - التي يمكن الخروج بها إذا تخطينا كل «إذا» وكل «يمكن» وكل «ربما» وتمكن المجتمعون من صياغة صوت ناقد تلتف حوله الأكثرية. هذا علمًا أن الأكثرية في هذا المجلس القومي هي إما لم تبال فلم تحضر، أو أنها مؤيدة للأكثرية المتسلطة المتلاعبة التي انتخبها. أما أن يكون للمجلس القومي القدرة عمليًا - حتى ولو أرادت أكثريته مخلصه - أن يوقف التسلط والتلاعب، فهذا أمر ليس من ضمن صلاحياته الدستورية.

طبعًا، يمكن لأكثرية المجلس القومي إذا أخذت موقفًا متشددًا ومتحديًا ومطالبًا المجلس الأعلى بالاستقالة أن تترك أثرًا كبيرًا جدًا في أوساط القوميين والرأي العام، ولا يمكن للأكثرية المتسلطة المتلاعبة أن تتجاهله. غير أن رسالة الأمين جزيل الاحترام لا تذهب في هذا الاتجاه «المحدد والمتحدي»، بل تنحو منحى العتب الخفيف الذي ربما يؤدي إلى تراض على حد أدنى من التنازلات. ربما.

لقد توخينا مما سبق أن نناقش فكرة عقد اجتماع استثنائي للمجلس القومي انطلاقًا مما وردنا. ونقول إنه إذا كان حضرات الأمناء وأعضاء المجلس القومي الذين يفكرون في هذا الاتجاه جديين في وصفهم للوضع بأنه «تسلط أكثرية تتلاعب بالعقيدة والدستور»، فلا يمكن أن يكون سقف المجلس القومي أدنى من مطالبة هذه الأكثرية المتسلطة والمتلاعبة بالرحيل. هي طبعًا لن ترحل، وهذا سوف يفتح الباب أمام أزمة دستورية وإدارية، إذ يجد المجلس الأعلى نفسه

في حال عدم ثقة من الهيئة الناخبة التي أتت به. وهذا أمر، إذا أمكن الحصول عليه، يكون ذا جدوى.

أي شيء ما دون ذلك يقع، في رأينا المتواضع، في خانة اللاجدوى.

* ملاحظة: تستند هذه الورقة إلى التعديلات الدستورية لسنة 2001، باستثناء مكان واحد أشرنا له، فاقتضى التنويه.

الخلل الكبير

2017-3-22

نشر في كل من صحيفة «الأخبار» و«الفينيق» بتاريخ 2017-4-5.

نشرت صحيفة «الأخبار» الغراء، في عددها تاريخ 2017/3/11 مقالا قيماً للدكتور أسعد أبو خليل بعنوان: «أزمة الحزب السوري القومي الاجتماعي: النهضة مجدداً». يمكن تقسيم مضمون المقال إلى قسمين عريضين: الأول بحث تاريخي يتناول عدداً من المواضيع المتعلقة بالحزب بشكل موضوعي وإيجابي. أما الثاني، فنجدته في العبارة التالية:

«لكن إذا كان الحزب يتسم بكل هذه السمات الإيجابية، فما هو مكنم الخلل فيه؟»

لن ندخل في نقاش حول القسم الأول من المقال، إنه بحث معمق وموضوعي ويمكن لمن يرغب مناقشته. نحن نرى أن تركيز البحث في السؤال أعلاه هو الأجدى.

السؤال وجيه وإن كان غامضاً بعض الشيء لناحية تحديد «الخلل». ولكننا لا نخال الدكتور أبو خليل يتكلم عن خلل موضوعي بسيط في أداء ما، أو في مكان ما من تاريخ الحزب. بل نعتقد، انطلاقاً من الاحترام الكبير الذي يظهر في المقال لسعادته وحزبه وفرادته بين الأحزاب، عقيدة ومؤسسات مستمرة وفاعلة، نعتقد أنه بإمكاننا إعادة صياغة السؤال على الشكل التالي: «لماذا لم يحقق الحزب السوري القومي الاجتماعي غايته بعد هذا العمر الطويل، أو على الأقل، لماذا لم يتمكن من إقامة النموذج البديل الذي تدعو إليه مبادئه في أحد كيانات الأمة؟ ولماذا هذا التخبط في سياسات الحزب؟

يشير الدكتور أبو خليل إلى عدد من النواحي التي يجب أن تخضع للمراجعة والمناقشة

سواء في فكر سعادته أو في أسلوب تعاطي القوميين مع إرثه. ومع أهمية هذه النواحي، فإننا نعتقد أن الخلل هو في مكان آخر خصصنا كتاباً كاملاً بحثاً عنه، عنوانه «إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية، أنطون سعادته نموذجاً، الحزب السوري القومي الاجتماعي». (مؤسسة سعادته للثقافة، بيروت، 2009).

إن درسنا لتاريخ الحزب حين كان تحت قيادة سعادته المباشرة بين 1932-1938، ومن ثم دراسة الانحراف الكبير الذي وقعت فيه قيادة الحزب بين 1944-1947 فيما عُرف «بالواقع اللبناني» حين كان سعادته في المنفى، ومن ثم مسار الحزب في العقود الأخيرة، أوصلنا إلى نتيجة واحدة: أن إهمال نظرة الحزب إلى الحياة، وغايته، وعقليته الأخلاقية، من قبل قيادات الحزب، أثناء وجود سعادته في المنفى، وبعد اغتياله، هو مكنم الخلل الحقيقي للحزب السوري القومي الاجتماعي ومنبع أزماته المتكررة.

ومع أن هذه الحقيقة تبدو بديهية - العمل لتحقيق غاية يزعم أعضاء حركة أنهم انتموا إليها لتحقيقها - ومع أن سعادته أطلق تحذيره المشهور: «كل عقيدة عظيمة تضع على أتباعها المهمة الأساسية الطبيعية الأولى التي هي انتصار حقيقتها وتحقيق غايتها. كل ما دون ذلك باطل. وكل عقيدة يصيبها الإخفاق في هذه المهمة تزول ويتبدد اتباعها»، فإن العمل بهذه القاعدة لا يزال شبه معدوم، فنرى القوميين يتبددون ولا يعرفون سبباً لذلك!

بل نحن نضيف شيئاً أخطر من هذا، أن معظم القوميين لا يعرفون لماذا أسس سعادته الحزب السوري القومي الاجتماعي، فيقول قائل: «أسس سعادته الحزب ليزيل الويل الذي حل بأمتنا»، أو «ليوحد الأمة السورية». أو «ليحرر فلسطين، والأهواز، والإسكندرون، وسيناء، وكل الأراضي المحتلة»، فيقول آخر، بل «ليقيم العدالة الاجتماعية عبر مبادئه الإصلاحية». هذه كلها، في نظر سعادته، شروط ضرورية للوصول إلى ما يسميه «المطالب العليا»: «إن أغراض الأمم السامية هي مطالبها العليا. أما الحرية والاستقلال، فليسا سوى الويلتين اللتين لا غنى للأمم عنهما لتحقيق تلك المطالب. ومتى بطل أن يكون لأمة ما مثال أعلى تريد تحقيقه لم تبق لها من حاجة إلى الحرية والاستقلال.» (من مقالة «مبادئ أساسية في التربية القومية»). فما هو هذا المطلب الأعلى، هذا الهدف الأسمى؟ الذي إذا لم يكن موجوداً تنتفي معه الحاجة إلى الحرية والاستقلال!

لنأخذ الجواب من أحد أهم كتب سعادته، الذي، مع الأسف، لم يُقرأ ويُدرس بالأهمية التي له، ونعني به كتاب «الصراع الفكري في الأدب السوري»، حيث يقول: «القاعدة الذهبية التي لا

يصلح غيرها للنهوض بالحياة والأدب هي هذه القاعدة: طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.» (الصراع الفكري ص. 72). عن هذه القاعدة يقول سعادته في الكتاب نفسه (ص. 70)، «فلما جاءت النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن، التي نشأت بسببها الحركة السورية القومية الاجتماعية، وقرنت الحرية بالواجب والنظام والقوة...» إلى نهاية المقطع.

إنه لأمر محير أن يقول مؤسس حركة مثل الحركة السورية القومية إنني أسست هذه الحركة بسبب نظرة إلى الحياة مفادها العمل «لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى»، فلا يَنكَبُ اتباع هذه الحركة أعضاء وقيادات على دراسة أثر هذه الكلمات الست على سياسات حزبهم، وخطه على الصعيدين القومي والمحلي، وإذاعته وبرامجه الانتخابية وكل نواحي حياته!

إن هذه القاعدة - ترقية الحياة - هي المحور الطبيعي الذي كان يجب أن تدور حركة الحزب عليه، ولكنها دارت على كذا محور غير محورها هذا في جميع مراحل تاريخ الحزب خلا مرحلة قيادة سعادته، فكانت النتيجة هي «الخلل» الذي يشير إليه الدكتور أبو خليل، ويقدم الكثير من الأمثلة التي لا يستطيع مراقب صادق وموضوعي تجاهلها.

إذا كانت هذه العبارة - النظرة، هي ما كان يجب أن يوجه سياسات الحزب في جميع المراحل، فإن غاية الحزب العليا، وغايته الأولية، الشرطان الضروريان لإحقاق هذه النظرة، هما أيضاً مما أهملته القيادات المتتالية للحزب.

تهدف غاية الحزب العليا، وقد أعدنا صياغتها بحيث وضعنا الغاية باللون الأسود، والوسيلة باللون العادي، إلى:

1. إعادة الحيوية والقوة إلى الأمة السورية عبر بعث نهضة تكفل تحقيق مبادئ الحزب
2. استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً عبر تنظيم حركة تكون هي حركة الشعب العامة
3. تأمين مصالح الأمة ورفع مستوى حياتها عبر إقامة نظام جديد؛
4. السعي لإنشاء جبهة عربية عبر التفاوض مع باقي أمم العالم العربي.

هذه الغاية العليا، كما يرى أي متابع موضوعي لحركة الحزب، غائبة بالكلية عن أدبياته وخطه وبرامجه عمله. هذه الغاية هي التي يمكن لها أن توصل الأمة إلى مطلبها الأعلى آنف الذكر، بكل ما يتضمنه من حياة أجود وعالم أجمل وقيم أعلى، ليس فقط في سورية، بل في العالم أجمع. فمن المُثُل العليا التي يزخر بها التاريخ السوري على حد تعبير سعادته «العمل للخير العام في ظل السلام والحرية.» (محاضراته في العروة الوثقى).

ماذا عن غاية الحزب الأولى، بل ما هي غايته الأولى؟

في دفاعه أمام المحكمة الفرنسية بُعيد اعتقاله الأول إثر انكشاف الحزب، يقول سعادة للقاضي الفرنسي: «إن غاية الحزب الأولى أن يكون حركة الشعب العامة.» هذا أيضًا، كان شيئًا بديهياً وواضحًا وضوح الشمس في ذهن سعادة. كان شيئًا أساسيًا. ولعله تمثل هذه الحركة كالثورة الجزائرية التي ستنتقل بعد عقدين من كلامه هذا، أو قيادة الفيتكونغ في فيتنام، أو المؤتمر الوطني الإفريقي. المهم أن القيادات الحزبية المتتالية، هي الأخرى لم تدرس خطورة هذه العبارة، ولا معناها على الصعيد العملي، ولا الشروط الضرورية التي لا بد من قيامها لكي يستطيع الحزب أن يعلن أنه «حركة الشعب العامة» باستحقاق.

الناحية الأخيرة التي بودنا التطرق إليها هي ما ذكره سعادة في محاضراته الأخيرة في الجامعة الأميركية، المحاضرة العاشرة، عمّا سمّاه «العقلية الأخلاقية الجديدة». بنتيجة أبحاثنا نرى أن لهذه العقلية أربعة مقومات:

أولاً، الوجدان القومي المرافق لبروز الشخصية الاجتماعية والتي يصفها سعادة في مقدمة كتاب نشوء الأمم بقوله: «إنّ هذه الشخصية مركّب اجتماعي - اقتصادي - نفساني يتطلّب من الفرد أن يضيف إلى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته، أمته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه، فهمه نفسية متّحده الاجتماعي وأن يربط مصالحه بمصالح قومه وأن يشعر مع ابن مجتمعه ويهتمّ به ويودّ خيره، كما يودّ الخير لنفسه.»

ثانياً، «إيمان اجتماعي جديد» قوامه المحبة. «المحبة التي إذا وجدت في نفوس شعب بكامله أوجدت في وسطه تعاونًا خالصًا وتعاطفًا جميلًا يملأ الحياة آمالًا ونشاطًا.» (قصة فاجعة حب).

ثالثًا: الصدق، وقد تكلم كثيرا خاصة في محاضراته العاشرة عن آفة «عدم التصريح» و«الدبلوماسية» في الكلام.

ورابعًا، النظام القومي الاجتماعي الذي اعتبره من «الأدوية المرة» التي لا غنى عنها لمحاربة النزعة الفردية. (مقال النزعة الفردية).

هذه النقاط الثلاث: النظرة والغاية والعقلية الأخلاقية، كلها تميّز حزب سعادة عن سواه، وتجعله في موقع المسؤولية المباشرة عن ترقية حياة الشعب المادية والنفسية. إهمال هذه

النقاط، وغيابها عن برامج الحزب وخطته على المستوى القومي أو المحلي، هي ما أدى - في رأينا المتواضع - إلى الخلل الذي يشير إليه الدكتور أسعد أبو خليل.

ختاماً، لا يسعنا سوى تقديم وافر الشكر للدكتور أسعد أبو خليل على مقالته، ولصحيفة «الأخبار» الغراء لفتحها باب النقد الموضوعي لواحد من أعرق الأحزاب في الوطن السوري والعالم العربي. إن جميع الأحزاب والحركات تحتاج إلى نقد بناء مثل هذا.

إدارة التغيير

2017-4-18

في الخطاب المنهاجي الاول الذي القاہ سعادہ في حزيران من سنة 1935 ترد هذه العبارة: «إن إدراكنا لحقيقة التغيير الذي شرع الحزب السوري القومي الاجتماعي يحدّثه في حياتنا القومية يجعلنا لا نغفل عن طبيعة التغيير وما يرافقه من حوادث... إن السوريين القوميين الاجتماعيين عموماً يؤمنون بضرورة هذا التغيير ويظهرون استعدادهم التام وعزمهم الأكيد على أن يحققوا مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي، مبتدئين كل واحد بنفسه.» سوف نستخدم هذه العبارة كمدخل إلى دراسة فن إدارة التغيير وتطبيقاته العملية في إنجاز خطط الحزب السوري القومي الاجتماعي.

تتضمن العبارة أعلاه عدداً من المعلومات المهمة هي: أن الحزب يحدث تغييراً في الحياة القومية؛ لهذا التغيير طبيعة معينة توفّق سعادته أن يرافقها حوادث معينة؛ أن القوميين يؤمنون بضرورة التغيير ولديهم الاستعداد والعزيمة للمضي فيه؛ أن هذا التغيير يتم عبر انتصار مبادئ الحزب في نفوس الأعضاء أولاً.

تمرّ عملية التغيير في مسار من خمس مراحل أتينا على ذكرها في مقالنا بعنوان «لنفترض». عبارة الزعيم أعلاه تشير إلى أن سعادته كان على بينة بهذا المسار. لقد استطاع أن ينقل الوعي بضرورة التغيير إلى الجسم الحزبي، الذي أقبل عليه مؤمناً بضرورته، واعياً لما سوف يرافقه من حوادث، وممتلكاً الاستعداد والعزيمة للمضي فيه. أما أداة التغيير الأساسية فهي مبادئ الحزب. لماذا المبادئ؟ حدّد الزعيم المبادئ بأنها «منطلقات الفكر والقوى»، وقيدّها بأن تكون في خدمة الشعب. أهمية المبادئ الأساسية أنها تحدد الهوية القومية إنساناً ووطناً، ومجتمعاً، ونفسية،

ومصلحة. وأهمية المبادئ الإصلاحية أنها تُعيد الحيوية والقوة إلى الأمة عبر إزالتها للعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تمتص هذه الحيوية وتحولّ عوامل قوة الأمة إلى عوامل ضعف. ما الذي قصده سعادته بعبارة «طبيعة التغيير وما يرافقه من حوادث»؟ دعونا نرى أولاً أي نوع من التغيير توخّى سعادته، عندها يمكننا فهم الحوادث التي توقع أن تكون مرافقة له. يتضمن الجدول التالي أبرز عناوين التغيير كما نستشفها من «الخطاب المنهجي».

من «الوضع الراهن»	إلى «الوضع الجديد»
الفوضى	النظام
الجمود	الحركة
نقض لتاريخ ماض	ابتداء لتاريخ جديد
التملل	القضية الواضحة
الموت	الحياة
الضعف	الحيوية
العبودية	السيادة
حالة عفنة لا نظام فيها ولا قوة	حالة صحيحة عنوانها النظام وشعارها القوة
الإرادات الأجنبية	الإرادة القومية
جماعات لا هدف لها في الحياة	مجتمع له هدف في الحياة
جماعة لا مثال اعلى لها	قوم لهم مثل اعلى
جماعات تعيش الفوضى	جماعة تقدّر قيمة الاعمال النظامية

أول خطوة في أية عملية تغيير هي في وضع ما يعرف بصورة «الوضع الراهن» وتصور «الوضع الجديد». ولا شك أن سعادته في الجدول أعلاه نجح في شرح ما الذي يريد تغييره وفي أي اتجاه. وواضح من هذه العبارات، ومن شروح سعادته في المحاضرات العشر، كما في العديد من كتاباته، أن عملية التغيير التي يقودها الحزب، هي عملية شاملة لجميع نواحي الحياة في المجتمع. وأنها لا تتعلق بغرض عارض كالانتداب مثلاً، بحيث يزول الحزب بزوال الانتداب. بل إنها، في الواقع، تتعلق «بحياة المجتمع واستمرار حياته وتقدمها نحو الاجمل والأفضل».

«الحوادث»، إذن، التي يتكلم عنه سعادته، هي من طبيعة الحوادث التي ترافق كل عملية تغيير. ذلك أن التغيير دائماً يستجر الرفض والمقاومة، وكلما كان التغيير شاملاً وعميقاً، كلما كانت «الحوادث» أعظم وأخطر. ولا تكفي المعرفة بضرورة التغيير والرغبة فيه لكي يصبح حقيقة. إنه يحتاج إلى معرفة بقواعد التغيير، والأدوات الصالحة له، والقدرة على أحداثه. والقدرة هنا تتضمن التغلب على الصعوبات التي دائماً تواجه عملية التغيير، وفي كثير من الأحيان تقمعهما.

هدف التغيير وآلياته

لماذا التغيير وعلام يقوم؟ لنعد إلى عبارات ADKAR الخمس، لمؤسسة Prosci والتي هي كلمة مركبة من اول حرف لكل من الكلمات الخمس التالية: Awareness, Desire, Knowledge, Ability, Reinforcement. ومعناها الوعي بضرورة التغيير، والرغبة فيه، والمعرفة في كيفية إحداثه، والقدرة على ذلك، ومن ثم تدعيمه متى تم. هذه الكلمات تعطينا فكرة عن كيفية تكوّن الحاجة إلى التغيير، والابواب التي لا بد من المرور عبرها للانتقال من مرحلة إلى أخرى.

الوعي. الوعي بضرورة التغيير تعني أن شخصاً أو أكثر قد وعى أن الوضع القائم لم يعد صالحاً ويجب تغييره. الوعي اذن، هو نقطة الانطلاق في عملية التغيير. ولا يكفي الوعي المجرد بضرورة التغيير. يجب أن يرافقه «رؤية» أو «نظرة» حسب تعبير سعادته، للحالة الجديدة، الحالة المستقبلية، التي يجب أن تكون أفضل من الوضع الحالي.

الارادة. إن الوعي شرط ضروري، ولكن غير كاف لحصول التغيير. إنه يحتاج إلى الإرادة. والوعي والإرادة مجتمعان يشكلان معا شرطين ضروريين، ولكن غير كافيين لحصول التغيير.

المعرفة. بدون معرفة قواعد التغيير وأدواته لا يمكن حصول التغيير. إذن، فالوعي والإرادة والمعرفة مجتمعة هي أيضاً شروط ضرورية، ولكن غير كافية.

القدرة على التغيير. وهذه أصعب الشروط اذ انها تعني حشد الطاقات الضرورية للتغلب على جميع العقبات التي سوف تقف في وجه التغيير. ولكن حتى هذه، فإنها مع ما سبقها من شروط، تبقى شروطاً ضرورية، ولكن غير كافية.

التدعيم. تدعيم التغيير يكون عبر إجراءات وقوانين جديدة، وإصلاحات اقتصادية جذرية تتوخى رفع مستوى الحياة واستقطاب فئات جديدة من الشعب. كذلك تتوخى هذه الاجراءات حمايته من القوى التي كانت هي السبب في الدعوة للتغيير، التي، حتى لو انكفأت، فليس ما يمنع إعادة تموضعها استعداداً لهجوم مضاد.

هذه النقاط مجتمعة، هي الشروط الضرورية والكافية لحصول التغيير واستدامة المكاسب الناجمة عنه.

لنجاح التغيير لا بد من تعيين أمرين أساسيين هما «أصحاب العلاقة» أي الناس الذين يستهدفهم التغيير، و«الفوائد» التي سوف يجنيها هؤلاء منه. بدون هذين الأمرين، لا قيمة للتغيير أو لا إمكانية لحدوثه. كي لا يكون كلامنا نظريا فقط، لنأخذ منطلق سعادته لضرورة التغيير، والنظرة التي دعا الناس إليها. المنطلق هو ما وصفه في رسالته إلى حميد فرنجيه والذي يمكن اختصاره بالسؤال: «ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟» النظرة التي دعا الناس إليها، والتي تبلورت في كتابه «الصراع الفكري في الادب السوري» هي الصراع في سبيل «حياة أجد في عالم أجمل وقيم أعلى»، ويقول إن هذه النظرة كانت هي الدافع وراء تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

الحزب الذي تأسس بسبب هذه النظرة له غاية، هي إعادة الحيوية والقوة إلى الامة السورية، وتأمين استقلالها، وحفظ مصالحها. كيف؟ عبر تحرير الانسان السوري من امراض الولاءات الجزئية، ومن عبوديتي رجال الدين والاقطاع، وبناء القوة العسكرية التي تستطيع حماية استقلال سورية واستعادة أراضيها السليبية.

من هذه العبارة نستطيع أن نفهم «الحوادث» التي توقع سعادته حصولها في خطابه سنة 1935. إن النهضة السورية القومية الاجتماعية التي جاءت لتُغيّر الحياة في سورية من حالة الويل، إلى حالة السيادة سوف تصطمم بكل القوى المذكورة أعلاه، الداخلية منها والخارجية. وحسب سعادته في خطابه المنهاجي الاول، فإن الصعوبات الخارجية تهون متى تغلبنا على تلك الداخلية.

إذا هناك تسلسل منطقي في فهم العوامل الدافعة للتغيير - الويل ومسبباته - وتسلسل منطقي في فهم مسار عملية التغيير: نظرة إنسانية عالية، فغاية عملية، فمبادئ هي منطلقات للقوى، ومن ثم أعضاء يمتلكون العزيمة للمضي في التغيير حتى نهايته المنشودة.

دور «النظرة» في الإدارات المحلية

2017-4-18

في هذا البحث سوف ندرس نظرة سعادته إلى الحياة، ومنهجية تطبيقها في المتحدات المحلية - من المديرية إلى المنفذات، آمليين أن يكون في ذلك إفادة للمسؤولين العاملين في مثل هذه المؤسسات.

«إن خطط الحزب السوري القومي الاجتماعي كما هي في فكر الزعيم وتخطيطه وتوجيهه لم ترم قط إلى انشاء كتلة عقائدية متحجرة، بل إلى منظمة عقائدية تفعل إدارة وسياسة وحرًا لتحقيق أهدافها.» (سعادته، من رسالة إلى غسان تويني.)

«هكذا نرى أن هذه المبادئ ليست أقوالًا جامدة أو كلمات ميتة أو حروفًا متناسقة، بل قوة حية فاعلة تتولد فيها مقررات مبدئية أساسية هامة وتبنى عليها خطط في السياسة المصلحية وفي السياسة الأخلاقية وفي السياسة الفكرية أيضًا، في السياسة النظامية، في السياسة التي تتجه إلى تقرير الاتجاه والاعتناء بالقيم الهامة، الأساسية الجوهرية، السامية، التي هي جوهر القضية السورية القومية الاجتماعية وجوهر النظام القومي الاجتماعي.» (سعادته، المحاضرة الثالثة).

إن المقطع أعلاه من أهم ما كتبه سعادته في الرابط العملي بين مبادئ الحزب والإدارة الحزبية فيما يتعلق بوضع السياسات الحزبية. وكلمة «سياسة وسياسات» هنا لا تعني السياسة بالمعنى الشائع للكلمة (Politics) بل السياسة بمعنى خطة أو خطط العمل (Policy). والمؤسسات الناجحة تأخذ وقتًا طويلاً في نحت عبارتي «الرؤية» و«الرسالة» («النظرة» و«الغاية» عند سعادته)، وذلك لأهميتهما في بلورة المثال الأعلى الذي يوجه سياسات المؤسسة

على المستوى النفسي، وأهدافها على المستوى العملي- المادي. هذا المقطع يجب أن يُحفر على مكتب كل مسؤول حزبي، أو أن يكون لوحة تزيين قاعة اجتماعات المسؤولين في الإدارات الحزبية على مختلف مستوياتها. ولكن الأهم أن يكون الدليل للعمل القومي. ذلك أنه لا يكتفي بربط السياسات بمبادئ الحزب، بل يؤكد أن مبادئ الحزب تنطوي على قيم هامة سامية جوهرية للقضية القومية وللنظام القومي الاجتماعي.

فالمبادئ إذن، واستطرادًا النظرة، والغاية، هي ما يولد سياسات المؤسسة ويوجهها. والإدارة الناجحة هي التي تركز جميع قواها المادية والنفسية في خطط وبرامج لتحقيق غايتها العليا ونظرتها إلى الحياة. والنظرة هي الهدف الأسمى الذي تنشُدُّ إليه جميع أنشطة المؤسسة وتترافق معها بغية إحقاقه. ولا شك أن المقياس السريع الذي يستطيع المرء بواسطته أن يحكم ما إذا كانت المؤسسة تخدم الغاية التي تأسست من أجلها، هي في درس خطط المؤسسة ومدى مواءمتها مع تلك الغاية.

النظرة

«طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.» (الصراع الفكري في الأدب السوري، ص. 91). هذه هي النظرة التي قال سعادته إن الحزب قد تأسس بسببها. بالتالي فليس ثمة نقطة أفضل منها للانطلاق في بحثنا هذا.

يتعلق القسم الاول من هذه العبارة «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى» - والذي قد يبدو غامضًا - بالعلاقة بين الفرد والمجتمع وفهم هذه العلاقة بما يخدم تحسين الحياة. (الصراع الفكري، ص. 90). سوف نركز هنا على القسم الثاني منها أي العمل «لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.» وقبل أن نستطرد نلفت النظر إلى أن سعادته استخدم صيغة أفعل التفضيل الوسطى في الكلمات الوصفية الثلاث: أجود، وأجمل وأعلى. والسبب في ذلك أن ترقية الحياة وجمالها وحسنها هي عملية مستمرة تتحدى فيها المؤسسة نفسها بحيث ينطبق عليها قول سعادته، «كلما بلغنا قمة تراءت لنا قمم أخرى.»

ترقية الحياة

كيف نرقي الحياة ونجملها ونحسنها؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من النظر في أساسيات ومقومات الحياة المادية منها والنفسية. وهذه الأساسيات بغض النظر عن الترتيب هي:

♦ الاقتصاد القائم على الإنتاج

- ♦ الصحة
- ♦ التعليم
- ♦ البيئة
- ♦ العلاقات الاجتماعية
- ♦ الأمن
- ♦ الأدب والفنون.

الأساسيات المادية على مستوى الفرد هي: الدخل والصحة والتعليم، وقد جمعتها الأمم المتحدة في مؤشر واحد هو مؤشر التنمية البشرية (HDI) Human Development Index. أما فيما يتعلق ببقية البنود، المادية منها والنفسية، فالبينة تقدم لنا مقومات الحياة، وصيانتها هي صيانة لحياة المجتمع. العلاقات الاجتماعية هي مؤشر لصحة المُتَّحد العامة. الأمن يتعلق بسلامة الإنسان واطمئنانه ليتمتع بالحياة، وهو دليل أيضاً على العدالة في المجتمع. أما الفن والأدب بما فيهما من شعر ونثر وموسيقى ونحت وتصوير ورقص وسواها، فهما مقياس الرقي النفسي في المتحد، وتقديره للجمال والإبداع.

ترقية الحياة تتم على مستويين، مستوى المجتمع ككل، ومستوى المتَّحدات. في هذا البحث سوف نركز على المتَّحدات في مستوى المنفذيات في الحزب السوري القومي للأسباب التالية:

أولاً: إننا نتوخى من هذا البحث فوائد عملية يمكن الحصول عليها في أسرع وقت ممكن. ثانياً: إن حالة الوطن السوري اليوم وفي المستقبل المنظور هي حالة احتلالات خارجية وتَحَارِب داخلي مذهبي وعرقي، وفساد مستشر. هذا يعني انحسار دور الحكومات المركزية مما يضع عبئاً كبيراً على الإدارة في المتَّحدات الأصغر.

ثالثاً: صَرَف الحزب، تاريخياً، جهداً كبيراً لنشر عقيدته، ولكنه لم يصرف جهداً يذكر في ترقية شؤون الحياة في متَّحداته.

رابعاً: إن مقولة «الوصول إلى الشعب» لا يجب أن تعني فقط إيصال فكر الحركة السورية القومية الاجتماعية إليه، بل الوصول إلى التأثير الإيجابي في حياته وترقيتها.

خامساً: إن الانهيار العام أو الجمود أو الانحراف في قيادات التنظيمات المسماة «الحزب السوري القومي الاجتماعي» يمنع أن يكون لها أي دور في مهمتها الأساسية، والتي هي تحقيق

غاية الحزب، وترقية الحياة في المتّحدات والمجتمع. هذا العبء يقع إذن على المنفذين العامين الذي يجب أن يمنعوا خطر الانهيار والتبدّل⁽²⁴⁾ والانحراف الذي تعاني منه «المراكز» عن متّحداتهم. إننا نعترف أن هذه المهمة لصعبة جدًّا، ولكننا نعرض للواقع المؤسف والتبعات التي يتركها على المتّحدات والمسؤولين عنها.

سادسًا: نقص التدريب في مفاهيم التنمية المحلية عند السوريين القومييين الاجتماعيين في شكل عام، ولدى المسؤولين خصوصًا.

مؤسسة المنفذيّات: البنية

إن مؤسسة المنفذيّات هي من أهم المؤسسات في الحزب. إنها المؤسسة التي عادة ما تضم عددًا من المديرّيات، وفيها وبها تدار شؤون المتّحد. بالإضافة إلى هيئة المنفذية وهيئات المديرّيات، هناك ثلاث مؤسسات لم يُعمل بها كما أراد المشرّع بالرغم من أهميتها في إدارة شؤون المتّحد هي: لجان المديرّيات، ومجلس المديرين، ومجلس المنفذية. (راجع الدستور كما وضعه سعادته. ذلك أن في الدساتير المعدّلة لاحقًا هناك أشياء عصيّة على فهم الكاتب. مثلًا، نزع صلاحية اقتراح انشاء مديريات من المنفذ العام).

سوف نستعرض فيما يلي أركان بنية المنفذية لأنها أساسية في فهمنا لإدارة العلاقات ضمن المنفذية وبينها وبين المتّحد عامة.

هيئة المنفذية: هي المنفذ العام والنظّار، مهمتها إدارية بحت. نلفت النظر إلى الناحية المغيبيّة في الممارسات الحزبية، وهي المادة الرابعة من مرسوم الزعيم عدد 2، والتي لم تتغير في الدستور المعدل، حيث تنص: «وتنفيذ قرارات مجلس المنفذية».

هيئة المديرية: هي المدير ومعاونوه. نلفت النظر إلى المادة الخامسة من مرسوم الزعيم عدد 3 والتي لم تتغير في الدستور المعدل حيث تنص: «وممارسة حقوقه في مجلس المديرين». **مجلس المديرين:** يتشكل من المديرين وينعقد مرة كل ثلاثة أشهر برئاسة المنفذ العام

(24) «تبدل الإحساس يعني عدم التأثر وفي علم النفس هي حالة مرضية تتسم بغياب الشعور والانفعال حيث يبدأ الإنسان بالتصرف بشيء من عدم الاكتراث واللامبالاة، وعادة ما يكون هذا الإحساس نتيجة فشل الإنسان في حل المشاكل التي يتعرّض بها فيتجه إلى الاستسلام والرضوخ للواقع فيرفض مواجهة مشاكله وصعوبات الحياة، إذ يفقد الرغبة في بذل أي مجهود لحل أو حتى فهم المشكلة، فيصاب بحالة من التبدل وعدم الاهتمام فلا يبدي أي ردة فعل. لكن هذا التبدل لا يتعلق فقط بالحياة الخاصة بالشخص بل حتى بعلاقته بالشأن السياسي أو بالأحداث التي تهم العالم.» (إيمان الطالبي).

واشتراك هيئة المنفذية في موعد تقررر عمدة الداخلية.» صلاحياته: «درس الأعمال والأحوال الإدارية المختصة بالمنفذية، ووسائل تقوية الروابط الإدارية وتسهيل تنفيذ المهمات الإدارية واتخاذ قرارات رسمية في هذا الصدد.»

لجنة المديرية: هي «لجنة استشارية «مهمتها» التعاون مع هيئة المديرية بدرس شؤون الحي أو الناحية أو القرية الحزبية والسياسية وإعطاء المشورة في كيفية معالجة شؤون المكان السياسية والمالية التي يقصد تطبيقها. واقتراح بعض المشاريع على المدير وإبداء ملاحظاتها على التدابير الإدارية التي قد تولد ما هو غير مستحب.»

مجلس المنفذية: هو «مجلس تمثيلي استشاري له صفة تشريعية في الضرائب المالية (الاشتراكات المحلية) ويتألف من ممثلي لجان المديرية المنتخبين.» (تنتخب لجنة المديرية أحد أعضائها ليكون ممثلاً لها في مجلس المنفذية.) صلاحية هذا المجلس «درس شؤون المنطقة الحزبية والسياسية ودرس مشاريع وتدابير سياسية ومالية واجتماعية واقتصادية محلية. وتقدير الضرائب (الاشتراكات) المحلية ودرس موازنة المنفذية وإقرارها كما هي أو بإحداث تخفيض في اعتمادها والاطلاع على إدارة مالية المنفذية وحساباتها بواسطة لجنة مالية ينتخبها المجلس من أعضائه.»

بودنا الإضاءة على ثلاث نواح قبل الانتقال لتحليل هذه الأركان. الأولى، هي أن حلّ المنفذية يكون عبر قرار من مجلس العمدة - من رئيس الحزب في الدستور المعدّل - ولكن بناء على اقتراح معلل من المنفذ العام مبني على «قرار من مجلس المديرين.» أما الثانية وهي الأهم فهي أن الممارسات الحزبية على مرّ السنين قد أهملت هذه النواحي كلها من عمل المنفذيات لتركز، منذ التعديل الدستوري الذي أنشأ المجلس القومي، على الدور الانتخابي للجان المديرية ومجالس المنفذيات. الناحية الثالثة لها علاقة بالدستور المعدّل وهي التناقض بين كيفية انتخاب لجان المديرية بين القانون الدستوري عدد 4 والقانون الدستوري عدد 11، مما يجب العودة إليه. ولكن ما يعيننا هنا أن انتخاب لجان المديرية ومجالس المنفذيات لا يجب أن يكون مرتبباً بدعوة عامة للانتخاب من عمدة الداخلية، وإنما عملية انتخابية تتعلق بمجرد نشوء مديريةية في الحزب، أو منفذية تضم عدداً من المديرية في نطاقها.

ليس هناك جسم أدق من هذا الجسم الحيوي المتكامل ليقوم بعملية الضوابط والتوازنات Checks and Balances. لنحلل:

1. ما هو دور هيئة المديرية؟ إدارة شؤون المُتحد الأصغر: قرية أو حي أو ناحية.

2. ما هو دور هيئة المنفذية؟ إدارة شؤون المُتَّحِدِ الاوسع والذي يشتمل على عدد من المديریات.
 3. للجنة المديرية مهمات أما مجلس المنفذية فله صلاحيات.
 4. لمجلس المنفذية صفة تشريعية في تقرير الضرائب والموافقة على ميزانية المنفذية ليست لعميد المالية ولا لمجلس العمد ولا لرئيس الحزب ولا حتى للمجلس الأعلى. إنها شأن محلي بحت.
 5. ممن يتألف مجلس المنفذية؟ من أعضاء منتخبين من قبل لجان المديریات.
 6. ممن تتألف لجان المديریات؟ من أعضاء منتخبين من الرفقاء في مديرياتهم.
 7. ما هو دور لجنة المديرية: الدراسة والمشورة وتقديم الاقتراحات داخل نطاق المديرية. ليس لها حق اتخاذ قرارات.
 8. ما هو دور مجلس المديرين؟ تقوية الروابط بين المديریات وإشراف هيئة المنفذية. له حق اتخاذ القرارات.
 9. ما هو دور مجلس المنفذية؟ درس المشاريع والتدابير السياسية، والمالية، والاجتماعية، والاقتصادية. له حق اتخاذ القرارات والتشريع المالي، وإقرار ميزانية المنفذية أو تخفيضها.
- لقد وضعنا كلمات السياسة والمالية والاجتماعية والاقتصادية باللون الأسود لأنها تعيدنا إلى نقطة الابتداء في بحثنا هذا. إنها من أهم العوامل التي بها تتم ترقية الحياة.

مؤسسة المنفذيات: مسار العمل

تنص المواد الأولى والثانية والثالثة من المرسوم رقم 2 بأن «يقسم الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى مناطق إدارية وفرق نظامية»، وأن «تحدد مناطق الحزب الإدارية بمراسيم...» وأن «يعين للمنطقة منفذ عام».

بديهي القول إن عملية التقسيم والتحديد تتم وفق دراسات معمقة على أعلى مستويات الحزب التشريعية والتنفيذية وفق سلم أولويات يأخذ في نظر الاعتبار مصلحة الحزب والمصالح التنموية المرافقة لعملية نمو الحزب في الوطن. لن ندخل في تفاصيل هذه العملية هنا، فلهذا بحث مستقل. ولكننا نبدأ من واقع حصول التقسيمات الإدارية.

من الممكن أن يبدأ مسار العمليات في المنفذية من نقطتين مختلفتين استناداً إلى حالتين مختلفتين. الأولى هي تعيين منفذ عام لمنطقة فيها قوميون سواء كانوا أفراداً انتقلوا إليها من مناطق مختلفة - طلاب انضموا للحزب في جامعاتهم أو مدارسهم خارج مَتحذاتهم وعادوا نهائياً إلى المُتحد - أو مديريات، نمت ببطء ومع الوقت. أما الحالة الثانية فهي تعيين منفذ عام لمنطقة ليس فيها وجود قومي، ولكن الإدارات العليا في الحزب قررت أنها منطقة حيوية للحزب فعَيّنت لها منفذاً عاماً وطلبت منه بناء وجود للحزب فيها.

سوف نركز البحث هنا في المنفذيات التي تضم عدداً من المديريات، ومن نقطة استكمال أركان المنفذية من هيئة لها، وهيئات مديريات ومجلس مديرين ولجان مديريات ومجلس منفذية. بكلام آخر، إنها منفذية كاملة المؤسسات، جاهزة للعمل.

خطة عمل المنفذية

العنوان العريض لخطة عمل المنفذية هو «ترقية الحياة في المُتحد» وذلك انسجاماً مع ما يجب أن يكون خطة حزبية عامة عنوانها العريض: «العمل لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى»، وينطوي تحتها عدد من الخطط المرحلية، أولها الوصول لتحقيق غاية الحزب الأولية في أن يكون «حركة الشعب العامة»، وسوف نفرد بحثاً خاصاً بهذا الموضوع.

هناك عدد من المبادئ لا بد من ترسيخها:

أولاً: لا يجوز لأية مؤسسة حزبية أن تعمل من دون خطة عمل.

ثانياً: إن خطة العمل في المنفذيات يجب أن تكون مترافقة مع خطة العمل المركزية، وهدفها تحقيق نظرة الحزب وغاياته.

ثالثاً: في حال لم يكن لمركز الحزب خطة عمل، يجب على المنفذية أن تضع هي خطتها المترافقة مع نظرة الحزب وغاياته.

التفاصيل	البند
مقومات الاقتصاد في المُتحد: علام يقوم؟ من هم محرّكوه؟ ما هي طبيعة العلاقات الاقتصادية في نطاق المنفذية؟ ما هو متوسط الدخل الفردي؟ ما هو الدخل العام في المُتحد؟ ما هو دور القوميين في العملية الاقتصادية: محرّكون، عمّال، فلاحون، أصحاب رساميل، الخ. كيف تتوزع الدورة الاقتصادية في المنفذية على المديريات؟	الاقتصاد

الصحة	ما هو مستوى الصحة العامة في المتحد؟ متوسط العمر؟ الوفيات بين الأطفال؟ الأمراض السارية؟ أمراض نتيجة التلوث؟ عدد المستشفيات وملكيته؟ عدد الأطباء وانتماءاتهم؟ عدد الممرضين وانتماءاتهم؟ عدد المستوصفات وملكيته؟ الضمان الصحي المتوفر؟ دور القوميين في العملية الصحية: عدد الأطباء، مستوصفات، مستشفيات.
التعليم	نسبة الامية؟ نسبة الأطفال خارج المدارس؟ عدد المدارس وتوزعها: مدارس حكومية، مدارس خاصة مذهبية، مدارس خاصة غير مذهبية، حضانات الأطفال، المدرسون وانتماءاتهم، دور القوميين في العملية التعليمية: أصحاب مدارس، مديرو مدارس، معلمون، الخ...
البيئة	نوع البيئة؟ منطقة جبلية أم ساحلية أم داخلية؟ زراعية أم صناعية أم بادية؟ صحة البيئة: التلوث في التربة والهواء والماء العذب والبحر؟ المؤسسات النشطة بيئياً؟ مدّمرات البيئة: كسّارات، مرامل، نفايات كيماوية، نفايات عضوية، حالة المجاري وآبار الصرف الصحي، مكبات النفايات؟ حالة الأشجار والأحراج؟ الحداثق العامة؟ اعتداء على الأملاك العامة؟
العلاقات الاجتماعية	الوئام في المتحد؟ التكافل والتضامن؟ صراعات اجتماعية: عائلية، مذهبية، طائفية، عشائرية، غيرها؟ الوضع الأسري: تعنيف الزوجة والأطفال، تفكك الاسرة - طلاق، تعدد الزوجات. آفات مجتمعية: قمار، سرقة، نصب واحتيال، الخ.
الأمن	الأمن في المنطقة؟ دور المؤسسات الأمنية التابعة للدولة، هل تحفظ الأمن والعدالة للمواطنين أم تخضع لمؤثرات خارجية: سياسيين، رشوة، عصابات، الخ.. أعداء الحزب، من هم، توزعهم، خطرهم، كيفية درء الأخطار. أصدقاء وحلفاء الحزب: من هم، توزعهم، مدى الاعتماد عليهم.
الأدب والفنون.	نظرة المُتحد للفن؟ هل هي نظرة صداقة أم عداة؟ عدد الفرق الفنية ونوعها؟ عدد المبدعين ومجالات إبداعهم: موسيقى، نحت، تصوير، أدب، الخ. ما هو دور المبدعين القوميين؟ كيف يمكن للحزب دعم الفنون والمبدعين؟ الخ. كيف نحمي المبدعين والفنانين؟

رابعاً: إن وضع خطة عمل المنفذية هو عمل دقيق يتم بقيادة المنفذ العام وبالتعاون مع هيئة المنفذية ومجلسها وهيئات المديریات ولجانها، ولكنها ليست بحاجة إلى أمر أو إذن مركزي للقيام بها. إنها في صميم عمل المنفذ العام وأجهزة المنفذية.

خامساً: تنطلق خطة عمل المنفذية من «الواقع» إلى «المرتجى»، أي من الحالة الحاضرة إلى الوضع الأفضل الذي نريده.

تقوم خطة عمل المنفذية على عدد من الدراسات وفق الجدول أعلاه، يليها مسح للبيئة. المؤشرات والمقاييس ترتبط بالنتائج الحاصلة في وقت زمني محدد ومدى التغيير الحاصل نتيجة خطط الحزب ومشاريعه.

أما مسح البيئة فهو لمعرفة نقاط القوة والضعف - داخل أجهزة المنفذية - والفرص والأخطار التي قد تُعرض أو تتعرض لها من الخارج. ويمكن استخدام الجدول أدناه لوضع مسح للبيئة.

مسح البيئة: نموذج الاستخدام

الأخطار	الفرص	
<ul style="list-style-type: none"> ♦ رقم واحد ♦ رقم اثنين ♦ رقم ثلاثة ♦ رقم أربعة ♦ رقم خمسة 	<ul style="list-style-type: none"> ♦ رقم واحد ♦ رقم اثنين ♦ رقم ثلاثة ♦ رقم أربعة ♦ رقم خمسة 	
إستراتيجيات القوة والاطار	إستراتيجيات القوة والفرص	
هذه الاستراتيجيات تستخدم نقاط القوة لدرء الاخطار	أفضل الاستراتيجيات والتي يجب البدء بتطبيقها فوراً لبناء قوة جديدة للمنفذية. هذه الاستراتيجيات تبني على نقاط القوة الداخلية والفرص الآتية من الخارج	نقاط القوة <ul style="list-style-type: none"> ♦ رقم واحد ♦ رقم اثنين ♦ رقم ثلاثة ♦ رقم أربعة ♦ رقم خمسة
إستراتيجيات الضعف والاطار	إستراتيجيات الضعف والفرص	
هذه الاستراتيجيات هي الأضعف. إنها استراتيجيات دفاعية تهدف إلى تحسين الوضع في اسرع وقت ممكن للانتقال إلى وضع افضل.	هذه الاستراتيجيات تستخدم فرصاً خارجية للتعويض عن نقص داخلي	نقاط الضعف <ul style="list-style-type: none"> ♦ رقم واحد ♦ رقم اثنين ♦ رقم ثلاثة ♦ رقم أربعة ♦ رقم خمسة

ترقية الحياة أو تنمية الحزب

رب سائل: «تقول إن العنوان العريض لخطة عمل المنفذية هو «ترقية الحياة». هل تريد أن تحولنا إلى جمعيات خيرية؟ هل تريد أن تحولنا إلى «كاريتاس»؟ أليس هدف المنفذيات هو النمو بالحزب في المتّحدات واستقطاب الشباب؟ والجواب هو «بلى»، طبعًا. ولكن ليس هناك من تناقض بين ترقية الحياة في المتّحد وتنمية الحزب فالعملان متكاملان. وغنيّ عن القول إن النجاح في ترقية الحياة سوف ينعكس نجاحًا للمنفذية في استقطاب أعضاء جدد للحزب، وفي زرع الوجود القومي الاجتماعي في قلب المتّحد بحيث يشعر الناس أن في التفاهم حول الحزب وخطته وانتمائهم إليه إفادة عملية لهم.

لا نعتقد أننا نغالي بالقول إن الحياة في معظم المتّحدات السورية خاصة في لبنان، تدور حول مؤسسات مذهبية متراصة قابضة على نواحي الحياة. فالطفل يولد في مستشفى الطائفة ويذهب إلى مدرستها، ثم إلى جامعتها، أو جامعة كبرى بتزكية من عميد الطائفة، ثم يجد عملاً بناء على توصية منه، وحين يمرض يستشفى في مستوصفاتها وحين يموت يدفن في مدافنها. هذه المؤسسات هي التي تمتص حيوية الأمة عبر زرع الحواجز المذهبية بين أبناء المجتمع الواحد. وهذه هي عملية التغيير الكبرى التي على الحزب الانطلاق فيها. لا يكفي أن نزرع الفكر الجديد في نفوس الشباب. علينا تنمية المتّحدات اقتصاديًا ونفسيًا وثقافيًا وإبداعيًا أيضًا.

خلاصة

لقد شرحنا في هذا البحث أهمية النظرة والغاية في وضع سياسات المؤسسة. كما شرحنا بُنية المنفذية والعلاقة التي تقوم بين المؤسسات الخمس التي تدير شؤونها. كما عدّنا المجالات الحيوية التي يجب على لجان المديرية ومجلس المنفذية وضع دراسات حولها وتقديمها إلى الهيئات المختصة بحيث يصار إلى التداول فيها جميعًا ما بين المديرين وهيئة المنفذية وهيئات المديرية ولجانها للخروج بخطة استراتيجية للمنفذية تتراوح مدة تنفيذها ما بين السنتين والخمس سنوات، ويرافقها عدد من الخطط التنفيذية مع ميزانيات تفصيلية لكل منها. هذه الميزانيات، مع المصاريف والمداخيل العامة الأخرى هي التي تتشكل منها ميزانية المنفذية مرورًا بالضرائب المحلية التي على المنفذية فرضها على الرفقاء والأعمال التابعة لهم لكي تتمكن من تنفيذ خطتها.

إطار إدارة الاستراتيجية عند سعاد

إدارة - سياسة - حرب

2017-5-26

«ولما كنت في المسائل العملية عملياً جداً...» (سعاد، رسالة إلى غسان تويني تاريخ 4 آب، 1946).

سألني رفيق منذ أيام قائلًا: «كيف نعرف أن ما كتبتَه عن النظرة عند سعاد (طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى) هو حقيقة. هل يعقل أن يترك الزعيم موضوعاً خطيراً مثل هذا مدفوناً في سطرٍ واحد من كتاب الصراع الفكري في الادب السوري؟ ألم يكن حرياً به، إذا كانت هذه النظرة بمقدار الأهمية التي تصفها، أن يضعها في الدستور أو في مكان بارز من كتاباته؟»

ليس لدي جواب عن السؤال الأول سوى ما كتبه سعاد في «الصراع الفكري في الأدب السوري» لناحية أن «الحزب قد تأسس بسبب هذه النظرة». أما بالنسبة للسؤال الثاني فإن موضوع ترقية الحياة هو من أكثر المواضيع التي تناولها سعاد في عدد كبير من كتاباته، ولعل أهمها ما جاء في المحاضرة العاشرة، والتي يشرح فيها غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي. ولكن سؤال الرفيق يقودنا إلى بحث آخر نلّمح إليه اليوم دونما استفاضة وهو أن هناك الكثير من الجواهر المكنونة في كتابات سعاد الوافرة، ولاستخراجها يلزمننا أمران: الأول دراسة تراث سعاد وليس الاكتفاء بقراءة سردية له، والثاني هو منظور الدراسة، أي المدخل العلمي، أو الثقافي، أو الفلسفي المستخدم في البحث.

وللتوضيح أقدم المثال التالي الذي يدخلنا إلى صلب موضوع اليوم.

في رسالة سعادته إلى غسان تويني تاريخ 9 تموز 1946، ترد العبارة التالية: «إن خطط الحزب السوري القومي الاجتماعي كما هي في فكر الزعيم وتخطيطه وتوجيهه لم ترم قط إلى إنشاء كتلة عقائدية متحجرة، بل إلى منظمة عقائدية تفعل إدارة، وسياسة، وحرماً لتحقيق غايته.»

لقد قرأت رسائل الزعيم عشرات المرات. ولكني درستها مرة واحدة وذلك أثناء قيامي بالأبحاث لكتابي «إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية». وكنت في كل مرة أقرأ الرسائل، أتوقف عند هذه العبارة وأقول لنفسي إنه عليّ أن أعود إليها وأغوص فيها لكي استجلي ما هو المقصود منها ومن تطبيقاتها العملية. وحدث أنني كنت في دورة دراسية في التخطيط الاستراتيجي في مدينة واشنطن، فإذا بالمدرّس يشرح أنه لا بد لكل استراتيجية من «إطار» يوجه سيرها لتحقيق الغاية المنشودة. فوراً، تبادلرت رسالة الزعيم إلى ذهني، وسألت نفسي، هل هذه الكلمات الثلاث هي الإطار الذي عبره وجّه سعادته خطته باتجاه تحقيق غاية الحزب؟

انتهت الدورة وعدت إلى مكان إقامتي، وبدأت البحث. نعم، قال سعادته إن حزبه منظمة عقائدية تفعل إدارة، وسياسة، وحرماً لتحقيق أهدافها. ولكن هل قام بذلك فعلاً؟ وكيف نعرف أنه حتى إذا قام بذلك فعلاً، يمكن لنا أن نسمي ما قام به «إطاراً لإدارة الاستراتيجية»؟ فما هو إطار إدارة الاستراتيجية؟ ما هي أهميته وكيف نطبقه؟ والأهم بالنسبة لنا هو كيف طبقه سعادته؟

إذن، أخذت هذه الكلمات الثلاث معنى جديداً لها حين نظرت إليها من منظور التخطيط الاستراتيجي ومفرداته ومفاهيمه.

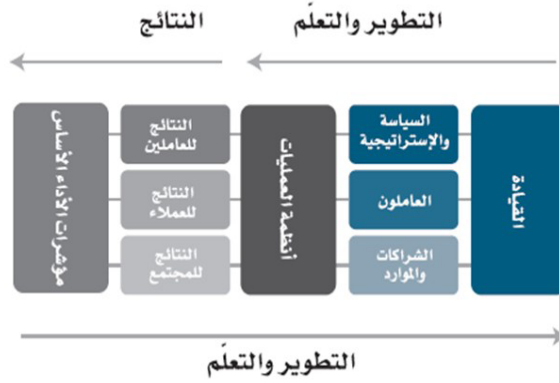
إطار إدارة الاستراتيجية

الإطار، قاموسياً، هو كل ما يحيط بالشيء. والإطار الإداري هو المواضيع المحيطة بعمل المؤسسة والموجهة لها على كل المستويات. وكلما ارتفعت النظرة الإدارية من الناحية العملائية إلى الناحية الاستراتيجية، قلّ عدد الأضلاع الموجهة للسياسات واتسع أفقها.

أهمية الإطار أنه يجمع قوى المؤسسة وينظمها في خطة عمل لا تخرج عن الإطار العام، بل تستخدمه لتجديد قواها وفق مسار واضح. هناك العديد من هذه الأطر المستخدمة في الإدارة من أبرزها ما يعرف بـ EFQM وهو مختصر لـ European Framework for Quality Management، أو «الإطار الأوروبي للتميز في الأعمال»، ويقوم على الركائز التالية: القيادة،

فالسياسة والاستراتيجية، والعاملين، والشراكات والموارد، ثم أنظمة العمليات، فالنتائج الحاصلة لكل من المجتمع والعاملين وأصحاب العلاقة، فمؤشرات الأداء. ويحيط بهذه كلها المحفزات، وأنظمة التعليم والإبداع والتطوير، فالنتائج.

انظر الشكل أدناه لمتابعة كيفية سير العمل لهذه الخطوات وفي أي اتجاه.



الشكل رقم 1 الإطار الأوروبي للتمييز في الأعمال

هذا إبدأ شكل من أشكال الأطر التي يمكن استخدامها، والهدف من هذا الإطار هو التمييز المستدام في العمل. والتركيز هنا هو على التعلم والتطوير وقياس النتائج استناداً إلى حاجات المؤسسة، ومن ثم العمل على التعلم والتطوير من النتائج الحاصلة لإجراء التعديلات اللازمة في القيادة، أو السياسات والاستراتيجيات، أو العاملين، أو أنظمة العمليات.

هناك منهجية صارمة في تطبيق الأطر الإدارية تجد ذروتها في المنظمة الدولية للمقاييس ISO حيث تفرض المنظمة مجموعة من التدابير التي على المؤسسة اتباعها لكي تحظى بشهادة في تطبيق مقاييس الأداء المتمييز. ولكن هذا ليس موضوعنا. موضوعنا هو إدارة الاستراتيجية عند أنطون سعادته. هل نفذ ما قاله في رسالته لغسان تويني وكيف؟ وهل ساعده هذا الإطار في تحقيق الهدف الذي أعلنه في تلك الرسالة وهو «تحقيق غاية الحزب.»

الغاية الأولية

أدرك سعادته أن تحقيق غاية الحزب لا يتم بقفزة واحدة كما يفصل ذلك في رسالته آنفة الذكر إلى غسان تويني. لهذا، وضع لنفسه ولحزبه غاية مرحلية، سماها غاية الحزب الأولية وتقضي بأن يصبح الحزب حركة الشعب العامة. لن نستفيض في شرح مفهوم حركة الشعب العامة فقد فصلناه في أكثر من مكان في هذه المجموعة. ولكننا نكتفي بالقول إن القيادات الحزبية المتعاقبة، سواء أثناء غياب سعادته أم بعد استشهاده، قد أهملت هذه الغاية الأولية بالكلية، ولم تنتبه لخطورتها، ولم تعمل لدراسة متطلباتها وشروطها الضرورية لكي يستحق الحزب السوري القومي الاجتماعي أن يسمّى «حركة الشعب العامة».

الإدارة والسياسة والحرب

هل عمل سعادته لكي يصبح حزبه حركة الشعب العامة؟ وهل استخدم في ذلك الإطار المنوه عنه سابقاً؟ الجواب السريع هو نعم، طبعاً. لقد عمل سعادته، أقله بين الأعوام 1932 - 1938 من ضمن الإطار الثلاثي المذكور هنا وقد استفضنا في كتاب إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية في وصف التفاصيل المرافقة لتلك المرحلة، في قسم كامل من الكتاب، والتي نلخصها هنا بما يلي:

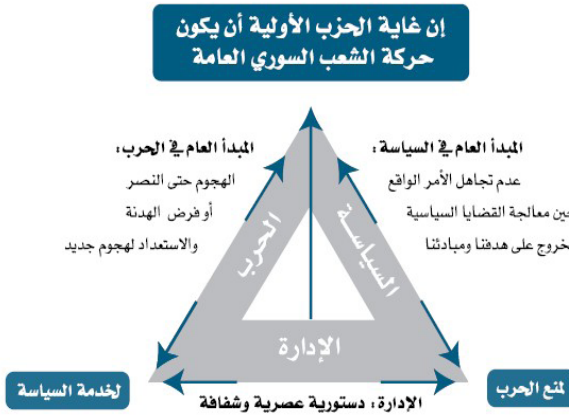
1. بناء قاعدة سرية من الشباب السوري الواعي والمنضبط والمثقف من مختلف المناطق السورية خلال ثلاث سنوات العمل السري 1932 - 1935، بلغ عدد أعضائها عند انكشاف الحزب حوالي ألف عضو. (إدارة)
 2. طلب المواجهة مع المستعمر وعملائه في المحكمة الأولى بعد انكشاف الحزب ومن ثم في «أيام الحزب» في كل من صافيتا، وعمّاطور، وبكفيا. (حرب)
 3. إجبار المستعمر على طلب هدنة (سياسة) قام خلالها الزعيم بترميم الأوضاع الداخلية الناجمة عن الاعتقالات، وبنى على المكاسب السياسية فأصدر مجلة النهضة، وأنشأ فروعاً جديدة للحزب نتيجة المكاسب من الحرب المعنوية التي شنها والتأييد الشعبي الذي حصل عليه.
 4. عاد إلى شن الحرب من جديد عبر مقالاته في النهضة (الأحزاب البعثية) ونقده لحديث البطريرك الماروني، وهكذا دواليك لحين مغادرته الوطن سنة 1938.
- والجدير ذكره هنا أن المناطق التي أقام فيها سعادته احتفالات هجومية كبرى، خلال ثلاثة

أشهر فقط، كانت مناطق يمكن وصفها بمناطق إقطاعية مذهبية، أو عائلية تأتمر بأمر الانتداب، سرعان ما استقطبها سعادته في كل من الساحل الشامي، والشوف والمتن، وأصبحت خزاناً يرفد الحزب بالأعضاء الصليبين، كل هذا لتكون حركته فعلاً حركة عامة تعم مختلف المناطق والفئات الشعبية.

كيف تتمثل إطار إدارة الاستراتيجية عند سعادته؟

الشكل أدناه يمثل الإطار ويشرح العلاقة بين أضلعه، وقد سمّيناه نموذج النمو والتجدد المستدام، تحديداً بسبب هذه العلاقة. فبعد كل مواجهة، هناك ترميم وتعلّم من الدروس والاختبارات، ينتج عنه تطوير في الإدارة، وفي أساليب المواجهة، وهكذا دواليك.

نموذج النمو والتجدد المستدام



الشكل رقم 2 إطار إدارة الاستراتيجية عند سعادته

ملاحظات على الإطار

الإدارة هي الأساس. إنها فن وضع جميع موارد المؤسسة وطاقاتها في خدمة غايتها بأكثر فاعلية وأقل كلفة؛ «السياسة هي فن تحقيق الأغراض القومية»؛ الحرب هي مواجهة مع الخصم

بغية القضاء عليه أو إجباره على الاستسلام. أما فيما يتعلق بالعلاقة بين أطراف الإطار فيمكن لنا القول إن الإدارة والسياسة هي لمنع الحرب؛ وإن الحرب والإدارة هي لخدمة السياسة، وإن الإدارة والسياسة والحرب كلها في سبيل تحقيق غاية الحزب. كذلك نضع قاعدة أن الإدارة للإدارة هي موت بطيء؛ السياسة للسياسة هي منافع خاصة متصارعة تؤدي إلى شردمة المؤسسة؛ أما الحرب للحرب، فانتحار.

خلاصة

إن دراسة سعادته تختلف عن مجرد قراءته. ودراسته تحتاج إلى مناظير علمية توظّر البحث. من هنا، فمع أنه لم يقل «إن الإدارة والسياسة والحرب» هي الإطار الذي به تدار استراتيجية الحزب، فإنها عملياً، ولأي اختصاصي في الإدارة الاستراتيجية، تشكل فعلاً هذا الإطار. بالتالي، فمن يدرس سعادته من منظور علم الاجتماع، أو علم المناقب والأخلاق، أو الفلسفة، أو السياسة، سوف يجد من الجواهر ما يفيد دراسته كما يفيد المجتمع في شكل عام.

«حركة الشعب العامة»

2017-6-18

وضعنا هذه العبارة (العنوان) بين مزدوجين لأن أنطون سعاده استخدمها بهذه الصيغة أثناء محاكمته الأولى، مطلع سنة 1936، وعيّن أنها «الغاية الأولى» لحزبه السري الذي كانت سلطات الانتداب الفرنسي قد كشفت عنه قبل أشهر قليلة.

نتوقف عند هذه العبارة لعددٍ من الأسباب. أولاً، كلمة «غاية» تعني أنها أمر يخضع للتنفيذ وفق خطة معينة. ثانياً، لأنها حددت وجهة الحزب السوري القومي الاجتماعي في مرحلة نشوئه الأولى، أي بين السنوات 1932 - 1938، ثالثاً، أن إهمال الحزب لهذه الغاية الأولى - واستطراداً لغاية الحزب العامة - هو أحد أسباب التبدد الذي يعاني منه الحزب اليوم. ورابعاً، ما لم يعد الحزب إلى وضع هذه العبارة كغاية أولية له، فإن التبدد سوف يزداد.

عدّة «الساعة الآتية»

في رسالته إلى الجالية السورية في البرازيل بُعيد وفاة والده سنة 1934، وبعد أن يستعرض الوضع الدولي ويحذر من حرب كونية يراها آتية لا محالة، يسأل سعاده: «فماذا أعددنا للساعة الآتية.» هذا السؤال تحضيضي. فسعاده يعرف الجواب، أنه حزبه السري الذي كان قد بلغ من العمر سنتين. إنه يحضّ القارئ على التفكير بهذا السؤال استعداداً لما سيأتي من خطط كانت في ذهنه، ومنها، استنهاض المغتربات لدعم حزب القضية السورية. في رأينا أن الحزب كان هو «العدّة» التي أرادها لإعادة الحيوية إلى الأمة السورية لكي تتمكن من مواجهة التحديات الآتية. أحد أدلتنا في ذلك، قوله في رسالة إلى إدفيك جريديني تاريخها 17 نوفمبر، «يجب أن يصير قوياً (الحزب) ليصبح صالحاً للقبض على ناصية الاتجاه القومي، ويمنع الفوضى، وينشر العقيدة

القومية التي لا يمكن توحيد القوى القومية بدونها. ولأن القضية يجب أن تحصل على مركز متين قبل أن تدهم العالم حرب جديدة أرى انها باتت قريبة.»

وقيل الاستطرد نرى أنه من الضروري العودة إلى عبارة لسعاده أضأنا عليها في مقالنا السابق عن إطار إدارة الاستراتيجية حيث يقول: «ولما كنت في المسائل العملية عملياً جداً...» في الواقع أنه إضافة إلى ما يراه كثيرون من أن سعاده كان إنساناً نظرياً، أو فيلسوفاً اجتماعياً، أو مفكراً إنسانياً، أو قائداً ملهماً، فإنه كان قائداً عملياً، وإدارياً ناجحاً إلى أقصى الحدود. لقد جمع سعاده في شخصه ميزتين نادرا ما تلتقيان: القيادة الملهمة وحسن الإدارة.

مما سبق نستنتج أن وصول الحزب لأن يكون «حركة الشعب العامة» له أولاً شرطاً ضرورياً هو أن «يصبح الحزب قوياً»، ويترتب عنه نتائج عملية محسوسة هي القبض على ناصية الاتجاه القومي، ومنع الفوضى والحصول على مركز متين قبل اندلاع الحرب. والأولى بينها والأهم هي القبض على ناصية الاتجاه. فما هو المقصود من هذه العبارة؟

الاتجاه

كثيرا ما تتكرر كلمة الاتجاه، وعبارات مثل تعيين الاتجاه، وتقرير الاتجاه، وسواها من المرادفات، في تراث سعاده. ولهذه الكلمات والعبارات قصد واحد هو تغيير اتجاه الأمة السورية من الموت إلى الحياة. من إرادات أجنبية تقرر مصير سورية إلى تحرر من هذه الإرادات. من قوى جزئية ونزعات فردية تشتت قوى الأمة وتمتص حيويتها، إلى وحدة روح تنطلق من مثال أعلى هو ترقية الحياة القومية ووضع مصلحة الأمة فوق كل مصلحة. من فوضى وتجاذب داخليين، إلى حركة نظامية تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً. من أنظمة عشوائية تُعَلِّب الشعب في صنديق مذهبية وعرقية، إلى نظام جديد يؤمن مصالح الأمة.

ولكن قبل كل هذا على الحزب أن «يصبح قوياً». فكيف خطا سعاده في اتجاه بناء هذه القوة ليصبح حزبه بحق حركة الشعب العامة وما هي الخطوات العملية التي سار عليها؟ نأخذ الجواب من رسالته إلى غسان تويني تاريخ 9 تموز، 1946:

«إنَّ خطط الحزب السوري القومي الاجتماعي، كما هي في فكر الزعيم وتخطيطه وتوجيهه وعمله، لم ترم قط إلى إنشاء كتلة عقائدية متحجرة، بل إلى منظمة عقائدية تفعل إدارةً، وسياسةً، وحرماً لتحقيق غايته. ودستور الحزب وتشكيلاته كلها تدل على اتجاهه العملي مع تأمين أساسه العقائدي. ولكن تطبيق هذا التخطيط لم يكن ممكناً

بمجرد إرادة المؤسس المخطط، بل كان متوقفاً على تطور الحركة نحو تهيئة أسباب التطبيق. وهذه التهيئة كانت تقتضي عدة شروط:

1. اكتمال مرحلة التأسيس والنمو التي هي مرحلة إرساخ العقيدة واكتساب العناصر الفاعلة على أساسها، وهو أمر لا يمكن تعيينه بمرسوم أو قانون من حيث مدته وعدته.
2. حصول عدد كاف من الأعضاء المتنوعي المواهب للقيام بالأعمال المتنوعة التي يقتضيها التخطيط المذكور.
3. حصول ظروف سياسية مؤاتية.

في رأينا أن هذه العبارة هي من أهم ما كتب سعادته في التفكير العملي والإداري. إنها تَعين الهدف والخطوات المطلوبة لبلوغ الهدف. الهدف هو إنشاء منظمة عقائدية تفاعل إدارة، وسياسة، وحرماً لتحقيق غاية الحزب، وهو ما سميناه إطار إدارة الاستراتيجية عند سعادته، أما الخطوات الضرورية فهي: ترسيخ العقيدة، وحصول عدد كاف من الأعضاء، وحصول ظروف سياسية مؤاتية. وسوف نتناول فيما يلي كل من النقطتين الأولى والثانية، تاركين الثالثة لبحث منفصل.

ترسيخ العقيدة

لماذا ركز سعادته على ترسيخ العقيدة؟ لأنها بمبادئها الأساسية الثمانية الدليل إلى الهوية، والحقوق، والمصالح السورية. أي الدليل لما يجب أن يلتف الشعب حوله. هذه العقيدة، مع المبادئ الإصلاحية، هي ما «يمنع الفوضى». وهي، هذه العقيدة والمبادئ الإصلاحية، ما يسمح باستقطاب «العناصر الفاعلة». ومن هذه العناصر الفاعلة سوف «يحصل» العدد الكافي من الأعضاء للقيام «بالأعمال المتنوعة التي تقتضيها الخطط الحزبية»، والتي سوف تعطي «المركز المتين» لسورية قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

هذا التسلسل العملي البديع هو الذي مكن سعادته من القفز بحزبه ليصبح قوة قومية وسياسية يحسب حسابها، في الوطن السوري سنة 1938.

كيف رأى سعادته السبيل إلى نشر العقيدة القومية وترسيخها؟ نأخذ الجواب من الفصل الأخير، فصل ما قبل الختام، من كتاب «جنون الخلود»، تاريخ 15 نيسان 1942.

«إن النتائج الفعلية التي حصلت بنشوء القومية السورية وسير الحركة السورية القومية هي نتائج أكيدة لا ينقصها إلا أن تعم الشعب ... والوصول إلى هذه الحالة ... يقتضي تلبية

واسعة سريعة من الأوساط والعناصر المدركة التي رأت صحة الرسالة السورية القومية، لإمداد الحركة السورية القومية بالمال اللازم لنشر رسالتها، ... ولتأييد هذه الحركة المباركة معنويًا وماديًا ...، فيكون من وراء ذلك تغيير الأمة من حال الانشقاق، والتخاذل، والتحاقد، والضعف إلى حال الاتفاق والتعاون والتعااض والقوة والتغلب والمجد.

إن القضاء على التضليل والمضللين، وجلب سواد الشعب إلى صراط الحقيقة والحق يحتاج لبث المعرفة في جميع الأوساط. وهذا عمل كبير في حد ذاته يقتضي وسائل كثيرة من الإذاعة الخطابية والكتابية. ... ولو أن التلبية الفعلية امتدت بسرعة في الوطن والمهجر وحصلت للحركة المقومات المادية الكافية لإذاعة واسعة، وبث الكتاب والخطباء في جميع الأنحاء، وطبع الكتب والمناشير والخطب وتوزيعها بعشرات الألوف، وإنشاء الصحف والمجلات لإمداد الناس بالمعلومات الوثيقة والتوجيهات الصحيحة، لكان من المحتمل أو المرجح أن يكون موقف سورية في هذه الحرب غير موقف الشلل الذي تقفه..» (نأمل من القارئ الكريم العودة إلى هذا المقال بكليته للأهمية).

كل هذه الأنشطة ما هي سوى تمهيد للخطوة التالية في مخطط سعادته، ألا وهي الحصول على عدد كاف من الأعضاء. وسوف نقف عند هذه الخطوة لأنها تدخلنا إلى مفهوم مهم في إطار العمل العام، ألا وهو مفهوم «الكتلة الحرجة».

الكتلة الحرجة (Critical Mass)

ما هو المقصود بالكتلة الحرجة؟ نجيب عن السؤال من زاوية نظر علم الاجتماع. يعرف الكاتبان مارول واوليفر (Marwell and Oliver) في كتابهما Critical Mass in Collective Action «الكتلة الحرجة في العمل المشترك»، نظرية الكتلة الحرجة بأنها «الحد الأدنى من الأشخاص أو من التمويل الأولي المطلوب لكي يصار إلى اجتذاب أشخاص جدد أو تمويل أكبر بشكل تلقائي، من أجل إنجاح جهد مشترك ما. ويمكن أن يكون هذا الجهد، تأسيس جيش، أو بناء جسر، أو تأسيس جماعة دينية، أو مظاهرات من أجل قضية. المهم أن القاسم المشترك لهذه الأعمال هو المصلحة المشتركة، وإمكانية الاستفادة من عدد من الأعمال المنسق فيما بينها.» (مقتطفات من الفصل الاول).

الفكرة الأساس هنا هي هذا الحد الأدنى أو العدد الأدنى من الأشخاص الذين لا بد من توافرهم لكي يصبح اجتذاب أشخاص أكثر، أمرًا تلقائيًا. لا شك عندنا في أن سعادته، حين كتب إلى تويني عن «حصول عدد كاف من الأعضاء، إنما كان يفكر بهذه الكتلة الحرجة كشرط

ضروري لبناء حركة الشعب العامة. وعدد الأشخاص هنا ليس عددًا مطلقًا، بل عددًا مقيدًا بشرط «إرساخ العقيدة واستقطاب العناصر الفاعلة على أساسها.» إذًا هذه الكتلة الحرجة، هي كتلة عقائدية وعملية في آن. إنها كتلة عقائدية تعمل «إدارة، وسياسة، وحرًا، لتحقيق غاية الحزب.» هل رأينا هذا الترابط البديع بين فكر سعادته العقائدي وتفكيره العملي الذي يربط بين النظرية والتنفيذ!

حين يقول سعادته «إن النتائج الفعلية...هي نتائج أكيدة لا ينقصها إلا أن تعم الشعب..» فإنه يقول إن الحزب قد قدم النموذج الناجح Prototype، لكيفية النهوض بالشعب. والمهمة الوحيدة المطلوبة هي أن يعمّ هذا النموذج في المجتمع كله، وهذا هو دور القوميين. وهذا هو الفشل الذريع الذي تناقلته قيادات الحزب المتتالية، سواء في مرحلة اغتراب سعادته القسري، أو بعد الاستشهاد.

إن المتتبع لتاريخ الحزب لا يسعه سوى أن يقف مشدوها أمام ظاهرة عدم التركيز. لقد لعب الحزب في حلبة السياسة من أقصى يمينها حتى أقصى يسارها، وساعدت قياداته قوى كيانية ومذهبية في تنفيذ مخططاتها، دون أن تُتعب نفسها في طرح السؤال الجوهرى التالي: ما هو العدد أو النسبة المئوية التي كانت في ذهن سعادته حين ذكر في رسالته إلى تويني، «حصول عدد كاف من الأعضاء المتنوعى المواهب للقيام بالأعمال المتنوعة التي يقتضيها التخطيط المذكور.» ما هو هذا العدد الكافي؟ ما هي هذه الكتلة الحرجة التي تصبح آلية الاستقطاب وصولا إلى أن يكون الحزب حركة الشعب العامة؟

حركة الشعب العامة

كيف نتخيل حركة الشعب العامة؟ هناك عدد من النماذج التاريخية التي تقفز إلى البال عند ذكر عبارة «حركة الشعب العامة». الجبهة القومية لتحرير الجزائر، أو الجبهة القومية لتحرير جنوب فيتنام، أو المؤتمر الوطنى الإفريقي، أو حركة استقلال إيرلندا، وغيرها. أما القواسم المشتركة بين هذه الحركات فهي أنها في لحظة ما من تاريخها، تمكنت من أن تنتج تلك «الكتلة الحرجة» من المناصرين، التي دفعت أعدادًا كبيرة من الشعب للتسليم لها بقياداتها في معركتها ضد محتل أجنبي وعملائه. تلك الحركات، كلها، كان لها تنظيم سياسى، مالى، عسكرى، ودبلوماسى تعمل كلها بتناغم - تعمل إدارة وسياسة وحرًا - في سبيل تحقيق غاياتها. وهذا بالضبط هو ما توخاه سعادته في عمله بين سنة 1932 وسنة 1938 قبل أن يضطر إلى مغادرة سورية.

علينا أن نسجل بكل أسف، وانطلاقاً من النتائج الحاصلة، أن الحزب السوري القومي الاجتماعي، بالتنظيمات الثلاثة التي تحمل اسمه بعيد جداً من أن يكون حركة الشعب العامة. ونسجل أيضاً، أن الخط البياني الانحداري الذي يسم مسار هذه التنظيمات اليوم لا يبشر بأية إمكانية لأن تقف هذه التنظيمات وقفه مراجعة مع الذات، وتدرس الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذه الشرذمة التنظيمية، وإلى تبدد أعضاء الحزب. في الوقت نفسه، نرى أن الانهيار والتفسخ قد أصاب ليس فقط مراكز القيادة في هذه التنظيمات، بل ضرب جسم الحزب وعضائه إلى حد كبير، ففقد قسم كبير منهم وحدة الروح، والروحانية الأخلاقية التي ميزتهم من جميع فئات المجتمع. أما أن هناك من لا يزال يعطي ويقا تل ويستشهد في سبيل وحدة البلاد، فهذا دليل على قوة روح سعادته التي تحرك وجدان تلك القلة القليلة، ولكنها لا تغيّر في الواقع المرّ الذي وصفناه آنفاً.

هناك اليوم مسار لا بد منه. قيام فئة تضع نصب عينيها تسلسل منطقي هو عينه التسلسل الذي وضعه سعادته لنفسه. أولاً: النظرة والغاية العليا، غاية الحزب. تحتها مباشرة، غاية أولية أن يصبح الحزب حركة الشعب العامة. دونها، قيام كتلة حرجة تجعل الاستقطاب للحزب تلقائياً. غير أن دون هذا التصور صعوبة جمّة تختصر بكلمة واحدة هي «التبدد». بالتالي، فإن المسار أعلاه، ينقصه خطوة أساسية، أن تقوم نواة من أنقاض هذا التبدد، تستقطب ما تبقى من قوى حية من القوميين لكي يصبحوا الكتلة الحرجة التي تُخرج الحزب من مأزقه ليصبح بالإمكان التخطيط لمرحلة أن يكون الحزب السوري القومي الاجتماعي هو حركة الشعب العامة.

المقاييس

2016-8-19

مع أن هذا المقال أقدم من المقالات التي سبقتة، رأينا وضعه هنا إذ أنه يقدم بحثاً عن المقاييس الضرورية لقياس نتائج حركة الحزب.

تذهلك قدرة سعادته على اختزال حقيقة متشعبة في كلمات بسيطة. يسأل: «ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟» يجيب: «فقدان السيادة القومية.» وبين السؤال والجواب تتبلور غاية تُشكّل مثلاً أعلى لأمة أراد سعادته مكاناً لها بين الأمم الحية. هذه القدرة على الغوص وراء السبب - الداء، لاستئصاله، هي ميزة من مميزات سعادته.

لقد جاء جواب سعادته عن السؤال على المستوى الفكري والتحليلي الأعلى. هو لم يقل مثلاً: «لأن الحكومة فاسدة»، أو «بسبب طمع الأتراك بنا»، أو «بسبب الحرب العالمية الأولى.» لا، لقد رد الجواب إلى العلة الأساس، إلى فقدان السيادة القومية، والتي بسببها أصبحت كل الولايات التي نزلت بنا من تحصيل الحاصل.

«ما الذي جلب على حزبي هذا الويل؟» سؤال قرأناه في رسالة «إفلاس» للأمين عجاج المهتار سنة 1946، وفي رسائل لأمناء ورفقاء آخرين. إنكاره لا ينفي وجوده. إنه يفتك بنا، وعلينا الاتفاق على تشخيصه، فطريقة استئصاله.

جوابي الوحيد على المستوى الأعلى، هو «إهمال غاية الحزب.» لقد كتبت فصلاً كاملاً في كتابي «إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية» عن نتائج هذا الإهمال، فيمكن العودة إليه. أما اليوم، فسوف أتناول بالبحث المقاييس الضرورية والتي عبرها فقط نستطيع معرفة ما إذا

كانت غاية الحزب مُهمّلة، وإلى أي مدى، أو، إن لم تكن، فما هو مدى تقدمنا من بلوغ هذه الغاية.

غير أن ثمة ما هو مُلح لناحية وضع مقاييس الأداء الضرورية. فقد كشفت الأزمة الأخيرة الناجمة عن محاولة التعديل غير الدستوري في الحزب السوري القومي الاجتماعي عن تباين حاد في مقاربة مسائل جوهرية. فالمدافعون عن أداء الإدارة الحزبية لا يرون خطأ في عملها، ومهاجموها لا يرون صوابًا. ومع أن الحقيقة هي في مكان ما بين الاثنين، إلا أن هذا التجاذب الحاد مؤثر على خلل في عملية تقييم الأداء، بحيث تغطي الذاتية على الموضوعية بسبب غياب المقاييس.

فمن يسمع توصيفًا لوضع الحزب من قبل المدافعين عن الإدارة، يرى أن الحزب في أحسن حال. فالحزب يُقاتل في الشام، والإقبال يفوق قدرته على الاستيعاب، وفروعه تنتشر حيث لم يصل من قبل في كل من الأردن، وفلسطين، والعراق، وعلاقاته الدولية والإقليمية ممتازة، وقد أقام الاستحقاقات الحزبية في مواعيدها، وهو على وشك توحيد الحزب الخ... وفي الطرف المقابل التوصيف معاكس تمامًا: الخارجون من الحزب أكثر من المقبلين. الانشقاق، الفساد، الاغتيالات وضحايا المعارك العسكرية الداخلية، الانكفاء عن العمل، الإشاعات التي يطلقها مسؤولون بحق رفقاء عاملين، مكافأة الفاسدين والمفسدين، التلاعب بالدستور وعدم احترامه، إهانة المحكمة الحزبية، الهيمنة وسوء الإدارة، الخ...

إن هذا التباين الحاد في النظر هو ناقوس للخطر. فالحكم في مدى نجاح الإدارة أو فشلها يجب أن يستند إلى مقاييس رقمية وموضوعية، لا مزاجية وشخصية. وهذه علة انقسامنا اليوم. إذا أردنا قياس أداء الإدارة العليا في الحزب السوري القومي الاجتماعي، علينا أن ننطلق من الركنين الأساسيين اللذين يجب أن يكونا محط اهتمامها ألا وهما نظرة الحزب وغايته. من هناك ننطلق إلى مقاييس أداء محلية. ولكن كيف يتم القياس؟ هذا هو السؤال المهم الذي لم تطرحه إدارات الحزب المتتالية على نفسها أثناء غياب سعادته وبعد استشهاده. أما أثناء قيادته للحزب فهذه المقاييس كانت حاضرة أبدًا في خطط الزعيم وفي مراجعته وتقييمه.

ما هي مقاييس الأداء؟

مقاييس الأداء هي الأدوات التي نقيس بها أداء المؤسسة بناء على درجة محددة من الدقة. إنها وسيلة تتيح للمؤسسة تقييم أدائها مُقايَسةً بنسبة تحقيق غايتها، أولاً، وبما يقوم به

المنافسون من أحزاب وحركات ثانيا. كما أنها تساعد المؤسسة على التطوير المستدام «لأفضل الممارسات» لتنفيذ إستراتيجيتها.

لماذا نحتاج إلى مقاييس الأداء؟

تحتاج المؤسسات إلى مقاييس الأداء لمراقبة تنفيذ خططها وتقييم مدى نجاحها؛ لمعرفة الفجوة بين الأهداف المحددة والنتائج الحاصلة؛ وفعالية⁽²⁵⁾ المؤسسة في المجتمع، وفعاليتها⁽²⁶⁾ عبر أنظمة عملياتها؛ والتركيز على النتائج وليس على الجهد المبذول فقط.

المقاييس على مستوى النظرة إلى الحياة

النظرة العليا عند سعادته والتي أسس الحزب بسببها هي: «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجد في عالم أجدل وقيم أعلى». (الصراع الفكري في الأدب السوري) مقاييس جودة الحياة العالمية، موثقة، ومعظم المؤسسات الدولية والجمعيات الخيرية تعتمد هذه بعضها: مستوى الدخل القومي والفردى، نسبة الوفيات عند الولادة، متوسط العمر عند الوفاة، نسبة الأمية، نسبة القضاء على الأمراض الفاتكة، نسبة التلوث في المياه والهواء والتربة، نسبة التحريج، مستوى التصحر، عدد الحدائق العامة، الطرقات السالكة، المواصلات، نسبة البطالة، التضخم المالى، تفشي الجريمة، السلم الأهلي، التأخي الاجتماعي، ازدهار الحركة الثقافية (عدد الكتب التي تصدر في السنة، الترجمات، عدد المسرحيات أو البرامج الموسيقية. الخ...)، عدد السجناء السياسيين، ضمان الحريات، الخ...

المقاييس على مستوى الغاية:

«غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية، تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها. وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً. وتثبيت سيادتها، وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها. والسعي لإنشاء جبهة عربية.»

تتضمن غاية الحزب أربعة مواضيع أساسية لكل منها نتيجة قياسية. تتدرج المواضيع الثلاثة الأول من حالة الانحطاط التي كانت محيطة بمرحلة التأسيس وصولاً إلى الوضع المبتغى في

(25) الفاعلية: قدرة الشركة أو المنظمة على تحقيق الأهداف المحددة بالطرق المناسبة.

(26) الفعالية: إتمام الأنشطة والمهام بأقل قدر ممكن من الموارد.

نظرة الحزب. ومن حالة الركود والاستكانة للاحتلالات الأجنبية، إلى حيوية فاعلة تؤدي إلى طرد المحتل واستقلال الأمة وتثبيت سيادتها، وصولاً إلى النظرة العليا ألا وهي تأمين مصالح الأمة ورفع مستوى حياتها. إنه لتسلسل منطقي بديع ينطلق من الواقع إلى المثال الأعلى. بعد تحقيق هذه النتائج الأساس، أو بالتزامن مع بعض منها، يمكن لنا السعي لإقامة جبهة عربية. (راجع الجدول في مقالي «الحيوية» و«عبارات مهمة».)

مقاييس الأداء لـ «بعث نهضة»

ما هي العلاقة بين تحقيق مبادئ الحزب وإعادة الحيوية والقوة إلى الأمة؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أولاً فهم العوامل التي تؤدي إلى تقوية أو إضعاف «حيوية الأمة وقوتها» بشكل عام، ومن ثم وضع المقاييس لذلك.

يقول الزعيم في مقدمة نشوء الأمم ما يلي:

«كل جماعة ترتقي إلى مرتبة الوجدان القومي، الشعور بشخصية الجماعة، لا بد لإفرادها من فهم الواقع الاجتماعي وظروفه وطبيعة العلاقات الناتجة عنه. وهي هذه العلاقات التي تعين مقدار حيوية الجماعة ومؤهلاتها للبقاء والارتقاء، فبقاؤها غامضة يُوجد صعوبات كثيرة تؤدي إلى إساءة الفهم وتقوية عوامل التصادم في المجتمع فيعرقل بعضه بعضاً، ويضيع جزءاً غير يسير من فاعليته وحدته الحيوية، ويضعف فيه التنبه لمصالحه وما يحيط بها من أخطار من الخارج.»

إن هذا المقطع كثيف ويجب ربطه بكلام سعادته عن «الحقيقة الأساسية الكبرى» في كتاب الصراع الفكري في الأدب السوري. فـ «فهم الواقع الاجتماعي وظروفه وطبيعة العلاقات الناتجة عنه»، هو الحقيقة الأساسية الكبرى التي يشير إليها سعادته في عبارة النظرة. أما «الغموض الذي يوجد الصعوبات التي تؤدي إلى إساءة الفهم والتصادم...» فإنه، في معظمه ناجم عن عدم الاشتراك في تعريف واحد للهوية، والحروب الداخلية الناجمة عنه. وهنا يأتي دور مبادئ الحزب التي تُخرجنا من الغموض إلى الوضوح في النواحي الأساسية التي تعني أي مجتمع يريد الحياة وهي: الهوية والحقوق والاستقلال النفسي والوجدان القومي والعدالة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية والقوة الرادعة لمطامع الآخرين، أليست هي ما يمنع التصادم الداخلي في المجتمع الواحد؟

وهذا ما يقودنا إلى وضع المقاييس لنرى مدى فعل المبادئ في المجتمع وتحقيقها، والذي هو الغرض الأساس من بعث النهضة.

أدوات القياس لمبادئ الحزب الأساسية

كيف نقيس تحقيق مبادئ الحزب؟ لنستطيع القياس علينا فهم ما الذي نقيسه. وبالتالي علينا تعيين مواضيع المبادئ لنتمكن من وضع المقاييس المناسبة. تتعلق مبادئ الحزب الأساسية من واحد إلى ستة بالهوية والحقوق القومية، وهذان لا ينفصلان أحدهما عن الآخر؛ المبدأ السابع يتعلق بالاستقلال النفسي؛ أما الثامن، فبالوجدان القومي وتطبيقاته. أما كيف يمكن قياس هذه المواضيع فسوف نفضله فيما يلي.

الهوية والحقوق القومية: تقاس داخليًا وخارجيًا. **المقياس الداخلي** هو نسبة السوريين الذين يعرفون هويتهم وحقوقهم القومية، انطلاقًا من معرفتهم بشخصيتهم وحدود وطنهم وتاريخهم وطبيعة مجتمعهم، ومدى استعدادهم للدفاع عن كل ذلك. أما **المقياس الخارجي**، فيتعلق بمدى اعتراف العالم بحقوقنا كأمة واحدة ومجتمع واحد واحترام كياناتنا وعدم التعرض له.

الاستقلال الروحي: إن تركيز سعادته على استمداد النهضة السورية القومية من مواهب الأمة السورية يعني الاستقلال النفسي والروحي عبر الأخذ بنظرة إلى الحياة منبثقة من شخصيتنا ومن «خطط النفس السورية»، (الصراع الفكري في الأدب السوري). **المقياس** هو مدى تأثير نظرات نفسية أو روحية خارجة عن أنفسنا وخططنا في حياتنا القومية ومدى انعكاس ذلك في سياساتنا القومية أو تأثيرها سلبيًا على وحدة مجتمعنا. ولعل المثل الصارخ عن مدى خضوعنا النفسي لنظرات خارجة هي في انقسام مجتمعنا حيال نظرتين مذهبتين خارجيتين متنافستين، تتصارع على الأولى السعودية وتركيا، فيما تقود الثانية إيران، وانعكاس كل ذلك على وحدتنا الداخلية. طبعًا، يمكن وضع مقياس عكسي لما سبق ألا وهو مقدار التأثير النفسي للنظرة السورية إلى الحياة، وخطط النفس السورية في مجتمعات أخرى. لقد آمن سعادته بنا «أمة هادية للأمم»، وهذا مقياس يجب عدم إهماله.

الوجدان القومي: مدى انتشار مفهوم الوجدان القومي الذي يضع مصلحة الأمة فوق أية مصلحة، ويتغلب على النزعة الفردية القاتلة. **المقياس** هو في درجة الوعي للمصلحة العامة والالتزام بها.

أدوات القياس لتحقيق مبادئ الحزب الإصلاحية

أما بالنسبة للمبادئ الإصلاحية فالمقاييس أسهل، فالمبادئ الإصلاحية الثلاثة الأولى تتعلق بالوحدة الاجتماعية ومحاربة أكبر معطل لها، الطائفية. المبدأ الرابع متعلقٌ بالعدالة الاقتصادية،

والخامس متعلّق بمدى قدرة الأمة على حماية نفسها. استنباط المقاييس لهذه المبادئ يتضمن مثلاً، انحسار القضاء المذهبي في وجه القضاء المدني، عدد المدارس الدينية والمذهبية مقايسة بالمدارس المدنية، الزواج المختلط، اعتماد المؤهلات في الوظائف عوضاً من المذهب والطائفة، الخ... وفي الاقتصاد، التفاوت في الدخل، ملكية الأراضي الزراعية، تنوع مصادر الإنتاج والمبدعين، والانطلاق إلى اقتصادٍ إنتاجي يقوم على التقنيات الحديثة المنافسة. أما في حماية الوطن، فمن المقاييس مثلاً، التدريب العسكري الإلزامي، الصناعات العسكرية، معنويات المقاتلين، عدد سنوات الخدمة الإلزامية، عدد سنوات الخدمة الاحتياطية، عديد الجيش، وعديد الاحتياط، المعاهدات الدفاعية وهلم جرى.

بهذه المبادئ نقضي على عوامل الموت القومي كالجهد بالحقوق، التبعية الروحية، النزعة الفردية، التناحر الداخلي، الاستعباد الاقتصادي، والاستباحة الخارجية. ولا شك عندنا أن الخطوط البيانية للمقاييس أعلاه، انطلاقةً من الخط الأساس الذي نكون قد وضعناه عند بدء العمل سوف يرينا بوضوح أن خط حيوية الأمة وقوتها سوف يكون خطأً تصاعدياً مع تحقيق هذه المبادئ.

أدوات القياس لـ «تنظيم حركة»

في جوابه لقاضي التحقيق في محاكمته الأولى بعيد انكشاف الحزب يقول سعادته قولاً مرّ في تاريخنا مرور الكرام فلم ننتبه له أو نعبأ بخطورته ولم نقم بدراسته. يقول: «إن غاية الحزب الأولية أن يكون حركة الشعب العامة.» ولكن الأخطر في هذه العبارة أنها خطوة لا بد منها، أو شرط ضروري للحصول على النتيجة الاستراتيجية المطلوبة من قيام حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً وتثبيت سيادتها.

هذه العبارة، كمعظم كتابات سعادته عبارة كثيفة وبحاجة إلى تفكيك ومقاييس. بديهي أنه إذا كان على الحزب أن ينظم حركة، فهذا يعني أن هذه الحركة ليست هي الحزب، ولكنها حركة يقودها الحزب وتلتف حول عقيدته وبرنامج عمله دون أن يكون المنضمون إلى هذه الحركة أعضاء في الحزب بالضرورة. وإذا درسنا حركات التحرر وجدنا أنها كلها انطلقت من كتلة عقيدية مترابطة تجتذب أنصاراً ومؤيدين وفق برنامج عمل واضح. بالتالي، فإن المقاييس التي يمكن استنباطها لمدى نمو حركة الحزب تكمن في عدد المنضوين تحت لوائها، عمرهم، انتشارهم، مؤهلاتهم، مدى استعدادهم للانتماء إلى الحزب. أما بالنسبة لنتائج حركة الحركة فيمكن لنا مثلاً قياس عدد النواب في المجالس التشريعية المؤيدين لها، وفي النقابات، وبين الصحف والصحافيين، وفي الجيش. مدى اعتراف العالم بهذه الحركة كمُعبرٍ عن مصالح الشعب السوري

وكممثل له. وأخيرًا، وهو المقياس الأهم، أين هي من تحقيق النتيجة الاستراتيجية المطلوبة منها، أي «استقلال الأمة السورية استقلالًا تامًا وتثبيت سيادتها»؟

أدوات القياس لـ «إقامة نظام جديد»

ما هي النتيجة الاستراتيجية لقيام النظام القومي الاجتماعي؟ إنها من قسمين: تأمين مصالح الأمة، ورفع مستوى حياتها، والقسم الأول شرط ضروري لقيام الثاني. وتأمين مصالح الأمة يكون بعد تثبيت سيادة الأمة وتأمين سلامة المجتمع والعدالة الداخلية، في تنمية قدراتها البشرية وتوظيفها، واستغلال مواردها الطبيعية بأكثر الوسائل فعالية وجدوى واستدامة، وبناء العلاقات الدولية الاقتصادية والتجارية والدفاعية، والمساهمة في الحياة الثقافية والعلمية والفنية الإنسانية. بكل هذا يرتفع مستوى الحياة في نواح يمكن قياسها كما بيّنا في بدء الحديث عن المقاييس على مستوى النظرة إلى الحياة.

أدوات القياس لـ «إنشاء جبهة عربية»

مع أن غاية الحزب لا تلحظ نتيجة قياسية، إلا أنه يمكننا استخلاص نتيجتين من كتابات سعادته، الأولى هي مدى تحقيق الأمم العربية الأخرى وحداتها القومية ووفق أية نظرة إلى الحياة؛ ثانيًا، مدى استعداد هذه الأمم لتشكيل جبهة عربية تكون سدًا ضد المطامع الأجنبية والاستعمار.

هذه بعض الخطوط العريضة التي يمكن لنا استخدامها في وضع مقاييس تفصيلية رقمية، وتحديد مصادر البيانات الدقيقة لها، ووضع التقارير الدورية الناجمة عنها أمام الشعب وقياداته ليعرف وجهة مسار حياته فيقوم بمحاسبة المسؤولين كما ينبغي.

سعادته وأدوات القياس

قلنا إن هذه المقاييس كانت حاضرة في عمل الزعيم أثناء قيادته للحركة أو في مغتربه القسري، وقد خصصنا فصلًا لها في كتابنا «إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية»، يمكن العودة إلى تفاصيله. سنكتفي هنا بإيراد عبارتين فقط لنأخذ مثلًا على ذلك.

يستهل سعادته خطاب أول آذار سنة 1938، بالقول:

«ما كاد الحزب السوري القومي يصبح كائنًا حيًّا ويستكمل شروط كيانه، حتى تعرض لما تتعرض له كل الكائنات الحية من اختبارات طبيعية وتجارب نفسية روحية. وهي

اختبارات وتجارب ضرورية لمعرفة مواهب هذا الكائن الحي الجديد وخصائصه وللتثبت من بنيته، هل هي قوية تصلح للبقاء؟ أم ضعيفة تتفكك لأول صدمة؟، ومن روحيته هل هي سليمة أم فاسدة لا تحقق شيئاً؟، ومن عقيدته هل هي صحيحة تعبر عن فهم صحيح لحاجة أمة حية أم مخطئة لا تعبر إلا عن أوهام شخصية؟ يحسن بنا أن نقف في هذه المرحلة الأولى لنلقي نظرة على ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ونعين بالضبط مركزنا بالنسبة لهدفنا ولما حولنا..»

«أن نعين بالضبط مركزنا بالنسبة لهدفنا ولما حولنا.» هذه هي قاعدة القياس العامة التي تعتمد عليها جميع المؤسسات، وقد اعتمدها سعادته منذ ثلاثينات القرن الماضي. إنها لجريمة ألا يُبقي كل مسؤول حزبي، بل كل رفيق ورفيقة، هذه العبارة نصب أعينهم في كل لحظة. فبدون هذا التعيين المضبوط، كيف لنا أن نعرف موقعنا بالنسبة إلى غايتنا، وما إذا كنا نسير في الاتجاه الصحيح.

أما في رسالة منه إلى «هيئة اللجنة المفوضة المركزية» في البرازيل سنة 1940، يسأل سعادته الأسئلة التالية:

1. ما هي الاعمال التي قامت بها اللجنة المركزية المفوضة من الوجهتين الإدارية والإذاعية؟
2. هل جرت مراسلات مع أشخاص في داخلية البلاد وفي أماكن بعيدة؟
3. هل حدثت حركة انضمام في مدن أخرى أم لا؟
4. ما هي الوسائل المستخدمة من قبل اللجنة لإيجاد مراكز في الداخلية؟
5. ما هي النقاط الأساسية التي يتضمنها برنامج عمل اللجنة؟
6. ماذا تحقق منها وماذا لم يتحقق؟

ثم يتوسع في الشرح قائلاً:

«هذه الأسئلة تعني أنه واجب على اللجنة المركزية المفوضة أن تضع برنامجاً عملياً للأعمال الإدارية والإذاعية وتصنفه في فصول وتعين فيه نتائج يجب الوصول إليها. وهذه النتائج يجب أن تكون ذات صفة محسوسة فلا يُقال مثلاً: «تسعى اللجنة لزيادة عدد الأعضاء، بل يُقال تستخدم اللجنة الوسائل التالية»، تقول ما هي «لِلوَصُولِ إِلَى أَوْسَاطِ كَذَا. وبهذه الوسائل والأشخاص تقدر أن تصل في مدة كذا إلى إدخال العناصر التالية الضرورية لنمو الحركة.»

«عدا عن التساؤلات المتقدمة أريد أن أعرف حقيقة سير الشؤون النظامية الداخلية - الاجتماعات ومواضيعها ونتائجها المالية وتنظيمها ونتائجها وعدد الأعضاء المتممين واجباتهم من هذه الجهة وغير المتممينها. وماذا تفعل اللجنة بمن لا يتمم واجباته...» «ويجب على اللجنة أن تعلم أنه لا يفيدني شيئاً معرفة أن العقيدة وحدها تنتشر. فالعقيدة تنتشر بواسطة توزيع المبادئ ومنشورات الحزب والجريدة. أما وجود اللجنة المفوضة فليس فقط لاكتساب أشخاص يصرحون لنا أنهم يعتقدون مبادئنا، بل لتنظيمهم وإفهامهم نظام الحزب وتعيين واجباتهم المعنوية والمادية وتكليفهم لمهام صريحة من قبل اللجنة...»⁽²⁷⁾

من هذه الأسئلة، التي يجب على كل منفذ عام أن يكون لديه إجابات تفصيلية عنها تبنى مؤشرات الأداء من المديرية إلى المنفذيات فالعُمدات كل حسب مصلحتها المعنوية بها، وصولاً إلى مجلس العمدة ورئاسة الحزب، فالمجلس الأعلى والأجهزة الرقابية. وبهذا النوع من المقاييس والمؤشرات، تتمكن الإدارة من مراقبة الأداء وضبطه، وتعيين مراكز الصرف في الميزانيات وأين يجب أن تزداد أو تنقص، وما هو نوع التدريب اللازم لتنمية الموارد البشرية اللازمة لتنفيذ خطة الحزب.

واليوم...

بعد هذا العرض المفصل، نعود إلى السؤال الأساس الذي انطلقنا منه: أين نحن من غايتنا؟ ولا شك عندي في أن أي باحث صادق وموضوعي يستخدم أي من المقاييس التي تناولناها في بحثنا هذا سوف يخلص إلى ما يلي: إن مساحات الأرض المحتلة اليوم، تفوق مساحة الأراضي المحتلة سنة 1932، وأن مواردنا اليوم هي في حال أسوأ بكثير عما كانت آنذاك. كذلك الحال بالنسبة لأعداد النازحين واللاجئين والمشردين وسرقة المال العام، وتلوث البيئة والتصحر، والصراعات المذهبية، والارتهاق النفسي والروحي لقوى ونظرات خارجية. لا نستطيع أن نشير إلى مؤشر واحد سواء من مؤشرات جودة الحياة بشكل عام، أو من المؤشرات الخاصة بتحقيق مبادئ الحزب، إلا وشاهدنا أن الخطوط البيانية لهذه المؤشرات منحدره انحداراً خطيراً.

الشيء نفسه ينطبق على الحزب. ما هو عدد تشريعات المجلس الأعلى في كل من دوراته؟ ما شكل الخط البياني للمنتميين إلى الحزب، وما هو شكل الخط البياني للخارجين من الحزب؟ ما هو شكل الخط البياني للإنتاج الثقافي الحزبي، أدبياً، وموسيقياً، ومسرحياً، وعلوماً اجتماعية

(27) سعاده، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السابع، ص 164.

وما شابه؟ ما هو شكل الخط البياني للقوميين المهاجرين؟ وما هو شكل الخط البياني للقوميين العائدين؟ ما هو شكل الخط البياني لمالية الحزب من موارده الخاصة وليس تلك المرتبطة بجهات خارجية؟ ما هو عدد منفذيات الحزب ومديرياته وكيف تقارن مع فترات سابقة؟ ما هو وضع العدالة في الحزب؟ كم شكوى أهملت، وكم شكوى بت بها؟ ما هو عدد المدارس التي أسسها الحزب، وهلم جرى.

إذا قبلنا بهذه الحقيقة ولم نكابّر، نجد أنفسنا في مواجهة سؤال أصعب: كيف سمحنا، نحن السوريين القوميين الاجتماعيين، الذين أقسمنا اليمين أن نهض بشعبنا وأمتنا وأن نحررها من الاحتلال وأن نستقل بها ونستعيد اجزاءها المسلوبة، وأن نقيم نظامًا جديدًا يعكس نظرتنا الرائعة إلى الحياة، كيف سمحنا لبلادنا وأفسنا أن ننحدر هذا المنحدر؟ أين كانت قياداتنا المتتالية؟ بماذا كانت منشغلة عن هاجس تحقيق غاية الحزب؟ كيف سكتنا عنها، وإلى متى نبقى ساكتين، فسورية مسؤوليتنا نحن أولاً. أليس كذلك؟

أنا موجود

2017-7-20

أكد لي الرفيق إحسان الأسمر ما كتبه في مقال له نشر منذ أيام فقال، «هناك حوالي الألفي رفيق تابعين لمركز الروشة، وبضع مئات في تنظيم الانتفاضة التي يقودها الدكتور علي حيدر، وبضع آلاف معظمهم موظفون أُدخلوا في تنظيم «الأمانة العامة» عبر الضغط الوظيفي. ولكنني أعتقد أن عدد القوميين في العالم كله هو في حدود الخمسة وسبعين ألف قومي اجتماعي ليسوا من ضمن أي تنظيم من التنظيمات القائمة.» (تنظيم الأمانة العامة هو التنظيم الذي تأسس في الشام، تحت مسمى الحزب السوري القومي الاجتماعي في الجمهورية العربية السورية، والذي كان يموله بعض أقطاب النظام في الشام، والذي انحل بقرار من القيادة الشامية.)

ربما تكون الأرقام التي قدمها الرفيق احسان الأسمر صحيحة وربما تكون قريبة من الصحة بنسبة معينة. ولكن الأكيد من معرفتنا بتاريخ الحزب أن هناك أعدادًا كبيرة جدًا ممن انتموا في حياتهم إلى حزب سعادته، توقفوا عن العمل في صفوفه لسبب أو آخر، وهم موجودون في كل أنحاء العالم وعلى نسب متفاوتة من الاهتمام بقضية الحزب. ونحن إذا كنا نعرف بعضًا منهم فإننا لا نعرف معظمهم. فمن خبرتنا ومن إحصاء أولي قمنا به منذ سنوات بالتعاون مع عدد من الرفقاء والمسؤولين تبين لنا أنه حيث توجد مديرية يحضر اجتماعاتها خمسة وعشرون رفيقا ورفيقة، غالبا ما يكون مسجلا في سجلاتها حوالي الثمانين عضوا، ويكون في محيطها بضع مئات ممن لا يحضرون الاجتماعات النظامية، ولكنهم يحضرون بعض الاحتفالات والمناسبات القومية. هذا الكمّ المهمّ من القوميين، هذه الأثرية الصامتة، هذه الامكانيات المتألّمة، من هي؟

إين هي؟ حزب سعادته يحتاجكم في أهم، ولعلها، آخر معركة لإنقاذ هذا الحزب العظيم من براثن الفساد والانحراف والصنمية. نعم، فساد كبير في الروشة، وانحراف عقائدي وتنظيمي لدى الأمانة العامة، وصنمية لدى انتفاضة عبد المسيح. وما تمسك كل من هؤلاء بمقولة إنا أو لا أحد، سوى دليل على صحة ما نقول.

المقياس الوحيد الصالح لقياس فعل أية حركة هو اقترابها أو ابتعادها من تحقيق غايتها المعلنة. وفق هذا المقياس، التنظيمات الثلاثة فاشلة بامتياز. إن القوميون المنضوين تحت أي من هذه اليافطات مدعوون لإعادة النظر في تموضعهم وما إذا كان فعلاً يخدم قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي أو يضرها.

إلام ندعو إذا، هل إلى تنظيم رابع؟ كلا وألف كلا. إننا ندعو القوميون لاعتبار أن الحزب السوري القومي الاجتماعي هو حزب بدون قيادة على مستوى نظريته وغيابته وقيمه وأخلاقه ودستوره، وندعوهم - جميعاً - وبغض النظر إلى أي تنظيم محضوا ولاءهم للاعتراف بهذه الحقيقة والعمل من وحيها.

وهذا يعيدنا إلى القوميون المجهولين الصامتين المتألمين.

إذا كنا نحن لا نعرفكم، فأنتم تعرفون أنفسكم. ونحن واقفون في ضوء الشمس وفي وضوح النهار، وبلا خجل نعلن أن ولاءنا الوحيد هو لسعادته الزعيم بالفكر والممارسة والقُدوة، سعادته النظرة، والقضية، والغاية، والأخلاق. إذا كان هذا هو سبب انتماءكم، وإذا كان سبب ابتعادكم هو الممارسات المعاكسة لسبب الانتماء، فالفرصة الآن أمامكم وأمامنا لكي نعيد لهذا الحزب ألقه. كل ما نطلبه منكم هو أن ترفعوا أيديكم، وأن تقولوا، واحدًا واحدًا، «انا موجود».

ولا كلمة

2017-7-21

مع أن هذا المقال يتعاطى مع أحد مظاهر الأزمة الحزبية وشخصياتها، ولكن ليس هذا هو القصد منه. القصد هو إداري بحت. كيف تتخذ المؤسسات العليا قراراتها وكيف تغير سياساتها؟

منذ أيام، بدأت وسائل التواصل الاجتماعي بنشر صور ما بدا وكأنه لقاء علي قانصو، ورئيس السلطة الفلسطينية السيد محمود عباس. هذه الصور شكّلت مفاجأة من شقين، الأول أن المقابلة تمت في شهر شباط الماضي، أما الثاني فهو أن السيد علي قانصو هو رئيس تنظيم يحمل اسم الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كان معروفًا بمعارضته الشديدة لاتفاقيات أوسلو وكل ما نتج عنها، بما في ذلك السلطة الفلسطينية ورئيسها محمود عباس.

في البدء، خيّل لنا أن العملية هي عملية مونتاج من قبل معارضين للسيد قانصو، ذلك أنه من الصعب تخيّل أن لقاء مثل هذا ممكن الحدوث. غير أن اليقين بدد الشك حين ظهرت مقاطع فيديو يبدو فيها السيد قانصو متكلمًا بإيماءات كبيرة من يديه وضاحكًا لما يبدو نكاتًا من السيد عباس، فيما جلس بالقرب منه وعلى مقعد واحد ثلاثة من مسؤولي التنظيم المذكور هم السادة حسان صقر ووائل حسنية ومعن حمية. عنوان الفيديو على اليوتيوب هو الرئيس عباس يستقبل الوزير اللبناني السابق علي قانصو⁽²⁸⁾. لعل سبب عدم الانتباه لهذا اللقاء الذي تم في 24 شباط 2017، هو التعمية الصحفية. فـ «البناء»، صحيفة ذلك التنظيم الرسمية، غطّته من

(28) الرئيس عباس يستقبل الوزير اللبناني السابق علي قانصو <https://www.youtube.com/WATCH?v=7BLRL3DRA9M>

ضمن «مجموعة نشاطات» قام بها السيد قانصو⁽²⁹⁾، أما المواقع والصحف الفلسطينية فغطته على شكل زيارة قام بها «السياسي والوزير اللبناني السابق» متجاهلة اسم الحزب السوري القومي الاجتماعي، مقدمة له في ذلك خدمة من دون أن تدري.

هذا هو الخبر، وقد صبَّ القوميون المخلصون جام غضبهم على من ظهر من الحزب السوري القومي الاجتماعي في ذلك الفيديو فلا حاجة بنا للاستزادة. وحاول بعض منهم الدفاع بحجة «عدم نشر الغسيل»، وعلى هذا أيضًا لا تعليق لنا. لقد كان لنا كتابات سابقة عن «نشر الغسيل» لأننا مع الحقيقة كائنًا ما كانت. ما سنكتبه في بقية هذا المقال هو عبرة لن تفيد قاطني مركز الورشة. بل ربما يكون فيها إفادة لمن سيستعيد الحزب السوري القومي الاجتماعي من المهيمين عليه، والعبرة هي في كيفية اتخاذ القرار.

أولًا، أي قرار تتخذه المؤسسة، أية مؤسسة، يجب أن يكون فيه إفادة جلية لها. ثانيًا، في الحزب السوري القومي، هناك قرارات لا يحق للسلطة التنفيذية اتخاذها دون إجازة من السلطة التشريعية، المجلس الأعلى. من هذه، «دراسة سياسة الحزب العامة، وإقرارها»، و«إجازة الاتصالات والعلاقات الدبلوماسية والسياسية المستجدة وغير الواردة في الخطة السياسية العامة للحزب». (انظر القانون عدد تسعة، صلاحيات المجلس الأعلى، المادة السابعة عشرة، البندين ستة وسبعة.)

لا شك أن لقاء قانصو - عباس يشكّل تحولًا في تاريخ العلاقة بين الحزب والسلطة الفلسطينية. فالحزب أدان لقاءات واتفاقيات أوصلو منذ بدء مسارها التفاوضي ولحين التوقيع عليها في البيت الأبيض، ولم يشدّ عن هذه القاعدة أي رئيس للحزب منذ ذلك التاريخ. ومنذ أوصلو، لم يلتقِ أي رئيس للحزب لا مع الراحل عرفات ولا مع السيد عباس بسبب سياسة الإدانة هذه.

لقاء قانصو - عباس لا يدفعنا إلى طرح سؤال مثل «هل تغيرت سياسة الحزب السوري القومي الاجتماعي حيال اتفاقية أوصلو؟» اللقاء هو إعلان عن سياسة جديدة هي سياسة الالتقاء مع من وقّع اتفاقية أوصلو محمود عباس، والسلطة التي يمثلها. لن نسأل «ما هي الفائدة للحزب السوري القومي الاجتماعي من هذا اللقاء. ففي سؤال كهذا استغناء للقارئ. السؤال هو هل وافقت مجالس الحزب العليا على هذه السياسة الجديدة؟ مع أن السؤال عمليًا لا قيمة كبيرة له في ظل كل الانتهاكات التي تمارسها هذه السلطة منذ انتخابها، فإننا سنسأله من أجل المستقبل أكثر منه للماضي.

(29) مجموعة نشاطات قام بها السيد قانصو <https://www.al-binaa.com/ARCHIVES/ARTICLE/160830>

كما سبق وذكرنا هناك مسار للقرارات الحزبية العليا. فدستور الحزب ينص أنه على رئيس الحزب «إعداد خطط الحزب العامة.. بعد مناقشتها في مجلس العمدة، وتنفيذها بعد إقرارها في المجلس الأعلى.» فيما يخص اللقاء، الذي نرى أنه يشكل تغييراً صريحاً لخطة الحزب حيال اتفاقية أوصلو، هناك مسار من مجموعة خطوات لا بد منها:

- ♦ وضع خطة حزبية جديدة، أو تعديل الخطة الموجودة،
- ♦ مناقشتها في مجلس العمدة، ورفعها إلى المجلس الأعلى،
- ♦ مصادقة المجلس الأعلى عليها، ووضعها موضع التنفيذ.

هذه الخطة - في مكان ما منها - يجب أن تتضمن نصاً صريحاً يقول إن الحزب قد غير سياسته حيال «السلطة الفلسطينية»، مبيّناً الأسباب الموجبة، وإنه بصدد اللقاء مع رئيسها في أول فرصة ممكنة. هذا البند يجب أن يلقي ملاحظة من المجلس الأعلى، كونه يشكل تغييراً جذرياً في سياسة قائمة منذ عقود، فيقرّها المجلس الأعلى نظراً للأسباب الموجبة، مدوناً أسماء المعارضين إذا وجدوا، أو يقبل بها وفق شروط معينة، أو يرفضها بالكامل. كل هذا يجب أن يكون مدوناً للتاريخ.

لم يصل إلى مسامعنا أن سياسة الحزب الجديدة، منذ تولي السيد قانصو سدة الرئاسة، تتضمن مثل هذا البند. ولم يصل إلى مسامعنا أن بنداً مثل هذا قد عُرض على المجلس الأعلى، أو أنه وافق عليه بصفته بنداً مستجداً وغير متضمن في الخطة الحزبية المقررة. لا لم يصلنا شيء من هذا. كل ما وصلنا من أكيد المعلومات أن مجلس العمدة أُخِطِر بدعوة من السيد عباس لزيارته، وأن الموافقة تمت دون نقاش، وأن أحداً من العمدة لم يعلق على الموضوع، لا بكلمة، ولا بموقف! وبعد، لقد حصل ما حصل. هكذا، بدون سبب، بدون فائدة، بدون تفكير، بدون موقف، بدون مصلحة. بلى كان هناك مصلحة للسيد عباس. فتحليل بعض المسؤولين المتأخر يقول إن السيد عباس أراد أن يُظهر لأحد ما أنه ما يزال يملك أوراًفاً داخل لبنان، فدعا عدداً من مسؤولي التنظيمات والأحزاب فلبوا، وتخطبوا وأطلقوا النكات وعاد كل إلى بيت صاحبه.

هل يستحق هذا الموضوع كل هذا العناء والغضب. نعم ولا. نعم لأنه صفقة جديدة في وجه كل سوري قومي اجتماعي حقيقي الانتماء. إنه سيزيد في صعوباتنا صعوبة. ولا، لأن معظم الناس يدركون أن حزب سعادته لا يمكن له أن يصفح يد العملاء. فإن صافحت يد عميل، كانت يد عمالة أو يد غباء، لا يد بطولة. والقوميون شرفاء وأبطال لا يرحمون العملاء ولا الأغبياء. أما الذين حضروا اللقاء باسم الحزب السوري القومي الاجتماعي، فلن يلقوا من القوميون الشرفاء سوى كل الازدراء الذي يستحقه الاغبياء والعملاء.

نحو استراتيجية مواجهة

2018-1-6

«لا يمكنك الانتصار من موقع الدفاع.» (مقولة عسكرية).

في التاسع من شهر ديسمبر 2017، كتب الأستاذ إبراهيم الأمين، رئيس تحرير صحيفة «الأخبار» الغراء، مقالاً بعنوان «المواجهة الشاملة»⁽³⁰⁾ ... حتماً. يمكن اعتبار هذا المقال نقطة تحول إيجابية في مسار العدوان المستمر على سورية الطبيعية، الهلال السوري الخصيب، لناحية كسر هيمنة التفكير الانعزالي الفلسطيني. إنه يقول: «أولاً، التخلص، لمرّة أخيرة ونهائية، من مقولة القرار الفلسطيني المستقل. وعدم القبول، تحت أي ظرف، بأن مستقبل فلسطين يقرره شعبها الفلسطيني. وإذا كان البعض سينظر إلى هذا العنوان على أنه اعتداء على سيادته، فليبسط البحر ليل نهار.»

في الواقع، هذه العبارة تدعو لكسر التفكير الانعزالي الفلسطيني وكل تفكير انعزالي آخر في بلادنا سواء قام على الدين، أم المذهب، أم العرق، أم الطبقة، أم تقسيمات سايكس - بيكو السياسية. ونقصد بالتفكير الانعزالي الفكر الإقصائي Exclusive الذي يقوم على استقواء فئة أو أكثر من المجتمع على سواها، والاستئثار بفوائد حصرية لها ولأتباعها، وحرمان كل من عداها من بعض أو كل حقوقها.

إذا كان مصير فلسطين يقرره أحد غير شعبها الفلسطيني، فمن يقرره؟ هل هم «العرب والمسلمون»؟ لا، لنعد إلى مقال الأستاذ إبراهيم، إنه يقول: «ثانياً، أن التدخل المطلوب، في

(30) <http://www.al-akhbar.com/node/287659>

صياغة الموقف والخطوات الواجب اتباعها لمواجهة المستجد، يعني ببساطة المشاركة في التقييم والتقدير، وبالتالي مناقشة الفلسطينيين في الأولويات المنطقية، والمتصلة ليس فقط بقدراتهم، بل بما يمكن المحيط أن يقدمه لهم اليوم، أو في فترة لاحقة.» عن أي محيط يتكلم الأستاذ إبراهيم؟ لتتابع المقال: «... إن الانتصارات النوعية التي حققها محور المقاومة في لبنان، وسورية، والعراق تفرض على القائمين على هذا المحور المبادرة، سريعاً، بإعادة الاعتبار إلى عنوان فلسطين، كأساس لأي سياسات خارجية وتحالفات مع الإقليم والعالم.»

لبنان، سورية، العراق، هذا هو المحيط الذي يتكلم عنه الأستاذ إبراهيم؛ هذا هو بيت القصيد.

هذه العبارة، والتي تُعتبر أمرًا بديهيًا لكل من أمضى عمره عاملاً لتوحيد القرار القومي في سورية الطبيعية، أو المشرق العربي، أو الهلال الخصيب، سمّها ما شئت، يجب اعتبارها نقطة تحول في التفكير لناحية القناة الأولية أن هذه الوحدة هي ضرورة حيوية، وأن كذبة القرارات المستقلة لدول سايكس - بيكو قد سقطت. ولكننا نقول إن هذه القناة لوحدها لا تكفي، بل يجب أن ترافقها قناة ثانية هي أن القرارات المصيرية المتعلقة بهذا المحيط، هي مسؤولية هذا المحيط أولاً، ويمكن لباقي الدول والمنظمات أن تحدد موقفها من قراره، سلباً أم إيجاباً، صداقة أم عداوة.

من هذه القاعدة، قاعدة وحدة القرار والمسؤولية الحصرية لهذا القرار في محور واحد من العراق إلى فلسطين مروراً بالشام ولبنان، ننطلق لبناء استراتيجية مواجهة جديدة، ليس فقط لمواجهة التحدي في فلسطين، بل عدد من التحديات الوجودية الأخرى.

علام تقوم هذه الاستراتيجية؟ فيما يلي أبرز العناوين التي سوف نفضلها تباعاً:

في العناوين

أولاً: قيام هيئة للقرار الموحد لمنطقة الهلال الخصيب في القضايا الوجودية الكبرى، وهي قضايا ترقية الحياة في ظل الاحتلال واستلاب الموارد - وفي طبيعتها مصادر المياه الكبرى⁽³¹⁾ ومصادر الطاقة - في الهلال الخصيب.

ثانياً: رفض الدولة الإقصائية بكل أشكالها.

(31) مصادر المياه الكبرى في الهلال الخصيب

ثالثًا: اعتبار فلسطين هي جنوب سورية (أي جنوب بلاد الشام).

رابعًا: اعتبار المقاومة مرحلة دفاعية مؤقتة لا بد من الانطلاق منها إلى ما يحقق الانتصار وفق أهداف واضحة، وتغيير اسم المحور من محور الممانعة أو المقاومة إلى محور المواجهة. خامسًا: تفعيل القوى المغتربة بما يخدم هذه الأهداف.

في التفصيل

أولًا: بغض النظر عن مواقف بعض القوى السياسية في الوطن السوري من دول حليفة وفي طليعتها إيران وروسيا، فإن على محور المواجهة أن يضع في استراتيجيته أن هناك نقاط اختلاف بينه وبين هذين الحليفين تشمل فيما يتعلق بإيران، موضوع الأهواز، والسدود الإيرانية الكبرى على أنهار دولية إيرانية - عراقية تؤدي إلى تصحر مساحات شاسعة من الأراضي العراقية، وموضوع شكل الدولة ونظرتها إلى الحياة. أما فيما يتعلق بروسيا، فموضوع الخلاف الأكبر هو الموقف الروسي المتذبذب من موضوع دولة عنصرية كردية، والعلاقة الروسية الإسرائيلية. إننا نفهم المصالح القومية لكل من هاتين الدولتين، ولكن علينا وضع مصالحنا على الطاولة نحن أيضًا، داعين إياهما لفهمها وتقديرها والاعتراف بها.

ثانيًا: علينا الاعتراف أن إسرائيل قد نجحت في فرض رؤيتها في الغرب، ومؤخرًا في عدد من الدول العربية، والقائلة إن إسرائيل هي أولًا، دولة يهودية، بل هي دولة اليهود في العالم. عمليًا، تعمل إسرائيل لأن تكون دولة يهودية صرف، وهي مقولة زئيف جابوتنسكي⁽³²⁾، الأب الروحي لحزب الليكود الحاكم. وهذا يعني طرد أكبر عدد من الفلسطينيين كلما سنحت فرصة لذلك. والاستمرار في استقطاب أكبر عدد من يهود العالم ليس إلى فلسطين فقط، بل إلى أي مكان تهيمن عليه ما بين الفرات والنيل.

ولكن في المقابل، على إسرائيل وداعميها الاعتراف أنها قد حاولت وفشلت في إقامة دولة مسيحية في لبنان، ودولة درزية في منطقة جبل الشيخ؛ (راجع كتاب قصة الدولتين المارونية والدرزية من تأليف خالد قطمة، 1985)، وأن مشروع دولة «داعش» الذي دعمته قد فشل، وأن مشروع الدولة الكردية الذي تدعمه، يواجه هو الآخر صعوبات كبيرة. جميع هذه الدول هي دول إقصائية، وهي حاجة إسرائيلية لتبرير إقصائيتها من جهة، ولإبقاء المنطقة في حالة حرب مستمرة على إيقاع إسرائيلي.

(32) الصهيونية التصحيحية وزئيف جابوتنسكي https://en.wikipedia.org/wiki/Revisionist_Zionism

نجاح آخر نسجله لإسرائيل هو استصدار عدد كبير من التشريعات الوقائية التي تحميها من خطر النقد والمساءلة والملاحقة القانونية في الغرب. وقد تدرجت هذه القوانين خاصة في أوروبا، والولايات المتحدة، وكندا وعدد من دول الكومنولث، من تجريم «نفي الهولوكوست»، وصولاً إلى تجريم «انتقاد إسرائيل» تحت ذريعة «العداء للسامية»، وهي تهمة كافية للقضاء على سمعة وتاريخ أي من يوصم بها في الغرب.

انتقاد إسرائيل، بل مقاطعتها ومحاصرتها اقتصاديًا كما حدث لجنوب أفريقيا يجب أن يكون في طليعة الغايات الاستراتيجية.

كيف نواجه الخطوط الدفاعية التي بنتها إسرائيل خاصة لناحية تجريم انتقادها؟ في رأينا نواجهها في إعلاننا رفض الدولة الإقصائية بالملق، واستطراداً رفضنا للدولة الدينية أيضاً بالملق، كونها حتمًا دولة إقصائية. هذا لا يجب أن يأخذ مجهوداً كبيراً. فالغرب إجمالاً مهين للقبول برفض الدولة الإقصائية.

لقد كان التفكير السائد في معظم العالم العربي أن مشكلة فلسطين هي مشكلة دينية، وقضية مقدسات إسلامية ومسيحية ويهودية. إعلان رفضنا للدولة الدينية من حيث هي دولة إقصائية يعني نزعنا من ذهننا أولاً، فكرة القبول بالدولة الدينية. هذا كلام لن يعجب الكثيرين من السوريين سواء الذين يحملون بدول إقصائية لهم من مسيحية أو محمديّة من مختلف المذاهب. وهذا سوف يتطلب قفزة نوعية في التفكير، ولكنها قفزة لا بد منها. إنها قمة المرائية أن نرفض إسرائيل لكونها دولة دينية يهودية فيما نحن نطالب بدولة دينية شيعية، أو سنية، أو مسيحية، أو درزية لنا!

وهذا سوف يعني أيضاً، واستطراداً، رفضنا لتدخل رجال الدين في شؤون السياسة والقضاء. وسوف يعني استطراداً، عمَلنا الدؤوب، من ضمن خطة استراتيجية المواجهة، إلى إزالة جميع الحواجز الدينية والمذهبية من بين أبناء الشعب الواحد.

هذا الأساس الفكري يجب بناؤه في منطقة الهلال الخصيب، لأنه المنطق الوحيد الذي يمنع الحروب الداخلية الممتدة لحيوية الأمة والمشتتة لقواها. من هذا الأساس، يمكننا التقدم إلى الغرب بمقولة رفضنا للدولة الدينية، ليس لأننا ضد هذا الدين أو ذلك، بل لأن الدولة الدينية لا يمكن لها أن تكون دولة عادلة بسبب إقصائيتها، Exclusivity، وانحيازها لفئة دينية أو مذهبية. والنتيجة المنطقية لرفض الدولة الإقصائية هي بناء الدولة الشاملة Inclusive القائمة على المساواة والعدالة. بناء الدولة المدنية هو المنطق الوحيد الذي يمكننا من مواجهة دعاية

إسرائيل في الخارج وأبواقها في الداخل. وهو الموقف الذي يتيح لنا الطلب إلى الغرب وقف مرائيته إذ يبني دولاً مدنية ينعم هو وشعبه فيها، فيما يدعم دولاً دينية في بلادنا، نحترق نحن بجحيمها.

ثالثاً: نقطة نجاح أخرى نسجلها للمؤسسة الإسرائيلية هي في عزل فلسطين عن محيطها الحيوي الجغرافي، بلاد الشام، والوطن السوري كله. لا داع للعودة إلى مطلع القرن العشرين لنرى كيف كان السوريون وبضمنهم الفلسطينيون يعتبرون فلسطين هي جنوب سورية، كما كان اللبنانيون يعتبرون لبنان جبلاً في سورية. أهمية إعلان فلسطين جنوب سورية هو اعتراف بحقيقة تاريخية، وجغرافية، واجتماعية، تقضي عملياً على كل البلبلة التي نجحت إسرائيل في زرعها في أوساطنا وفي أوساط الغرب، مثل مقولة «عدم وجود دولة فلسطينية» في التاريخ، أو أن أرض كنعان هي أرض الوعد الإبراهيمي، أو كذبة حل الدولتين، أو حل «الدولة ثنائية القومية»، وما إلى هنالك من أراجيف. الأهم من هذا كله، أن هذه المقولة تعطي الحق لجميع أبناء المحيط «للتدخل» في شؤون فلسطين. فمن الصعوبات التي نواجهها في لبنان، مقولة «نحن لبنانيون ولا علاقة لنا بفلسطين.» أما حين أصبحنا في المغرب، فإن الغرب يقول لنا، «أنتم لبنانيون فما علاقتكم بفلسطين؟»

إن بلبلة الهوية هذه هي عامل ضعف يجب وضع حد له، وتثبيت هويتنا الواحدة في المجتمع والكتاب المدرسي والجامعات.

إذا ربطنا هذه الحقيقة بما سبق لنا ذكره عن بناء الدولة المدنية، تكتمل الصورة فيصبح الخطاب كما يلي: نحن ندعو لبناء دولة مدنية في منطقة الهلال الخصيب، ولا نقبل بأي فكر إقصائي مهما كانت دوافعه. لقد حاربنا الدولة المسيحية في لبنان، ودولة الخلافة في الشام والعراق، والدولة الدرزية في الجولان وجبل الشيخ، ولا يمكن لنا أن نقبل بأية دولة دينية إقصائية.

ولا شك في أننا سوف نُسأل، ماذا عن الستة مليون يهودي الذين يقيمون في فلسطين المحتلة اليوم؟ جوابنا هو: نحن مسؤولون عن بناء دولتنا المدنية العادلة، واستعادة حقوق شعبنا التي استلبها منهم هؤلاء. حين وفد اليهود بمئات الألوف إلى فلسطين، لم يكن قرار الهجرة إلى بلادنا في يدنا، بل في يد المحتل البريطاني، ومنه انتقل إلى يد المحتل الإسرائيلي الذي بنى دولة إقصائية له. كل هذه هي عوامل أساسية تُبنى عليها سياساتنا بالنسبة لمشروع الاحتلال ودولته الاقصائية الدينية، وكيفية تفكيكها.

رابعاً: من المقاومة إلى الهجوم. منذ قيام الحركة الصهيونية ونحن في حالة رد فعل، حالة دفاع عامة، تطورت مقولاتها من التحرير الكامل، إلى السلام العادل والشامل، إلى القبول بما يتركه لنا العدو المحتل من فتات، ومن ثم المفاوضة على هذا الفتات. أما أن هذا العدو قد خذلنا في ذلك عبر تسويقه للسلام، وعمله الدائم للحرب والعدوان واحتلال المزيد من الأرض، فهذا قد أصبح من التاريخ المعروف. لقد غاب عن ذهن جميع الذين عملوا للسلام بشكل أو آخر، أن نظرة العدو الإسرائيلي للحياة هي نظرة عنصرية إقصائية، تحرّم عليه دينياً السلام معنا، وتحلل له الكذب علينا، وخذعنا بأي شكل لتحقيق أهدافه. من هنا نفهم فشل استراتيجية السلام، بل استحالتها ما لم يغير هذا العدو من نظرتة هو إلى الحياة، ولا نراه فاعلاً.

بناء عليه، فإن استراتيجيتنا في التعامل مع العدو الإسرائيلي يجب أن يحكمها منطق استحالة السلام معه وضرورة الإعداد للبدائل من ذلك. أولى البدائل تكمن في اعتبار مشروعه الإقصائي الإلغائي خطراً وجودياً، وعلينا ضرورة تفكيكه.

خامساً: المغتربون، من ذوبان إلى قوة فاعلة. إن ما يميز الاغتراب السوري هو سرعة ذوبانه في بلاد الاغتراب. لقد وضعنا دراسة شاملة عن الاغتراب السوري مقارنة بالمؤسسة الإسرائيلية في الخارج تحت عنوان «كل مغترب سفير» فيمكن العودة إليها. ما يهمنا هو أن تقوم في المغرب قوة تستطيع مواجهة المؤسسة الإسرائيلية في الخارج مواجهة النذ للنذ، وهذا ليس بالأمر المستحيل. ما كان ينقصه هو قيام الصوت الواحد في الوطن الذي يقود محور المقاومة القومية، وليس الفلسطينية فقط، أو العراقية فقط، أو الشامية فقط. مع قيام القرار الواحد، يصبح بالإمكان التفكير في صوت وقوة اغترابيه واحدة.

خلاصة

لقد انطلقنا في هذا البحث من نظرة تقول بترقية الحياة في ظل الاحتلال واستلاب الموارد. وأن مسؤولية ترقية الحياة تبدأ من تحديد الهوية القومية لأبناء محيط فلسطين، أي سورية الطبيعية أو الهلال السوري الخصب. وأن الخطوة التالية هي الانطلاق من مفهوم المقاومة إلى مفهوم المواجهة الشاملة بما يؤدي إلى الانتصار. أما الخطوة التالية فهي بناء الطاقات عبر القضاء على العوامل التي تمتص حيوية الأمة، وهي في معظمها عوامل التحارب الديني المذهبي العنصري الداخلي. أما تركيزنا على المغتربات فلأن الكثير من الطاقات السورية منتشرة فيها، ويجب تفعيلها من ضمن خطة عمل استراتيجية واضحة.

الأسئلة الأساس

2018-1-15

هل صحيح أن رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي - الروشة، الأمين الجزيل الاحترام حنا الناشف، قال الكلام الذي نُشر في بيان لعمدة الإذاعة في الحزب تاريخه 2018/1/8؟ إذا كان نعم، فقد ضيَّع فرصة ثمينة، هي فرصة لقائه الأول مع العمدة المسؤولين في إدارته الجديدة ليعطيهم التوجيه الضروري. ذلك أن الكلام الذي ينسبه إليه البيان هو، باستثناء نقطتين مهمتين مرّتا سريعاً، الكلام ذاته الذي ما فتئت العمدة تكرره على مسامعنا منذ سنوات! النقطتان المهمتان هما: «أهمية أن تتضمن الخطة الحزبية الأولويات التي يستهدفها الحزب القومي»، و«...التحديات التي تستهدف القضاء على مقومات الوجود».

أما ما عدا ذلك، من مثل «كما شدّد على ضرورة أن تتحمل الدولة مسؤولياتها تجاه الناس على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية»، فمن المبكي والمضحك في آن. ونأمل من الرئيس الجديد أن يوعز لعميد إعلامه بإلغاء مثل هذه السخافات من بيانات العمدة في المستقبل.

النقطتان المذكورتان أعلاه هما نقطتان محورتان يجب أن تكونا الأساس في صلب الخطة الحزبية العتيدة. وكنا قد تمنينا على حضرة الرئيس في أكثر من مقال كتبناه مؤخراً أن يولييهما الاهتمام الذي تستحقانه، ويسعدنا أنه أشار إليهما. فما هي الأولويات التي يستهدفها الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ وما هي التحديات التي تستهدف القضاء على مقومات الوجود؟ ويسبق هذين السؤالين المهمين سؤال أهم يجب على حضرة الرئيس الجديد أن يطرحه على مجلس العمدة وهو: لماذا لم يحقق الحزب غايته بعد مرور خمس وثمانين سنة على تأسيسه؟

وحيث أننا كنا قد طرحنا هذا السؤال على أنفسنا وعلى القوميين في مقال نشرته صحيفة «الأخبار» الغراء (راجع مقال «الخلل الكبير» في هذا الجزء)، فإننا نحيل حضرة الرئيس والعمد المحترمين إليه.

ما هي أولويات الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ في الواقع هناك أولوية واحدة حدّدها الزعيم في جوابه لقاضي التحقيق في المحكمة الفرنسية بُعيد اعتقاله الأول حين قال: «إن غاية الحزب الأولية هي أن يكون حركة الشعب العامة». بعد الإجابة عن السؤال الأول أعلاه، فإن المطلوب من الرئيس الجديد هو الإيعاز للعمد المسؤولين معه أن يضعوا تصورًا ينقل الحزب من وضعه الحالي إلى أن يكون فعلاً حركة الشعب العامة، وأن يرفقوا ذلك بخطة عملية وجدول زمنيّ. طبعاً، لوضع هذا التصور لا بد للعمد المسؤولين من وضع رؤية لروحية الحزب وأخلاقه وشكله وعديده وانتشاره وفعله في الوطن والمهجر، لكي يحق لنا تسميته «حركة الشعب العامة». ونحن نأمل أن تساعد مقابلة مع مجلة «تحولات»⁽³³⁾ في الإجابة عن هذا السؤال، كما نأمل أن تساعد المقابلة التالية⁽³⁴⁾ أيضاً مع مجلة «تحولات»، في إلقاء الضوء على التحديات التي تستهدف القضاء على مقومات الوجود. فهذه أيضاً مما كتبتنا وحاصرتنا عنه في أكثر من مناسبة.

إن الهدف من هذا المقال وما يتضمنه من مراجع، هو الإشارة إلى ما يجب أن يكون بديهيًا في خطة الحزب السوري القومي الاجتماعي العامة. فنحن نعزو مشاكل الحزب المتراكمة إلى إهماله غايته وانشغال قياداته المتلاحقة بأمور لا تمت إليها بصلة.

إدًا، هناك سؤال أول «لماذا لم نحقق غايتنا بعد؟» وتوجيه أول «بما علينا القيام به لكي نصبح حركة الشعب العامة». والاثنتان برسم السلطة التنفيذية في الحزب. والهدف منهما ليس أكاديميًا، بل نتوخى من الإجابات عنهما فوائد عملية تساعدنا في عملية التخطيط. فالسؤال الأول يتوخى منع تكرار أخطاء الماضي. أما التوجيه، فلتخطيط لمستقبل أفضل. بالتالي، فإننا لا نريد مجلدات في الإجابات، بل خلاصات. ونقول، مساهمة منا في الإجابة عن السؤال الأول، إن أحد أهم عوامل فشل الحزب في تحقيق غايته أنه لم يضعها، ولا مرة، نصب عينيه كمادة للتنفيذ، باستثناء مرحلتي قيادة سعادته للحزب، قبل المغترب القسري وبعده. ولم تسع القيادات

(33) مجلة تحولات: ربيع الأحزاب: إصلاح من الداخل أم حركات جديدة؟- رأي - بحث

<https://www.tahawolat.net/MagazineArticleDetails.aspx?Id=89>

(34) الهلال الخصب في القرن الواحد والعشرين تحديات وجودية - «أسامة المهنتار

<https://www.facebook.com/Saadehcf/posts/161618520630748>

للإتيان بالعقائدين الإداريين الذين يتمكنون من وضع الخطط والبرامج الطويلة الأمد ووضع الآليات لتنفيذها.

يمكن أن يعين الرئيس شخصاً أو أكثر لوضع مسودة تجيب عن السؤال الأول. أما التوجيه، فلا يمكن وضع تصور له إلا عبر ورش عمل اختصاصية تضم العمدة واختصاصيين في مجالات شتى، وتكون بقيادة خبير في إدارة ورش العمل، يضبط الإيقاع ويوجه النقاش، ويعتصر الخلاصات ويضع تقريراً نهائياً عن كل موضوع. أما الأسئلة التي يجب أن توجه إلى كل عميد قبل انضمامه إلى ورش العمل، وأن يُطلب منه وضع الأجوبة عنها فهي التالية:

«في ظل التحديات الوجودية القائمة، والوضع السياسي الحالي، ما هو تصورك لكي يصبح الحزب فعلاً حركة الشعب العامة؟ وما هي السياسات التي سوف تضعها عمدتك لكي تحقّق هذا التصور؟ وما هي المدة الزمنية لذلك؟ وما هي المقاييس التي سوف تتبعها لقياس الأداء؟»

هذه الأسئلة، في رأينا، هي الأساس الذي لا بد لكل من ينتطح لوضع خطة حزبية مفيدة للحزب السوري القومي الاجتماعي أن ينطلق منها. لا فرق أكان ذلك القيادة الحالية، أم قيادة حزب موحد، أم قيادة معارضة فقدت الثقة بكل المؤسسات القائمة. هذه الأسئلة هي الأساس.

الهدية

2018-3-1

هل يمكن لأية مؤسسة أن تحقق غايتها إن لم تخطط لذلك؟ طبعاً لا. فالتخطيط هو شرط ضروري، ولكن غير كافٍ للنجاح. فالنجاح غير ممكن بدون التخطيط، ولكنه غير مضمون حتى مع وجوده. للنجاح، يجب أن تتوفر مجموعة من الشروط الضرورية والكافية. هل يمكن للحزب السوري القومي الاجتماعي أن يحقق غايته إن لم يخطط لذلك؟ لا. لماذا لا تجتمع قيادات ما يسمى بالأحزاب السورية القومية ومعارضاتها، كلها سوية، أو متفرقة، لتعلن مجتمعة، أو كل منها على حدة، ورشة عمل جبارة يشارك فيها أهم عقول الحزب والأمة لوضع خطة عمل طويلة الأمد، مع وسائل وآليات تنفيذها؟ لا أدري.

في الواقع أن هذا السؤال يكاد يشكّل لي معضلة شخصية. كيف يمكن لأشخاص ضحوا بالكثير من أجل قضيتهم أن يهملوا هذه الحقيقة البديهية: الحاجة للتخطيط بعيد الأمد واستنباط الموارد والآليات الضرورية لتحقيق هذا التخطيط؟ ويستوي في هذا الأمر قيادات التنظيمات الثلاث والمعارضات، معظمها، كي لا نقول كلها.

الكل مشغول! ولكن ينطبق عليه قول الناصري، «مرتا، مرتا، إنك تهتمين بأمور كثيرة والمطلوب واحد». لنستعرض. يقوم القوميون بتنظيمات ومعارضات وأفراداً بالأعمال التالية: انتخابات، إعلام، أدب، ثقافة، جمعيات خيرية، جمعيات اغترائية، قتال دفاعاً عن الوطن، ندوات ومحاضرات، مؤسسات اقتصادية، استثمارات، معارض فنية، توقيع كتب، جمع تبرعات، مظاهرات، حلقات إذاعية، مخيمات صيفية، نشاطات طلابية ثانوية وجامعية، احتفالات حزبية، مآتم وتشيع شهداء، وسواها.

سوف نفترض أن مخرجات Outputs كل من هذه الأنشطة بغض النظر عن يتولاها، هي مخرجات صحيحة وذات نوعية عالية، وأن كل مشروع أو نشاط من هذه الأنشطة لقي نجاحًا باهرًا. ما هي نتيجة Outcome هذه الأنشطة؟ ما هو مردودها من الإفادات التي إذا تراكمت، أصبح بإمكاننا الإشارة إلى تقدم ما باتجاه غاية الحزب؟ إذا كنّا موضوعيين، وصادقين مع أنفسنا، وانطلاقًا من النتائج الحاصلة في المجتمع وفي الحزب، بعد مئة وأربع عشرة سنة على ولادة أنطون سعادة، وست وثمانين سنة على تأسيسه للحزب، لرأينا أن نتائج كل هذه المخرجات هي دون المطلوب بكثير.

إن ما ينقص كل هذه النشاطات لكي تتحول نتائجها من هباء إلى تراكم قوة هو الخطة الجامعة. هو الخطة واضحة الأهداف باتجاه غاية سامية. هو مقاييس الأداء التي يحسن استخدامها اختصاصيون ناجحون لكي يقيسوا النتائج - لحظة بلحظة - كي تعرف الإدارة جدوى أنشطتها ومخرجاتها.

إن التخطيط - أي تخطيط - هو نقطة البداية لعملية تغيير. فأنت لا تخطط لما هو قائم. أنت تخطط لعمل جديد. والتغيير عملية شاقة لا يحبها الناس، بل يخافونها، خاصة على صعيد القيادات صاحبة القرار. أول خطوة في التغيير هو قيام المعرفة بضرورة التغيير، أما الثانية، فهي الرغبة بالتغيير، والثالثة هي المهارات المطلوبة لقيادة عملية التغيير. في مثل الحزب نجد أن المعرفة موجودة، والمهارات المطلوبة متوفرة، ولكن الرغبة بالتغيير غائبة.

ما هو دوري في خطة انتصار قضية الحزب؟ هذا يفترض أن يكون هناك خطة أولًا. وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية، وحكاية إبريق الزيت. حكاية إبريق الزيت يجب أن تنتهي.

من يضع خطة تحقيق غاية الحزب؟ يضعها المهتمون بهذه القضية. غير المهتمين، لن يضعوها، ومن لا يرى حاجة لوضعها هو، عمليًا، غير مهتم بالقضية.

هل قلنا إن اليوم هو الذكرى الرابعة عشر بعد المئة لميلاد أنطون سعادة؟ نعم. هل من هدية نقدمها لذكراه في هذا اليوم. نعم، إنها هدية -عهد. إنها هدية بسيطة. كلمتان. «نحن مهتمون.» نحن مهتمون وسورية مسؤوليتنا.

ولتحي سورية.

المشبوہ

2018-3-6

«المشبوہ اسم مفعول من شَبَّهَ ومعناها من يُشَكُّ فيه.» والشكُّ هو «حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفي ويتوقف عن الحكم.» (قاموس المعاني).

المشبوہ إذن هو شخص نتردّد حياّله بين النفي والإثبات فيتوقف ذهننا - عقلنا عن الحكم تجاهه. والشبهة سلاح. ولكنها سلاحٌ في يدِ الجبان الخسيس الذي لا يجرؤ على المواجهة، فتراه يزرع الشبهة بالمخلصين بين صغار العقول فتتوقف أذهانهم البليدة عن الحكم. وما قيمة الإنسان - العقل الإنساني إذا توقف عن الحكم، إذا توقف عن العمل، إذا تبدّد؟

مناسبة هذا الكلام مجموعة أقوال وصلتنا بالتواتر في الأيام القليلة الماضية مفادها أن مجلة «الفيثيق» مشبوّهة، وكذلك القيمون عليها. إنهم مشبوّهون. مصدر هذا الكلام، على ذمة الرواة، مصادر في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

ليس من عادتنا الرد على الإشاعات، فهذا ما يريده صاحب الإشاعة. إنه يريد أن يضعك في موقع الدفاع بحيث تنفي «الشبهة». هذا ما لن نفعله. ولكننا سوف نحلل الفعل وصولاً إلى الفاعل.

الغرض من رمي شخص بالشبهة هو إبقاؤه في حالة انعدام الوزن. فالشبهة، كما سبق وذكرنا، تترك الإنسان في حيرة من أمره. وهذا تمامًا ما يريده من يرمي الشبهة. في المجتمعات والمنظمات الراقية، تُعتبر الشبهة حالة موقّنة. إنها حالة بين الشك واليقين يجب أن تزول بسرعة. والشخص المشتبه به، في المجتمعات الراقية لا يخسر أيًا من حقوقه. إنه بريء بشكل

جلي إلى أن تثبت إدانته بشكل جلي. ولكن المشرّع في المجتمعات الراقية يعرف أن القانون الذي يكفل براءة المشتبه به إلى أن تثبت إدانته، لا يحميه من أذى الشبهة والشك. فشرّع بأن تكون محاكمة المُشْتَبَه به في أسرع وقت ممكن وفي محكمة علنية بحيث تأخذ العدالة مجراها في وضوح النهار. فإن تأخرت المحكمة بالنظر في القضية سقطت التهمة رسمياً.

منطق الشبهة هو عكس هذا تماماً. إنه لا يريد جلاء، ولا يقيناً، ولا محاكمة، ولا حكماً. إنه لا يريد حتى إدانة. فالإدانة ينتهي مفعولها عند صدورها أو بعده بقليل. «فلان سَرَقَ فُسُجِنَ». ينتهي الموضوع هنا. يدفع المجرم دَينَه للمجتمع ويخرج بعد فترة لكي يُعيد تأهيل نفسه. مُطْلَقِ الشبهة يريد أن يبقى الشك إلى ما لا نهاية. من هنا هو لا يحدد، ولا يبيّن، ولا يرفع دعوى قضائية. لا، إنه لا يفعل أيّاً من هذا. إنه يكتفي بإطلاق الأوصاف الغامضة. «القيمون على الفينيقي مشبهون!» ما هي الشبهة؟ لا يهم. «هناك مآخذ على فلان». ما هي المآخذ؟ إنها مآخذ. الغرض هو إدخال الشك إلى النفوس، فتتعطل الأحكام - عند البعض - وتعطل الإمكانيات.

الذي يرمي الشبهة مآكرٌ ويعرف تماماً ماذا يريد. إنه يريد أن يضرب اليقين بالشك. لماذا؟ لأنه أضعف من أن يواجه خصمه وجهاً لوجه. فإذا أخذنا مَثَلِ الفينيقي، وجدنا أنها مجلة تعلن أنها تُعنى بالفكر القومي الاجتماعي. وإذا نظرنا إلى كُتّابها، وجدنا أنهم سوريون قوميون اجتماعيون. وإذا قرأنا مقالاتها وجدنا انها لا تخرج عن الإطار المرسوم لها، ولا عن قناعات كُتّابها. أين المشكلة إذًا؟ المشكلة أن منطق «الفينيقي» هو منطق السوري القومي الاجتماعي المناقبي والأخلاقي، الذي لا يسكت عن انحراف، ولا عن كذب ولا عن صنمية ولا عن فساد. هذا لا يناسب من تنتقد «الفينيقي» مساره. فما العمل؟ نفضلهم عن جسم الحزب. ولكن هذا يعطي مفعولاً عكسياً. فقراء «الفينيقي» يتزايدون. واحترام الناس لكُتّابها يتزايد مع كل عدد ومع كل مقال. ماذا نفعل؟ نرميهم بالشبهة.

في إحدى حلقات المسلسل التلفزيوني الشهير، «رجال مجانين»، Men Mad، يقول بطل الحلقة، «إذا لم يعجبك موضوع المحادثة، غيره». هناك موضوعان يتجادبان القوميون منذ أمد بعيد. هناك من يسأل، «ما الذي جلب على حزبي هذا الويل؟ كيف دخل الانحراف والفساد والصنمية إلى حركة جاءت لتحارب هذه الآفات الثلاث؟ ولماذا يسكت القوميون عنها؟ لماذا لم يحقق الحزب غايته ولماذا لم تنتصر قضيته بعد؟ لماذا لم نصل لأن نكون حركة الشعب العامة كما أراد سعادته؟ ما هي الشروط الضرورية لذلك؟» وهناك من يصر على تجاهل هذه الأسئلة بالقول، «إن الدنيا في ألف خير، وإن الحزب ينمو، ويقا، ويخوض غمار السياسة، ويقيم

الاحتفالات، وإن من لا يرى هذه الأمور هو إنسان موتور مشبوه. إنه عدّو يجب محقه، بالفصل، أو التشهير، أو الإشاعات، أو ما هو أكثر».

مع الأسف، فإن الموضوع الثاني هو الطاغي. و«الفينيق» تحاول أن تتغيّر موضوع البحث بالتركيز على الأسئلة أعلاه. والقيّمون عليها يدركون أنه من الضروري جداً أن تصبح غاية الحزب، وكيفية تحقيقها مادة للنقاش والبحث بين القوميين. إنه من الضروري أن يرتفع مستوى النقاش من المواضيع السياسية البحتة إلى موضوع مُنطلق وضع السياسات والغرض منها. إن «الفينيق» تركّز على الأسئلة الكبرى التي دعانا سعادته إلى التفكير بها: كيف نرقيّ حياتنا؟ ما هي المثل العليا التي نختارها لحياتنا؟ كيف نُخرج سورية من الموت إلى الحياة؟ هل سورية هي مسؤوليتنا أم مسؤولية سوانا؟ هل هي مشاع؟ ومثلها الكثير.

«الفينيق» لن تتوقف عن طرح هذه الأسئلة.

إذا كانت هذه هي الشبهة إيها السيدات والسادة، فلن نردها. إننا نفتخر بها.

أنا مهتم

2018-3-27

نبقى مع التخطيط انطلاقاً مما كتبناه في مقال سابق تحت عنوان «الهدية». في ذلك المقال، سألنا ما إذا كان بإمكان أية مؤسسة أن تحقق غايتها إن لم تخطط لذلك، وكان الجواب البديهي لذلك هو «طبعًا، لا». في هذا المقال، سوف نأخذ مثالاً حيًا عما يحدث حين لا تخطط المؤسسة لعمل ما وماذا تكون النتائج. سوف نأخذ تعاطي الحزب السوري القومي الاجتماعي، بكافة فئاته، مع استحقاق الانتخابات اللبنانية علنًا نستخلص العبر. وبودنا التأكيد قبل الغوص في هذه العملية أن هدفنا ليس الانتخابات بحد ذاتها، فهذا تفصيل. **الهدف هو دراسة مسار التخطيط.**

يجمع خبراء التخطيط وإدارة التغيير على أن أي مشروع تقوم به المؤسسة يجب أن تكون له فوائد قياسية واضحة وإلا كان من لزوم ما لا يلزم. ونقصد بكلمة قياسية أنه يمكن قياسها بالأرقام. والفوائد هي حاصل طرح كلفة أي مشروع من مردوده، وهذا ما يقرر ما إذا كان المشروع يقدم فائدة للمؤسسة، أم ضررًا، أم جهدًا ضائعًا بلا جدوى، وهذه خسارة أيضًا.

بالتالي، فإن السؤال الأول الذي يجب أن نبدأ به عملية التخطيط للانتخابات اللبنانية هو، «ما هي الفائدة لنا من خوض الانتخابات؟» وال «نا» في لنا، هي ضمير متصل يشير إلى الحزب وقضيته، وليس لأي «نا» تابعة لشخصية منتفخة بغرورها. ثانيًا، إذا خضنا الانتخابات، ما هي النتائج التي يمكن أن نحصلها؟ ما هي كلفتها؟ ما هو مردودها على الوطن في شكل عام؟ ما هو مردودها على الحركة - الحزب؟ هل يكون مردود صرف كلفة الانتخابات في مشاريع اقتصادية تنموية ذات فائدة أكبر؟

المجموعة الثانية من الأسئلة هي التالية: إذا قررنا المشاركة في الترشح، ما هي قوتنا؟ مع من نتحالف ومع من نرفض التحالف؟ ولماذا؟

المجموعة الثالثة من الأسئلة، وهذه قد تكون لاحقة زمنياً بعد الإجابة عن الأسئلة أعلاه: ما هو مدى التزام الحلفاء بنا؟ ما هو مدى خضوعهم لضغوطات خارجية؟ كيف نتصرف حيالها؟ ثم، نصيِّق دائرة الأسئلة فنقول، مثلاً، إذا قرر حلفاؤنا التخلي عنا في هذه الدائرة، ماذا تكون ردة فعلنا؟ ما هي مخاطر ردة الفعل هذه؟

ثم نصيِّق الدائرة أكثر فنسأل، عن مدى استعداد القوميين للالتزام بقرارات الحزب. كيف نتعامل مع ترشيحات من تنظيمات أخرى تحمل اسم الحزب؟ كيف نتعامل مع قوميين يقررون الترشح من تلقاء أنفسهم؟ ماذا ستكون ردة فعل القوميين المعارضين لقيادة الحزب منذ الانتخابات الحزبية الماضية؟

ولعل السؤال الأهم في وضع الحزب الداخلي هو، هل يتحمل الجسم الحزبي الترشح في الانتخابات اللبنانية بكل قاذوراتها؟ هل من الأفضل أن نصرف الوقت على الانتخابات أم على ترميم الوضع الداخلي؟ وهكذا.

يبدو لنا، ومن النتائج الحاصلة لتاريخه، سواء في ترشيحات مركز الروشة، أو مركز الدورة، أو معارضين تحت راية تيار النهضة، أن معظم هذه الأسئلة لم يجد طريقه إلى النقاش أو التفكير العميق قبل اتخاذ القرارات، فشهدنا ترشيحات عشوائية لم يلبث أصحابها أن انسحبوا، أو سُحبوا بالرغم من اعتراضهم، أو من دون علمهم، ورأينا قوميين يُرشحون غضباً عنهم وقد بلغوا من العمر شأناً. كذلك رأينا قوميين يُسقطون بالمظلات على مناطق هم منها، ولكنهم يعيشون خارجها منذ سنوات، وعلى حساب رفقاء فيها معروفين بخدماتهم واحترام الناس لهم. ثم رأينا ترشيحات تبدو وكأنها جدع للأنف نكاية بالوجه.

أما أين الفائدة من كل هذا؟ ونعني الفائدة للحركة، للحزب، للأمة، للنهضة؟ فلا جواب، لماذا؟ لأن هذا المسار من التخطيط، لم يكن له وجود على ما يبدو لنا.

ما ينطبق على الانتخابات ينطبق على معظم نشاطات القوميين أينما كانوا وتحت أي تنظيم انضوا. نعود إلى السؤال الأساس عن التخطيط ونطرح سؤالاً آخر يجب أن يسبقه: هل يمكن لغاية أية مؤسسة أن تتحقق دون إرادة العاملين فيها؟ والجواب هو طبعاً لا.

في خضم النقاشات العديدة التي تدور بين القوميين صفّاً وقيادة، «روشة» أم «دورة» أم

«أمانة عامة»، موالاة ومعارضات، ما هو الحيز الوقتي الذي يأخذه موضوع غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي والشروط الضرورية لتحقيقها من هذه النقاشات؟
أترك الجواب لكم.

التغيير المؤسسي، المناظير

2018-5-24

هذا بحث طويل ولكنه مهم لفهم البنى الأساسية في المنظمات ودور كل منها في عمليات التغيير الجذرية التي تمرّ بها. وَقَّعت على محاضرة البروفسور «فان مانن» بالصدفة. ولكن عند الاستماع إليها شعرت أنها تفتح آفاقاً للقوميين الاجتماعيين للتأمل في العديد من المسائل المتعلقة بفهم الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ تأسيسه ولليوم، وكذلك بعض المسائل الضرورية المتعلقة بإعادة تأهيله. النص ليس سهلاً ويتطلب درساً متأنياً أكثر منه قراءة عادية.

في محاضرة له بعنوان «التغيير المؤسسي»⁽³⁵⁾، يتكلم البروفسور جون فان مانن (John Van Maanan)⁽³⁶⁾ عن ضرورة النظر إلى المؤسسات من خلال ثلاثة مناظير هي التخطيط الاستراتيجي، والسياسة، والثقافة لفهم التغيير بكل أبعاده. نظراً لأهمية الموضوع، وبما أن هذه العوامل غالباً ما تكون خافية عن العاملين في المؤسسة، فإننا سوف نعالجه عبر عرض لأهم النقاط التي قدّم لها «فان مانن» في محاضراته، ومن ثم نُسقطها على الحزب السوري القومي الاجتماعي لاستخلاص العبر. فنحن، من جهة، لا نزال نرى أن الحزب الذي أسسه سعاد واستشهد في سبيل قضيته، هو خشبة الخلاص لهذه الأمة. ولكننا من جهة أخرى، لا يسعنا سوى الاعتراف أن هذا الحزب، وبالرغم من مضي أكثر من ثمانية عقود على تأسيسه، لم ينجح في تحقيق أي شيء يذكر من غايته المثبتة في دستوره.

إننا نعتقد أن ما يعرض له «فان مانن» يلقي ضوءاً مهماً على عدد من العوامل التي تؤثر في

(35) <https://www.youtube.com/watch?v=fDfgAe9-lpY>

(36) https://en.wikipedia.org/wiki/John_Van_Maanen

سير المؤسسات في شكل قد لا يكون ظاهرًا للعيان. وإنما نأمل، من خلال عرضنا لهذه العوامل، أن نساعد المخلصين على إخراج هذا الحزب العريق من أزمته. ذلك أن ما يمر به الحزب قد مرت به مؤسسات عديدة، بعضها نجح في تجاوزه بنجاح وبعضها الآخر لم ينجح.

المنظور

يعرّف «فان مانن» المنظور Perspective بأنه «مجموعة من الأفكار المنظّمة التي تساعد في تشكّل فهمنا للأمور والأحداث.» ويضيف أن المناظير تقرّر ماهيّة البيانات التي نراها، أو نسمعها ونشعر بها، وكيف نفسرها. ولكنه يحذّر أيضًا أنه ما من منظور واحد كاف لتشكّل فهم شامل للمؤسسة وتشعباتها، خاصة في مراحل التغيير التي قد تمرّ بها.

منظور التخطيط الاستراتيجي

حين ينظر «فان مانن» إلى المؤسسة من منظور التخطيط الاستراتيجي يراها مثل «آلة حسنة التصميم، هُنّدت لتحقيق أهداف معينة، ويجب على جميع أجزائها العمل بتناغم من أجل النجاح.» إنها مبنية على نظرية «الدماغ الكبير» التنظيمية، وعلى عقلانية شاملة (Universal Rationality) ترى أن هناك طريقة صحيحة للقيام بالأمور يجب اتّباعها، وأن هناك أجوبة صحيحة يجب العمل بوحى منها. ومثل أية آلة، هناك مدخلات وإنتاجية ومخرجات، وأن وظيفة المؤسسة هي أن ترفع حاصل الإنتاجية بأقل كلفة ممكنة. أخيرًا، وجهة التخطيط الاستراتيجي هي المستقبل. إنه ينبئنا بما سنقوم به غدًا، أو الأسبوع القادم، أو الربع التالي، أو السنة القادمة.

منظور السياسة

إذا نظرنا إلى المؤسسة من منظور السياسة، يقول «فان مانن»، نراها مثل مباراة أو منافسة لا بد وأن تنتهي بربح وخاسر. من هذا المنظور، ليس هناك من عقلانية شاملة، بل عقلانية مسيّجة أو محدودة بالمركز الذي يحتله الشخص. فإذا كان في التسويق، كان التسويق هو المؤسسة، وإذا كان في الإنتاج، كان الإنتاج. من منظور السياسة، لا يتأتى العمل من التخطيط، بل من القوة. والقوة هي القدرة على إنجاز العمل. هنا، المؤسسة هي نظام اجتماعي يقوم على النزاع. كل شخص يطلب القوة لنفسه، ولكن القوة لا يمكن أن تتوزع في شكل متساوٍ. إذا كانت وجهة التخطيط الاستراتيجي هي المستقبل، فإن وجهة السياسة هي الحاضر.

منظور الثقافة

المنظور الثالث هو الثقافة. لا ينظر «فان مانن» إلى الثقافة بمفهومها التقليدي كـ «العلوم والمعارف التي يُدرِكها الفرد، ومجموع ما توصلت إليه أُمَّة أو بلد في مُحتَلَف الحُقُول من أدبٍ وفكرٍ وعلم وفن وصناعة بهدف استنارة الدُّهن.» (معجم الجامع). بل إنه حين يستخدمها كمنظور لدراسة المؤسسة، يرى «أنا لسنا كائنات عقلانية، بل كائنات تُسَيِّرُها العادات والتقاليد. وأنا نقوم بالأمر بطريقة معينة طالما أن هذه الطريقة تخدمنا.» المؤسسة، من منظور الثقافة، هي، «نظام يرمز للمعاني، والقيم والأنماط والمعايير المألوفة والتقاليد العميقة، حيث العمل يقوم على العادات والعادات تبنى على التقاليد والماضي.»

في محاضرتة، وأثناء تلخيصه للمناظير الثلاثة، يعطي «فان مانن» التخطيط الاستراتيجي اللون الأزرق، «الهائئ والعقلاني، حيث العمل هو نتيجة التخطيط.» ويعطي منظور السياسة اللون الأحمر، «لون النزاع والدماء التي تسيل على بلاط غرف مجالس الإدارة، وحيث العمل هو نتيجة القوة.» أما الثقافة، فإنه يعطيها لوناً أبيض، ويعزو ذلك لكون الثقافة، «غير مرئية، وأنها تبقى غير مرئية طالما أن العادات والتقاليد تعمل وتعطي النتيجة المطلوبة. أما حين تتوقف عن العمل، فعندها نبدأ برؤية الأثر السلبي للثقافة السائدة، وعندها لا مناص من التغيير.»

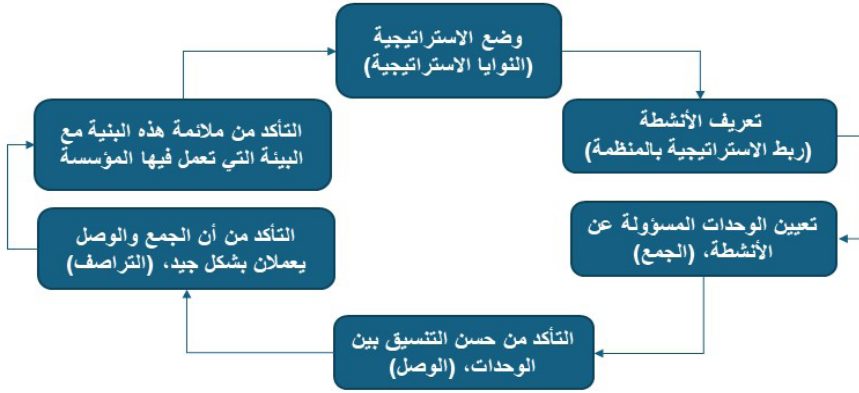
المؤسسة من خلال المناظير الثلاثة

الثقافة	السياسة	التخطيط الاستراتيجي	
العادات، الهوية، التقاليد، الخارطة الذهنية المشتركة، الآثار الثقافية، القيم، والافتراضات.	القوة والنفوذ، التواصل الاجتماعي، المصالح، وائتلاف مهيمن.	هيكلية رسمية (للمؤسسة والعاملين)، مبنية على «عقلانية شاملة».	المفاهيم الأساس
المعنى والتفسير، إضفاء الشرعية، وضع المعايير وقواعد السلوك.	نزاع، مفاوضات، إقامة علاقات وإنهاؤها.	الجمع والوصل والتراصف والتناسب: جمع الطاقات وفق ترتيب معين، ووصلها مع بعضها بعضا، والتراصف مع النظرة العليا والغاية والتناسب مع البيئة.	العمليات الأساس
شبكة من العلاقات الاجتماعية والثقافية.	أصحاب العلاقة.	فرص وأخطار.	النظرة إلى البيئة
يعبر عن الغاية ويفسرها، يبني ويدبر البنية الثقافية، وهو رمز الثقافة والنظرة (الرؤية).	بناء الائتلافات، الكشف عن المصالح والاستفادة منها، فض النزاعات.	إنه المهندس التنظيمي بعيد النظر.	دور القائد
تحديات تواجه الافتراضات الأساسية، تفسيرات متضاربة، محاولة بعض الفئات تغيير ثقافة المؤسسة.	تحول في الائتلاف المسيطر، أو في قوة أصحاب العلاقة.	نقص في التناغم مع البيئة، نقص في التكامل الداخلي.	محفزات التغيير
الثقافة المهيمنة.	المصالح المتجذرة.	المعلومات الخاطئة والتحليل غير السليم.	عوائق التغيير

الجدول رقم 1: المؤسسة من خلال المناظير الثلاثة

مسار التخطيط الاستراتيجي عند «فان مانن»

يقوم المسار الاستراتيجي على عدد من خطوات يمثلها الشكل أدناها، وهي: تحديد الأهداف الاستراتيجية ومن ثم تعريف الأنشطة وتعيين من سيتولى القيام بها، وحسن التنسيق، والتراصف مع تلك الأهداف. كل هذا لجعل بنيان المؤسسة وأهدافها منسجمة مع البيئة التي تعمل من ضمنها وبما يحقق أهدافها فيها.



الشكل رقم 1: مسار التخطيط الاستراتيجي

منابع القوة

كما رأينا في تعريفه لمنظور السياسة، فإن المؤسسة من هذا المنظور هي صراع على القوة. فما هي منابع القوة؟ يردّ «فان مانن» منابع القوة إلى ثلاثة مراكز رئيسية هي: الدور والشخصية والبنية. الدور يستند على الشرعية، ومنها القدرة على المكافأة أو الإكراه، أي الدفع إلى الانصياع. أما الشخصية، فتتناول الذكاء والخبرة والكاريزما والذكاء العاطفي والجاذب الشخصي والقدرة الجسدية والقدرة على تخطي المنافسين. أما البنية، فتتعلق بشبكة العلاقات الاجتماعية، وبمعرفة طبيعة الأرض والبيئة التي تعمل من ضمنها المؤسسة.

دوافع التغيير الثقافي

يقدم «فان مانن» عدداً من العوامل التي تدفع إلى التغيير سواء في المؤسسة أو في المجتمع، وكلها تنطلق من عامل أساسي هو تغيّر ما في البيئة. من هذه العوامل، التطور

الطبيعي وهذا يجري ببطء شديد ومن الصعب ملاحظته. وهناك التطور المُمنهج عبر التعلم والتطوير في المؤسسة وهذا يجري وفق عملية مدروسة ومخطط لها. ثم هناك التغيير الفجائي والسريع، ولهذا أسباب عديدة منها: قائد جديد فذ ذو رؤية جديدة، أو فضائح معينة تهز المؤسسة، أو تدفق أعداد كبيرة من «الغرباء» سواء إلى المؤسسة بنتيجة الاندماج مع مؤسسة أخرى، أو الهجرات الكبيرة المفاجئة في المجتمع. ومنها التهديم الذاتي وإعادة البناء.

بين النظرية والواقع

سؤال «فان مانن»، في نهاية محاضراته ما إذا كان هناك نموذج أمثل لتناغم عمل المؤسسة من ضمن هذه المناظير، وما إذا كانت المؤسسات تعمل وفق ما شرحه. جوابه لافلت للنظر. إنه يقول:

«من الطبيعي أن يجري العمل على أفضل ما يرام في حالة التناغم التام بين الاستراتيجية والسياسة والثقافة. ولكن هذا نادرًا ما يحدث. إنه يحدث عادة مع المؤسس، أو في مرحلة التأسيس. إنه يقوم بوضع خطة استراتيجية ويشيد بنيانها ومراكز القوة فيها استنادًا إلى هذه الخطة. ولكن بعد فترة تنشأ ثقافات جزئية (Sub-Cultures)، وهذه الثقافات الجزئية تقرر هي من سيكون في مركز القوة، وهؤلاء، عندها، يقومون هم بوضع الخطط الاستراتيجية بما يؤمن مصلحتهم واستمرارهم في مراكز القوة هذه. في هذه الحالة، ليس من الضروري أن تكون القرارات «عقلانية». يكفي أن تتخذ مراكز القوى هذه ما تراه مناسبًا من القرارات، ثم تضي عليها «عقلانية» عبر اختيار استنسابي للبيانات المفيدة لها.»

انتهى الجزء الأول من هذا البحث. في الجزء الثاني سوف نقوم بدراسة لمراحل من تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي وفق هذه المناظير.

التغيير المؤسسي، سعادته وجذرية التغيير

2018-7-28

حين بدأت بكتابة الجزء الأول من هذا البحث، لم يدر في خلدي أنه سيتوسع إلى القدر الذي وصل إليه. لقد توقعت أن ينتهي في جزئين. الأول، عرض لنظرية «فان مانن»، والثاني دراسة ما إذا كانت تنطبق على الحزب السوري القومي الاجتماعي. غير أنني حين غصت في عالم التحديات التي واجهت سعادته لناحية بلورة المستقبل الذي أراده لسورية، والنمط الإداري الأمثل للحزب، والتحديات الثقافية التي واجهها، أدركت أن هذه التحديات لا تزال قائمة، وأن أسلوب معالجة سعادته لها لا تزال راهنة. فمن هنا قررت التوسع، ولكن ضمن الحدود الدنيا الممكنة.

ليس الهدف البرهان أن سعادته أقام حزبه على هوى النظرية التي وضعها «فان مانن»، بل العكس. أي أن الحزب، بسبب كونه مؤسسة، يمكن له أن يتعرض لما يحذر منه «فان مانن». من هنا، سوف نبحت في هذا الجزء عما إذا كان يمكن لنا متابعة عمل سعادته التأسيسي من خلال مناظير «فان مانن» الثلاثة: الاستراتيجية والسياسة والثقافة. هل نجح في إقامة حالة من التناغم بينها، وماذا كانت النتيجة؟ أما في الجزء الثالث، فسوف نبحت ما إذا نشأت ثقافات جزئية أثناء غيابه، وبعد استشهاده؟ وهل أسست هذه الثقافات لمراكز قوى عملت على ترسيخ نفوذ أصحابها؟ هل كانت قراراتها عقلانية؟ وماذا كانت النتيجة؟

وهذا سوف يقودنا إلى السؤال التالي: ما هو مصير حركة التغيير التي أرادها سعادته، وكيف يمكن إحيائها؟

نذكر بأبرز الأفكار التي تضمنتها محاضرة البروفسور «جون فان مانن» عن المناظير الثلاثة -

الاستراتيجية والسياسة والثقافة - التي يمكن عبرها النظر إلى المؤسسة وعوامل التغيير الخفية فيها: الاستراتيجية تتعلق بالمستقبل، والسياسة - ويقصد بها صراع مراكز القوى داخل المؤسسة - بالحاضر، أما الثقافة فتعنى بالعادات والتقاليد الموروثة من الماضي.

في هذا الجزء، سوف نتابع البحث عبر إسقاط أفكار «فان مانن» على تجربة الحزب السوري القومي الاجتماعي، مبتدئين من هذا المقطع من المحاضرة:

«من الطبيعي أن يجري العمل على أفضل ما يرام في حالة التناغم التام بين الاستراتيجية والسياسة والثقافة. ولكن هذا نادراً ما يحدث. إنه يحدث عادة مع المؤسس في مرحلة التأسيس. إنه يقوم بوضع خطة استراتيجية ويشيد بنيانها ومراكز القوة فيها استناداً إلى هذه الخطة. ولكن بعد فترة تنشأ ثقافات جزئية (Sub-Cultures)، وهذه الثقافات الجزئية تقرر هي من سيكون في مركز القوة، وهؤلاء، عندها، يقومون بوضع الخطط الاستراتيجية بما يؤمن ومصحتهم واستمرارهم في مراكز القوة هذه. في مثل هذه الحالة، ليس من الضروري أن تكون القرارات «عقلانية». يكفي أن تتخذ مراكز القوى ما تراه مناسباً من القرارات، ثم تضيف عليها «عقلانية» عبر اختيار استنسابي للبيانات المفيدة لها.»

سعادته والمستقبل، الاستراتيجية

أسس سعادته الحزب السوري القومي الاجتماعي وفق نظرة استراتيجية ضمّنها في غاية حربه وشرحها في كتاب شرح المبادئ الذي نشره سنة 1936، ونقّحه مرتين قبل أن يصدر في شكله النهائي سنة 1947. كذلك، توسّع في شرح هذه الغاية في المحاضرة العاشرة سنة 1948. ولكن لعل أهم ما قام به هو نحت عبارة النظرة العليا التي بسببها تأسس الحزب، كما ترد في كتابه الرائع «الصراع الفكري في الأدب السوري: «القاعدة الذهبية، التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والأدب، هي هذه القاعدة: طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجد في عالم أجمل وقيم أعلى.»

لا شك أن غرض هذه العبارة هو حياة الأمة السورية ورفيها، واستطراداً الحياة الإنسانية وتقدمها. أما وجهة هذه النظرة ووجهة الحزب الذي تأسس بسببها - فهي دائماً إلى الأمام، إلى المستقبل. ودليلنا هو صيغة أفعال التفضيل التي استخدمها سعادته في ثلاث من كلماتها، «أجد»، و«أجمل»، و«أعلى». لم يقل سعادته، «حياة جيدة في عالم جميل وقيم عالية»، فهذا أمر اعتيادي لا طموح فيه. ولم يستخدم أفعال التفضيل معرفاً بأل وهي الحالة التفضيلية القصوى،

فلم يقل، مثلاً، «للحياة الأجد، والعالم الأجل، والقيم الأعلى». فلو فعل، لكننا اكتفينا بما لا جودة بعده، ولا جمالاً ولا علواً. كلا، لم يفعل سعادة شيئاً من هذا. بل استخدم **أفعل التفضيل** الذي يُبقي المجال مفتوحاً - دائماً - لما هو أجد وأجل وأعلى، بحيث أننا فعلاً «كلما بلغنا قمة، تراءت لنا قمم أخرى.»

هذه هي عبقرية سعادته في نحت عبارة النظرة العليا، الاستراتيجية، الدائمة التجدد وتحدي الذات.

ولكيلا يبقى أي شك في أن هذه العبارة تجسد النظرة العليا التي بسببها تأسس الحزب، وأنها منسجمة تماماً مع البدايات، نقرأ ما يلي من شرح غاية الحزب، في كتيب شرح المبادئ: «إنَّ غَرَضَ (القص من) الحزب هو توجيه حياة الأمة السورية نحو التقدم والفلاح، هو تحريك عناصر القوة القومية فيها لتحطيم قوة التقاليد الرثة وتحرير الأمة من قيود الخمول والسكون إلى عقائد مهترئة، والوقوف سداً منيعاً ضد المطامع الأجنبية التي تهدد مصالح ملايين السوريين وكيانهم، وإنشاء تقاليد جديدة ترسخ فيها نظرنا الجديدة إلى الحياة ومذهبنا القومي الاجتماعي.»

ويلقي سعادته الضوء، في شرحه لغاية حزبه، على مفهومين جديدين هما النهضة والغاية. إنه يقول:

«ويتضمن معنى النهضة القومية الاجتماعية تأسيس فكرة الأمة وتأمين حياة الأمة السورية، ووسائل تقدّمها، وتجهيزها بقوة الاتحاد المتين، والتعاون القومي الصحيح، وإقامة نظام قومي اجتماعي جديد.» وكل هذه موجودة في مبادئ الحزب الأساسية والإصلاحية.

أما عن غاية الحزب، أي ما له علاقة بـ «ماذا» و«كيف»، فإنه يقول:

«إنَّ غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي هي قضية شاملة تتناول الحياة القومية من أساسها ومن جميع وجوهها. إنها غاية تشمل جميع قضايا المجتمع القومي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية والمناقبية وأغراض الحياة الكبرى. فهي تحيط بالمثل العليا القومية وبالغرض من الاستقلال، وبإنشاء مجتمع قومي صحيح. وينطوي تحت ذلك تأسيس عقلية أخلاقية جديدة ووضع أساس مناقبي جديد وهو ما تشتمل عليه مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي الأساسية والإصلاحية، التي تكوّن قضية ونظرة إلى الحياة كاملة، أي فلسفة كاملة.»

إن هذا المقطع شديد الكثافة، وكل كلمة فيه وجهتها المستقبل. إنها تؤسس لما هو غير موجود، (فكرة الأمة)، وتبحث في متطلبات قيام هذا الوجود واستمراره. والنظام القومي الاجتماعي الجديد هو نظام الوحدة القومية والعدالة الاجتماعية والتحرر من الإيرادات الأجنبية وتأمين مصالح الأمة في جميع نواحي الحياة. بل إنها تضع قواعد جديدة للتفكير من خلال قوله، «الغرض من الاستقلال». فلم يعد الاستقلال ولا التحرير غاية في حد نفسها، بل وسيلة لتحقيق المثل العليا، كما يشرح لاحقاً في المحاضرة العاشرة. أما الأهم من هذا كله، فهو التأسيس لعقلية أخلاقية جديدة أساسها الصدق والوجدان القومي، كما سنبين لاحقاً.

هذه هي النظرة العليا الفلسفية التي وجهت تفكير سعادته الاستراتيجي والعملي. فلننتقل الآن إلى منظور السياسة كما يحددها «فان مانن»، وكما يراها سعادته.

سعادته والحاضر، السياسة

كان سعادته واعياً لخطر السياسة كما يحددها «فان مانن»، أي صراع نفوذ وتناحر على مراكز القوى. لهذا أعطى البنية التنظيمية للحزب الشكل الذي أعطاها إياه. فما هي أبرز خصائص هذه البنية؟

أولاً، قيّد زعامة الحزب وصلاحياتها بقضية الحزب كما يرد في مقدمة الدستور وقسم الزعامة. ثانياً، قيّد جميع المسؤوليات الحزبية أيضاً بقضية الحزب وقسم المسؤولية. ثالثاً، قيّد العضوية بالتعاقد الإفرادي بينه وبين المقبلين على قضية الحزب. رابعاً، جعل نظام الحزب مركزياً تسلسلياً واحتفظ بالسلطتين التشريعية والتنفيذية مدى الحياة، اتقاء للمنازعات.

خامساً، فصل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، والسلطة القضائية، فلم يعط لنفسه سلطات القضاء.

سادساً، وضع مسافة بين المسؤول ورئيسه المباشر لناحيتي التعيين والإقالة أو قبول الاستقالة. فالمنفذ العام مثلاً، لا يستطيع تعيين ولا إقالة عضو في هيئة تنفيذية أو مدير في نطاق تنفيذية، منعاً للاستبداد.

سابعاً، أعطى المنفذيات سلطات تشريعية في شؤون الضرائب المحلية، وبنى لها نظاماً يتيح لها النمو الاقتصادي والاجتماعي، عبر لجان المديرية ومجالس المنفذيات ومجلس المديرين. ثامناً، أسس للرتب التي تمنح للمستحقين في اختصاصات معينة أو في الالتزام والبطولة

في شأن عام، والغرض منها وصول المؤهلين فقط إلى مسؤوليات معينة. والرتبتان اللتان عُمل بهما في عهده، هما رتبة الأمانة - التي من حاملها حصراً ينتقى أعضاء المجلس الأعلى ورئيس الحزب - ورتبة الصدر، وهي رتبة عسكرية.

بهذا الشكل، توخى سعادته حماية الحزب الجديد من المنازعات الداخلية.

سعادته والثقافة، الماضي

يقول «فان مانن» في محاضراته إن الثقافة تُعنى بالعادات والتقاليد الموروثة، وإنها تتعلق بالماضي.

منذ البدايات، أدرك سعادته قوة فعل العادات والتقاليد، فأشار إليها في الخطاب التأسيسي، وكذلك في كتابه «نشوء الأمم». إنه يقول في المحاضرة الثانية:

«إن نظامنا يرمي إلى صهر التقاليد المناهية لوحدة الأمة. والتقاليد كما أوضحت في نشوء الأمم ليست شكلية، سطحية، بل لها مساس بالاقتناعات العميقة في نفس الإنسان، وهي تختلف عن العادات، فالعادات هي التي يمكن أن تتغير بسهولة لأنها تتعلق بسطحيات الحياة، أما التقاليد فلها علاقة بالاقتناعات النفسية العميقة. بالتقاليد التي تمثل إما مبادئ أو استمرار مبادئ ليست لأجل حياة الأمة وارتقائها يجب أن تصهر لأجل الحياة وليس لأجل أن تكون الحياة لها. إن التقاليد هي، في عرفنا، كالمبادئ، للحياة وليست الحياة للتقاليد.»

أدرك سعادته أن «الويل» الذي دفعه لإنشاء الحزب، (رسالته إلى حميد فرنجية سنة 1935) هو نتيجة ثقافة عامة منحطة فكان عليه تغيير هذه الثقافة، بدءاً من الحزب وصولاً إلى الشعب كله. سوف نركّز في هذا البحث على عاملين ثقافيين عمل سعادته على تغييرهما، هما العامل الديني والعامل الأخلاقي.

العامل الثقافي الديني

«ليس للسوري من لغة علمانية، إن لغته دينية بامتياز.» هكذا يقول إبراهيم متري رحباني في «المسيح السوري.» ولا شك أن العامل الديني يطغى على الحياة في سورية. والمقصود بالعامل الديني هنا هو ذلك الذي بدأ مع ما يُسمى بالديانات السماوية. فالنظرة الدينية المسيحية تبدأ في أن الإنسان خُلِق بسبب كرم الله ومحبه، ولأن الإنسان يحتاج الله. ففي القديس الغريغوري يُرد: «لم تكن أنت محتاجاً إلى عبوديتي. بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك.»

أما عند المحمديين، فإن الانسان قد خُلق ليعبد الله. «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ». (سورة الذاريات: 5). عن مثل هذه النظرات الدينية ينتج فكر إتكالي غيبي تعبر عنه أمثالنا الشعبية نقلا عن الكتب الدينية. «مثل ما الله بيريد»، هي ترجمة لـ «لتكن مشيئتك»، (متى ولوفا). والقول الشائع، «نمشي على ما يقدر الله، والكاتبو ربك ببيصير»، هو ترجمة للآية القرآنية «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». (سورة التوبة، 51).

ولكن الأخطر، أنه عن التفسيرات العديدة لما يرد في الكتب الدينية تنشأ مذاهب وطوائف، تتصارع في الأرض على السماء، فتصبح مطيئة لإرادات خارجية، تستخدمها والقيمين عليها في خدمة مصالحها. ونحن لا نشك لحظة في أن التقاليد التي أشار إليها سعاد في محاضراته الثانية، هي بمعظمها تقاليد منبثقة من نظرة دينية «تمثل مبادئ أو استمراراً لمبادئ ليست لحياة الأمة.»

كيف عمل سعاد لتحطيم هذه التقاليد؟ أولاً، بوضع قواعد جديدة للنظر إلى الحياة. فإذا كانت النظرة الدينية تقول إن الحياة هي لتشريف الدين، (الربوبية والمشيئة الإلهية، وعبادة الله) فإن سعاد رسخ المفهوم الذي كان والده العلامة خليل سعاد قد وضعه بقوله، «ليست الحياة وسيلة لتشريف الدين، بل الدين وسيلة لتشريف الحياة.» وعلى منواله نسج سعاد مفهوماً جديداً، «أن المبادئ للإنسان الحي وليس للإنسان للمبادئ.» (المحاضرة الثانية).

أما النزعة الاتكالية، فقد نقضها هي الأخرى. «مما لا شك فيه أن نفسية الذين يدعون لكل ما كتب الله أن يصيبهم» ترى في هذا الإذعان أجمل المثل العليا وأحبها وأفضلها. وسواء أكانت هذه النفسية شرقية أم غربية، فهي نفسية لها مصيرها وهو غير مصير النفسية التي لا تقبل بما هو دون «ما يكتبه الله» للذين يعملون بالمواهب التي أعطاهم.» (الصراع الفكري في الأدب السوري، الفصل الأول).

العامل الثقافي الأخلاقي

من أين نبدأ في مقارنة سعاد لهذا الموضوع الهام الذي لم يترك مناسبة إلا وطرقه؟ ماذا عن خطاب أول آذار 1938 حيث يقول:

«أما الظروف الروحية النفسية المتولدة من هذه الحوادث ومن الظروف السياسية الاقتصادية المتأتية عنها فهي ظروف انحطاط في المناقب عزّ نظيره. فإن فقد الثقة

بالنفس وبقوى الأمة وإمكانياتها السياسية والاقتصادية، والاستسلام للخنوع، أنشأ طائفة من المأجورين للإرادات الأجنبية القريبة والبعيدة يُغذون الأفكار بسموم فقدان الثقة بمستقبل الأمة والتسليم للأعمال الخارجية والحالة الراهنة. فإذا النفسية العامة في الأمة نفسية خوف وجبن وتهيب وتهرب وترجرج في المناقب والأخلاق. ومن صفات هذه النفسية العامة الخداع والكذب والرياء والهزؤ والسخرية والاحتتيال والنميمة والوشاية والخيانة وبلوغ الأغراض الأنانية، ولو كان عن طريق الضرر بالقریب وعضو المجتمع.

«هذه الحالة كانت أكبر نكبة أصيبت بها الأمة، والتفاعل بينها وبين الحالة السياسية كان وخيم العواقب مُعَدِّمًا كل أمل بتوليد نهضة قومية صحيحة وكل أمل بتحقيق القضية القومية. فاليأس ساعد الفساد الأخلاقي مساعدة عظمية والفساد الأخلاقي قوَى اليأس ووطد النفوس عليه.»

أليس هذا هو حال الأمة اليوم، ولكن بأضعاف مضاعفة!

أو لنذهب إلى المحاضرة العاشرة حيث يقول:

«كل واحد كان مسؤولاً فقط عن نفسه وغير مستعد إلا للنظر في مصالحه الخصوصية. لم يكن هنالك معنى للحياة (الاجتماعية) المجتمعية، ومن كان يجسر على أن يظن أنه مسؤول عن المصير القومي، عن المصير الاجتماعي، كان يرتكب خيانة لا تغتفر ويعرّض نفسه للسخرية والاحتقار. وكم من مرة وُجِّهت إليّ استهزاءات واحتقارات عندما كنت أتكلم بشعور المسؤول عن حالة بلاده وأمتة وعن مصيرها. كل تفكير من هذا النوع كان يعدّ غباوة فلا يتردد السائل عن ترديد مثل هذا السؤال 'شو بدك تشيل الزير من البير؟' وتعابير من هذا النوع. وكان كل خائن يظن أنه يقوم بمهارة عظيمة إذا سبق غيره إلى الخيانة ليستفيد من نتائجها. وإلى اليوم لا نزال نسمع من يقول إذا لم أسبق أنا إلى الخيانة يسبقني غيري ويأخذ الوظيفة. إذن يجب عليّ أن أسبق في الخيانة لأسبق غيري إلى اجتناء الفائدة التي يمكن اجتنائها من الخيانة.»

ما يميز سعادته من سواه أنه لم يكتف بعرض المشاكل والشكوى منها. بل عرضها كطبيب ماهر واستنبط لكل داء دواء. لقد واجه هذه النفسية والعقلية الأخلاقية القائمة بما سماه، «العقلية الأخلاقية الجديدة.» فما هي هذه العقلية.

العقلية الأخلاقية الجديدة⁽³⁷⁾

إذا كانت النزعة الفرديّة هي أساس العقلية الأخلاقية القديمة، فما هي مقومات العقلية الأخلاقية الجديدة التي يريد سعادته تأسيسها؟ في رأينا أنها مقومات أربعة هي: الوجدان القومي والمحبة والصدق والنظام القومي الاجتماعي. (يرجى مراجعة مقال «سايكس - بيكو والنزعة الفردية» في مطلع هذا الكتاب حيث نبحت العقلية الأخلاقية الجديدة بالتفصيل). هذا هو النهج الذي استخدمه سعادته في وضع حد فاصل بين عهد ثقافي ماض، يريد دفنه، وعهد ثقافي جديد يؤسس له.

الماضي في خدمة الحاضر والمستقبل

نعود إلى «فان مانن» وتعريفه للثقافة. وإذا كنا نستفيض في هذا المنظار فلأهميته القصوى. يتوسع «فان مانن» في تعريف الثقافة بقوله إنها، «نظام يرمز للمعاني، والقيم والأنماط والمعايير المألوفة والتقاليد العميقة، حيث العمل يقوم على العادات والعادات تبنى على التقاليد والماضي.»

السؤال هو أي ماض نختار لخدمة حاضرنا ومستقبلنا؟

إلى أي ماضٍ ذهب سعادته ليبنى تقاليد جديدة تكون فعلاً، «لحياة الأمة؟» لقد ذهب إلى أبعد ماضٍ يستطيع الوصول إليه من التاريخ الحضاري السوري، ليفهم منه «خطط النفس السورية»، التي «انقطعت بفعل الفتوحات»، ليعيد وصلها بالحاضر، ويبني عليها تقاليد جديدة تخدم المستقبل الذي أرادته لأمته. إن هذا البحث لا يتسع لكل ما كتبه سعادته في هذا المجال خاصة في كتابيه «الصراع الفكري في الأدب السوري»، و«نشوء الأمم»، ونتمنى على القارئ الراغب في الاستزادة النهل منهما. ولكننا سوف نركّز، وباختصار شديد على بعض المبادئ الأساسية والإصلاحية التي وضعها لحزبه.

المبدأ الأساسي الرابع، «الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي». يُخرج هذا المبدأ تعيين تاريخ الشعب السوري من التآويل الدينية إلى الحقائق العلمية التاريخية. فالتآويل الدينية، في أحسن حالاتها، تعيد بدء التاريخ الإنساني كله إلى التسلسل الزمني كما يرد في سفر التكوين التوراتي. أما الحقائق العلمية التاريخية فتشير إلى تاريخ حضاري سوري يعود إلى آلاف من السنين قبل التوراة. وما

(37) هذا القسم من البحث مأخوذ من محاضرة للكاتب بعنوان «الانهايار بين الهوية والعقلية الأخلاقية».

تركيز سعادته على مكتشفات أوغاريت ورأس شمرا، وعلى الأساطير الحضارية السورية التي ترسم «طريق الفكر السوري»، وهو عنوان الفصل الرابع من كتاب «الصراع الفكري»، الذي نقتطع منه هذا المقطع، سوى أحد النماذج على ما نقول:

«هنالك حقائق أخرى غاية في الخطورة وردت في مقالة مكتشف آثار رأس شمرا، ولكنها ذات علاقة قليلة بموضوع هذا البحث فلا أعرض لها الآن. أما ما ترجمته آنفًا من مقالة المكتشف وأختص بالناحية الأدبية فهو شيء يحرك أعماق نفس كل سوري وكل إنسان محب للفلسفة والفن، إنها صورة مختصرة، ناقصة، سقيمة هذه الصورة التي يقدمها لنا كلود ف.أ. شيفر في مقالة إخبارية، مقتضبة، جامدة لا روح فيها ولا فن. وهي، مع ذلك، تشتمل على ملامح شخصية نفسية أصلية ذات سناء وبهاء. وقضاياها تبدو وضّاء، غضة، كأنها أنشئت أمس أو اليوم. فترى فيها تصوّر السوري قد عرض لقضايا الحياة بأسبابها وأشكالها، فتناول الشيخوخة والشباب والأبوة والبنوة والحب والبغض والحكمة والإقدام، والعدل، والظلم، والطموح، والقناعة. ترى الشباب فيها غير نابض بثورة الشهوات والحب البيولوجي، بل تراه في مطامح السؤدد وفي محاربة «لويتان»، أو تنين الرذائل الذي كان ولا يزال يخيف النوع الإنساني. وترى إله الحكمة يعظ بالتسليم للقضاء والقدر، ولكن دوره جزء من أدوار غيره وهو ليس أفاوها ولعله أضعفها».

المبدأ الأساسي السابع، «تستمد النهضة السورية القومية الاجتماعية روحها من مواهب الأمة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي.» بديهي أن «التاريخ» المذكور في هذا المبدأ هو نفس التاريخ المذكور في المبدأ الرابع. والتركيز هنا على أن روحية الأمة السورية ليست روحية دينية ما وراثية مرتبطة بما يسمى بالأديان السماوية، بل روحية وجودية تعنى بالوجود الإنساني، وبتطور الحياة الإنسانية، وترقيتها، وتجميلها، وتحسينها. وهذا بالمختصر الشديد، هو جوهر خطط النفس السورية.

أما فيما يتعلق بالصراعات الطائفية والمذهبية المنبثقة عن النظرة الدينية والمستدرجة للإرادات الخارجية، فيكفي مراجعة الخطاب المنهاجي الأول، سنة 1935، أو المبادئ الإصلاحية الثلاثة الأولى⁽³⁸⁾، ليدرك القارئ مدى الاهتمام الذي وضعه سعادته للعامل الثقافي، بسبب أثره الواضح في تشكل العادات والتقاليد.

(38) المبدأ الأول - فصل الدين عن الدولة؛ المبدأ الثاني - منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين؛ المبدأ الثالث - إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.

بهذه الأسس الثلاثة لرؤية كل من المستقبل والحاضر والماضي انطلق سعادته في أكبر عملية تغيير جذرية عرفتها الأمة السورية. ولا شك في أن النجاحات الكبيرة التي لاقاها بين السنوات 1932-1938، تعود في قسم كبير منها إلى إدارته البارعة التي أدت إلى التناغم بين الأبعاد الثلاثة التي تكلم عنها «فان مانن». لقد نجح سعادته في وضع رؤية للمستقبل جذبت الشباب السوري، وبنى هيكلية إدارية تنظيمية تستوعب هذه الطاقات، وفتح المجال أمام قراءة نقدية للتاريخ تتيح استخدام مناراته المضيئة بما يخدم قضية الحزب.

أما ما حدث بعد غياب سعادته القسري عن الوطن، وبعد عودته، فذلك موضوع آخر ليوم آخر. بهذا، نأتي إلى ختام الجزء الثاني من هذا البحث. في الجزء الثالث، سوف نركز على مراكز القوى التي نشأت أثناء غيابه، وبعد استشهادها.

التغيير المؤسسي، المستقبل الغائب

2018-8-28

نصل إلى ختام هذا البحث الذي يطال عملية التغيير الجذرية التي توخاها سعادته حين أطلق نهضته ووضعه لها إطاراً مؤسسيّاً هو الحزب السوري القومي الاجتماعي. في الجزء الأول من هذا البحث، عرضنا لنظرية البروفسور «جون فان مانن» عن مناظير دراسة المؤسسات، وفي الجزء الثاني، عرضنا لأسس عملية التغيير التي توخّاها سعادته. في هذا الجزء سوف نعرض لأبرز ما تعرض له الحزب في ثلاث مراحل من تاريخه هي 1932-1938، وغياب سعادته في معتبره القسري بين السنوات 1938-1947، وما بعد استشهاده. ولمساعدتنا في هذا البحث سوف نضع العبارة التالية من محاضرة «فان مانن» نصب أعيننا لتساعدنا في فهم ما حدث.

«من الطبيعي أن يجري العمل على أفضل ما يرام في حالة التناغم التام بين الاستراتيجية والسياسة والثقافة. ولكن هذا نادراً ما يحدث. إنه يحدث عادة مع المؤسس في مرحلة التأسيس. إنه يقوم بوضع خطة استراتيجية ويشيد بنيانها ومراكز القوة فيها استناداً إلى هذه الخطة. ولكن بعد فترة تنشأ ثقافات جزئية (Sub-Cultures)، وهذه الثقافات الجزئية تقرر هي من سيكون في مركز القوة، وهؤلاء، عندها، يقومون بوضع الخطط الاستراتيجية بما يؤمن ومصحتهم واستمرارهم في مراكز القوة هذه. في مثل هذه الحالة، ليس من الضروري أن تكون القرارات 'عقلانية'. يكفي أن تتخذ مراكز القوى ما تراه مناسباً من القرارات، ثم تضيف عليها 'عقلانية' عبر اختيار استنسابي للبيانات المفيدة لها.»

في الجزء الثاني من البحث، رأينا أن ما وصفه «فان مانن» عن حالة التناغم التام بين

الاستراتيجية والسياسة والثقافة ينطبق على قيادة سعادته لحزبه لغاية سنة 1938. فماذا عن بقية العبارة؟ هل نشأت ثقافات جزئية (Sub-Cultures)، وهل قررت هذه الثقافات الجزئية من سيكون في مركز القوة؟ وهل وضعت من الخطط الاستراتيجية ما يؤمن مصحتها واستمرارها في مراكز القوة هذه؟ هل كانت قراراتها «عقلانية» أم أنها أضفت «عقلانية» من عندها عبر اختيار استنسابي للبيانات المفيدة لها؟

الثقافات الجزئية: 1938 - 1982

الانتهازية: المآرب الخصوصية

من أين نبدأ؟ لنبدأ من خطاب أول آذار سنة 1938، والذي يُعتبر بحق خطاب التقييم الأول لمسار الحزب والصعوبات التي تعرض لها منذ تأسيسه. في هذا الخطاب، يأتي سعادته على ذكر أول اثنين حاولا استخدام الحزب وهو في مرحلة جنينية لبلوغ أغراض خاصة فيقول: «فمن أربعة اشخاص يجتمعون إلى صاحب الفكرة القومية كان اثنان يعتقدان أن القضية القومية ليست سوى وسيلة سياسية لبلوغ أغراض في نفسيهما، ويجيزان نفسيهما احتقار إخلاص رفيقيهما وسلامة طويتهما ويطنان أن المناقب والأخلاق ليست إلا صوراً شعرية. وهكذا ترون الفائدة العملية الكبيرة من القاعدة التي وضعتها واعتمدها لتوليد النهضة القومية ومن العمل بموجبها، فإنني لو تركت الفساد يستمر مندمجاً مع الصلاح والجدارة لما كان نمو الحزب سوى تضخم لا يلبث أن ينتهي إلى التفسخ والتفكك. إن عملية تنقية الحزب السوري القومي من العناصر الفاسدة غير الصالحة لحمل الرسالة القومية المجددة ابتدأت مع ابتداء الحزب، ويجب أن تستمر ليكون الحزب متيناً جديراً بحمل أعباء النهضة القومية.»

إن لهذه العبارة أهمية كبرى لناحية حماية حماية المستقبل والتركيز على أن الاخلاق والمناقب هما في صميم العمل التأسيسي الدائم، وأن ترك هذه القاعدة، إضافة إلى قاعدة التنقية الدائمة، تؤدي إلى تفسخ الحزب.

كذلك، يرد في الخطاب الفقرة التالية، «إن أكثر الذين طُردوا من الحزب السوري القومي كانوا انتهازيين تأتي مطامعهم قبل القضية القومية. وبقاؤهم في الحزب بعد ظهور غاياتهم وخياناتهم كان يجعل قضية الحزب في خطر دائم.» هذه الفقرة لا تتعلق بالاثنتين المذكورين أعلاه، بل بأول حادث طرد قانوني صريح بحق عدد من الأشخاص. يفصل الزعيم حادثه الطرد

هذه في مقالة في صحيفة الزوبعة بعنوان نظرة الحزب السوري القومي الاجتماعي في أوربة (الزوبعة، بيونس آيرس، العدد 46، 15-06-1942).

كان ذلك الحادث الأول هامًا جدًّا من الوجهة المعنوية، على أنه لم يكن من الخطورة السياسية في مكان خطورة أول حادث طرد قانوني صريح وهو حادث طرد المدعو شارل سعد وأخيه فكتور سعد والزمرة التي تمكّنا من تأليفها وبينها محامٍ من عائلة حبيش ومهندس اسمه بطرس سماحة. وخطورة هذا الحادث كانت في أن هؤلاء الأشخاص كانوا قد تقرّبوا إلى الزعيم وتظاهروا بالاهتمام والغيرة على القضية والحركة، وفي أن الزعيم كان قد عين شارل سعد، ولم يمضِ على دخوله الحزب سوى بضعة أشهر، منفذًا عامًّا لمنفذية بيروت التي كانت في ذلك الوقت، تضم ما يقارب الألف من القوميين الاجتماعيين. فهذه الوظيفة الخطيرة الشأن، خصوصًا في مدينة بيروت، التي هي مركز إدارة الحركة السورية القومية الاجتماعية، أكسبت المدعو شارل سعد أهمية وجعلته على صلة مع مئات الأعضاء.

ثم يستطرد في شرح ذلك في رسالة إلى غسان تويني تاريخها 09-07-1946.

«ويمكننا أن نذكر حوادث مؤامرة الخائن شارل سعد الذي كان منفذًا عامًّا لمنفذية بيروت، وإساءة تصرّف فؤاد يعقوب مفرج بمشروع إنشاء «الشركة السورية التجارية» وتلاعبه بالأموال المجبية لها، وإساءة تصرّف صلاح لبكي في المهمات والوظائف التي انتدب لها حتى أنه حين كان يشغل وظيفة «رئيس المكتب السياسي» كان «يلعب على الحبلين» لأنه كانت له مآرب نفعية خصوصية. وتبعه في هذا السبيل إميل خوري الذي عين مدة لعمدة الإذاعة، وتأمّر ودسائس جورج حداد الذي شغل الحزب في عدة قضايا من دسائسه.»

هل يمكننا أن نطلق على هذه الأحداث المتفرقة وصف «الثقافات الجزئية كما يسميها «فان مانن»؟ نعم. بل إن سعادته يحذر منها إبان فترة الاعتقال الثاني، في رسالة غير مؤرخة منه إلى فخري معلوف، سنة 1936.

«عزيزي فخري!

إني مرسل كتابًا إلى رئيس المجلس الأعلى بواسطتك، فيجب أخذ نسخة عنه قبل تسليمه، ويجب حفظه بين أعمال المجلس.

ترى من الكتاب والمرسوم الذي برفقته أني غير مرتاح إلى حالة الحزب السياسية

والإدارية. ولم يكن في التدابير التي اتخذت أثناء سجنني الماضي ما يشجعني. فأريد ألا تنقطع عن الاجتماع، وأن ترى ألا يكون هنالك تحييز شخصي، وأن تحارب روح الـ «Clique» بكل قواك، وأن تسهّل دخول عناصر جديدة صالحة إلى ميدان العمل. أريد أيضًا أن تتصل بي رأسًا بواسطة المحامين. لست كثير التألم من الأغلاط التي حدثت وجرّنتني إلى السجن وأوقفت مجرى التنظيم، فيجب علينا أن نكون دائمًا مستعدين لتحمل نتائج الأغلاط، ولكن يجب علينا ألا ندع الأغلاط تهدد القضية. عسى أن تكون والعائلة بخير وطمأنينة. قدّم احترامي للأُم المحترمة وسلامي لك وللأصحاب.»

إنها مدرسة واحدة، أنتجت في فترات متفرقة أفرادًا ومجموعات تعمل لترسيخ ثقافتها. هذه المدرسة هي المدرسة الانتهازية، والتي سوف نراها تطل برأسها تحت قناع أو آخر، كلما سنحت لها الفرصة.

الثقافات الجزئية: 1938 - 1947

النظرة الدينية، «الواقع اللبناني» والنظرة الفردية

هناك عدد كبير من الرسائل كتبها سعادته إلى كل من فخري معلوف وغسان تويني ونعمه ثابت وأسد الأشقر بين شهري شباط، وكانون أول من سنة 1946، يعالج فيها عددًا من «الثقافات الجزئية» التي حاولت السيطرة ليس فقط على الحزب، بل على الزعيم أيضًا. لن ندخل في تفاصيل هذه الثقافات، بل نكتفي بعرض سريع لها تاركين للمهتمين متابعتها من مصدرها الأساس، رسائل سعادته، وهو خير مصدر.

فخري معلوف حاول إقناع سعادته بسيادة الكنيسة الكاثوليكية المطلقة ليس فقط في مسائل الإيمان، بل في جميع شؤون الحياة، ما اقتضى طرده من الحزب. وفي رسالة من سعادته إلى رئيس المجلس الأعلى آنذاك، نعمه ثابت، وتاريخها 05-09-1946 (الخامس من أيلول)، يتضح لنا أن الزعيم لاحظ صراحةً بين عدد من «الثقافات الجزئية» يمكن لها أن تقسم الحزب:

«إنّ اهتمامي بهذه المظاهر الفكرية - الروحية الجديدة كُبر على نسبة ما رأيت من التوافق في بعض التعبيرات أو الآراء الذي يحتمل أن يقسم الحزب مع الأيام إلى «أصحاب النظرة الجديدة» و«أصحاب النظرة القديمة» فعدا عن تصريحات العميد صايغ وآراء الرفيق التويني في «تشديد الحزب سابقًا، المتطرف، على العقيدة وتحجّره الأكاديمي. إلى أن «تحلّى بالمرونة مؤخرًا...»

«...أما قضية غرض الحزب الأخير فأمر مفروغ منه واختلاف الأشكال الكلامية لا يمكن أن يغيّر شيئاً من حقيقته فقولك: 'إن الغاية من الحزب هي إصلاح حياة الشعب السوري الاجتماعية والاقتصادية والسياسية' لا يختلف عن قول أكثرية أعضاء المجلس الأعلى الموقر 'إن الغاية من الحزب هي تثبيت القومية السورية'، بل هو يكمله وما رأيته من خلاف فهو في اللفظ وفي جزئية المعنى لا في المعنى كله لأنّ قولك 'إصلاح حياة للشعب السوري' يفترض وجود 'للشعب السوري' ووعيه لوجوده الذي هو في الحقيقة 'تثبيت القومية السورية'» ثم قلت:

«وأما باقي عبارة كلامك للمجلس الأعلى الموقر 'سواء تثبت القومية السورية أم لم تثبت' فخطأ كبير نظرياً وعملياً، ومن المناقضات التي لا تدل على صحة نظر في المسائل الأساسية الحقوقية.»

من هذه المدارس كانت النظرة الفردية التي نادى بها فايز صايغ، و«الواقع اللبناني» الذي نادى به نعمه ثابت وأسد الأشقر وسواه والتي عالجها سعادته بعد عودته بطرد عدد من كبار المسؤولين، ودفعته إلى إعطاء المحاضرات العشر التي توخى منها إعادة الحزب إلى الغرض الأساس من تأسيسه.

ولكن هل كانت هذه المدارس مدارس فكرية بحتة يمكن لها أن تنتهي في صراع فكري تكون فيه الغلبة للأفكار الحقّة؟ ليس تمامًا. إن كل هذه العناوين كانت تخفي تحتها صراعاً على السلطة الحزبية مرتبطاً بمشاريع سياسية لها علاقة بصراع القوى الخارجية المادية منها والنفسية.

الثقافات الجزئية: 1949 - حتى اليوم

إن عملية تطهير الحزب التي قام بها سعادته بعد عودته لم تكن كافية. فهناك أكثر من طرف «دارى جنبابه» كما يقال بالعامية، وانحنى أمام عاصفة التطهير ليعود ويتابع معركة الصراع على السلطة تحت عنوان جذاب أو آخر. وهنا أيضاً لن ندخل في تفاصيل هذه المدارس التي هي عملياً استمرار لمدرسة الانتهازية المتلبسة: إما بالتمسك الحرفي بالعقيدة، أو التلاعب بـ «المرونة السياسية». وتحتها ظهرت حركات دعم اليمين في الخمسينات، فاليسار في الستينات، ومنظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان في السبعينات ومطلع الثمانينات، فالنظام الشامي والآن «حزب الله» وإيران.

الغائب الثابت

الغائب الثابت في كل هذا هو «المستقبل». هو النظرة الاستراتيجية العليا التي بنى سعادته حزبه عليها كما ثبتها في عبارته الخالدة، «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجداد في عالم أجمل وقيم أعلى»، أو في غاية الحزب، التي وصفها أنها المثال الأعلى.

ماذا حدث لكل من عاملي السياسة والثقافة في ظل «الثقافات الجزئية» هذه؟

مع غياب المستقبل، أي رفع مستوى الحياة بكل نواحيها، وهو الغاية العليا التي تشد معظم المقبلين إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، أصبح لا بد لأصحاب الغايات الخصوصية من التعويض عن هذا النقص عبر عاملين، تثبيت مراكز القوى داخل المؤسسة وذلك عبر صراع مرير على السلطة تحوّل دموياً في أكثر من مرحلة، وتثبيت ثقافة هجينة مبنية على عقلية انتهازية تعود إلى ما قبل إطلاق سعادته لنهضته. علام يقوم هذا التعويض؟ إنه يقوم على إضافة نوع من «العقلانية» على قرارات سيئة: شارل سعد و«محرابة الديكتاتورية»؛ نعمه ثابت و«الواقعية»؛ أسد الأشقر و«المرونة» على حساب القومية السورية؛ غسان تويني و«عدم التعصب لقيم الحق والخير والجمال»؛ سعيد تقي الدين في تبريره محاولة الانقلاب سنة 1956 وتعاونه مع الحكومة الملكية في العراق، «إنهم أبناء شعبنا»؛ وتحول الحزب إلى اليسار، قبل انقلاب 1961، وبعده، ومن ثم مئات بل آلاف الصفحات لتبرير هذا التحول، ومحاولة تزويج الحزب على الشيوعية والاشتراكية والعروبة.

أما الثقافة، فهي ثقافة الارتجال والمحسوبة والفساد والإقصاء والتهميش وصولاً إلى القتل. لم يقسم الحزب إلى قسمين كما خشي سعادته، إنه اليوم ثلاثة يمكن لنا ربط كل واحد منها بمدرسة من المدارس الثقافية الجزئية: التجرد العقيدي، والانتهازية والكيانية. أما الجسم السوري القومي الاجتماعي فهو في حالة تبدد حذر منها سعادته في عبارته الرائية: «كل عقيدة تضع على عاتق اتباعها المهمة الأساسية الأولى التي هي تحقيق غايتها. كل ما دون ذلك باطل. وكل عقيدة يصيبها الإخفاق في هذه المهمة تزول ويتبدد اتباعها»

إن واقع الحال اليوم يفرض علينا الاعتراف أن بلادنا تحتضر بين أيدينا من جراء الاحتلال والفساد والتلوث، وكذلك الحزب السوري القومي الاجتماعي من جراء الصنمية والفساد والانحراف. وأنه لا خلاص لسورية ما لم يتم إنقاذ الحزب من المهيمين عليه.

هل من مخرج من كل هذا؟ نعتقد أن نعم. والمخرج يبدأ من تركيز كل سوري قومي اجتماعي نظره في نقطة البداية التي وضعها سعادته لدى تأسيسه الحزب: المستقبل، أي النظرة

والغاية. ثم يسأل نفسه هل أن الشكل السياسي - بمعنى الإداري - يصلح لخدمة المستقبل؟ وهل أن الثقافة السائدة تفيد؟ فإذا كان الجواب كلا لأي من هذه الأشكال، عليه أن يرفض المؤسسات القائمة عليها بغض النظر عن الزي الذي ترتديه، أو الأئمة التي تختبئ وراءها، ويبحث عمّن هم مثله لتشكيل كتلة قومية متراصة تنهل من مدرسة سعادته الفكرية والعملية وتضع الخطط لإنقاذ الحزب.

وإن لم يحصل هذا؟

تزول عقيدتنا وتبدد.

الحليف المحتل

2018-9-25

فتح الهجوم على عرض عسكري أقامه الحرس الثوري الإيراني في الأحواز المحتل نمطين من ردود الفعل بين السوريين القومييين الاجتماعيين يمكن اختصارهما بالعبارتين التاليتين اللتين اخترناهما من صفحات فايسبوك. التعليق الأول لرفيق جاء فيه: «عدد الشهداء في العرض العسكري الإيراني بالأحواز مخيف، والرد الإيراني هذه المرة مختلف.» وعقب توضيحًا لمن سأل، «هجوم إرهابي على عرض عسكري رفيقي.» تلا هذا الخبر عدد من التعليقات - ومن رفقاء في الحزب - تطلب من الإيرانيين الرد السريع لتلقيين «الدول التي تتعدى درسًا لا تنساه.» رد الفعل الثاني، نأخذه من صفحة رقيقة حيث تقول، «زَعَلُوا على إيران وحزنوا على الحرس الثوري الإيراني... ولم يحزنوا لما يجري لشعبنا في الأحواز... يا جماعة الخير.. الأحواز سورية...» معظم التعليقات التي جاءت على هذا المنشور كانت ساخرة سخرية مرّة، بما معناه أن الأحواز مثلها مثل كيليكيّا، والإسكندرون قد عفا عليها الزمن. كان هناك تعليق من أمين في الحزب جاء فيه، «معركة الوجود أولاً.»

مع انتشار الخبر، وُجهت أصابع اللوم إلى كل من السعودية وأميركا والموساد. صاحب التعليق الأول نقل هذا الخبر بأمانة، بقوله، «إيران حمّلت السعودية وأميركا مسؤولية الهجوم.» ولكن في اليوم التالي، ونقلنا عن صحيفة الحياة، حددت إيران هوية المعتدين بأنهم «صدّاميون» ومن «بقايا البعث العراقي»، وتوقعت أن يكون مصيرهم مثل مصير صدام حسين.

لا شك في أن التعليقين أعلاه يمثلان وجهتي نظر على طرفي نقيض، يصدران عن رفيقين في حزب واحد يعتبر أن الأحواز هي أرض سورية محتلة. الفرق هو أن الأول يعتبر أن إيران

حليف يساعدنا في لبنان والشام، وبالتالي فإن ضحايا الهجوم على عرضه العسكري هم «شهداء» يجب الرد بقسوة على «المعتدين» عليهم. في حين أن التعليق الثاني، يعتبر أن الأحواز هي أرض محتلة بغض النظر عن المحتل وعن علاقته معنا، وأن حق التحرير هو حق مشروع. أما الأمين في الحزب، فقد حاول أن يمسك الخيط من طرفيه بالقول، «الأولوية لمعركة الوجود» بمعنى فلنحرر فلسطين أولاً، ومن ثم نلتفت إلى باقي الأراضي المحتلة.

من كل هذه المقدمة نصل إلى السؤال المهم، ما هو موقف الحزب السوري القومي الاجتماعي من دولة حليفة لأحد كياناته وتحتل أرضاً من كيان آخر؟ أي ما هو موقفنا من إيران التي تساعدنا في فلسطين ولبنان والشام، فيما هي تحتل الأحواز، وتهيمن على قسم كبير من الحياة السياسية في العراق، وتحول مجاري الأنهار الكبرى التي تنبع من أراضيها وتصب في العراق وأهمها نهر «قارون»، ما يساهم في أزمة تصحّر العراق؟

لنستعين بالمأثور الشعبي، «عدس بترابو وكل شي بحسابو». بمعنى أننا نتعامل مع الحقائق لا غير. فإن كان العدس مخلوطاً بالتراب، كان له سعر، وإن كان نظيفاً، كان له سعر آخر. إن علاقتنا مع إيران وتركيا ومصر والسعودية علاقة ملتبسة. فكل من هذه الدول يحتل جزءاً من أرضنا القومية. بين الأحواز، والشمال السوري من شرقه إلى غربه، وشبه جزيرة سيناء، وقوس الصحراء. وفي كل من هذه المناطق قام أو سيقوم يوماً، مقاومة للاحتلال. وحدث وسوف يحدث، أنه فيما تحتل واحدة من هذه الدول أو سواها، جزءاً من أرضنا القومية، تكون في موقع تحالف معنا ضد عدو مشترك في كيان آخر. الموقف المبدئي الذي يجب ألا يُحد عنه هو التالي: أرضنا القومية هي كل لا يتجزأ، وكل احتلالٍ مرفوض. ونحن مع أية حركة تحرر تقوم في أي أرض محتلة. بالتالي فنحن إذ نرحب بالمساعدة الإيرانية في لبنان والشام، لا يمكن لنا أن ننسى الاحتلال الإيراني في الأحواز. وإذا كان هذا سيُغضب حلفاءنا الإيرانيين فليكن. إنهم لا يساعدوننا في لبنان والشام كرمى لسواد عيوننا، بل لمصالحهم ونحن نحترم هذا الأمر، ولكن عليهم احترام مصالحنا وأرضنا المحتلة. وما ينطبق على إيران، ينطبق على باقي دول الاحتلال.

نأتي الآن إلى موضوع «الأولوية لحرب الوجود». إن أكبر حقل للنفط في إيران، بل أحد أكبر حقول النفط في العالم قاطبة، هو حقل الأحواز⁽³⁹⁾. ويبلغ احتياط النفط فيه خمسة وستين مليار برميل، أما إنتاجه اليومي فهو حوالي السبعمئة وخمسين ألف برميل يومياً. بل

(39) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D9%82%D9%84_%D9%86%D9%81%D8%B7_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B2

إننا إذا نظرنا إلى حقول النفط الإيرانية لوجدنا أن معظمها يقع في منطقة الأحواز. من جهة ثانية، فإن احتلال إيران للأحواز وسلخ بريطانيا للكويت عن العراق، قد حرما العراق من حدوده البحرية في القسم الشرقي من الخليج. بالتالي، فإن هذه الإمكانيات، ليست فقط مهدورة، بل تُستخدم ضدنا، ومنذ حوالي القرن. إنها إمكانيات قد أُخرجت من معركة الوجود. والشيء نفسه ينطبق على الإمكانيات الهائلة المتوفرة في جميع الأراضي السورية المحتلة.

إن إيران حليف وصديق الآن، ولكنه حليف وصديق محتل لأرض سورية عزيزة علينا. وأن نجد سوريين قوميين اجتماعيين يعتبرون جنوده الذين قتلوا في هجوم على عرض عسكري - لا بد وأنه يتحدى مشاعر الأحوازيين - شهداء، ويطلب بالرد على «المعتدين» لأمر يدعو إلى الكثير من الغرابة. ترى هل كان الموقف كذلك لو حصل هذا الهجوم في أيام الشاه. هل ندعو الجنود الاتراك الذين يقتلهم أبناء الإسكندرون المحتل شهداء ونطالب تركيا بالرد على المعتدين! لا نعتقد.

غير أن الامر لا ينتهي هنا. بل إن هذا الموقف هو جزء من كل. إنه جزء من سياسة انبطاح تام تمارسه قيادات الحزب السوري القومي الاجتماعي المتتالية ومنذ عقود. إن المنطق الذي يتحكم ببيان أحد رؤساء التنظيمات حاملة اسم الحزب⁽⁴⁰⁾ - ولعل هناك بيانات مماثلة من تنظيمات أخرى - حول الانتخابات البلدية في الشام، هو نفس المنطق الذي يعمل به الرفيق الذي يدعو إيران للرد على السوريين المقاومين. بيان رئيس الحزب يدعو القوميين، بعد مقدمة طويلة جدا، إلى «الترفع عن الصغائر» وانتخاب «حلفائهم» في الجبهة الوطنية. هؤلاء الحلفاء الذين استبعدوا مرشحي الحزب ومنعوه من ممارسة حقه الطبيعي في المشاركة في الحياة السياسية. إنها سياسة الانبطاح، ومهما زينتها وجملتها فإنها لن تؤدي سوى إلى مزيد من الخسارة ومزيد من التراجع.

«اذكروا الإسكندرون وأنطاكية وفلسطين وكيليكيا والأحواز وسيناء وقبرص.» بهذا كان سعادته يصدر مراسلاته الحزبية. إنها لم تزل أرضاً قومية تحت الاحتلال.

(40) <http://www.ssnp.com/?p=1777>

راهنية سعادته والتحديات المعاصرة

2020-12-12

ندوة عبر زووم بدعوة من مجموعة «إعادة البناء». أعيد قراءة هذا البحث فيما أذفح الكتاب للنشر فأرى أهمية العامل الإداري في إنقاذ الحزب. وليس العامل الإداري المطلق، بل مفهوم «الإدارة بالنتائج» تحديداً، وهذا مفهوم لم ينتشر بعد.

انطلقت الدعوة لهذه الندوات من المقال الذي كتبه الأستاذ عبد المنعم علي عيسى ونشرته صحيفة «الأخبار»⁽⁴¹⁾. وقد تناول زملائي الأمناء في الحلقة الماضية وحلقة اليوم بعض النواحي حول راهنية فكر سعادته، ذلك أن الأستاذ عيسى، إذ ينعى على الحزب فشل مشروعه، يردّ ذلك إلى عدم تجديد أفكاره كما يتضح من هذه العبارة:

«شكّل مشروع سعادته حلمَ نهوض كبير، وهو يمتلك مشروعيةً كانت كافية لنجاحه. وعلى الرغم من الضربات التي تلقّاها بفعل التلاقيات الإقليمية سابقة الذكر، كان من الممكن له أن ينهض من جديد، فيما لو نجح منظّروه في تجديد الأفكار بما يتلاءم مع الزلازل التي ستشهدها المنطقة عمومًا، وسورية الطبيعية على وجه الخصوص.»

وسوف أنطلق في مقاربتني لهذا الموضوع من الاختصاص الذي أقوم به وهو الإدارة في شكل عام، وإدارة الاستراتيجية والتغيير في شكل خاص، وهو مجال عملي منذ سنوات. والهدف هو الإضاءة أولاً على ما توخّاه سعادته، ومن ثم الوصول إلى خلاصة حول النجاح والفشل، وبعد ذلك مناقشة السبب الذي يعزوه الكاتب للفشل.

(41) <https://al-akhbar.com/Opinion/295713>

بودي، بادئ بدءٍ، أن أقدم تعليقاً بسيطاً على كلمة «مشروع». المشروع، حسب تعريف «معهد إدارة المشاريع»، PMI هو «مسعى مؤقت - له بداية ونهاية محددتان - لخلق منتج فريد أو خدمة أو نتيجة فريدتين.» للمشروع ميزانية محددة. والوقت والميزانية وجودة المخرج، وتطابقه مع المواصفات المطلوبة، هي ما يقاس به نجاح المشروع أو فشله. وبودي أيضاً التفريق بين الفشل وعدم النجاح. الفشل شيء نهائي. نقول، فشل انقلاب عام 1961، هذه حقيقة لا يمكن تغييرها. ولكننا نقول، مثلاً، «بالرغم من فشل الانقلاب، فإن الحزب مستمر في سعيه لتحقيق غايته.» قد يكون هناك العديد من الأفضال قبل الوصول إلى النجاح، فاقتضى التنويه.

ما الذي توخاه سعادته

إن استخدام كلمة «مشروع» يقصر كثيراً عما توخاه سعادته من تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي. إن السبب الذي من أجله تأسس الحزب هو نظرة سامية تقول «بطلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى»، (الصراع الفكري) وهذا أوسع بكثير مما تستطيع كلمة «مشروع» الإحاطة به.

إن التعبير الأدق، من منظور علم الإدارة، لما توخاه سعادته، هو «التحوّل» Transformation. أي التغيير الجذري من حالة إلى حالة. وهنا يكون استخدام المقاييس المعتمدة في إدارة التغيير أدق بكثير من استخدام تلك المعتمدة في إدارة المشاريع. ذلك أن نجاح المشروع يقاس بمدى مطابقة مخرجاته outputs للمواصفات، أما قياس عملية التغيير أو التحوّل فيتم عبر قياس النتائج الحاصلة Outcomes.

نقطة الانطلاق في أية عملية تغيير هي في وعي شخص ما أو مؤسسة ما أن ثمة تغييراً أو تحوّلًا جذرياً مطلوباً لأن الوضع الحالي لم يعد صالحاً، وفي استمراره خطر على الحياة في شكل عام أو على حياة المؤسسة. غير أن هذه النقطة لا تكفي. النقطة الأهم هي في وضع الرؤية لما يجب أن يكون. أما الصعوبة فهي في إقناع المعنيين بضرورة التغيير، وهذه هي أرض المعركة التي يتقرر فيها نجاح عملية التحوّل أم فشلها. فالتغيير لا يتم ما لم يتمكن المقتنعون بضرورته من التغلب على العقبات التي سوف يضعها في دربهم المستفيدون من الوضع الحالي، أو الخائفون من التغيير أو اللامبالون.

وعملية التحوّل تمر في خمس مراحل متسلسلة لا يمكن القفز فوق أي منها هي: «الوعي

بضرورة التغيير، الرغبة بالتغيير، معرفة قواعد التغيير، القدرة على التغيير، وتدعيم التغيير بعد حصوله».

بعد هذه المقدمة نطلق لبحث ما إذا كان سعادته قد استوفى الشروط الضرورية لعملية التحول التي توخاها، ومن ثم النظر فيما إذا كان سبب الفشل الذي قدمه الكاتب لناحية «تجديد الأفكار» هو سبب حقيقي أم لا.

عملية التحول

قلنا إن الشرطين الأولين لقيام عملية تحول هما عدم صلاحية الوضع الحالي وامتلاك رؤية جديدة لما يجب أن يكون. هل استوفى سعادته هذين الشرطين؟ نعم. لقد شخّص الوضع الحالي ووصفه كـ «ويل»، وعيّن السبب الأساس لذلك بأنه «فقدان السيادة القومية». من جهة ثانية، وضع نظرة عالية للحياة ذكرناها في بدء هذا البحث هي: «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى». سوف أتوقف للحظات أمام هذه النظرة لنتمعن قليلاً في أمرين: لغة القسم الثاني منها، ومن ثم النظر فيما هو المقصود بطلب الحقيقة الأساسية الكبرى. والقصد من هذا التمعن كله مرتبط براهنية الأسس الفكرية عند سعادته. فإذا قلنا إنه وضع نظرة يرى أنها تُصلح الحياة وتخرجها من الويل الحاضر، علينا أن نسأل: هل هذه النظرة وقتية، ظرفية، أم مستدامة؟ لقد استخدم سعادته في القسم الثاني من العبارة ثلاثة أوصاف في صيغة أفعل التفضيل الوسطى: أجود وأجمل وأعلى. إنه لم يقل حياة جيدة، ولا عالمًا جميلًا ولا قيمًا عالية. فلو فعل لطلب منه تحديد كل من هذه الأوصاف والوقوف عندها. كذلك هو لم يستعمل أفعل التفضيل القسوى فلم يقل الأجود ولا الأجمل ولا الأعلى. فلو فعل، لكان أيضًا وجب تحديد ماهية السقف الأعلى الذي لا تجاوز له. اكتفى سعادته بالصيغة الوسطى التي لا تحتاج إلى تحديد ما بعدها. إنها صيغة متحركة ديناميكية تحتم على حاملها التفكير المستمر بكيفية تجويد الحياة وتجميلها والارتقاء بالقيم. هذه فرادة هذه الصيغة للنظرة العليا التي قال سعادته «إن الحزب قد تأسس بسببها.» (الصراع الفكري)

نعود الآن إلى القسم الأول من العبارة: طلب الحقيقة الأساسية الكبرى، والتي يصفها سعادته في الكتاب نفسه بأنها «قضية الفرد والمجتمع»، فكيف حددها؟ سوف أركز على ثلاثة أمور: الوجدان القومي، كما هو في مقدمة نشوء الأمم، و«المحبة كإيمان اجتماعي» كما وصفها في فصل الموسيقى من قصة فاجعة حب، و«الصدق» كما وصفه في شرح العقلية

الأخلاقية الجديدة في المحاضرة العاشرة، وقد فصلناها في مقالات سابقة في هذا الجزء من المجموعة.

هل لأي مما سبق تاريخ لانتهاء الصلاحية؟ لا أعتقد.

المعركة الأساس

قلنا إن شرطي التحوّل الجذري هما فهم الواقع الحالي واستنباط رؤية للمستقبل، وإن المعركة الأساس هي في الانتقال من هذا الوضع إلى ذلك. ولهذه المعركة شروط لا بد من استيفائها هي الأخرى أهمها أن تكون إرادة التغيير على درجة من القوة تستطيع معها التغلب على معوقات التغيير. ما هي هذه الشروط: إنها المنطلقات وخارطة طريق التغيير وإطار إدارة الخطة الاستراتيجية للتحوّل والاستعداد لخوض معركة الأفكار. أين نجد كل هذا؟

المنطلقات: المبادئ الأساسية، وهي كيفما درستها وجدتها مبادئ الهوية، والحقوق، والمصالح، والاتجاه. هذه المبادئ تؤسس للهوية القومية الجامعة الضرورية لاسترداد السيادة القومية.

خارطة طريق التغيير: المبادئ الإصلاحية، مبادئ ترقية الحياة: التحرر، والمساواة، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية، والقوة. أما إطار إدارة خارطة الطريق فنجدتها في ثلاث كلمات وجهها سعادته لغسان تويني قبيل عودته من مغتربه القسري: إنها المنظمة العقائدية التي تفعل «إدارة» وسياسةً وحرماً لتحقيق أهدافها.

غاية الحزب: كل هذا لخصه سعادته في غاية الحزب. وغاية الحزب كما يجب أن يكون قد صار معروفاً تضم أربعة محاور، ثلاثة منها تعتمد على عمل السوريين القوميين الاجتماعيين، والرابع منها يتعلق بالعالم العربي. سوف أعرض عليكم اليوم طريقة مختلفة لقراءة الغاية انطلاقاً من علم إدارة التغيير. في إدارة التغيير ننظر إلى الفعل والمُخرج والنتيجة. بمعنى أنه لكي تتم عملية التغيير لا بد من عدد من المبادرات أو المشاريع أو البرامج ينتج عنها مخرجات معينة وفق مواصفات معينة، ولكن الأهم أنه سيكون لها فعل تغيير في المجتمع، أي نتائج تكون مقررة سلفاً. (يمكن مراجعة الجدول في مقال «الحيوية» في هذا الجزء).

لنقرأ غاية الحزب وفق هذه المنهجية. المحور الأول: الفعل هو «بعث نهضة»، المخرج هو «تحقيق مبادئ الحزب» أما النتيجة فهي «إعادة الحيوية والقوة إلى الأمة السورية»؛ المحور الثاني: الفعل هو «تنظيم حركة»، المخرج هو «استقلال الأمة السورية»، أما النتيجة فهي «تثبيت

السيادة»؛ المحور الثالث: الفعل هو: «إقامة نظام جديد»، المخرج هو «تأمين مصالح الأمة»، أما النتيجة الأخيرة فهي «رفع مستوى الحياة» في الأمة السورية، وهذا ما يعيدنا إلى النظرة العليا آنفة الذكر. أما المحور الرابع، فمع أنه في صيغة «السعي» بسبب وجود أطراف خارجية هي بقية أمم العالم العربي، فإن المخرج هو «قيام جبهة عربية» أما النتيجة المرجوة -ونقرأها في أمكنة أخرى خارج عبارة الغاية- فهي خلق سد في مواجهة الاستعمار.

على ضوء ما سبق، نقرأ غاية الحزب انطلاقًا من النتائج المرجوة منها كما يلي: «إعادة الحيوية والقوة إلى الأمة السورية، وتثبيت سيادتها ورفع مستوى حياتها ومواجهة الاستعمار.» هل لأي مما سبق تاريخ لانتهاه الصلاحية؟ لا أعتقد.

جرد حساب

إذا وضعنا جانباً ما أنجزه سعادته في حياته القصيرة لناحية تشخيص الواقع والرؤية لمستقبل أفضل وصياغة المنطلقات و خارطة الطريق والإطار لإدارة الخطط الاستراتيجية، إذا وضعنا كل هذا جانباً وركّزنا النظر في أين نحن من غاية الحزب أفعالاً ومخرجات ونتائج، فماذا نرى؟ في الجدول التالي، «جدول قياس تحقيق غاية الحزب»، سوف نرى أن بعض الأفعال الضرورية قد بدأت، وأن بعض المخرجات قد حصلت، ولكننا لم نحصل أيًا من النتائج المرسومة في غاية الحزب. من هنا، فإن الحكم الذي أطلقه الأستاذ عيسى، صحيح في معظم جوانبه، ولكن ليس كلها. الجدول أدناه يعطينا فكرة عما نقول. من جهة ثانية، فإن عدم النجاح لا يعني الحكم بالفشل النهائي. إن في كل هذا ما يجب أن يعطي دفعًا للمخلصين لأخذ العبر والاستمرار بوسائل وطرق جديدة.

جدول قياس تحقيق غاية الحزب

في هذا الجدول، نضع لائحة بالأفعال والمخرجات والنتائج التي سبق ذكرها ونرى مدى تحقيقها في مقياس يقوم على ما إذا كانت قد تحققت جزئيًا، كليًا، أو لم يبدأ تحقيقها بعد.

الفاعل	تحقق جزئيًا، كليًا، لم يتحقق	المُخرج	تحقق جزئيًا، كليًا، لم يتحقق	النتيجة	تحقق جزئيًا، كليًا، لم يتحقق
بعث نهضة	جزئيًا	تحقيق مبادئ الحزب	جزئيًا	إعادة الحيوية والقوة	لم يتحقق
تنظيم حركة	جزئيًا	استقلال الأمة	لم يتحقق	تثبيت سيادتها	لم يتحقق
إقامة نظام جديد	لم يتحقق	تأمين مصالح الأمة	لم يتحقق	رفع مستوي حياتها	لم يتحقق
السعي لإقامة جبهة عربية	لم يتحقق	التعاون بين الأمم العربية	لم يتحقق	سد منبع في وجه الاستعمار	لم يتحقق

ملاحظة أخيرة حول هذا الموضوع. لا يمكن توقع مخرجات أو نتائج بدون الفعل. وليس بالضرورة أن تنتج عن الفعل المخرجات المطلوبة وفق المواصفات المرغوبة. كذلك، إن حصولنا على المخرجات لا يعني تحقيق النتائج بالضرورة وهناك أمثلة كثيرة على ذلك. إن تحقيق النتائج، والذي هو الغرض الأخير، عملية معقدة ولا مجال للخوض فيها هنا.

سبب عدم النجاح

نأتي الآن إلى القسم الأخير من بحثنا ونعيد طرح السؤال، هل صحيح أن مشروع سعادته ما كان ليفشل «لو نجح منظروه في تجديد الأفكار بما يتلاءم مع الزلازل التي ستشهدها المنطقة عموماً؟»

لا نعتقد، بل نقول إن العكس هو الصحيح. ذلك أن معظم القيادات الحزبية أثناء غياب سعادته في المنفى، وبعد استشهادها فعلت هذا بالضبط، أي أنها - تحت ستار التجديد والتطوير ومواكبة العصر - حاولت أن «تلائم» فكر سعادته مع سواه - لا بل مع ما جاء ليحاربه، فكان فشلها وفشل الحزب في ذلك ذريعًا، خاصة لناحية تحقيق النتائج التي تأخر تحقيقها كثيرًا.

إن انحراف الحزب نحو «الواقع اللبناني» كان ملاءمة من قيادة الحزب في الأربعينات مع

الانتداب والكيانات الناشئة عنه. كذلك كان موقف الحزب من الأحلاف الغربية في الخمسينات تماشيًا مع المد الغربي؛ ثم دورانه مئة وثمانين درجة في الستينات باتجاه اليسار والمنظومة الاشتراكية الصاعدة، ثم قبول الحزب بمنظمة التحرير ممثلًا شرعيًا ووحيدًا للشعب الفلسطيني، وصولًا إلى أن يصبح أحد «أحزاب المناقصة» - والتعبير للدكتور نديم محسن - إبان الوجود الشامي، وصولًا إلى وضعه اليوم. في كل من هذه الأدوار، كانت قيادات الحزب، هي نفسها، تتأقلم مع الوضع الجديد، ولكن على حساب نظرة الحزب إلى الحياة وغايته وعقيدته ومنطلقاته وخطته وأخلاقه، وعلى حساب المخلصين من أتباعه.

نحن حددنا أزمة الحزب المستمرة منذ استشهاد الزعيم، بل حتى أثناء غيابه القسري بأمر أكثر بساطة بكثير. لقد حددناه بإهمال الغاية التي من أجلها أنشئ، أو بالانحراف عنها نحو غايات أخرى خصوصية. ولا نعتقد أننا كنا مخطئين، بل إن سعادته هو الذي يوصلنا إلى هذه النتيجة. أليس هو القائل، «كل عقيدة عظيمة تضع على عاتق أتباعها المهمة الأساسية الأولى التي هي تحقيق غايتها. كل ما دون ذلك باطل، وكل عقيدة يصيبها الإخفاق في هذه المهمة تزول ويتبدد اتباعها.»

إن التحدي الكبير الذي نواجهه اليوم هو نفسه تماما الذي حدق سعادته نظره فيه منذ ما يقارب القرن. إنه الويل الناتج عن فقدان السيادة القومية. الباقي تفاصيل. نعم، كبر حجم الويل، وتشعب، أما العلاج الذي وضعه سعادته، وعرضنا أسسه، فلم يتغير.

ما بعد الحزب

2021-1-27

«المحرقة الشامية تستدعي إعادة تقييم الصيغ وتجديدها باستنباط صيغ ما بعد أيولوجية (ما بعد بعثية/ ما بعد قومية)، إذ أن المقدس المشترك هو المواطنة التي تعبّر بصدق عن الاجتماع السياسي الشامي وبدون مركز وهوامش» من مقالة آلاء دياب في الفينيق: «العلمانية في الشام بين الفكر النظري والممارسة العملية»⁽⁴²⁾.

لن نناقش مضمون المقالة هنا، بل نتوقف عند عبارة «ما بعد قومية». لقد استوضحنا الكاتبة ما إذا كان المقصود هو القومية بالمطلق أم الحزب السوري القومي الاجتماعي، فكان الجواب إن المقصود هو الحزب. ومع أن المقالة تركز في معظمها على الأكثرية المذهبية، «المركز»، والأقليات، «الهوامش»، فإن استنباط صيغ للمواطنة قائمة على «ما بعد» الحزب السوري القومي الاجتماعي يجب أن يكون جرس انذار للسوريين القوميين الاجتماعيين قيادات وأعضاء.

لم نبحث مع الكاتبة السبب الذي دفعها إلى هذا الاستنتاج، ولعلها توضحه في مقالة ثانية. ولكن الثابت أن حزب البعث العربي الاشتراكي قد فشل في إدارة كلاً من العراق والشام اللذين حكمهما لعقود، والحزب السوري القومي الاجتماعي لم ينجح - بل تخلى - عن تحقيق غايته وهو يدفع ثمن ذلك تبتدأً لأعضائه.

لا يعيننا ضخ الحياة في عروق حزب البعث فهذا ليس شأننا. ما يعيننا هو إحياء الحزب

(42) دياب، آلاء، العلمانية في الشام بين الفكر النظري والممارسة العملية، الفينيق

<https://2u.pw/94LHRLmE>

السوري القومي الاجتماعي وإعادة بنائه. وفي هذا سوف ننطلق من الأساس الذي قام عليه الحزب، ومن واقع حاله اليوم.

الأساس الذي بُني عليه الحزب هو أساس علمي سليم. إنه الواقع الاجتماعي، الأمة، الناس الذين يعيشون في هذه البقعة من الأرض التي اسمها الوطن السوري، والمصالح التي تربطهم بعضًا ببعض. ما يفرق فكرًا عن فكر وحزبًا عن حزب، في نهاية المطاف، هو شكل الدولة التي يبنها الحزب، والنظرة التي تنطلق منها. دور الحزب هو في تقديم نظرةٍ لحياة الناس ومصالحها، ومن ثم وضع برنامج عملي لتحقيقها والمحافظة عليها وترقيتها. النظرة التي توخاها سعادته لأتمته هي، وبكل بساطة، «حياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى»، وقد وضع برنامجًا عمليًا لتحقيق ذلك هو غاية حزبه. عدم نجاح الحزب يكمن هنا، أي في عدم وضع الخطط والمشاريع لتحقيق غايته وبناء الطاقات المطلوبة لذلك. ولا يكفي تقديم الحزب الأعذار والمبررات لكي يُعفى من مسؤوليته. ف«التاريخ لا يحكم على النيات، بل الأفعال». هكذا علمنا سعادته.

إن الرأي الذي عبّرت عنه الكاتبة في عبارتها ليس رأيًا يتيماً، إنه واقع الحال لدى قسم من القوميين الشباب. ونحن نسمعه بأشكال مختلفة خاصة ممن هم في نهاية العشرينات ومطلع الثلاثينات من عمرهم، أي الجيل الذي يجب أن يكون في وضعية التأهيل لتكعب المسؤوليات العليا. ما نسمعه هو تشكيك بعقيدة الحزب وجدواها، وفي غايته وإمكانية تحقيقها. ولا نعتقد أنهم يلامون في ذلك. فعدا عن غياب العامل الحزبي الثقافي لسنوات طوال، نجد أن القيادات التي تدير شؤونهم تكبرهم سنًا بعقود، وهي قيادات، بالرغم من فشلها، تتمسك بالسلطة ولا تتخلى عنها. إنها قيادات تتعامل معهم بفوقية فلا تسمعهم ولا تحاول فهم نفسيتهم. إنها تتعامل مع جيل الغد بأدوات أمس فتزداد القطيعة. وعضًا من أن تكون تلك القيادات جسرًا يصل الماضي بالمستقبل، أصبحت ثقوبًا سوداء تكاد تبتلع الحاضر والمستقبل.

هل يمكن ضخ الحياة في عروق الحزب؟ هناك محاولات. هل تنجح؟ هذا يتوقف على مدى قدرة أصحابها على الاستمرار في وجه كل التحديات التي تواجهنا كمجتمع وحزب. ولعل في الندوات الثقافية التي تقام من أكثر من جهة ما يدفع للأمل. ذلك أنها تغوص في فكر سعادته فتدرسه وتحلّله وتقدم لنا فهمًا جديدًا له في أساسيات تفكيره، في المجتمع والمصالح والاقتصاد والدين والدستور والدولة، وفي الإدارة.

هل هذا كافٍ؟ كلا. فالدراسة شيء والتطبيق شيء آخر. لتتوقف قليلا عند الإدارة. من معرفتنا بواقع الحزب الإداري، يمكن لنا القول إنه واقع متخلف كثيرًا عن العصر وعن

الغاية التي من أجلها أنشأت الإدارات الحزبية. ولا نتكلم هنا عن تقنيات الإدارة الحديثة، بل نتكلم عن مفهوم الإدارة العامة، أو الخدمة العامة Public Service، أي إدارة الدولة ومتطلباتها من طاقات بشرية مؤهلة ومدربة، مضافاً إليها متطلبات إدارة مؤسسة عقيدية من مستوى الحزب السوري القومي الاجتماعي وغايته. هذا أمر سوف يحتاج إلى بحث مستقل.

نعود إلى عبارة «ما بعد القومي». وسوف نوجز عاملاً إيجابياً وهو لصالح فكر سعادته كما يلي:

إن «الصيغ ما بعد أيديولوجية/ ما بعد بعثية/ ما بعد قومية» لا بد لها وأن تنطلق من نفس الواقع الاجتماعي الذي انطلق منه سعادته، ويجب أن يكون لها نفس النظرة العالية التي كانت له: «حياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى»، وعليها العمل لانتصارها. فإن لم تفعل، سوف يجد أصحاب هذه الصيغ الجديدة أنفسهم في نفس المكان الذي يجدون فيه حزب البعث والحزب السوري القومي الاجتماعي اليوم، وسوف يأتي جيل جديد ينظر وقتها إلى «صيغ ما بعد الصيغ»!

إننا في سباق مع الزمن نحتاج فيه إلى الشباب الواعي. الشباب اليوم في مكان آخر، التحدي

هو استرداده.

النموذج

2020-3-28

«اذكروا فلسطين وسيناء والإسكندرون وكيليكيا والأحواز وقبرص.»
إن معظم ما نكتبه هو كلام للمستقبل. ففي زمن الانهيارات والأوبئة ينشغل الناس بحاضرهم عن مستقبلهم. ولكن الانهيارات سوف تتوقف، والأوبئة سوف تهزم، عندها، ربما يكون لكلامنا هذا بعض فعلٍ.

سؤال أساس:

إن أراضينا المحتلة والتي تأخذ شكل دائرتي احتلال خارجية وداخلية، هي جزء مهم من حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والأمنية. بقاؤها في أيدي أعدائنا يمهد الطريق لاحتلالات جديدة فلا بد من استعادتها. لحصول ذلك لا بد من توفر عدد من الشروط الضرورية بما فيها: تنامي قوتنا الداخلية؛ ضعف أعدائنا؛ واستحصالنا على قبول ودعم سياسيين دوليين لتغيير الخرائط. لنفترض أن كل هذا قد تأمن، يبقى هناك سؤال أساس لا بد من التمعن فيه: لماذا سيقبل المواطن القاطن في أراض سورية محتلة، ويعرف عن نفسه أنه تركي، أو إيراني، أو سعودي، أو مصري مثلاً، في أن ينقل ولاءه من دولته الحالية إلى الدولة السورية؟

الجواب هو النموذج. النموذج الذي علينا تقديمه للمواطن في تلك الدول، والذي يجب أن يشكل جاذباً قوياً، يتخطى جميع الاعتبارات القائمة، ويدفع ذلك المواطن لطلب الانتماء للدولة السورية. ما لم نبن هذا النموذج، تبقى كل الشروط الضرورية أنفة الذكر غير كافية. في الوقت نفسه، إن لم نحسن بناء هذا النموذج، فإن مفعوله سيكون عكسياً، وعامل تنفير عوضاً من استقطاب.

بناء هذا النموذج يبدأ من عبارة سعادته الخالدة: «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجد في عالم أجد قيم أعلى». نقول يبدأ منها إذ على المؤسسات المختصة بناؤه واختباره ودراسة مدى قابليته للحياة. ولكن هل قام هذا النموذج يوماً؟ الجواب نعم. لقد قدّم الحزب السوري القومي الاجتماعي عبر تاريخه أربعة نماذج متفاوتة الفاعلية هي: مرحلة سعادته، 1932 - 1949، فمراحل ما بعد سعادته ونقسّمها كما يلي: 1949 - 1961، 1969 - 1990، و1990 حتى الآن.

في المرحلة الأولى، بنى سعادته الحزب على أساس نظريته تلك. وَعَدَّ الناس بحياة أفضل، وقدّم لهم عالماً أجمل، ومارس قيماً أعلى، فجدّب ذلك العدد الكبير من الناس من مختلف المناطق السورية. كان ذلك الشرط الضروري الأول، أي بناء القوة الداخلية عبر تقديم نموذج متميز عن كل ما هو قائم.

كان من الطبيعي أن يصطدم ذلك النموذج بكل ما اصطدم به، وكان لا بد للحزب أن تقع بين سعادته وخصومه وأعداء أمته. استخدم سعادته النموذج الذي بناه وأطلق ثورته الأولى استناداً إليه. لم يكن ذلك كافياً، وانتهت تلك المرحلة باستشهاده.

بين 1949 و1961 كان النموذج الأول لا يزال حاضراً بقوة. حاول الحزب الوصول بواسطته إلى السلطة مرتين: عبر انقلاب في الشام سنة 1956، توقف قبل ساعات من القيام به بسبب العدوان الثلاثي على مصر، وانقلاب في لبنان حصل وفشل، سنة 1961. تعرض ذلك النموذج لضربة داخلية تمثلت في الانشقاق الذي حصل في الحزب سنة 1955.

بعد الخروج من السجن، وبين 1969 و1990، لم يعد النموذج المميز هو المهم، بل العكس. أصبح التماهي - أي تقليد ما هو قائم - هو سياسة الحزب، فتمزّجس، وتعرّب، ولحق بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأصبح العمل «الجهوي» من ضمن الحركة الوطنية اللبنانية أهم من العمل المُرَكَّز للوصول إلى الشعب واستقطابه حول عقيدة الحزب وغاياته ونظريته. فَقَدَّ الحزب تميّزه، ولكنه ظل في خندق «وطني» يمكن منه إعادته للتركيز على قواعد انطلاقه الأساس.

في المرحلة الأخيرة، 1990 وحتى الآن، انتقل الحزب إلى خندق التنين متعدد الرؤوس والذي تأسس للقضاء عليه: تنين الفساد والإقطاع والكيانية والنزعة الفردية.

بين التأسيس و1969، كانت الشدائد الخارجية تقوّي الحزب، تستنفر التضحيات من أعضائه، ولكم قدّموا من تضحيات! كان نادراً أن يخرج قومي من الحزب. بعد 1969، ابتداءً النزف الداخلي، ولمّا يتوقف.

عودة إلى السؤال الأساس، ما هو النموذج الذي علينا تقديمه للمواطن في الأراضي السورية المحتلة كي يحلم بالعودة إلى وطنه الأم؟ الجواب هو بناء النموذج الذي يعيد القوميين إلى حزبهم أولاً، ويقدم الجاذب للمواطن السوري بحيث يصبح الحزب فعلاً حركة الشعب العامة الناطقة باسمه.

لدرء الأخطار القادمة

2020-6-18

نُشر هذا المقال في الفينيق مع اقتراب نهاية مدة القيادات التي افرزتها انتخابات 2016 والتي عرف الحزب فيها أربعة رؤساء في ثلاث سنين. بعد الانهيار المالي، قام القوميون في شتى أنحاء العالم، وبمبادرات ذاتية، بتنظيم شبكات دعم للرفقاء والمواطنين المحتاجين في الوطن.

لا شك أن الوضع المقبل على الوطن السوري كله خطير جدًّا، ولكن أكثر ما يكون في لبنان والشام. يتعرض هذان الكيانان لحالة حصار خانق؛ وللحصار الخانق مسار طبيعي: من جهة، هناك إفلاس، جوع، هرب من الإفلاس والجوع لمن يتمكن، واستغلال ونهب واغتصاب للبشر والممتلكات من جهة أخرى. ولقد تعلمنا من التاريخ كيف كانت العصابات تتهاوش على ما يتبقى من مؤن وغذاء قبل الانهيارات الكبيرة. في نهاية المطاف إما أن ينكسر الحصار فينتقم الشعب من ظالميه، أو ينتصر فتلتحق عصابات النهب والسرقة والفساد بالعدو المحتل دونما حياء. في هذا الخضمّ يجد السوريون القوميون الاجتماعيون أنفسهم في عزلة مثلثة: أولاً، إنهم الفئة الوحيدة اللاتائفية في آتون المذهبيات المتأجج؛ ثانياً، هم بلا قيادة على مستوى التحدي؛ ثالثاً، إنهم في حالة تبدد.

هناك خطران محدقان بجميع الناس في الوطن، ولكنهما يطالان القوميين بصورة خاصة. إنهما خطر الجوع والتصفيات. ولدرء هذين الخطرين لا بد من تنظيم القوميون لأنفسهم في أي شكل يروونه مناسباً في متّحدثهم بعيداً عن مراكز الفساد التي تتغذى من الأزمات لتطيل في حياتها.

في الخارج، يعمل القوميون بالتعاون مع رفقاء مخلصين في الوطن على تنظيم شبكة من الرغد والدعم وفق أولويات الحاجة. عمل هؤلاء يكون أفضل بكثير في حال انتظم القوميون. من جهة ثانية، إن خطر المذهبيات، خاصة تلك التي ترفع أعلامًا خارجية، سوف يتفاقم مع اشتداد الجوع والفقير. على القوميين في ممتّحاتهم تأمين الحماية الذاتية عبر شبكة أمان داخل الممتّحد الواحد وبالترابط مع ممتّحات قريبة.

نأمل أن تكون مخاوفنا في غير محلها، ونأمل للحصار أن ينكسر وللفاسدين عقابهم اللائق، ولكن هذا لا يمنعنا من قرع ناقوس الخطر والدعوة للاستعداد.

الكابوس

2020-8-27

وبعد أقل من شهرين على مقالنا السابق عن «درء الأخطار»، تغتال يد الغدر الأصولية ثلاثة رفقاء من الحزب السوري القومي الاجتماعي في كفتون - الكورة.

ليس مهمًا من أين تبدأ، فشريط الأحداث الأخيرة مثل كابوس على شريط إعادةٍ دائم الدوران. استشهد ثلاثة رفقاء غدرًا في كفتون، عطشٌ في الحسكة، تهديد تركي، نزع العراق، مأساة فلسطين، إفلاس لبنان، تفجير مرفأ بيروت، كورونا، فساد، سرقات، جرائم اللا شرف، هياكل عظمية في مرفأ بيروت، مدمرات وبوارج متعددة الجنسيات، مرسيل غانم وإم. تي. في، حكم المحكمة الدولية، اشتباك «حزب الله» و«حركة أمل». إنه فيلم رعب بدأ منذ قرن وما يزيد، ولا يريد أن ينتهي.

ما يحرك هذا الكابوس ويجعله حقيقة أمران: الإرادات الأجنبية والتفسخ المجتمعي الذي يُفسح المجال للإرادات الأجنبية فتنفذ منه إلى قلب حياتنا. وإلا كيف نفسر أن السعودية مثلاً، تضع فيتو على رئيس حكومة في لبنان، فينصاع اللبنانيون. وأن الأمريكان لم يعطوا كلمة سر بعد عمّن يرغبون به كرئيس، فينتظر اللبنانيون. وأن الرئيس ماكرون يهدل رؤساء التنظيمات السياسية والمذهبية اللبنانية فيطأطؤون رؤوسهم صاغرين.

والتفسخ الاجتماعي مردّه غياب النظرة الواحدة إلى الهوية والحقوق والمصالح والاتجاه العام في الحياة. وبالمختصر الشديد، هذا الغياب، الذي يولد هذا الكابوس، هو ما حاول أنطون سعاده وقفه ومن ثم عكس مساره عبر تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي. والحزب

السوري القومي الاجتماعي هو عقيدة تؤسس للهوية والحقوق والمصالح والاتجاه العام، ومبادئ إصلاحية تؤسس لحياة أفضل عبر إزالة عوامل الانقسام المجتمعي والهيمنة الاقتصادية والضعف العام، وهو حركة تهدف إلى إقامة نظام جديد للحياة وترقيتها.

كل ما استطاع سعادته تحقيقه في حياته القصيرة كان خلق النموذج البُدئي Prototype لمجتمع جديد ودولة جديدة. وقد نجح في ذلك خلافاً لتوقعات أصدقائه وخصومه على السواء. لكنّه لم يتمكن من تحويل هذا النموذج إلى حركة عامة للشعب من بيروت إلى بغداد ومن طوروس إلى سيناء، كما كان يريد. كذلك لم تنجح القيادات المتتالية لهذا الحزب في هذه المهمة الأولى، فاتسعت الشروخ الاجتماعية لتدخل من بوابتها العريضة قوى الاستعمار المتجدد محتلة هنا ومستبيحة هناك ودافعة للفتنة في كل مكان.

نكرر ما سبق لنا ذكره في أكثر من مناسبة، إن مصير سورية متوقف على مصير الحزب السوري القومي الاجتماعي، ومصير هذا متوقف على ما يقرره القوميون أنفسهم.

اليوم، فيما انهار البلاد يزداد تسارعاً، يجد القوميون أنفسهم مشتتين من جهة، وبدون قيادة على مستوى التحديات يستطيعون الركون إليها من جهة ثانية. في مثل هذه الظروف، يزداد الخطر عليهم. ففيما تحسب القوى المذهبية ألف حساب لقوة خصومها المذهبيين الآخرين قبل فتح معركة معهم، فإن جميع القوى المذهبية لها مصلحة في ضرب القوميون - النموذج النقيض لهم. ونخشى أن يكون ما حدث في كفتون بالأمس مقدمة لما هو أسوأ.

لا يجوز للقوميين أن يبقوا في حالة التشرذم القائمة. بغض النظر عما تفعله القيادات، على القوميون، حفاظاً على أمنهم بالدرجة الأولى، وإعادة لاعتبارهم وكرامتهم، أن يعيدوا تنظيم أنفسهم في متحداتهم سواء كمتحدات مستقلة، ولكن مترابطة مع المتحدات القريبة، أو في أي شكل آخر يروونه مناسباً. عليهم إعادة بناء قواهم الذاتية، فلا أكتاف يستندون عليها سوى أكتافهم.

لقد كان لافتاً الغياب الإعلامي عن تغطية الخبر وكأن استشهاده ثلاثة أشخاص من الحزب السوري القومي الاجتماعي خبر لا يستحق التغطية. ولكن في هذا الغياب انسجام مع علاقة حلفاء هذا الحزب مع قياداته حيث رأيناها، في أكثر من منعطف، علاقة في اتجاه واحد، نأخذ منكم ولا نعطيكم.

التحديات كبيرة والضعف يذهب فريسة الأقوياء.

حركة الشعب العامة بين الحقيقة والتمني

2022-11-16

عبارتان لفتتا نظرنا هذا الأسبوع عن كون الحزب السوري القومي الاجتماعي «حركة الشعب العامة»، والاثنتان لمسؤولين سابقين في الحزب، هما لكل من حسان صقر وأحمد أصفهاني مع حفظ الألقاب.

في حديث مع «سبوت شوت» نشرته لبيانون ديبايت⁽⁴³⁾، يقول صقر: «الحزب يعاني من حالة عدم اتزان، وأنا أنتمي للقضية لا للأداء، وعلينا أن نتقل لصف الناس ونعود حركة الشعب العامة.»

أما أصفهاني فيقول في كلمة بمناسبة تأسيس الحزب، «التأسيس بالنسبة لنا وجودٌ كليّ، إنه وجودنا الناصح في متحداتنا الاجتماعية ومع رفقائنا. ولأننا حركة الشعب العامة، كما يقول سعادته، فإن عيد التأسيس يصبح مناسبة للاحتفال بقدر ما نحقق وجودنا في مجتمعنا.»

إذا أردنا أن نكون موضوعيين ودقيقين رأينا أن سعادته لم يقل إن الحزب هو حركة الشعب العامة، بل قال «إن غاية الحزب الأولية هي أن يكون حركة الشعب السوري العامة.» وقد وردت هذه العبارة في دفاع سعادته إبّان محاكمته الأولى، سنة 1936. والحزب لم يصل لأن يكون هذه الحركة، فدون ذلك شروط يجب تحقيقها وفق مقاييس محددة.

إذاً، لم يقل سعادته إن الحزب هو حركة الشعب السوري العامة، بل قال إن «غايته الأولية أن يكون»، وذلك تمييزاً لها عن غاية الحزب العامة من جهة، ووضعها كغاية للتحقيق، وليس كأمرٍ ناجز، من جهةٍ ثانية، والفرق بين الاثنين واضح.

(43) <https://www.lebanondebate.com/m3/news/580874>

هل أصبح الحزب يوماً حركة الشعب السوري العامة؟ كلا. فلن يكون يجوز أن نطلق هذه الصفة يجب أن يكون الحزب قد حقق وجوداً وقبولاً لبرنامجها السياسي من نسبة معينة من الشعب في كل الوطن السوري وليس واحداً من كياناته أو اثنين. هذه النسبة لا يمكن أن تقل عن واحد بالمائة (1%) ويفضل أن تصل إلى 5% أو أكثر كأعضاء عاملين فيه، وإلا كان وصفه بأنه حركة الشعب السوري العامة وصفاً فضفاضاً. لماذا؟ لأنه إن لم يبلغ هذه النسبة لن يتمكن من تشكيل تيار يستطيع فعلاً إجراء التغيير الجذري الذي تطمح له غايته العامة. إذا طبقنا هذه النسب على تعداد الشعب السوري من بيروت إلى بغداد، وهو في حدود السبعين مليون نسمة، لرأينا أنه إن لم يصل تعداد أعضاء الحزب إلى مئات الآلاف من الرفقاء العاملين، فإن الحزب لن يتمكن من تحقيق برنامجه التغييرى. هل نعلم رفقاءنا إذا اعتمدنا هذه المقاييس الصارمة؟ كلا. لنر ما كان يحلم به سعاد، عملياً، كما يذكر هو نفسه في ختام الفصل ما قبل الأخير من «جنون الخلود» عمّا سماه «مقتضيات المشروع»، والذي نقتطع منه الفقرة التالية:

«إن النتائج الفعلية التي حصلت بنشوء القومية السورية وسير الحركة السورية القومية هي نتائج أكيدة لا ينقصها إلا أن تعمّ الشعب، لينهض كله نهضة واحدة بعقيدة واحدة وإيمان واحد، فيصير قادراً على الصبر والثبات في معترك الأمم والتقدم في مضمار الحياة... ولو أن التلبية الفعلية امتدت بسرعة في الوطن والمهجر وحصلت للحركة المقومات المادية الكافية لإذاعة واسعة، وبث الكتاب والخطباء في جميع الأنحاء، وطبع الكتب والمناشير والخطب وتوزيعها بعشرات الألوف، وإنشاء الصحف والمجلات لإمداد الناس بالمعلومات الوثيقة والتوجيهات الصحيحة، لكان من المحتمل والمرجح أن يكون موقف سورية في هذه الحرب غير موقف الشلل الذي تقفه...»

مع الأسف، فإن الحزب لم يفكر يوماً بـ «المقتضيات» التي يشير إليها سعاد، ولم يعد لها. إن استخدام العبارة بالشكل الذي استخدمت فيه يمكن أن يقعدنا عن السعي لأن نكون حركة الشعب السوري العامة، أو أن يوهمنا أننا وصلنا ذات يوم، وسنعود.

تركة العام: المجاعة

2022-12-8

«في الشام هناك مجاعة حقيقية»، يقولها لك دمشقي ببرودة أعصاب. هذه المجاعة الحقيقية تضرب الوطن السوري بنسب متفاوتة، ولكن وتيرتها تصاعدية. من لم يجع اليوم سيجوع غدًا. هذه هي تركة سنة 2022، التأسيس لزمن أسوأ.

سوف نأخذ مؤشرًا واحدًا نستقصي منه الحاضر والمستقبل، مؤشر النقد.

الدينار العراقي: لغاية الحرب العراقية الإيرانية، كانت قيمة الدينار العراقي تساوي 3.22 دولارًا أمريكيًا. اليوم، الدولار الواحد يساوي حوالي 1450 دينارًا عراقيًا. الليرة السورية: لغاية مطلع الاحداث سنة 2011، كان الدولار الواحد يساوي 50 ليرة سورية. اليوم الدولار في حدود 7000 ليرة. الليرة اللبنانية: لحين مطلع الحرب الأهلية، كان الدولار يساوي حوالي 3.25 ليرة، مع انتهاء الحرب ثبتت العملة على دولار يساوي 1500 ليرة. أما اليوم فالدولار يقترب من 50,000 ليرة لبنانية، (يقترب من 90,000 فيما ندفع الكتاب إلى الطبع). الدينار الكويتي والدينار الأردني لم يتغيرا كثيرًا خلال العشر سنوات الماضية. أما الليرة الفلسطينية فلا وجود لها.

لقد أخذنا هذا المؤشر الذي يعكس الانهيار الشامل على جميع المستويات من السياسة إلى الاجتماع إلى مستوى المعيشة، من بيروت إلى بغداد. تزداد الصورة قتامة لأنه ما من جهة واحدة تتحمل المسؤولية في هذه الكيانات. إنها شرادم من عصابات وبقايا أنظمة تنهب ما تبقى من مقومات الوطن وموارده.

المسؤولية؟ هناك جهة واحدة كان يفترض بها أن تكون المحرك لإنقاذ الوطن. هذا المحرك، الحزب الذي أسسه بطل من هذه البلاد اسمه أنطون سعادة، ملقى على رصيف الوقت يكاد

أن يأكله الصدا. ما يجري في الوطن ينعكس تمامًا على هذا الحزب. الا مسؤولية هي سيد الموقف. الإنكار هو عدة الشغل. التبرير دائمًا جاهز. الدنيا في ألف خير لولا تشويش البعض وتخريب البعض الآخر، ولولا الظروف الدولية والحرب الكونية، ولولا، ولولا ولولا!

أما أن يقف مسؤول ويقول، المُعطى هو كل ما سبق، وهذه هي خطتنا للخروج من هذا الوضع، حزبياً وقومياً، وهي تلحظ الإمكانيات المطلوبة لذلك، وكيفية بنائها، والمدة الزمنية، والإجراءات الضرورية لتحمل مرحلة العبور من الوضع الحالي إلى الوضع المرتجى، فهذا وهم وضرب خيال. جلّ ما يقولون هو: هاتوا لنا مالكم ننفقه دون حساب، وهاتوا أفكاركم ومقترحاتكم كي لا نقرأها ولا نأخذ بها، ولا تحاولوا محاسبتنا فنحن فوق المساءلة.

والأسوأ من هذا كله هو من لم يزل يرسل المال دون حساب، ويكتب لمن لا يقرأ. إنها صورة سوداء بكل معنى الكلمة، ولكنها الصورة كما نراها. ونحن لن نحاول تجميل الواقع رحمة بالنفوس. فمواجهة الواقع تبدأ من الاعتراف به لا إنكاره.

من قلب مجاعة الحرب العالمية الأولى استل سعادته إرادة فولاذية أسس بها، بعد أربع عشرة سنة، أهم حركة تغييرية عرفتها البلاد في تاريخها المعاصر. هذه الحركة تعاني اليوم من القحط بسبب الا مسؤولية التي تضرب رؤساء أشكالها الثلاثة. وكما أنه لا يمكن انتظار خلاص للبلاد من مجاعتها على يد من أوصلها إلى هذه المجاعة، لا يمكن انتظار خلاص لهذه الحركة على يد من أوصلها إليها. الخلاص هو في مكان آخر، وعلى أيدي أشخاص آخرين.

السنة القادمة ستكون سنة قاسية باعتراف الاقتصاديين والسياسيين في مختلف أنحاء المعمورة. ما يعيننا هو وقف المأساة التي تضرب سورية أولاً. ووقف هذه المأساة يبدأ من الذين يحافظون على قَسَمِهِم حيال القضية القومية، لا من سواهم.

القيادي السابق

2023-9-17

«... وضيبي اليوم في هذا الحوار هو القيادي السابق في الحزب...» 15 نوفمبر 2022. «... وضيبي اليوم في هذا الحوار هو القيادي السابق في الحزب...» 14 أيلول 2023. هذا التعريف نفسه كان استهلالاً لمقابلتين تلفزيونيتين مع شخصية معروفة، وفيما بينهما عشرات المقابلات التي تزين صفحته على فايسبوك وتحت التعريف نفسه. فما هي هذه الصفة، «قيادي سابق في الحزب الفلاني...» ولماذا يتخذها البعض، وما هي التبعات المترتبة عنها؟ نحن نعتقد أن هذه الصفة هي من اختراع مطلقها. فمن عادة وسائل الاعلام أن تسأل من تقابلهم عن الصفة التي يرغبون بالتعريف بها عن أنفسهم عوضاً من فرض ذلك عليهم. ولكن لماذا؟ هناك عدة أسباب محتملة سوف نعرضها دون أن يكون لنا بيّنة على أن أي منها هو الأكثر انطباقاً على من يصرّ على استخدام مثل هذا اللقب.

السبب الأول للتذكير، «نحن هنا». بمعنى أننا إذا كنّا الآن «قيادي سابق»، فهذا أمر مؤقت، وسوف نعود بعد قليل إلى «قيادي حالي». السبب الثاني هو نتيجة الهزال الشخصي. فهناك من إذا عرّينا اسمه عن صفته السابقة، خاصة إذا كان قيادياً سابقاً في حزب تاريخي له اسم عريق، لا يبقى له شيء يتمييز به. السبب الثالث هو رغبة المؤسسة الإعلامية بالإثارة. فرأي شمدص جهجاه (بالإذن من سعيد تقي الدين) في موضوع ساخن، لن يكون له نفس الوقع كالرأي الذي يقدمه «قيادي سابق» في حزب له صولات وجولات مع أحزاب أخرى في هذا الموضوع الساخن. نكتفي بهذه الأسباب الثلاث، ونتنقل إلى التبعات فنسأل، ما هي قيمة رأي قيادي سابق في حزب ما في أي موضوع؟ في رأينا لا شيء، فصفة «القيادي السابق» هي صفة من لا صفة له.

ولكن كلام «القيادي السابق» يصبح إشكاليًا في بعض الأحيان ويدفع لطرح عدد من الأسئلة: هل يعبر عن رأي القيادة الحالية إذا كان منسجمًا مع طرحها؟ هل هو للنكد في حال كان معاكسًا لموقفها؟ هل يُلزم هذا التصريح المؤسسة؟ وهل يؤجج نار خلافات سابقة للحزب المعني مع خصوم تاريخيين في حال كان هجومياً؟ ماذا يفعل الأعضاء الممارسون لحقوق عضويتهم في الحزب المعني حيال تصريحات «القيادي السابق»؟ عشرات الأسئلة التي تطرح نفسها بمجرد أن يقدم شخص نفسه على أنه «قيادي سابق» بغض النظر عن أي حزب كان. وللعلم، فإن شخص «القيادي السابق» لا يعني من قريب أو من بعيد، ولكننا نكتب للعبارة. تخيل لو أن كل من مرّ في مسؤولية عليا في حزب ما، عرف عن نفسه بأنه قيادي سابق في هذا الحزب. خذ على «قيادات سابقة» تتنافس على الشاشات الإعلامية.

في معظم دول العالم، حين يتخلى مسؤول قيادي، حتى لو كان في أعلى المراتب، عن مسؤوليته، يعود «مواطنًا عاديًا» ويمتنع عن الإدلاء بتصريحات سياسية. يمكن لهذا الشخص أن يتحول إلى محلل سياسي، أو تاريخي، ولكن ليس بصفته «قياديًا سابقًا» وإنما بصفته كمحلل أو معلق على الأحداث.

معظم الأحزاب السياسية في الوطن السوري اليوم تعاني الكثير، ومن أكثر ما تعاني منه ضعف قياداتها وابتعادهم عن هموم الناس ومشاكلهم، وقضية الوطن الكبرى وما يتعلق بها. آخر ما تحتاجه الأحزاب السياسية هو إلى «قادة سابقين» يملأون الشاشات والصحف بالتصريحات السياسية. ليعلق كل كما يشاء ومتى يشاء، ولكن باسمه الشخصي وليس باسم صفته السابقة.

القسم الثالث:
تركيبه الوجدان المذهبي

محاكمة المشروع الإسرائيلي

2016-11-30

عرفنا فيما بعد أنه لكي يتطوع محام للدفاع عن متهم، يجب حضور المتهم شخصياً. أبقينا على هذا المقال ضمن هذه المجموعة بسبب المقالات التي سوف تلي.

أما وقد قررت الدولة اللبنانية وفرع عائلة الجميل الذي تعامل مع العدو الإسرائيلي إعادة فتح ملف اغتيال بشير الجميل، فلم يعد هناك من مناص من فتح ملف تلك العائلة وحزبها، الكتائب اللبنانية، وخليفتها «القوات اللبنانية»، وجرائمهم بحق لبنان وآلاف الضحايا الذين قتلهم آلة حربهم المتوحشة، وذلك باستخدام المحكمة ذاتها التي سوف تحاكم الأمين البطل حبيب الشرتوني.

ولن يكون ذلك بالأمر الصعب. المطلوب هو محام واحد فقط، يرسل اليوم، رسالة إلى المجلس العدلي يعلن فيها أنه متطوع للدفاع عن المتهم حبيب الشرتوني، ويضمن رسالته لائحة بالشهود الذين يطلب رسمياً دعوتهم للمثول أمام المحكمة.

من هؤلاء الشهود نذكر: أسعد الشفرتي، كريم بقرادوني، أمين الجميل، جوزيف أبو خليل، صولانج الجميل، سليمان طوني فرنجية، ترايسي داني شمعون، سمير جعجع، إدمون صهيون، حنا شليطا، سهى بشارة، جينا أرملة إيلي حبيقة، وليد جنبلاط، جورج الأعرج من نمور الأحرار، ميشال سماحة، وسواهم، خاصة من ضحايا إهدن، والصفراء، وغيرهما من المجازر، ممن يمكن لهم أن يكشفوا عن حقائق تلك المرحلة التي قادها حزب الكتائب وذلك الفرع الدموي من آل جميل. ويقوم هذا المحامي بوضع لائحة بأسئلة تتعلق بكل من هؤلاء وما يعرفه عن مرحلة

المشروع الإسرائيلي في لبنان، وعلاقته بالمسؤولين العسكريين والسياسيين الإسرائيليين، وصولاً إلى السيدة صولانج الجميل، وكم استغرقها من الوقت لإعداد طاولة المازة وطبق الحمص المشهور الذي قدمته لأرييل شارون.

لا لم يعد هناك من مناص. لقد قال الأمين جبران عريجي في مقابلة على التلفزيون إنه إما أن يخلق ملف الشرتوني أسوة بباقي ملفات الحرب الأهلية اللبنانية، أو يفتح ملف الحرب كاملة، ونحن معه في هذا الطرح. ولكننا نضيف أنه لم يعد بالإمكان التوقف عند الدعوة فقط، بل يجب الانتقال إلى فتح ملف المشروع الإسرائيلي على مصراعيه، وعدم إغلاقه قبل كشف كل اللاعبين فيه وتوثيق ذلك في القضاء اللبناني.

هل هناك محامٍ واحد من بين مئات المحامين القوميين الاجتماعيين الذي يقبل بالتنطّح لهذه المهمة، فنكون جميعاً عوناً له في القيام بالأبحاث الضرورية لإنجاح مهمته؟

ونضيف أننا لا نعتقد أن هذا المجهود سوف يغير في حكم المحكمة، ولكننا لا نعتقد أن حكم المحكمة سوف يغير في مجرى التاريخ. أقصى ما تستطيع المحكمة أن تقوم به هو أن تحكم أن حبيب الشرتوني قد قتل بشير الجميل وعدداً من معاونيه، وهو أمر لم ينفه الشرتوني، بل فاخر به ولم يزل. وتستطيع المحكمة أن تنزل ما ترغب به من عقوبة. وهذه العقوبة لن تزيد عما عانى منه هذا البطل سواء بعد اعتقاله وأثناء سجنه الطويل، أو بسبب ما حصل لأفراد من عائلته. ولن يكون حكم الإعدام مثلاً، إذا حكمت المحكمة بذلك، أقصى من حكم الإبعاد الذي يعيشه الرجل. ولن تستطيع المحكمة أيضاً تغيير الانقسام الحاد في المجتمع بين الذين يرون حبيب بطلاً والجميل خائناً مجرمًا عميلاً.

هذا، ولن تستطيع الدولة اللبنانية أن تنزل حكم الإعدام فعلاً بالأمين الجزيل الاحترام حبيب الشرتوني، إلا إذا سبق ذلك القضاء على كل سوري قومي اجتماعي، وعلى كل مقاوم في لبنان. وحتى إذا تمكنت من ذلك، فلن يكون مصير من ينفذ هذا الحكم أفضل من مصير حسني الزعيم، أو رياض الصلح، أو بشير الجميل، وذلك على يد أجيال لا نعرفها بعد، فلا يخطئن أحد التقدير.

نقول هذا كي لا يكون هناك من وهمٍ في فهم ديناميكية المجتمعات والعقائد والأفكار، ولا في فهم ما تولده البطولة والكرامة من معجزات.

في الأيام القليلة الماضية أظهر القوميون الاجتماعيون، وعن حق، كمًا كبيراً من الغضب على ما يرونه هجوماً مزدوجاً ومركزاً على الحزب من جهتين: الأولى إعادة فتح ملف الأمين

الشرتوني، والثانية عبر فيلم وثائقي عن رياض الصلح واغتياله. وقد كان حجم الغضب متوازياً مع الصمت المريب الذي مارسه قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي. وقد تفضل أكثر من أمين ورفيق في معالجة هذه الناحية فلا داعي لكي نستفيض فيها. ولكن ما بودنا التركيز عليه أن حالة التشتت التي يعاني منها القوميون يجب ألا تستمر.

منذ الإتيان بهذه القيادة الجديدة، (رئاسة علي قانصو بعد رفض المحكمة الحزبية قرار المجلس الأعلى التمديد لأسعد حردان مرة ثالثة) ظهرت أولوياتها بوضوح: الهيمنة المطلقة على مراكز القرار في الحزب لمصلحة فرد، وتعطيل دور المحكمة الحزبية العليا، واللهاث وراء منصب وزارى بأى ثمن. فى المقابل، فإن جميع المعارضات لم تتمكن بعد من وضع أولويات لمواجهة هذا الوضع، وفق خطة محكمة تكون نتيجتها الخلاص من هذه القيادة، ومن الوضع الشاذ الذى أفرزها. إلى ذلك الوقت، سوف يبقى القوميون فى حالة غضب عشوائى، ويبقى الحزب «مكسّر عصا» لمن يشعر فى نفسه القوة لذلك.

العذاب المبرر

2017-12-17

هذا المقال فريد من نوعه ويتناول موضوعاً مهماً هو «تركيبة الوجدان المسيحي، والنظرة التطلّعية داخل البيئة المسيحية»، والتي تنطبق على أية «تركيبة مذهبية» وتطلعاتها.

أما وقد انتهت الأزمة التي أثارها مسألة احتجاز الرئيس سعد الحريري في السعودية، بودنا العودة إلى موضوع كنا قد بدأنا الكتابة عنه إثر العاصفة التي أثارها الحكم بالإعدام على الأمين الجزيل الاحترام حبيب الشرتوني. (راجع مقال محاكمة المشروع الإسرائيلي) لقد فتح ذلك الحكم كمّاً هائلاً من النقاشات والتحليل السياسية والقانونية والأخلاقية اختلطت فيها المواقف وتشابكت وتناقضت. في هذا البحث، لن نخوض فيما إذا كان بشيرٌ قديساً أم خائناً، ولا فيما إذا كان حبيبٌ بطلاً أم مجرماً. فهذا البحث قد أُشبع والمواقف المتجابهة قد ترسخت.

في هذا المقال، سوف نتناول ما أغفلته النقاشات من أسس خفية تقوم عليها المعتقدات وتُبنى عليها المواقف دون أن يدري صاحبها، في معظم الأحيان، أن هذه الأسس، هي ركيزة تلك المواقف. ولتحقيق هذا الهدف، سوف نعود إلى بعض النقاشات التي تلت الحكم بالإعدام، ومنها ما دار بين الدكتور حبيب فياض من جهة، وممثل حزب «القوات اللبنانية» السيد شارل جبّور من جهة ثانية في لقاء تلفزيوني⁽⁴⁴⁾ مع الأستاذ جان عزيز، والذي انتهى بخروج الدكتور فياض من الحلقة احتجاجاً على ما وصفه بـ «التهجم على الذات الإلهية». وفي لقاءٍ آخر⁽⁴⁵⁾ مع

(44) <https://www.youtube.com/watch?v=7UCISPTu7Mw>

(45) <https://www.youtube.com/watch?v=ZxnAdjeB2bo>

المذبة جوزفين ديب، يقول الدكتور فياض إنه لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن لإنسان التهجم على الذات الإلهية.

في الواقع أن المرء لا يحتاج إلى كثير عناء أو تحليل ليفهم. كل ما عليه فعله هو قراءة بعض الفقرات من كتاب إبراهيم متري رحباني «المسيح السوري» في القسم بعنوان «أسلوب الكلام الشرقي»، وهو من ستة فصول، ليفهم لماذا قال جبور ما قاله، ولماذا غضب فياض وغادر الحلقة. وقبل أن نستطرد نوضح للقارئ - خاصة للبنانيين الأقحاح مثل السيد جبور - أن رحباني لبناني مثلهم، ولد في الشوير سنة 1869، ونشر كتابه هذا سنة 1916 في أمريكا وباللغة الإنجليزية يوم كان لبنان «جبلًا في سورية». بالتالي، فحين يتكلم عن السوريين وأسلوب كلامهم، فهو يشمل اللبنانيين بضمنهم.

يقول رحباني، «ليس للسوري من لغة علمانية، إن لغته دينية في الصميم.» وفي مكان آخر يقول، «إن الدين هو خيار الشرقي الأول.» وفي مكان ثالث، إذ يتكلم عن اللعنات يقول، «يعتبر السوري أعداءه أعداء الله ومصيرهم هو الدمار... إن هذا المزيج من التقوى والكرهية والذي يُطلق ببساطة كنية، وبحسن نية، لهو خاصية سورية.» ويتابع رحباني تحليله لأسلوب كلام السوري فيقول، «وكما يحب الشرقي النكهة الحادة في طعامه، والألوان البراقة في ثيابه، كذلك يحب استعمال الأمثال والمبالغة والإيجابية في الحديث، فالدقة والاعتدال في الكلام بالنسبة إليه هما من مظاهر الضعف.»

من هذا المدخل نفهم قول شارل جبور، «إن بشير قديس غصبا عن الله تبع الله.» إن جبور يستخدم أسلوبًا سوريًا يضرب في التاريخ، فيغالي في استخدام أكثر الأشياء استحالة ليثبت فكرته. فشارل جبور مسيحي ونحن نفترض أنه مؤمن بالله وبمريم العذراء والقديسين. ومن الصعب جدًا، منطقيًا، أن نتخيل أن مسيحيًا هذه صفاته يمكن له أن يقبل قديسًا يُطوب «غصبا عن الله». ولكن جبور هنا يتكلم كما يتكلم أي سوري إذ يحاول تدعيم حجته فيلجأ إما إلى المبالغة «إنه لأسهل أن يمر جمل في سُم الخياط، من أن يدخل غني ملكوت السموات»، أو القسَم المشروط، «أقسم بالله أن ما أقوله لك هو عين الصواب، فإن لم يكن كذلك، قطعت ذراعي.» (بأس إيدي). أما الدكتور فياض، وهو أيضًا مؤمن وأكاديمي باحث، فقد أخذ كلام جبور «بدقة وحرفية» كما يقول رحباني، ما دفعه إلى الاستهجان ومغادرة الحلقة. ولعل في محاولة مدير الحلقة أن يخفف من وطأة كلام جبور بقوله «إن هذا كلام يُقال، (حكي بينقال)»، وكذلك محاولة المذبة جوزفين ديب في المقابلة أنفة الذكر مع الدكتور فياض، التخفيف من وطأة كلام جبور، دليل على أن بعض السوريين لا يجد هذه اللغة نافرة، بل يستسيغها كمظهر قوة.

ولكن لماذا اضطر السيد جبّور إلى هذا الغلوّ كله؟ في رأينا أنه اضطر إلى ذلك لتدعيم موقف ضعيف. فهو يعرف أنه لا يستطيع - موضوعيًا - الدفاع عن تاريخ بشير الجميل، فهناك ثلاث خصائص ميّزته وجعلت منه بطلاً لدى أتباعه قبل مقتله، ورمزاً مقدّساً بعده، هي عنصريته، ودمويته - بحق أعدائه وحلفائه المنافسين له من أبناء طائفته - وتعامله مع إسرائيل. كيف لجبّور أن يهرب من هذا التاريخ؟ إنه يهرب برفع بشير إلى مقام المقدّس الديني الذي هو فوق النقاش. إنه يهرب من الواقع إلى ما هو فوقه، فيستخدم أكثر الصور الدينية المناقضة للعمالة والإجرام، أي صورة القديس، فيحيك منها عباءة يُلبسها لبطله فيجعله «عمود السماء» و«قدس الأقداس»، و«المقدس» الذي لا يمسه، وإلا... وهنا، يهدد جبّور، بالمس بمقدّسات الطرف الآخر. (إذا شتمتم مقدساتنا، شتمنا مقدساتكم.) وهذه عادة سورية قديمة جداً، دفعت بحكيم مجهول الهوية في الزمن السحيق لأن يحفر على حائط معبد تدمري وصيته بأن «لا تشتم إلهاً لا تعبده». ولكي يثبت لمحاوره مدى استعداداه لتكريس بطله قديساً، يبدي استعداداه للتغلب، ليس فقط على الله، بل على الله الذي خلق الله! أما الدكتور فياض، والذي يوافق مع رحباني أن الله «كليّ القدرة»، فإنه لا يستطيع الوقوف على الحياد، فينسحب من الحلقة بسبب «وقاحة» الطرف الآخر كما قال في حوار مع جوزفين ديب.

ليس جبّور حالة منفردة في اللجوء إلى المقدّس للدفاع عن موقف سياسي. فجبّور، إذ يصف بشير الجميل بأنه «عمود السماء»، إنما يقترض من أدبيات الدروز، خاصة أتباع السيد وليد جنبلاط. اليس هو عمود السماء؟ ألم يكن والده وقبله جدّه، وجدّه الأعلى، الشيخ بشير جنبلاط، عواميد للسماء، كل في عصره؟

وليس جبّور وحده من يبالغ في استخدام الغلوّ الديني في الكلام. فها النائب محمود عمار، بعد أحداث «حي السلم» الأخيرة حين تعرض «حزب الله»، بل وأمينه العام نفسه للتطاول من بعض الناقلين، يجعل من حذاء السيد نصرالله إذ انحنى ليقبله - معبراً إلى الملكوت. إنه يقول⁽⁴⁶⁾: «لا زلت أذكره، لحظة محاولتي تقبيل حذائه الشريف، ومنعه إيائي من ذلك، فلقد استشعرت في تلك اللحظة، وأنا منحنٍ تحت قدميه أنني خرجت من عالم الناسوت، وأنتني أنتمي إلى عالم الملكوت...» (حذف هذا المرجع عن يوتيوب حيث أخذنا النص).

الشيء نفسه يُقال عن الأشخاص الذين شتموا السيد نصرالله أثناء أحداث «حي السلم»، فإذ بهم يعتذرون في اليوم التالي من «كعب حذاء السيد». لرحباني تفسير لهذا كله. فالسوري،

دهاشه-للارصد-الذحل-بيقتن-عني-نانبل-ب-ناذ-ث-يد-د-دع-ل-دج-1045535/https://arabi21.com/story/ (46)

حسب قوله، يصنّف أعضاء الجسم البشري ويعطيها تراتبية حيث الرأس أشرفها والقدّم أدناها. من هنا، وبسبب حب المبالغة لدى السوريين، فإن أعظم ما يمكن أن يكرّم به شخصٌ شخصاً آخر، هو الانحناء لتقبيل قدمه، فكأنه يقول: «إن أدنى ما فيك شريف، وأنا أنحني لتقبيله». أليس هذا ما كتبه السيد نصرالله إلى المقاومين الأبطال سنة 2006. «وأقبل أقدامكم المنخرسة في الأرض، فلا ترتجف ولا تزول من مقامها ولو زالت الجبال».

يبقى مع الدكتور فياض الذي قال في مقابلته مع جوزفين ديب ما يلي: «لنفترض أن 'حزب الله' افتقد للشروط الأخلاقية أصبح أنا أول من ينتقده.» يبدو أن الدكتور فياض قد نسي أو تناسى ما فعله مقاتلو «حزب الله» و«حركة أمل» أثناء الحرب بين الطرفين في مرحلة 1987 - 1988، أو ما فعلوه في مشغرة يوم خطفوا تسعة من السوريين القوميين الاجتماعيين وقتلوهم سنة 1986. رب قائل إن «حزب الله» اليوم هو غيره بالأمس. ربما، ولكننا لا نتحدث عن الأحداث، بل عما يدفع إلى الأحداث، وعما يدفع إلى تبرير أحداث لا يمكن في رأينا تبريرها. نعود إلى مقابلة جان عزيز. إنه يذكر شارل جبّور أن حبيب الشرتوني هو ماروني مثله، محاولاً بذلك نزع الصفة الطائفية عن قتل بشير الجميل. فيجيب شارل جبّور بما يلي: «لا يؤثّر، لا يؤثّر، هناك خوارج داخل الطوائف، وهذا من الخوارج. إنه ليس مارونيّاً بتركيبة الوجدان المسيحي، والنظرة التطلّعيّة داخل البيئة المسيحيّة.»

كم كنّا نتمنى لو أن السيد عزيز، طلب إيضاحاً من السيد جبّور عن ماهية «تركيبة الوجدان المسيحي»، وأين تقف هذه التركيبة من مجازر الكرنيتنا، وإهدن، والصفراء، وعينطورة، والكورة، والتمين، وصولاً إلى صبرا وشاتيلا، ومن ثم مذابح الجبل؟ وما هي «النظرة التطلّعيّة المسيحيّة»، وكيف نظرت وتتنظر إلى إسرائيل؟ لا بأس، لعلنا نستطيع أن نأخذ الجواب عن هذه المعضلة من مكان آخر. لنذهب إلى أسعد الشفتري الذي كان نائب رئيس جهاز المخابرات في «القوات اللبنانية»، إبان الحرب الأهلية اللبنانية، حيث مارس جميع أنواع جرائم الحرب باعترافه.

من الممكن أن يقول شارل جبور عن الشفتري اليوم إنه من الخوارج، وليس مسيحياً بتركيبة الوجدان المسيحي ولا بالنظرة التطلّعيّة داخل البيئة المسيحيّة. فالرجل قد اعترف ببعض جرائمه ويطلب المغفرة عنها. ولكن، إذا كان بالإمكان وصف حاضر الشفتري بـ «الخارج» فإن ماضيه هو في «الداخل»، وتحديداً في قلب تلك «التركيبة الوجدانيّة المسيحيّة وتطلّعاتها» التي يتكلم عنها جبّور. يومها، مارس الشفتري كل صفات هذه التركيبة، بل إنه يصفها بكل دقائقها وتفصيلها ومسبباتها والمآسي التي خلّفتها. نعم، لقد اعترف الشفتري ببعض جرائمه، وطلب

المغفرة. هذا لا يناسب شارل جبّور، ولا تقيمه للماضي ولا تطلعه إلى المستقبل. فهو يصرّ في مقابلة جان عزيز أن تاريخهم - أي «القوّات» - ناصع، وأن بشير كان يجب أن يصل، كما وصل، وأنه ليس لديهم ما يخجلوا منه.

شردنا. لنعد إلى التركيبة وإلى أسعد الشفتري.

في فيلم «ليال بلا نوم»⁽⁴⁷⁾، وثائقي إليان الراهب عن مأساة مفقودي الحرب الأهلية في لبنان، وفي عدد آخر من المقابلات، يُسهب الشفتري في وصف «تركيبة الوجدان المسيحي» آنذاك دون أن يسميها. ولكن الواضح أنه يعني نفس التركيبة التي يسميها جبّور دون أن يصفها. وسوف نحاول من خلال ما يقوله الشفتري في هذه المقابلات الإضاءة على أبرز خصائصها. فما الذي يقوله؟

تبدأ نظرة التركيبة المسيحية السياسية والدينية في اعتبارها المسلمين في لبنان «الأخ الدوني» (Le frère inférieur). ولا شك أن هذه العبارة التي يرددها الشفتري بالفرنسية هي من مخلفات الانتداب الفرنسي أو مدارس الرهبانيات الفرنسية التي تلقى علومه فيها. وإذا كان من شك في هذا الموضوع، فالشفتري الأب يدّده. إنه يحنّ إلى الانتداب الفرنسي فتدمع عيناه وهو ينشد «المارسيلياز»، لأنه كان هناك «هيبة» على أيام الفرنسيين. أما المسيحيون فهم فينيقيون تطورا فأصبحوا مسيحيين. وأن لبنان هو وطنهم، وأن الذئاب، وهنا يدخل الشفتري في (Duetto) مع والدته إذ تبدأ بإنشاد أغنية فرنسية الأرجح انها مقتبسة من المغني الفرنسي Serge Reggiani ومطلعها، «الذئاب اجتاحت البلد، إنهم هنا، نعم هنا، انتهى وقت الرقص واللامبالاة». ونفهم من سياق الحديث أن الذئاب هم الفلسطينيين، وأن الشفتري دخل في حزب الكتائب دفاعاً عن الوطن ضد هؤلاء الذئاب. واستطراداً، فإن الشفتري، يقاتل في سبيل «شعب الله»، المسيحي، ويحلم بوطن قومي مسيحي صرف، مثاله الأعلى دولة إسرائيل «الوطن القومي اليهودي». في سبيل هذه التركيبة الوجدانية، هذا الوطن المسيحي الصرف، كان الشفتري مستعداً للقيام بأي شيء، بما فيه القتل والتعذيب. تسأل، إليان الراهب في الفيلم، «كنت تراهم يتعذبون»، فيجيب، «نعم، ولكنه كان عذاباً مبرراً».

كيف كان يتم التبرير هذا؟ باسم الدين، وعلى يد رجال الدين. يقول الشفتري في الفيلم: «كان لدينا عدد من رجال الدين «البروتوتيب». الحاملين العلم، ويعطوننا التوجه العام، ويقدمون لنا ويتكلمون مع العسكر قبل توجهه إلى المعارك. كان - رجل الدين - يعتبر أنه من

(47) <https://al-akhbar.com/Celebrities/341911>

الطبيعي، كوننا كنا مسؤولين عن الاستخبارات، أن نقتل عالمًا، أو نتسبب بقتل عالم لأننا نقوم بذلك من أجل القضية المسيحية أو من أجل مسيحيي لبنان. أعطاني حلّة عن خمسمائة شخص سوف أقتلهم في المستقبل، وقال لي إذا انتهى هذا الرقم عد إلي لأعطيك حلة جديدة.» (الحلّة هي الغفران الذي يحلّ به رجل الدين المسيحي الخاطئ من خطاياها بناء على اعترافه وندمه وطلبه المغفرة. أما في حالة رجال الدين الذين يتكلم عنهم الشفتري، فإن «الحلة المسبقة» كانت إذنًا منهم - أي رجال الدين - للمقاتلين لارتكاب جرائم حرب.)

هذه هي في المختصر «تركيبة الوجدان المسيحي وتطلعاته» التي يتكلم عنها جبر، ويُسْتَفْرُ، فينفعل ويغالي، دفاعًا عن رمزها بشير، الذي يطوبه قديسًا سواء رضي الله أم لم يرض. هل كان كل المسيحيين منسجمين مع نظرة التركيبة هذه؟ لا، وفق ما يقول الشفتري، بل كان هناك خونة. «من كان المسيحي الخائن؟ كل من كنا نشعر أنه متعاطف مع الفلسطيني أو المسلم أو اليساري.» بل إن المطران أندريه حداد كان يُعتبر خطرًا على «المجتمع المسيحي». «كان هذا مسيحيًا عاطلاً. كان ملقبًا بالمطران الأحمر، وكان صوتًا نشارًا.»

كيف تولد هذه النظرة الإقصائية؟ هناك أربعة عوامل يشير إليها الشفتري، ونحن نوافقها عليها. إنها الجهل فالخوف فالحقْد فالعنف. وإذا كان ما نراه من هبوط في الثقافة العامة والفن والأدب والموسيقى من مؤشر على جهل المجتمع وتجهيله، فإن المستقبل لا يبشر بالخير. ذلك أن «التركيبة الوجدانية المسيحية»، الإقصائية، Exclusive هي المرآة لعدد من التركيبات المماثلة لها لدى كل طائفة ومذهب وعنصر، وقبيلة، وعائلة. وكل من هذه التركيبات ترى أن أعداءها هم أعداء الله، وأنها إذ تبيدهم، إنما تعمل مشيئة الله!

هل تنطبق هذه النظرة الإقصائية على الأحزاب العقائدية؟ الجواب نعم. فمهما كانت نظرة هذه الأحزاب عالية، وشمولية، Inclusive وتدور على وسع المجتمع كله وليس أحد طوائفه أو عرقياته، إذا ضرب الجهل أعضاءها، تنطبق عليها العوامل نفسها التي تكلم عنها الشفتري. فالجهل يولّد الخوف، وهذا يولد الحقْد، والحقْد يؤدي إلى العنف. ولنا من تجارب الأحزاب العقائدية وما ولدته من صراعات دمويّة خير مثال. في كل من هذه الحالات، كان هناك عنف، وكان هناك قتل، وكان هناك عذاب، وكله كان مبررًا.

في إحدى المقابلات يقول الشفتري إن ما دفعه إلى الصحوّة وطلب المغفرة سببها إدراكه أن ما كان يمارسه باسم المسيحية لا علاقة له بتعاليم يسوع. في نهاية المطاف، إن المسافة التي تفصل المعتقد عن ممارسته قصيرة جدًّا. إنها طرفة عين. إنها المسافة بين الجهل والمعرفة؛ بين الصدق والمرائية.

«واو الوصل»

2021-5-8

دعت مجموعة «إعادة البناء» الكاتبة ريجينا صنيفر إلى حوار عبر تطبيق زووم، فكان هذا المقال، ومع أنه تاريخياً متأخر عن مقال «العذاب المبرر»، رأينا وضعه هنا لأنه يعالج الموضوع نفسه من زاوية أخرى.

«لم أكتب كتبي لأنني كنت فاهمة لما يحصل، كتبت لكي أفهم ما الذي حصل. «أنا آتية إليكم من مكان بعيد، وهذا المسار هو الذي أوصلني إلى سعادته.»

«كتابي الأول - «حروب مارونية» - كان لكي أفهم لماذا الحرب. كتابي الثاني - «ألقيت السلاح» كان لكي أفهم لماذا أنا في الحرب. «الخوف يعطل العقل.»

«إذا انعزل الحرف يموت. إنه بحاجة لأحرف أخرى لكي تتشكل الكلمة، ما عدا حرف الواو. إنه حرف الصلة والوصل. «لو قيل لي سنة 1975، أنني سأكتب يوماً عن سعادته، لما صدقت.»

«كتاب جولبيت كان صلة الوصل بين العقل والفكر والروح، وهكذا فهمت واو الوصل. نحن نحتاج إليها.»

في ندوتها الحوارية⁽⁴⁸⁾ من ضمن الندوة الثقافية لمجموعة «إعادة البناء»، دخلت السيدة ريجينا صنيفر إلى العمق في بعض العوامل المكوّنة للشخصية المذهبية ومنها الجهل والخوف والهويات الجزئية التي تعمل الإرساليات الدينية والنظام الطائفي الذي تغذيه على خلق تاريخ مزوّر لها عبر مؤسساتها التربوية. وقالت إن هذه الظروف هي ما استغلته الأحزاب الطائفية قبل الحرب لتجيش الاتباع تمهيداً للاقتتال الداخلي، وأن هذا النظام كان موجوداً لكي تكون ريجينا،

(48) <https://www.youtube.com/watch?v=gYpF1AMMRp0>

الطفلة المراهقة مع انطلاقة الحرب، «حيث كانت»، أي في صفوف أحد الميليشيات اليمينية. ومما قالته إنه لا بد من تغيير «الظروف»، أي تغيير هذه التركيبة، لكي نستطيع الوصول إلى الشعب وتغيير مفاهيمه.

لا شك أن الجهل والخوف سابقٌ للحرب الأهلية بعقود. فمن قصيدة للوالد، الأمين عجاج المهتار، كتبها سنة 1943، وعنوانها «حدود الدني»، نقرأ:

«وبعدا الطوايف بالأسامي منمرّة
وقلوب سودا بالضغينة مخمّرة
وستك يا «نجوى» مخمّنه حدود الدني
وناي تخوض الانتخابات السنة
ومعربي بحارات
ونبضاتها نعرات
عحدود ضيعتنا
عن بنت عيلتنا.»

كانت الشرارة التي دفعت ريجينا لمراجعة مسيرتها ومواجهة ذاتها، لقاء مع سجين فلسطيني في أحد معتقلات «القوات اللبنانية» سمعته يغني لأمه ويناجيها بـ «يمه». تلك اللحظة، تقول ريجينا، كانت لحظة فاصلة شعرت فيها بإنسانية السجين الفلسطيني لأول مرة، ولم تعد تراه العدو الذي يهدد وطنها. تلك اللحظة كانت نقطة تحوّل في حياتها وصفته تفصيلاً في كتبها الأربعة. الجدير ذكره، أن زيارتها تلك كانت لتفقد مساجين يتبعون لقائد «القوات اللبنانية» المهزوم آنذاك، إيلي حبيقة.

نعود الآن إلى تغيير الظروف، وهل هي شرط ضروري لتغيير النفوس، أم العكس، أم أن الأمرين يحدثان بالتزامن؟ فقصيدة الأمين عجاج تعطي صورة حيّة عن المجتمع الريفي آنذاك بغض النظر عن الانتماء المذهبي. و«النعرات» و«البغض» اللذان يتكلم عنهما ليسا بالضرورة من مذهب ضد آخر. ألم تزل الناس في بعض القرى تقول عن العائلة المنافسة من نفس الطائفة، «مش من مجاويننا»؟ ألا يقول في نفس القصيدة،

«وبعدا العيال بتفتخر بدمها
والبنت يا بتاخذ خليفة عمها
ما بتنخلط بالغير
يا بتنزوي بالدير.»

ولكن، إذا كان هذا هو الواقع، فكيف انتمى عجاج المهتار، ابن تلك البيئته، وهو الأمي آنذاك، إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه «أنطون» سعادته؟ وكيف انتمى عسّاف كرم، وأخته سيريا وأخته سلمى، ولاحقاً والدهم، بو عسّاف إسبر كرم، إلى نفس الحزب الذي يقول بفصل الدين عن الدولة، بالرغم من البيئته المذهبية المنغلقة التي نشأوا فيها. وإذا كنا نأخذ هذا المثال من حياتنا الخاصة، فالأمر ليس محصوراً بنا. ما الذي دفع بقادة مثل أسد

الأشقر وبشير عبيد وفؤاد الشمالي ونبيل العلم وحييب كيروز وحييب الشرتوني للانتماء؟ ما الذي دفع ريجينا صيفر إلى البحث عن روح الحضارة التي أطلقها سعادته؟ وما يقال عن هؤلاء القادة من الطائفة المارونية يقال عن عشرات الآلاف من الأعضاء والقادة والشهداء من مختلف المذاهب والمناطق في جميع الأراضي السورية، وقبل تغيير الظروف التي لا بد من تغييرها. فما هو السر؟ هل هو سحر سعادته المتوهج من شخصيته الآسرة؟ لا. لا يكفي. فهذا السحر لم ينفذ مع السياسيين الذين حاكموه والجلادين الذين أعدموه مع أنهم عرفوه ولمسوا سحر شخصيته. إنه الجزء الثاني من المعادلة، الجزء الأهم، ذلك الذي راهن عليه سعادته نفسه. فما هو هذا الجزء؟

«المغناطيس لا يجذب الخشب.» بهذه العبارة أجنبي الوالد حين سألته عن سبب انتمائه للحزب، وأضاف:

«نعم، كان لسعادته وعقله وشخصيته القائدة الأثر الكبير، ولكننا انتمينا إلى الحزب قبل أن نتعرف إليه. كان لدينا، نحن جيل الشباب الذي يعيش في ظلمة خانقة، توق لشيء أفضل، لحياة أفضل، لما يردّ كرامتنا المُداسة من جيل لجيل تحت أقدام «البيك» و«المير» ومن هم وراءهم. كنا شباباً طموحين نحب بلادنا عن عاطفة، ونكره أخصامنا عن جهل. كنا المعدن الذي اجتذبه مغناطيس سعادته. ولكن لولا هذا المعدن لما كان هناك حزب.»

هذا المعدن الموجود في تلك النفوس الشابة التواقّة للحق والخير والجمال، كان بحاجة لصلة وصل، كان بحاجة لسعادته، سعادته هو واو الوصل.

كسر القيد

2020-3-26

هذه المقالات الثلاثة، «كسر القيد» والمقالان اللذان يليانه، تعالج جوهر أزمة النظام اللبناني. نعتقد أن «التيار الوطني الحر» و«حزب الله»، فوّتا فرصة تاريخية للخروج من تلك الأزمة والبدء ببناء الدولة المدنية.

يعرض هذا المقال لعدد من الأحداث وضعنا لها مراجعَ يمكن العودة إليها. إنها مقال أول في سلسلة مقالات تتناول موضوع بناء الدولة العصرية خارج القيود المذهبية انطلاقاً من اعتقادنا أن أمام «حزب الله» و«التيار الوطني الحر» فرصة لتغيير الوضع جذرياً في لبنان، فهل يُقدمان؟

في سنة 2005 نشرنا مقالا بعنوان «هل من يدلنا؟» أشرنا فيه إلى مكنن ضعف في كل من هاتين الحركتين. وعنوان المقال، كما يتضح من السياق، هو سؤال تحضيضي. إنه يحض القارئ للوصول إلى نتيجة معينة.

في ذلك المقال، وضعنا التحذير التالي:

«لا خلاف بين العماد عون وسماحة نصرالله على نصف المشكلة اللبنانية: الإصلاح السياسي والإداري. ولكن هذا النصف لا قيمة له دون النظر إلى النصف الآخر الفارغ من كوب كلاً منهما: المقاومة من كوب الأوّل، وفصل الدين عن الدولة من كوب الثاني. تيار العماد عون، ومنظمة «حزب الله» محكومان، على المدى البعيد بالفشل الأكيد إن لم ينظرا إلى نصف الكوب الفارغ في مقولة كلاً منهما.»

كان ذلك منذ خمس عشرة سنة. وها نحن نجد أنفسنا - قبل انتشار الكورونا - في وضع سياسي، اجتماعي، اقتصادي منهار يتحمل هذان التنظيمان قسمًا كبيرًا من مسؤولية الفشل حياله. السؤال اليوم هو التالي: إذا لم يرَ الفريقان، خلال خمس عشرة سنة، ضرورة لإعادة النظر بالمنطلقات المذهبية التي يقومان عليها، ألم يحن الوقت لذلك؟ ذلك أن التيار الوطني الحر، ومع الأسف، يعمل ليبقي الفريق الأقوى ضمن «المكوّن المسيحي»، فيما يرى «حزب الله» نفسه «مقاومة إسلامية وجزءًا من مشروع الدولة الإسلامية الكبرى».

لم يخرج «التيار الوطني الحر» عمّا سمّاه رئيس جهاز الإعلام والتواصل في «القوات اللبنانية»، شارل جبّور، «تركيبة الوجدان المسيحي والنظرة التطلعية داخل البيئة المسيحية»، وقد فندناها في حينه في مقال بعنوان «العذاب المبرر». ولا نخاله يخالفه الرأي في أن حبيب الشرتوني، وإن كان مارونيًا، فإنه «خارج» عن هذه التركيبة وهذا الوجدان. ولا يخالفه الرأي في نظرتة إلى الحرب اللبنانية على أنها كانت حرب دفاع عن «الوجود المسيحي»، وأن تحالف الكتائب ومن ثم «القوات» مع العدو الإسرائيلي كان نتيجة طبيعية لذلك. لم يُدن التيار تلك المرحلة ولا تلك التحالفات. بل إنه احتفل، مع «القوات» و«الكتائب»، بشخص رئيسه، بالحكم على الأمين حبيب الشرتوني والأمين الراحل نبيل العلم، المارونيين «الخارجين»، بالإعدام. لا يختلف التيار في كل هذا عن «القوات اللبنانية» التي ترى أن تاريخها ناصع وأن بشير الجميل قديس، «غصبًا عن الله تبع الله».

أما «حزب الله»، وتحديدًا السيد حسن نصرالله، فلم يعلن مرة تراجع عن إيمانه بولاية الفقيه والدولة الإسلامية الكبرى وأن مشروعه، بعد «إزاحة الحالة الاستعمارية والإسرائيلية» هو «مشروع الدولة الإسلامية وحكم الإسلام؛ أن يكون لبنان، ليس جمهورية إسلامية واحدة وإنما جزء من الجمهورية الإسلامية الكبرى التي يحكمها صاحب الزمان ونائبه بالحق الولي الفقيه الإمام الخميني». (49) ومع أن هذا الكلام يعود إلى أكثر من ثلاثين سنة، إلا أن السيد نصرالله قد كرر مثله في أكثر من مناسبة. (50)

بالأمس، اجتاحت غضبٌ عارمٌ قسمًا كبيرًا من اللبنانيين ومن أصدقاء المقاومة وداعميها خلال عقود، نتيجة إخلاء سبيل العميل فاخوري وتهريبه خارج لبنان. هذا الإخلاء وهذا التهريب ما كان يمكن أن يمرّ لولا قيود المذهبية التي تأسر كلا من «التيار الوطني الحر» و«حزب الله». فلنفضّل.

(49) <https://www.youtube.com/watch?v=ZXs-BCKL1Co>

(50) https://www.youtube.com/watch?v=7SCL_D_6m9Q&list=TLPQMjQwMzIwMjCa45GgTVYb_A&index=3

قرارات التيار الوطني الحر، محكومة، في جزء كبير منها، بالتنافس على ما يسمى «الزعامة المسيحية» مع خصمه الأول «القوات اللبنانية». موقف «القوات» من التعامل مع إسرائيل معروف، وعلاقتها الوطيدة بأمريكا والسعودية - التي كشفت عن علاقتها مع إسرائيل - معروفة. وهي مؤيدة في ذلك من قطاع كبير من المسيحيين في لبنان وعلى رأسهم الكنيسة المارونية، التي يرى رأسها أن العملاء «مبعدون قسراً» إلى إسرائيل. «القوات» مدعومة إسرائيليًا وأمريكياً وسعوديًا، أما التيار ففي عزلة يشتد خناقها عليه أمريكيًا وعربيًا، ومن وراء الستار، إسرائيليًا، بسبب تحالفه مع «حزب الله».

«حزب الله»، الذي يرى في إسرائيل مشروعًا استعماريًا استكبريًا يجب القضاء عليه، محكوم بالمحافظة على علاقته بشريكه، التيار الوطني الحر، نتيجة وثيقة التفاهم⁽⁵¹⁾ بينهما في شباط من سنة 2006، ونتيجة ما يشعر به من دَينٍ عليه «ليوم الدين» بسبب موقف التيار أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان في شهر تموز من السنة نفسها. كل من الطرفين المذهبيين يحتاج إلى غطاء من الآخر. المشكلة أن التيار لا يشارك شريكه رؤيته في نظرتيه لإسرائيل ولا للعملاء ولا للدولة.

قبل تفاهم 2006، قام «حزب الله» بخطوتين أزعجتا بعض حلفائه وأصدقائه: الأولى، عدم معارضة إخراج سمير جعجع من السجن في شهر تموز من سنة 2005، والاكتماء بالتغيب عن جلسة التصويت - وقد شاركه في ذلك «حركة أمل» والحزب السوري القومي الاجتماعي. الثانية، ما ظهر وكأنه تخلٍ عن الضباط الأربعة بعد اغتيال الحريري، وذلك بعد شهر من الإفراج عن سمير جعجع. بعد التفاهم، كان هناك عدد من الخطوات تجاه «التيار» وعلى حساب بعض حلفائه، مثل التساهل الكبير في معالجة ملف العملاء العائدين، وبعض الذين كشف عن تعاملهم في لبنان. كذلك كان موقفه الصامت إبان محاكمة حبيب الشرتوني ونبييل العلم، وبعد صدور الحكم، علمًا، أن المعني الأكبر في هذا الموضوع، قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي - الروشة، كان صمتها أكثر دويًا. أخيرًا لا آخرًا، كان الضغط على الحزب السوري القومي الاجتماعي لسحب مرشحه في مقعد الأقليات في بيروت في الانتخابات الماضية لصالح مرشح «التيار».

في رأينا، كل واحدة من هذه الخطوات كانت تراجعًا، وشكلت مجتمعة، مقدمة لما حصل مع الفاخوري. أما خطرهما ففي ثلاثة أمور: أولاً، تثبيت منطوق اليمين اللبناني عامة، وليس

(51) <https://almanar.com.lb/1481863>

المسيحي فقط، بأن التعامل مع إسرائيل هو وجهة نظر يمكن للمقاومة أن ترفضها، ولكن عليها احترام من يقبلها، فإن لم تفعل، جاء من يثبتها بالقوة. ثانيًا، كسر هيبة «حزب الله» حيال أصدقائه أولًا، وحيال عائلات شهداء معتقل الخيام وجمهور المقاومة في شكل عام، ما دفع السيد نصرالله لوصف اضطراره للدفاع عن المقاومة في ملف الفاخوري أنه من «نكد الدهر»؛ ثالثًا، وهو الخطر الأكبر، أن يضطر كل من «حزب الله» و«التيار» لزيادة التطرف المذهبي لكسب «الجمهور المسيحي» عند هذا و«جمهور المقاومة» عند ذلك.

لا نريد أن ندخل في تفاصيل ما حدث مع الفاخوري، فنصرالله كان واضحًا لناحية الضغوط التي ووجهت لمدة ستة أشهر قبل أن تنهار الدفاعات، ولناحية جهله و«حركة أمل» بما جرى في آخر يومين. بالتالي، يمكن اختصار موقف الأصدقاء المنتقدين، أقله الذين سمعناهم أو قرأنا لهم، إنه يقع في باب «العتب على قدر التوقعات.» لقد توقعت الناس أن تكون المقاومة في حالة يقظة تامة 24/24 حيال الفاخوري، فإذا به يُسحب كشعرة من عجينة. الخيبة إذا، والغضب، ليسا من شبهة وقوع صفقة، ولا من كون «حزب الله»، هو الدولة، وهو ليس كذلك. الخيبة هي أنه ظهر وكأنه قائد سيارة غفا للحظة عند أكثر المنعطفات خطيرة.

المهم الآن هو المستقبل. ونحن، انطلاقًا من كلام السيد نصرالله عن حادثة الفاخوري⁽⁵²⁾، وعن استعداده لقبول النقد والمشورة علنًا، وحيث أنه لا مجال لنا لتقديمها شخصيًا، نتقدم بها إليه وإلى «التيار الوطني الحر» على صفحات مجلتنا.

في المذهبية موت للوطن، والشاهد لبنان بعد قرن من تأسيسه على قواعد مذهبية. رؤية الأفراد للأخرة شأنهم، أما بناء الدولة فشيء آخر. وبنائها على أساس ديني ومذهبي هو بناء عائب بغض النظر عن العقيدة الدينية. والعيب الأساس هو أن النظرة الدينية هي نظرة إقصائية Exclusive وليست نظرة جامعة، Inclusive. ومهما اعتقدت النظرة الدينية أنها عادلة، فإنها بطبيعتها تستثني من هم خارجها من الحقوق حتى ولو كانوا مذاهب مختلفة من دين واحد، والتاريخ يزخر بالحمامات الدموية بين مذاهب الأديان الواحدة.

بناء عليه، إن مشروع الغد، بل اليوم، الذي يستطيع «حزب الله» و«التيار الوطني الحر» إطلاقه هو كسر قيد المذهبية، وبناء الدولة المدنية على أساس فصل الدين عن الدولة. ولا شك عندنا أن غالبية الشعب في لبنان سوف تقف معهما، وسيجدان أن من سوف يعارضهما سيكون خارج الزمن والتاريخ.

(52) <https://www.youtube.com/watch?v=FqSf36r0cKg>

القرارات التاريخية الصعبة

2020-4-2

ليس هناك أفضل من الوقت العصيب لاتخاذ القرارات التاريخية الصعبة. بهذا الاستهلال، نتابع بحثنا في الدعوة التي أطلقناها في مقالنا السابق «كسر القيد».

كثيرون ممن قرأوا ذلك المقال قالوا إنه مستحيل أن يقوم «التيار الوطني الحر» وحزب الله بمبادرة لبناء الدولة المدنية لأن «مذهبيتهما هي علّة وجودهما». جوابنا كان صريحا: «إذا كانت المذهبية هي علّة وجود «التيار الوطني الحر» و«حزب الله»، وهي نفسها علّة الوطن المزمّنة، فعليهما أن يبحثا عن علّة وجود جديدة.»

أول سؤال يُطرح في منهجية «إدارة التغيير» هو التالي: «ماذا يحدث إن لم نقم بالتغيير المطلوب؟» إذا كان الجواب، «لا شيء يحدث»، فلا بأس. أما إذا كان ثمة أخطار مرافقة لعدم التغيير، فالتغيير يصبح واجبًا ملحقًا قد تترتب على إهماله نتائج وخيمة. في الوضع اللبناني، نتيجة عدم تغيير النظام المذهبي قد حصلت. إنها الإفلاس! إن لم يحصل التغيير الآن، فإن نتائج هذا الإفلاس سوف تتفاقم في شكل «دالة تزايدٍ أُسيّ»، Exponential Function (كما يحدث مع الكورونا الآن). أما القول إنه لا يمكننا إلا أن نكون صوت هذه الطائفة العالي، أو، لا يمكننا التخلي عن صلب إيماننا الديني، فهذا لا يُصرف في حساب مستقبل الوطن، وعلى المتمسكين بالمذهبية القاتلة تحمّل مسؤولياتهم.

في هذا الوضع التاريخي الخطير، على كل من «التيار الوطني الحر» و«حزب الله» مسؤولية إطلاق مشروع الدولة المدنية العادلة، وفق جدول زمني سريع، وبغض النظر عن نظرة كل منهما المذهبية. ولتفصيل هذه المسؤولية نبدأ من «وثيقة التفاهم» اللبنانية الموقّعة من قبل الطرفين في شباط 2006.

تتضمن وثيقة التفاهم عددًا من العناوين، ولكننا لن ندخل في تفاصيلها. سوف نركز على نقطتين يمكن أن تشكلا مدخلًا لما ندعو إليه. إنهما «الحوار» و«الديموقراطية التوافقية».

الحوار

1. «مشاركة الأطراف ذات الحيثية السياسية والشعبية والوطنية، وذلك من خلال طاولة مستديرة.

2. الشفافية والصراحة، وتغليب المصلحة الوطنية على أي مصلحة أخرى، وذلك بالاستناد إلى إرادة ذاتية، وقرار لبناني حر وملتزم.

3. شمول كل القضايا ذات الطابع الوطني، والتي تقتضي التوافق العام.

4. الديموقراطية التوافقية: إن الديموقراطية التوافقية تبقى القاعدة الأساس للحكم في لبنان، لأنها التجسيد الفعلي لروح الدستور، ولجوهر ميثاق العيش المشترك. من هنا فإن أي مقاربة للمسائل الوطنية وفق معادلة الأكثرية والأقلية تبقى رهن تحقق الشروط التاريخية والاجتماعية للممارسة الديموقراطية الفعلية التي يصبح فيها المواطن قيمة بحد ذاته». (لقد أضفنا اللون الأسود للأهمية).

لا مشكلة في نقطة الحوار. إنها تشكل قاعدة متينة لما ندعو إليه. إنها دعوة للحوار حول كل القضايا الوطنية التي تقتضي التوافق العام، وفق إرادة لبنانية ذاتية يشارك فيها الأطراف ذات الحيثية السياسية والشعبية والوطنية. ممتاز! المشكلة هي فيما يسمى الديموقراطية التوافقية. فما هي الديموقراطية التوافقية؟ ذلك أن وصفها في الوثيقة مُرَمَزٌ ومُشَفَّرٌ يحتاج إلى تفكيك.

تقول الوثيقة إن «الديموقراطية التوافقية هي التجسيد لروح الدستور». هذه العبارة بحد ذاتها تطرح سؤالاً كبيراً: لماذا روح الدستور وليس الدستور؟ الجواب هو أن الدستور اللبناني⁽⁵³⁾ المعدل سنة 1990 ينص في مقدمته (البند «ج») «... على العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين دون تمايز أو تفضيل»؛ وفي الفصل الثاني المادة 6، «كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دونما فرق بينهم»؛ والمادة 12 من الفصل نفسه، «لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة لا ميزة لأحد على الآخر إلا من حيث الاستحقاق والجدارة حسب الشروط التي ينص عليها القانون.»

(53) https://www.un.int/lebanon/sites/www.un.int/files/Lebanon/the_lebanese_constitution_arabic_version.pdf

إذا كان هذا النص الواضح عن المساواة هو الدستور، فما هي روح الدستور؟ هل هي شيء مختلف؟ مع الأسف نعم. روح الدستور هي ما كان يعرف بالميثاق الوطني اللبناني⁽⁵⁴⁾، وهو اتفاق غير مكتوب نظم أسس الحكم في لبنان سنة 1943، وتقمص تعبير «العيش المشترك» في البند «ي» من مقدمة الدستور الحالي ينص على أن «لا شرعية لأي سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك.»

ما هو العيش المشترك؟ إنه، وباختصار شديد، ما نجده في المادة 24 من الفصل الثاني من الدستور:

«يتألف مجلس النواب من نواب منتخبين يكون عددهم وكيفية انتخابهم وفقاً لقوانين الانتخاب المرعية الاجراء. وإلى أن يضع مجلس النواب قانون انتخاب خارج القيد الطائفي، توزع المقاعد النيابية وفقاً للقواعد الآتية:

أ - بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين.

ب - نسبياً بين طوائف كل من الفتتين.

ج - نسبياً بين المناطق.

هذه هي «روح الدستور» التي تعلقو فوقه والتي هي علة العلل في لبنان. هذه الروح هي اتفاق الطائف⁽⁵⁵⁾.

لن ندخل في تفاصيل اتفاق الطائف، بل سوف نتابع تفكيكنا لعبارة «الديموقراطية التوافقية» من نص وثيقة التفاهم، إنها تقول: «رهن تحقق الشروط التاريخية والاجتماعية للممارسة الديموقراطية الفعلية التي يصبح فيها المواطن قيمة بحد ذاته.»

ليس هناك من كلام يحقر اللبنانيين أكثر من هذه العبارة: «حين يصبح المواطن قيمة بحد ذاته!!» إنها تختصر مأساة اللبنانيين وإفلاس دولتهم والفساد الذي ينخر حياتهم والطائفية التي تذبجهم والحروب الأهلية التي تفتك بهم كل بضعة عقود. فإن لم يكن للمواطن قيمة في حد ذاته، فأين تكمن قيمته؟

وفق وثيقة التفاهم، لا قيمة للمواطن اللبناني، في حد ذاته، لا لدى «التيار الوطني الحر» الذي يقول بالحرية والسيادة والاستقلال والعهد القوي، ولا لدى «حزب الله»، الذي يخاطب

(54) [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%8A%D8%AB%D8%A7%D9%82_%D9%88%D8%B7%D9%86%D9%8A_\(%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%A7%D9%86\)](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%8A%D8%AB%D8%A7%D9%82_%D9%88%D8%B7%D9%86%D9%8A_(%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%A7%D9%86))

(55) <https://aja.me/fn8eh>

جمهورية بالقول، «يا أشرف الناس». لم يكن لديه قيمة يوم توقيع وثيقة التفاهم سنة 2006، وما من قيمة له اليوم. فنحن لا نزال في عصر الديمقراطية التوافقية. وما ينطبق على «التيار الوطني الحر» و«حزب الله» ينطبق على جميع الأحزاب اللبنانية والمؤسسات الطائفية والمذهبية كلها، ولا نستثنى أحداً. ليس من قيمة للمواطن، في حد ذاته، لدى أي منها.

كل الكلام عن الحرية والسيادة والاستقلال وشرف الناس ساقط ولا قيمة له، بحد ذاته، على الإطلاق. من هذه النقطة تحديداً، يجب أن تبدأ مبادرة الدولة المدنية. من نقطة استعادة المواطن اللبناني لقيمته بحد ذاته.

مهما استثارت هذه العبارة غضبنا، فإنها، عملياً، تمثل الواقع. في الديمقراطية التوافقية، لا قيمة للمواطن في حد ذاته. إنه «محسوب» و«تابع». إنه مُستبعد لأمراء الديمقراطية التوافقية ورؤساء المذاهب والطوائف. وبما أن لا قيمة له فإنه يُدَلَّ يومياً: في استجداء لقمة عيشه من صاحب الوظيفة المذهبية، ومن مدير مدرسته المذهبية، وعلى باب مستشفى المذهبي وحتى باب مقبرة مذهب. فإن انتفض وثار، كما فعل حبيب الشرتوني، الذي حكمه نظام العيش المشترك بالإعدام، فإنه يعتبر «خارجاً» عن مذهب وعن تركيبة الوجدان المذهبي والنظرة التطلعية داخل البيئة المذهبية. (بالإذن من شارل جبور).

إذا كانت قيمة المواطن الفعلية تبدأ يوم يمارس «الديموقراطية الفعلية»، فماذا ينتظر «حزب الله» و«التيار الوطني الحر» للبدء بها؟ في الانتفاضة التي اندلعت في تشرين الأول 2019، قال اللبنانيون كلمتهم، كما سمعناها في استفتاء الفينيق آنذاك، حيث وقفت غالبية اللبنانيين مع تغيير النظام الطائفي، ولم يؤيد بقاءه سوى 10% من اللبنانيين.

على هذه الغالبية يجب أن يعتمد الطرفان الأقوى في لبنان اليوم «التيار الوطني الحر» و«حزب الله». وهذه الأكتيرية تؤيدهما إذا بادرا، وستلعهما إذا أحجما. القرار لهما والحكم للتاريخ.

في الحلقة القادمة: قيمة المواطن في حد ذاته؛ لماذا «التيار» و«حزب الله»؟

قيمة المواطن في حد ذاته

2020-4-6

نتابع في هذا المقال ما كنا بدأناه في المقالين السابقين، «القرارات التاريخية الصعبة»، و«كسر القيد».

نبقى مع العبارة التي استثارت منا غضبًا كبيرًا: «إن الديمقراطية التوافقية تبقى القاعدة الأساس للحكم في لبنان، لأنها التجسيد الفعلي لروح الدستور، ولجوهر ميثاق العيش المشترك. من هنا فإن أي مقارنة للمسائل الوطنية وفق معادلة الأكثرية والأقلية تبقى رهن تحقق الشروط التاريخية والاجتماعية للممارسة الديمقراطية الفعلية التي يصبح فيها المواطن قيمة بحد ذاته.» ليت «التيار الوطني الحر» و«حزب الله» أوضح المقصود بهذه العبارة فوفرا علينا عناء التخمين. إنها تذكرنا بقول لتشرشل: «إنها لغز محاط بالغموض داخل معضلة.» ما نفهمه منها هو التالي:

أولاً، لا تُقارب المسائل الوطنية حسب الأكثرية والأقلية، بل على توافق بين ممثلي الطوائف في مجلس النواب. هذا التوافق كان يُسمى «الميثاق الوطني» بين سنة 1943 و1990، حين كانت نسبة النواب المسيحيين إلى المسلمين هي 6 إلى 5، بناء على إحصاء سنة 1932. اتفاق الطائف غيّر هذه المعادلة فأصبحت مناصفة بين المسلمين والمسيحيين وتحول مفهوم «الميثاق الوطني» إلى مفهوم «العيش المشترك».

ثانياً، أن سبب عدم مقارنة المسائل الوطنية حسب الأكثرية والأقلية هو إرضاء المارونية السياسية التي فقدت الكثير من حيثيتها العددية والعسكرية بعد انتهاء الحرب الأهلية سنة 1990.

ثالثاً، يبقى هذا التوافق ساري المفعول لحين «تحقق الشروط التاريخية والاجتماعية لممارسة الديمقراطية الفعلية».

رابعاً، بناء على هذا التوافق - الديمقراطية التوافقية - ليس هناك من قيمة عددية للمواطن في حد ذاته، ولا تقوم له قيمة إلا عند تحقق تلك الشروط التاريخية والاجتماعية. هل يتغير الأمر فعلاً متى «تحققت الشروط التاريخية والاجتماعية للممارسة الديمقراطية الفعلية»؟ هل يصبح هناك قيمة للمواطن في حد ذاته؟ ربما. ولكن إلى أن يخبرنا أحد ما هي هذه الشروط، ومن يقررها، وهل ثمة اتفاق عليها، وكيف نعمل للوصول إليها، ومتى، فإن كل هذه الكلام هو «خلطٌ بخلط».

ولكن كيف يمكن أن يكون المواطن بلا قيمة؟ بسيطة، نأخذها منه. كيف؟ نجعله تابعاً - برضاه أو غصباً عنه - لطائفة يطيع مرجعيتها بدون نقاش. فما تقرره «الطائفة» ينفذه بكل أمانة وإلا اعتُبر خارجاً عليها. هذا هو اتفاق الطوائف الذي كذب بعض الذين يدّعون عِفةً فصل الدين عن الدولة بالقول «إنه اتفاق مؤقت».

أما أن قيمة المواطن هي كرامته وأخذها منه هو انتقاص لمواطنته، فهذا ليس بذي بال. ولم يكن بذي بالٍ في بال الذين وقّعوا على اتفاق الطائف. إن إفلاس لبنان هو النتيجة الحتمية لديموقراطية التوافق الكاذب.

باختصار، وثيقة التفاهم هي تدبير مؤقت بانتظار تحقيق متغيرات تؤمّن الشروط التاريخية والاجتماعية للممارسة الديمقراطية الفعلية من منظور كل من «التيار» و«حزب الله». بالنسبة للتيار، عليه استقطاب أكبر عدد من المغتربين اللبنانيين المسيحيين من أحفاد أحفاد من هاجروا منذ القرن التاسع عشر من لبنان، وتسجيلهم كلبنانيين بحيث يعيد التوازن الديموغرافي لصالحهم. أما بالنسبة لـ «حزب الله»، فالأمر بسيط. النمو الديموغرافي لصالحنا ودولة ولاية الفقيه آتية بأذن الله.

نمط التفكير هذا هو ما يجب تغييره، وسريعاً.

وكي لا يساء فهمنا نقول: إننا مع عودة أكبر عدد ممكن من المهاجرين السوريين إلى وطنهم الأم ليساهموا في إعادة بنائه، ولكننا ضد تسجيل أسماء في قيد النفوس لكي نعيد توازناً مذهبياً مفقوداً. ونحن لا نتدخل في العقائد الإيمانية لأي كان، ولكننا نقول أن لا مكان لذلك في بناء الدولة. الدولة مؤسسة جامعة لجميع المواطنين. لهذا هي دولة المواطن وليست دولة المذهب.

بعد هذا يمكننا مقارنة القسم الثاني من موضوعنا، لماذا «التيار الوطني الحر» و«حزب الله»؟

لأنهما مع حلفائهما يشكلان قوة شعبية تملك أكثرية برلمانية أهلهما للإتيان بالحكومة الحالية. والاثنا معاً، يدعيان رغبتهما في الإصلاح والتغيير لما هو أفضل، ويقولان بمحاربة الفساد. كل هذه الأسباب مجتمعة تدفعنا للقول إن المسؤولية الأساس في قيام الدولة المدنية والديموقراطية الفعلية المنوه عنها في وثيقة التفاهم تقع على عاتق هذين الفريقين. ما الذي يبقى إذًا؟ يبقى اتخاذ القرار.

قبل أن نستطرد نجيب عن سؤال يطرح نفسه: ماذا عن الأطراف الأخرى المناوئة لـ «حزب الله» و«التيار»؟ لماذا لا نطلب ذلك من «تيار المستقبل» و«القوات اللبنانية» مثلاً؟ الجواب بسيط، إنهما لا يمتلكان عناصر القوة التي يمتلكها «التيار» و«حزب الله»، ناهيك عن الأكثرية البرلمانية المطلوبة.

هل يجرؤ «حزب الله» و«التيار الوطني الحر» على اتخاذ قرار بتقديم مشروع قانون إلى مجلس النواب ينسف كذبة «العيش المشترك» من أساسها و يقيم الدولة المدنية حيث «للمواطن قيمة في حد ذاته»؟ هذا السؤال قد مرّ عليه الزمن. السؤال اليوم هو هل يتحمل الوطن الأقدم التيار والحزب على مشروع كهذا؟

نعود إلى منهجية إدارة التغيير، والتغيير، كما ذكرنا في أكثر من مكان، يمر في خمس مراحل: الوعي بضرورة التغيير، فالرغبة به، فالمعرفة بمتطلباته، فالقدرة عليها، ومن ثم تدعيمه متى حصل. أهمية هذه الكلمات تكمن في تسلسلها المرحلي إذ لا يمكن القفز فوق أي منها. أين «حزب الله» و«التيار» من هذه الخطوات؟ نعتقد أنهما يعيان أهمية التغيير، ولكنهما عالقان في مرحلة الرغبة به. إنهما لا يرغبانه لأنه يخالف الأساس المذهبي الذي قام كل منهما عليه، ويهدد المستقبل الذي يطمح كل منهما إليه: التوازن الديموغرافي عند «التيار» وولاية الفقيه عند «حزب الله».

من هنا قولنا أنفًا، نمط التفكير هذا هو ما يجب تغييره، وسريعًا. ولكن كيف؟ كيف ندفع التيار والحزب للرغبة بالتغيير؟ نعود إلى ما سبق ذكره في المقال السابق: إن نتائج عدم التغيير سوف تكون قاتلة للوطن وللحزب والتيار. هذا ما لا يجب أن يكون ثمة شك فيه، وهذا ما يجب على قواعد كل من الحزب والتيار وحلفائهما تحذير قيادات هذين الحراكين منه، ومطالبتهما بالتحرك السريع، فالفرصة مواتية ولا يجب تفويتها.

نعود إلى التأكيد للتيار والحزب أنهما لن يكونا وحدهما إذا بادرا اليوم. معظم اللبنانيين
سيكونون معهما.
المهم هو المبادرة.

لأننا لا نخاف التفكير

2020-4-27

استدعت المقالات الثلاثة التي نشرناها تبعًا، وتتضمن دعوتنا لـ «حزب الله» و«التيار الوطني الحر» أن يبادرا إلى تقديم مشروع الدولة المدنية، ردود فعل مختلفة ومن مصادر مختلفة. قسم منها كان مؤيدًا، قسم آخر كان موافقًا على مضمونها ولكن متحفظًا تحت باب «مش وقتها ولا فائدة منها الآن»، وقسم اعتبرها هجومًا على المقاومة. في هذا المقال سوف ننهي تلك السلسلة بتعليق على كل ما ورد.

واحد: جزيرة القيامة

جزيرة القيامة، Easter Island، هي جزيرة بركانية صغيرة من جزر المحيط الهادئ تبلغ مساحتها حوالي مئة وستين كلم مربعًا، وتقع على بعد حوالي 2300 كلم إلى الغرب من تشيلي، وتتبع سياسيًا لها. ما يميز هذه الجزيرة من سواها هو في التماثيل العملاقة التي تزر شاطئها وشبه الانقراض الذي تعرض له سكانها الاصليون، والعلاقة بين الاثنين.

في ذروتها الاجتماعية والاقتصادية، كانت الجزيرة مغطاة بغابات هائلة من أحد فصائل شجر جوز الهند يصل قطر بعضها إلى ما يزيد عن المترين، وطولها إلى حوالي الخمسة عشر مترًا. بلغ عدد سكانها في تلك الذروة حوالي سبع عشرة ألف نسمة موزعة على عدد من القبائل. وكانوا يعيشون من الزراعة وصيد الأسماك الكبيرة مثل سمك «التون» وغيرها والتي كانوا يصطادونها بواسطة قوارب خشبية كبيرة تسمح لهم بالإبحار بعيدًا عن الشاطئ.

في لحظة ما من تاريخ الجزيرة، يقرر رؤساء القبائل، والذين كانوا يدعون صلة مباشرة

بالخالق، ويلعبون دور السياسي ورجل الدين في آن معًا، أن يشيدوا تماثيل (طواطم) تخلدهم، فأمرؤا رجالهم ببناء تماثيل جبارة من الرماد البركاني، يبلغ عدد الموثقة منها ثمانمائة وسبعة وثمانين، مع أن العدد الإجمالي قد يبلغ الألف، طول كل منها حوالي العشرة أمتار وتتراوح أوزانها بين الخمسين والثمانين طنا.

المشكلة أن الرماد المطلوب كان موجودًا في شرقي الجزيرة، مركز فوهة البركان الأكبر فيها، أما القبائل فتتوزع في مختلف أرجائها. من هنا قامت الحاجة إلى بناء التماثيل في منطقة البركان ونقلها إلى مراكز تجمع القبائل المختلفة. ولِنَقْلِ التماثيل، كان لا بد من بناء زحافات خشبية عملاقة تسير على سكك خشبية كبيرة. كذلك كان لا بد من صناعة حبال قوية طويلة من ألياف الأشجار ليتمكن الفَعَلَة من جر التماثيل الضخمة إلى مقرها الأخير. لبناء الزحافات والسكك والحبال، كان لا بد من قطع الأشجار. الباقي يمكن استنتاجه. مع قطع الأشجار، هاجرت الطيور، ومات الزرع، ولم يعد بالإمكان صناعة القوارب الكبيرة، فانقطع الصيد ما خلا بالقرب من الشاطئ. بالمختصر، قَتَلَ الناسُ موارد الحياة في سبيل بناء طواطم زعمائهم السياسيين والروحيين، فمات من مات وهرب من تمكن، ولم يبق من السكان سوى قلة استعبد معظمهم الأوروبيون لدى أول احتكاك.

اثنان: الاعتراف

أخيرًا، وبعد نكران استمر طوال خمسة وأربعين عامًا، اعترف كل من رئيس «الكتائب اللبنانية» سامي أمين الجميل وابن عمه نديم بشير الجميل بمسؤولية حزبهما عن مجزرة بوسطة عين الرمانة التي كانت شرارة الحرب الأهلية في لبنان بكل ما خلفته من مأس والآم وخسائر، ناهيك عن جيل كامل من الشباب بين قتيل ومهاجر ومعوق.

ولم يأت الاعتراف بصيغة الندم والتأسف على أخطاء ماضية، ولا على ضحايا الحرب، بل تنافسًا بصيغة الافتخار وما يبدو سباقًا لارتكاب أخطاء قادمة وضحايا جدد. فالسيد سامي الجميل يقول نَقْلًا عن موقع الكتائب ومجلتها الالكترونية، «13 نيسان هو اليوم الذي ولدت فيه المقاومة اللبنانية من قلب الكتائب». أما السيد نديم الجميل فيقول في تغريدة له، «13 نيسان 1975، ساعة الصفر لفصل جديد من التضحيات في سبيل الوطن! ساعة الصفر للقضاء على من أراد لبنان وطنًا بديلاً! ساعة الصفر لتدمير من أراد أن تمر طريق فلسطين من جونية! ساعة الصفر لمعركة قاتلنا فيها الفلسطينيين والسوري والمرترقة وحلفاءهم في الداخل دفاعًا عن لبنان وكرامة الإنسان.»

من جهة ثانية، اعترف السيد وليد جنبلاط بأنه كان «رأس حربة»⁽⁵⁶⁾ لتدمير «العيش المشترك» بتحريض من الأميركيين» في 7 و11 أيار من سنة 2008. ولا ينسى أحد اعترافاته السابقة عن «لحظة التخلي» وندمه الظاهري عن جرائمه في الحرب اللبنانية والتي طالب بمحاكمته هو وأمراء الحرب بسببها.

الخطر في تصريح جنبلاط أن لا شيء يمنع تكرار ما فعله أكثر من مرة، ومن ثم قيامه بنقد ذاتي يعترف فيه بخطئه ليعود ويقع فيه مرة ثانية وثالثة. أما الخطر في تصريحه أولاد العم - جميل، فيمكن في أنهما لا ينطلقان من فراغ، بل من لحظة تاريخية يعاني فيها لبنان من الإفلاس المالي والانهيال الاقتصادي ووباء الكورونا والاعتداءات الإسرائيلية المستمرة والضغط الأميركي المساندة لها سواء عبر تهريب العملاء أو تشديد القبضة المالية أو في حشد قسم من رؤساء المافيات اللبنانية في وجه الحكومة الجديدة.

هل يمكن اعتبار هذه الاعترافات بمثابة إخبار يلاحق فيه من تسبب بتلك الحرب والأحداث، فيستعيد الأحياء من الضحايا وعائلاتهم بعضاً من كرامتهم وحقوقهم؟ طبعاً لا. ففي «الديموقراطية التوافقية لا قيمة للمواطن في حد ذاته»، ولبنان بلد تنهشه الديموقراطية التوافقية.

كل هذا يستدعي قلقاً حقيقياً لدى المقاومة. المهم ألا يتحول القلق إلى اضطراب في الأعصاب.

ثلاثة: الحقيقة والتوقيت وقلق المقاومة

كما ورد في البداية استثارت مقالاتنا السابقة عدداً من ردود الفعل كان أهمها رأي بعض الأصدقاء أنهم فيما يوافقون على المضمون، فإنهم لا يوافقون على التوقيت، ولا على الفائدة المرجوة. كذلك وَرَدْنَا أن ثمة استياء في أوساط المقاومة من مقالاتنا تلك معتبرين أنها جزء من حملة أو مؤامرة ضد المقاومة خاصة في ظل الظروف القائمة. سوف ناقش هاتين النقطتين لأهميتهما.

لدينا حساسية تجاه عبارة «مش وقتها». لقد سمعناها يوم كنا ننتقد قيادات حزبية قبلت بمقولة «منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني». هذه المقولة تنزع عن تلك الأحزاب شرعيتها ومسؤوليتها تجاه فلسطين. التبرير يومها كان أن منظمة

(56) https://www.facebook.com/ahmad.hayek.5/posts/10218923525972738?comment_id=10218927651675878¬if_id=1586825082004448¬if_t=feedback_reaction_generic&ref=notif

التحرير، حسب قولهم، تخوض معركة ضد الأردن الذي يحاول انتزاع شرعية تمثيل الفلسطينيين، إلى آخر المعزوفة.

وسمعناها يوم حذرنا من اتفاق الطائف وأبدينا قلقنا من أن يرسخ الطائفية عوضاً من أن يكون ممراً إلى الدولة المدنية. كان الجواب، «مش وقتها، الناس بدها تخلص من الحرب.» وسمعناها يوم وقعت مجزرة حلبا، فكتبنا نسال «من المسؤول»؟ فكان الرد، «مش وقتها.» وهكذا، في كل مرة كان يجب أن يطرح سؤال أساسي تمهيداً لتغيير في الأداء كان الجواب «مش وقتها.» وها نحن، بعد كل الوقت المهدور والخسائر الجمة نجد أنه لم يتم الالتفات إلى أي من هذه المسائل. بالنظر إلى تجاربنا مع الموضوع، «مش وقتها» لا تعني أن «وقتها» سوف يأتي يوماً ما، بل تعني «إنس الموضوع.»

أما بالنسبة للفائدة من تحفيزنا لكل من «التيار الوطني الحر» و«حزب الله» أن ينطلقا في مشروع الدولة المدنية تطبيقاً لاتفاق الطائف، فقد فصلناه في مقالات ثلاث، وعرضنا المقابل البشع والأخطار الناجمة في حال لم يُصَر إلى نقل البلد من الديمقراطية التوافقية إلى الديمقراطية الفعلية.

في خطاب له، يحذر الراحل الكبير السيد حسين فضل الله من مغبة منع الناس من التفكير⁽⁵⁷⁾. إننا نفهم قلق المقاومة من كل ما يدور. ما لا نفهمه هو اتهام أصدقائها بأنهم ضمن مشروع معادٍ لها بسبب تفكير مستقل لهم، ورأي يرون فيه مصلحة للوطن وحماية لها، أي للمقاومة. هذا ما قصدناه في ألا نتضرب أعصاب المقاومة فلا تعود تميز بين صديق صدوق وحليف مترجرج. نحن لا نخشى التفكير. لقد قلنا كلمتنا عن قناعة، وبعد كثير من التبصر والمشاورة، ونحن لا نزال عند رأينا أن هذا هو الوقت الأنسب للبنان والمقاومة و«التيار» لوضع مشروع الدولة المدنية موضع التنفيذ. إذا كان هناك من نقاش فليكن على هذه النقطة تحديداً وليس على أساس تهم لا علاقة لها بالواقع ولا تقوم لها قائمة موضوعية.

ختام

يسأل مؤلف كتاب «الانهيار» Collapse جارد دايموند، Jared Diamond والذي أخذنا منه أكثر معلوماتنا عن جزيرة القيامة وانهارها، يسأل، «ما الذي كان يدور في خلد الرجل الذي قطع آخر شجرة على الجزيرة؟» أما نحن فنسأل، ألم يوجد في الجزيرة من حذر من مغبة القضاء على

(57) <https://www.facebook.com/maroun.mezher.35/videos/217880059501239>

مقومات الوجود؟ ما كان مصيره؟ هل اتهم أنه يعمل لتحطيم شأن القيادات السياسية والدينية الحاكمة في الجزيرة؟

ونحن، إذ نرى القيادات السياسية والمذهبية في لبنان تبني طوطمًا إثر طوطمٍ تعليةً لشأنها على حساب مقومات الوطن الوجودية، وإذ نرى قيادات لا تتعلم من أخطائها بل تعمل على تكرارها، وإذ نرى جهات تخشى الرأي الحر المستقل الصادق الصدوق نقول إننا لن نأس، ولن نسكت. إن مسؤوليتنا نابعة من وجداننا القومي الاجتماعي، من مصلحة شعبنا كله، لا فئة واحدة منه. لقد قلنا كلمتنا، ولكننا «لن نمشي» و «لن نندم» بل سنتابع. إنها مسؤوليتنا، والمسؤولية كلمة.

يقتلونه ويصلون عليه

2019-2-10

في التاسع من شهر شباط 2019، أحرق المواطن جورج زريق نفسه في باحة مدرسة بكفتين، لبنان، احتجاجاً على عدم إعطائه إفاضة مدرسية لنقل ابنته من المدرسة التي تدرس فيها إلى مدرسة أخرى، وذلك بسبب سوء وضعه المادي وتراكم القسط المدرسي المتوقع عليه. من أصعب المشاهد المرافقة لمأساة جورج زريق، رؤيته مجثى في الكنيسة التي قتل نفسه في محيطها، لأن المدرسة التابعة لها رفضت إعطاءه شهادة ما بسبب عدم تسديده لمتوجب مالي. كان حرياً بعائلته مقاطعة تلك المؤسسة الدينية التجارية كما هو حري بكل إنسان مقاطعة المؤسسات الدينية التجارية السياسية التي تتحكم بمصير الناس وتمتص دماءهم، ولكن الخوف غلابٌ.

في مقال بعنوان «طائفة العلماني ودولة الطائفي»⁽⁵⁸⁾، نشرته مجلة «فولتير» الإلكترونية سنة 2005، كتبنا:

«... في بلد طائفي مثل لبنان تتمحور حياة المواطن في طائفته لا دولته. فهو يولد في مستشفى للطائفة، ويتعلّم في مدرسة تابعة لها، ويتابع دراسته في جامعة أسستها، ويوظّف في الدولة ممثلاً لها، أو في مؤسسة خاصّة مرتبطة بها في معظم الأحوال. وحين يريد الترويج عن النفس يبحث عن محطة تلفزيون خاصّة بها. وعند الحاجة ينضمُّ إلى «ميليشيا» تابعة لها، فيرسم صورة وليّه أو قديسه المفضل على أخصص بندقيته، ويستشهد في سبيلها، ويدفن في مقبرتها.»

(58) <https://www.voltairenet.org/article90975.html>

مأساة جورج زريق أنه دفع معظم فواتيره لمؤسسته المذهبية، ولكنه لم يحصل منها حتى على أصغر مستحققاته. ولكن كيف تتمكن المؤسسات الدينية من السيطرة على الناس بهذا الشكل. إنها تفعل ذلك عبر الخوف من «خطيئة أصلية» عند نفر، والخوف من اختلال ميزان الحسنات والسيئات في اليوم الآخر عند نفر، وفق ما راكمه رجال الدين من سنن وشرائع على مرّ العصور.

«لماذا تركز الكنيسة على الخطيئة الأصلية وليس على الفضيلة الأصلية؟» سؤال غير بريء سأله إبراهيم متري رحباني في آخر كتاب له، «الترجمات الخمس ليسوع»⁽⁵⁹⁾. إنها تفعل ذلك لتُبقي الناس في حال من الخوف والشعور غير المبرر بالذنب. هل صحيح أننا ولدنا في الخطيئة؟ لماذا؟ نحن لا نعتقد ذلك. ولكن الفضيلة لا تطعم خبزاً لتجار الخوف والذنب. الخلاص السحري من الخطيئة هو ما يُطعم مألماً وأضاحي ونذوراً. النتيجة المنطقية التي وصل إليها رحباني تُختصر بالعبارة التالية من نفس الكتاب، «مشكلة يسوع أنه نبي وقع بين أيدي كهنة.» فمن يأتي ليحرر الناس من عبودية الخوف يُصلب على صليب من شرك الكهنة وجهل العامة.

هناك خوفٌ آخر تستغله المؤسسات الدينية وهو خوف دنيوي. إنه الخوف من أتباع المذهب الآخر. والخوف نتيجة الجهل، والجهل وقود الحركات المذهبية. هذه هي إذاً المطحنة التي تطحن بها المؤسسات الدينية التجارية السياسية عظام اتباعها قبل سواهم، ومن ثم تصلي على ما يتبقى من أشلائهم، أو رمادهم.

والمخرج؟ إلى أين يتوجه المواطن للخلاص من هذا العذاب؟ هل يمكن له أن يعتمد على الدول الأجنبية لتساعده في إقامة دولة علمانية مثلاً؟ نعود إلى ما كتبناه سنة 2005:

«أضف إلى ذلك أن لا مصلحة للدول الخارجيَّة بما فيها تلك العلمانيَّة مثل فرنسا والولايات المتَّحدة أن تقوم دولة علمانيَّة في بلد مثل لبنان. فالطائفيَّة هي منفذ هذه الدول العلمانيَّة إلى بلادنا لتحقيق مصالحها فيها. من مصلحة الشعب في لبنان أن تقوم دولة علمانيَّة على مبدأ المواطنة والمساواة في جميع الحقوق والواجبات. ولكن هل يمكن أن ننتظر من الطقم السياسي الطائفي، الذي يبحث عن دول ديموقراطية وعلمانية تدعم مشروعه الطائفي في لبنان أن يبني هكذا دولة؟ لا نعتقد. فمن الشوك لا يُجنى عنب، والطقم السياسي اللبناني ليس في وارد الانتحار.»

(59) <https://www.albayan.ae/paths/books/2005-12-26-1.991071>

لا، الطقم السياسي اللبناني ليس في وارد الانتحار. أما اللبنانيون فيفعلون ذلك أفرادًا وجماعات. ولن يتوقف الانتحار والموت البطيء طالما أن المواطن يسلم دنياه وآخرته لمن يستغل خوفه من آخرته، في دنياه. هل كان مصيرُ نَفْسِ جورج زريق سيتغير لو أن عائلته رفضت أن يُصلى عليه؟ لا نعتقد، ولكن من المؤكد أنها كانت وفرت على نفسها بعض المال وكثيرًا من الكرامة. هل من قيمة مضافة للمؤسسات الدينية التجارية السياسية في حياة الناس؟ أبدًا. هل تجوز مقاطعتها؟ إن مقاطعتها، في رأينا، واجب أخلاقي.

نحن لم نسمع بجورج زريق قبل موته المأساوي. ولكن من المؤكد أننا لن ننساه. إننا نحزن عليه ونحزن على عائلته، ولكننا نأمل أن يكون في موته عبرة.

قاطعوا معذبيكم واحجبوا أموالكم وصلواتكم عنهم. إنهم لا يستحقون منكم سوى كل ازدراء.

البوابات

2019-7-28

«إن للجبل أبوابًا يجب الدخول منها إليه.» أكرم شهيب.
«الإخلال بالتوازنات هو لعبة خطيرة.» تيمور جنبلاط.
«قضاء بشري يستقبل الزوار الذين يجب أن يستقبلهم.» سمير جعجع.
«إننا نحن بالعلن وبكل فخر ضد التغيير الديمغرافي. إذا كانت المنطقة شيعية فليحافظوا
على شيعيتها، وإذا كانت سنية فليحافظوا على سنتها، وليتركونا نحافظ على مسيحية المنطقة
المسيحية.» جورج عون، رئيس بلدية الحدث.

كُتب هذا المقال بعد مقتل شايبين من عناصر أحد الوزراء المتحالفين مع «المير» طلال
أرسلان، على يد عناصر محسوبة على «البك» وليد جنبلاط.

لا أدري لماذا لا تنزاح من أمام ناظري صورة مُتَخَيِّلة لوالدتي الفقيدتين اللذين سقطا في
كمين قبرشمون. لا، لم أر صورة لهما، وفي مُخيلتي، لا ملامح واضحة لهما. فقط، أمان مفجوعتان
بشايبين في عمر الورد سقطا على بوابات الإقطاع والحقد والمضاربات الشخصية.
البوابات، وما أدراك ما البوابات في لبنان! للجبل بوابتان كبيرتان واحدة في المختارة، وثانية
في خلد. ويوجد في الجاهلية بؤابة أصغر تحاول اللحاق بهما. في مناطق الانتشار المسيحي
داخل لبنان هناك بؤابة كبيرة تحاول اختزال كل البوابات اسمها «التيار الوطني الحر». في
بُشري/ معراب بؤابة اسمها «القوات». في زغرنا بؤابة اسمها «المردة». لبيروت بوابات تصغر
وتكبر حسب من يدفع. بؤابة جديدة اسمها الحريري، وأخرى قديمة اسمها سلام. في الجنوب

بوابتان، واحدة للمقاومة اسمها «حزب الله»، وثانية للبيزنس اسمها «حركة أمل». كذلك الأمر في طرابلس، والتمن، وكسروان، والبقاع. لبنان كانتونات. ولكل كانتون زواربيه ولكل زاروب بوابته ومفتاحه.

أَقْفَالُ البَوَابِ عندنا تعمل على التوازنات، مفاتيحها متفجرة، صواعقها سريعة الاشتعال. أي إخلال بالتوازنات يفجر البوابة بمن فيها. أما التوازنات فهي توازنات احتكار الإقطاع بشقيه الزمني والروحي للأعمال والسلطة وحقوق النهب. حقوق نهب المواطنين وقتلهم علنا، كل يوم، بالرصاص، أو بحوادث السير، أو بالسرطان، أو بالنفائات، أو برصاص الابتهاج بنتائج الامتحانات. أما الأمهات، فلهنّ الصبر، وصورٌ على الحائط لشبان في عمر الورود، قضوا برصاص بوابٍ، مثلهم، يحرس بوابةً كبوابتهم، ويمنع المغضوب عليهم من الدخول.

في خطاب العودة، سنة 1947، وصف سعادته حالة لبنان كما يلي: «في حالة الاستقلال الحاضرة خرجت الأمة من «القواويش» التي كانت فيها. خرجت الأمة من الحبوس في داخل البناية التي أعدّها لها الاستعمار، ولكنها حتى الآن لا تزال ضمن السور الكبير الذي يحيط ببنايات السجن. نحن الآن خارج القواويش ولكننا لا نزال ضمن السور. الأبواب مفتوحة، التي إلى الداخل، أما التي إلى الخارج فلا يزال عليها السجنون وهم دائماً منا في الغالب.»

في حالتنا الحاضرة، عاد الناس - طوعاً - إلى القواويش وأوصدوا الأبواب ووضعوا عليها السجنين. القواويش تضيق، والبوابات تعصر الناس.

أما بوابة الأمل، تلك التي كان يفترض بها أن تلغي جميع البوابات، وتفتح للوطن رحاب نهضة وحركة ونظام وقيم، أصبحت هي قاووشاً، له بوابته، وبوابوه، وزبانيته، والجلادون.

البوابات هي في النفوس أولاً. أقفالها مصنوعة من الخوف، والخوف وليد الجهل، والتجهيل سلاح الإقطاع. وما لم يقرر الناس، طوعاً، تحطيم هذه الأقفال، سيبقى دمهم، كما كرامتهم، مهدورة على أعتاب البوابات.

حقوق الطوائف، حق الشعب

2019-11-14

وفي تشرين أول من سنة 2019، نزل الناس إلى الشارع احتجاجاً على عدد من القضايا بما فيها الضرائب والاقتصاد المتردي، لتتسع دائرتها وتعم لبنان كله.

تتسارع الأحداث بعد مقابلة الرئيس عون التلفزيونية وتنتقل البلاد من خطر إلى خطر أكبر مع سقوط ضحايا من المدنيين. لقد قيل الكثير في حوار الرئيس عون، ولكن هناك عبارة مرت بسرعة بوجدنا التوقف عندها، خاصة وأن السيد حسن نصرالله كان قد سبقه إلى عبارة مماثلة لها منذ أيام.

يقول الرئيس: «نظامنا توافقي في مجلس الوزراء وهذا يشل الحركة. هل يجب تغيير النظام؟ كلا، تعديل. حسب القانون، يجب اتخاذ القرارات بالأكثرية. دخل تقليد إضافي، لا نعمل تصويت، بل توافق. وهذا من أول الأمور الواجب إزالتها من مجلس الوزراء. التوافق يصير في الأمور الميثاقية، حول حقوق الطوائف كما هو منصوص عنها في الدستور. ولكن خارج حقوق الطوائف يجب أن يكون التشريع والعمل بالأكثرية، ويجب أن يكون هناك معارضة في الحكم، معارضة في المجلس...»

أما السيد حسن نصرالله فقد قال في خطابه بمناسبة يوم الشهيد: «هناك نقاط خلافية حتى بين المتظاهرين أنفسهم، مثلاً مطلب إلغاء الطائفية السياسية ليس معلوماً إن كان مطلب الجميع؟ مطلب قانون انتخابي قائم على لبنان دائرة واحدة وعلى أساس نسبي سواء داخل القيد الطائفي، ليس معلوماً إن كان مطلب الكل، أو خارج القيد الطائفي أكثر أيضاً ليس معلوماً أنه مطلب الكل.»

إذا، بالنسبة لعون ونصرالله، المدعومين من أكبر كتلتين نيابيتين في مجلس النواب اللبناني، ليست الحقوق هي حقوق الناس الأساسية، بل هي حقوق الطوائف. فما هي حقوق الطوائف؟ بل من هي الطوائف؟

تقوم الطوائف في لبنان على ثلاثة أعمدة: رجال الدين والإقطاع السياسي والرعية حيث يقوم الإقطاع السياسي بنهب الرعية بمباركة رجال الدين. المطلوب من الرعية دائماً، خدمة الناهب برموش عينها وتقبيل يد رجل الدين وتجييله، وحمل الاثنيين معا على ظهرها، بل والموت في سبيلهما.

إنها لعمرى تجارة ولا أربح يستفيد منها الطرفان الأولان ويدفع ثمنها دائماً الطرف الثالث، الشعب.

ما هي حقوق الطوائف، وكيف تنشأ؟ لنعد إلى بدايات لبنان لقرنٍ خلا. انتصر الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى. فكان طبيعياً أن يقوم إكليروس الطائفة التي تدعمها فرنسا، والعملاء المتربون على يديه، بدعوتهما لأن تكون «الأم الحنون»، لقاء تفصيل الحقوق على قياس مطامح تلك الطائفة. وهذا يعني أن يكون لها رئيس الجمهورية وقائد الجيش، وكبار القضاة، وكبار الموظفين، وأكثرية في مجلس النواب. وبما أن الطائفة لا يمكن أن تحكم لوحدها في مجتمع سيفسائي كلبنان، كان لا بد من إشراك باقي الطوائف في «الحقوق» ولكن وفق تراتبية موازية لتراتبية القوى الخارجية واستعداد كل منها لدعم حقوق «طائفته» في لبنان.

هل حقوق الطوائف ثابتة؟ كلا. إنها تعتمد على فائض القوة الذي تمنحها إياها قوة خارجية في لحظة ما. الطبقة السياسية/الإكليريكية المارونية فتحت الحرب في لبنان سنة 1975 دفاعاً عن «حقوقها». في لحظة ما، كان لديها فائض قوة خارجية مستند إلى دعم إسرائيلي وأميركي أهلهما لأن تأتي بأعتى جزاريها، بشير الجميل، رئيساً. قُتل بشير. تغيرت المعطيات الدولية. انتهت الحرب. فإذا بـ «حقوق الطائفة المارونية» تتقلص في اتفاق الطائف لصالح «حقوق طوائف» القوى التي ظهرت وكأنها خرجت منتصرة من الحرب.

إن اتفاق الطائف في حقيقته هو اتفاق مرحلي يلزم إتلاف الطوائف المسيحية خفض مستوى «حقوقها» إلى 50% ويرفع مستوى «حقوق» الطوائف المحمدية إلى 50%، ولكن في نظام التكاذب اللبناني، الكل يعرف أن هذه الحقوق مؤقتة بانتظار فائض قوة ما، تهديه قوة خارجية ما، يعيد ترتيب الحقوق وتراتبها.

إذن حقوق الطوائف ما هي سوى حقوق نهب الرعايا المرعوبة من بطش الإقطاعي

السياسي - ابن الطائفة - وثعلبة رجل الدين - في الطائفة. وهذا لا يتم بدون دعم من دول أجنبية لها مصالح في سرقة موارد المجتمع على يد الإقطاع السياسي وبيركة رجل الدين، دائماً. إذا كان هناك من يشك لحظة في أية كلمة كتبناها هنا فليعد إلى مذكرات إسكندر رياشي المنشورة في كتابين هما «رؤساء لبنان كما عرفتهم»، و«قبل وبعد»، ليعرف مدى بشاعة هذه التركيبة المجرمة التي اسمها «الشراكة اللبنانية» التي تقدر «العيش المشترك»، وتدافع عن «حقوق الطوائف» على حساب حقوق الناس.

هذه هي حقوق الطوائف عارية. وهذه هي الحقوق التي تار الشعب في لبنان ضدها، مطالباً بحقه الحقيقي، حق الحياة الحرة الكريمة في مجتمع عادل أمام قانون مدني يتساوى فيه الجميع دون خوف ولا منة.

«الحلقة الانفجارية»

2019-11-19

تزامنت كتابة هذا المقال مع مداخلة كان سبق للنائب سليم سعادة أن قدمها في مجلس النواب، ومع زواج ابنة حاكم مصرف لبنان في باريس، ومع حفلات زفاف سابقة لأبناء سياسيين بدأوا من لا شيء ووصلت ثرواتهم إلى مستوى غير مسبوق.

لنفصل بين أمرين، الدافع للحراك في لبنان وردة فعل مختلف القوى عليه. الدافع للحراك هو الجشع اللامتناهي للطبقة السياسية/ المذهبية وفجورها إذ تسرق اللبنانيين على مدار الساعة. هذا الانفجار تأخر، ولكنه كان من باب المؤكد. الغريب هو ذلك الكم الهائل من التعليقات التي تدين الحراك من قِبَلِ أشخاص كان معظمهم يدين الشعب بسبب خنوعه وعدم انفجاره! فكم من معلق سخر من الشعب اللبناني ووصفه بالغنم إثر فضائح النفايات والتلوث والصفقات والفقير وقانون الانتخابات، ويدينه اليوم لأنه يثور على فضائح النفايات والتلوث والصفقات والفقير وقانون الانتخابات.

الشعب محقٌّ في غضبه، محقٌّ في مطالبه والتي يمكن تلخيصها بثلاثة: استرداد المال المنهوب، إنهاء نظام المحاصصة الطائفية، الانتقال إلى دولة مدنية. وفي المقابل فإن الطبقة السياسية/المذهبية صَوْنًا لمصالحها ومصالح أسياها من الإيرادات الأجنبية، مستمرة في ثعلبتها ومحاولتها الالتفاف على الحراك.

لقد كان متوقعًا أن تدخل السفارات بعملائها ومنظّماتها وراقصاتها على الخط. وكان متوقعًا من طبقة القتل والفساد والسرقة أن تقطع الطرقات وتقتل الأبرياء، فيما هي تقدم نفسها في

طليعة الثائرين. وكان متوقعًا من الإقطاع السياسي/المذهبي أن يتّحد في مواجهة الشعب، فيما هو يتقاتل ما بين أركانه. وكان متوقعًا من كبار المصرفيين وكبار المثريين أن يهربوا أموالهم من لبنان، وأن يحجزوا على أموال صغار المودعين، إن كان قد بقي شيء منها. كل هذا كان طبيعيًا. لا نعتقد أن السفارات هي التي فجّرت الحراك. إنها البطون الخاوية. إنها الوالد الذي أحرق نفسه قهراً أمام مدرسة عجز عن دفع أقساطها. إنها آلاف حالات السرطان. إنها المياه والهواء الملوّثان. إنها الكذب والدجل. إنها عهر الطبقة السياسية من إقطاعيين/مذهبيين ومصرفيين، إذ تدفع عشرات ملايين الدولارات لتفريخ بأعراس أبنائها في عواصم العالم، أو في قصورٍ بَنَتْها على أراضٍ استملكها بالقوة. إنها رئيس وزارة يدفع ستة عشر مليوناً من الدولارات إرضاء لعارضة أزياء، فيما مؤسساته تصرف الموظفين بلا تعويض. ويقولون لك، «إنه ماله الخاص وهو حرٌّ به.» أما أن السفارات تحاول أن تركب موجة الحراك، فهذا من طبيعة الراكب والمركوب، وطبيعة الإيرادات والمصالح الأجنبية التي تعمل على تحقيقها السفارات.

لعل أفضل مشهد معبّر عن استهتار الطبقة السياسية هو ما حدث أثناء مداخلة النائب سليم سعادة⁽⁶⁰⁾ في جلسة مناقشة الموازنة. إنس ما قاله عن الكذب وأنهم يعرفون أننا نكذب ونحن نعرف أنهم يعرفون. ليس هنا بيت القصيد. بيت القصيد هو لامبالاة رئيس الحكومة وسماجة رئيس المجلس وسخافة تعليقات النواب في قاعة شبه فارغة. إسمع النائب سعادة إذ يتكلم في حقل اختصاصه. إنه يحذّر، بكل ما أوتي من معرفة وخبرة من «الحلقة الانفجارية الناجمة عن ارتفاع الفائدة فيزداد العجز، ويزداد العجز فتزداد الفائدة.» اسمعه يكاد ينفجر قهراً وتأمل في ردود الفعل، فتفهم لماذا انفجر الناس.

نعتقد أن وقع مداخلة النائب سعادة إذ نسمعها اليوم، أكبر بكثير من حين ألقيت. إننا نسمعها بعد الانفجار الذي حدّرت منه. لا، ليس السؤال لماذا انفجر الناس اليوم. السؤال هو لماذا أخذهم كل هذا الوقت؟

إلى أين من هنا؟

نعتقد أن الخطوة الأهم هي في أن يستمر الضغط على الطبقة السياسية كلها، لأنها كما يبدو لنا، متأخرة كثيراً عن الأحداث ومتأخرة عن فهم ماذا يدور حولها. وفي المقابل يجب أن ينشأ ما يشبه حكومة ظل، قيادة مؤقتة، تعمل على الإعداد للمرحلة القادمة، مرحلة ما بعد

(60) <https://www.youtube.com/watch?v=Cq07oZqz-3o>

سقوط نظام الأم الحنون. وفي جميع الحالات، يجب منع القتلة وقطاع الطرق وزبائن السفارات من محاولة تشويه صورة الحراك أو حرف مساره.

ليبق الضغط حتى تنهار هذه المنظومة الفاسدة. لقد أرادت أن تحتفل بمئويتها هذه السنة، أما الناس فلا يريدون سوى دفنها.

ما بدّي خوّفكن... ولكن

2019-11-26

كتب هذا المقال بعد شهر من انفجار الأزمة المالية في لبنان.

مقابلة جورج غانم مع مرسيل غانم⁽⁶¹⁾ عن الحراك الشعبي في لبنان مثيرة للاهتمام. إنها تقدم عرضاً معقولاً للأحداث مبنياً على استقراء أحداث تاريخية تصل به إلى ما يلي: «ما بدّي خوّفكن ... ولكننا أمام تباشير حرب أهلية.» لن ندخل في مناقشة السرد التفصيلي للمقابلة، بل ما يضعه السيد غانم من منطلق للحراك والوضع الإقليمي والدولي. فعلى هذين الأساسين يبني مطالعته ويتوصل إلى النتيجة التي يتوصل إليها.

يُقيمُ السيد غانم المقارنة بين انفجار الحراك المطليبي في لبنان سنتي 1972 و1975، كمدخل للقضاء على سلاح منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان مُستهدفاً إقليمياً ودولياً آنذاك، مع انفجار الحراك المطليبي اليوم، وسلاح «حزب الله» المستهدف هو الآخر إقليمياً ودولياً، ليصل إلى تحذير من حرب أهلية «يرى تباشيرها.» صحيح أن هناك أوجه شبه عديدة بين ما حدث قبل الحرب الأهلية سنة 1975 واليوم، ولكن هناك أوجه اختلاف عديدة يجب النظر إليها قبل استخلاص النتائج.

الفارق الأول أننا نعتبر أن الشعب في لبنان قد تعلم من تجربة الحرب الأهلية. لا ننفي وجود رؤوس حامية بين بعض التنظيمات الطائفية التي تَحَنُّ إلى حربٍ كانت من قادتها أو مستفيدة من مآسيها. ولكنها أقلية بين أقبليات والناس ينبذونها. هناك أقليتان من أقبليات لبنان

(61) <https://www.youtube.com/watch?v=eOWhT223ogc>

قد نزفتا كثيرا بعد الحرب الأهلية اللبنانية بحيث أن حجمهما السياسي لا يتفق مع قوتهما العددية، بل أصبح هذا الحجم مرهوناً باتفاق الطائف. أية مغامرة عسكرية قد تكون نهايتها وخيمة على كليهما.

الفارق الثاني، هو تجربة «حزب الله» نفسها بالمقارنة مع منظمة التحرير الفلسطينية. إن فلسطين هي أرض قومية بالنسبة لنا، ولكن الفلسطينيين لم يكونوا يقاتلون في أرضهم، بل من الجنوب اللبناني. لقد حدثت أمور كثيرة بين تمركز منظمة التحرير في الجنوب، سنة 1969، وتاريخ الاجتياح الإسرائيلي سنة 1982 أدت إلى نفور قسم كبير من الجنوبيين من منظمة التحرير. أما عملية تحرير الجنوب، فقد بدأت منذ ساعات الاحتلال الأولى، مع رصاصات خالد علوان، ودماء استشهاديين من الحزب السوري القومي الاجتماعي وغيره من التنظيمات. ولكن الذين حرروا الجنوب سنة 2000 كانوا أهل الجنوب أنفسهم. ونحن لا نعتقد أنهم في وارد إدارة بنادقهم صوب الشمال، ولا في وارد الانصياع للإملاءات الغربية، ولا في وارد السماح بنزع سلاحهم.

منظمة التحرير سنة 1975، كانت منظمة فاسدة ومفسدة. كانت فاسدة في تحالفاتها العربية وفي اعتمادها على أموال الدول الخليجية التي كانت تريد إقفال ملف المسألة الفلسطينية. ومنظمة التحرير كانت فاسدة في تحالفها مع الإخوان المسلمين. وكانت فاسدة في إفسادها للعديد من رموز الحركة الوطنية اللبنانية وشراء ذمهمهم بالمال. منظمة التحرير كانت غيبة في افتراقها عن الشام في مدريد وتوجهها إلى أوصلو، واعتبارها أن مفتاح حل المسألة الفلسطينية هو بيد الأمريكان.

«حزب الله»، بالرغم من تحفظنا الكبير على مذهبته، التي يراها عنصر قوة، ونراها عنصر ضعف، يتعاطى بمستوى مختلف من المسؤولية مع حليفه الإقليمي، إيران، ومع حلفائه في الشام وفي لبنان.

الفارق الثالث والكبير هو تعثر مخططات الغرب في الشام نفسها، وهذا ناحية أغفلها السيد غانم بالكلية. لا شك أن الحرب التي خاضتها إسرائيل والغرب على الشام كانت متعددة الأهداف، ولكن أهمها كان تغيير النظام في الشام والقضاء على «حزب الله». هذان الهدفان فشلا، وفشلت أدواتهما من داعش إلى النصرة إلى الميليشيات الكردية وجميع من تحالف مع الأمريكان. ولهذا الفشل تبعات سلبية وإيجابية. السلبية منها، في تقديرنا، هو بعض ما نراه في لبنان لناحية زيادة الضغط الاقتصادي والاجتماعي أملاً بضرب «حزب الله». أما الإيجابية فهو أن

ما حدث في الشام يفتح الباب أمام نمط جديد من العلاقة بين الشام ولبنان ربما هو المطلوب لإنقاذ لبنان من محنته.

الفارق الرابع هو فيمن يستهدفه الحراك. ليس التهديد هنا، كما كان يصور سنة 1975 موجهاً ضد «المسيحين» بل ضد الشعب اللبناني كله. وليس «المسلمون» هم الذين يطالبون بزيادة امتيازاتهم، كما كانت النغمة قبل الحرب، بل اللبنانيون كلهم يطالبون باسترداد ما سُرق منهم عنوة. ولم يعد خوف المواطن اليوم من «عدوه» في الطائفة الأخرى، بل نقمته على ابن طائفته الذي سرقه. الصراع اليوم هو بين السارقين والمسروقين. نقطة على السطر.

خامساً، من أهم مطالب الحراك تغيير النظام اللبناني. إن هذا النظام هو البيئة التي ينمو فيها الفاسدون كالفطر. بالتالي فإن الحراك يعي أن المطالبة باسترداد المال يجب أن يرافقه تغيير في النظام برمته. إنها لمفارقة جميلة أن يطالب اللبنانيون بإسقاط هذا النظام الهجين، في الوقت الذي كانت فيه جهات إكليريكية وسياسية تعمل لإحياء مؤبته. تغيير النظام لن يكون سهلاً، ولكنه ليس مستحيلاً. إن الطبقة السياسية والمذهبية المتحكمة بالبلد لن توفر وسيلة لضرب الحراك. فإن نجحت، فإنها سوف تنكل بالقائمين عليه عبرة لمن اعتبر. إن هذا الصراع يجب أن يستمر حتى يحقق أهدافه المنشودة.

الوضع صعب، ونحن نضيف إلى ما تفضل به السيد غانم من صعوبات صعوبتين متعلقتين باسترداد المال المنهوب. الصعوبة الأولى هي أننا لا نشك لحظة أن معظم ثروات النهابين موجودة اليوم في حسابات سرية داخل ملاذات ضريبية تحت أسماء شركات وهمية. ولمن يرغب بالاستزادة حول هذا الموضوع يمكنه مشاهدة فيلم ⁽⁶²⁾ The Laundromat. الصعوبة الثانية، هي أن الدول الغربية التي تمتلك القدرة على استرداد هذه الأموال لن تحرك ساكناً في هذا المجال. فالناهبون عملاؤها على مرّ عقود وهي لن تضحي بهم إلا مرغمة.

الوضع صعب، صحيح. ولكننا نرى أن على من سرق المال العام إعادته. فهذه مسؤوليته، ومسؤولية زوجته وأولاده وأقربائه وكل من انتفع منهم. كيف؟ نحن لا نزن أن الشعب الذي استطاع أن ينفذ أثقال قرن كامل من العبودية لطبقة سياسية مذهبية مجرمة، سوف يعدم الوسائل الضاغطة على هؤلاء لاسترداد ما سرقوه.

(62) [https://en.wikipedia.org/wiki/The_Laundromat_\(film\)](https://en.wikipedia.org/wiki/The_Laundromat_(film))

الميثاقية

2019-12-27

نعتذر سلفًا عن الإفراط في استخدام علامات التعجب، ولكن للضرورة أحكام. «إنها لحظة استثنائية!» بهذا الكلمات استهل رئيس «التيار الوطني الحر» النائب جبران باسيل مؤتمره الصحفي الذي عقده في 2019/12/12⁽⁶³⁾. وهي بالفعل كذلك: لحظة استثنائية في تاريخ البلد وتاريخ «التيار الوطني الحر». وكان يمكن لهذه اللحظة أن تكون تاريخية لولا لعنة اللغة، فلغة باسيل طائفية بامتياز. ولعله سوف يستهجن وصفنا هذا، فهو يعتقد مخلصًا أنه يتكلم بلغة وطنية بينما نراه يرطن بالطائفية. وقد استخدمنا كلمة يرطن عمدًا لأنها تفيد المعنى المرغوب. «رَطَنَ: يَرَطُنُ، رَطَانَةً وَرِطَانَةً، فهو راطن، رَطْنُ الأَعْمَى: تكلم بلغته. رَطْنُ المتكلم: تكلم بكلام غير مفهوم». وباسيل في مؤتمره الصحفي كان طائفيًا يتكلم لغته، وفي حال أصرّ على اعتبار نفسه وطنيًا، فإن كلامه غير مفهوم.

أهم المفردات وأكثرها تكرارًا في المؤتمر الصحفي كانت «الميثاقية» و«المكونات» و«التوازن» و«الشراكة» و«التفاهم». أما بيت القصيد فكان «حكومة فاعلة على قاعدة احترام التوازنات الوطنية الناتجة عن الانتخابات النيابية». لنفسر ونحلل.

الميثاقية كلمة منبثقة مما سُمي زورا بـ «الميثاق الوطني» غير المكتوب الذي اعتمد في توزيع المناصب في لبنان على الطوائف وفق قاعدة ستة مقاعد للمسيحيين لقاء خمسة للمحمديين. اعتمد هذا الميثاق منذ سنة 1943 إلى 1989، حين ولد دستور «الطائف» فتحوّلت

(63) <https://www.youtube.com/watch?v=YqGut9lfCKI&t=9s>

الميثاقية إلى نسبة متساوية بين الطرفين. أما لماذا نقول إن هذا الميثاق سمي زوراً بالوطني، فلأنه اتفاق طائفي بامتياز والطائفية عدو الوطنية الأول.

في المؤتمر الصحفي، يعطي باسيل بعداً جديداً للميثاقية. فالميثاقية عنده تعني أن يمثل كل طائفة في مراكز الدولة الأساس من يحصل على أكبر عدد من مقاعد مجلس النواب، ضمن طائفته! أما أن هذا المجلس قد ولد نتيجة هندسة طائفية بامتياز، أخذت أشهراً، أُجبر اللبنانيون في نهايتها على التصويت في أبشع مشهد طائفي في تاريخ لبنان، فهذا ليس بالأمر المهم. نتابع التحليل.

- ♦ المكونات هي الطوائف.
- ♦ التوازن هو تأكيد المؤكد. أي تأكيد الميثاقية.
- ♦ الشراكة هي الطبقة السياسية المتشاركة في التحكم بقدرات البلد.
- ♦ أما التفاهم، فهو التراضي، من ضمن الميثاقية، على التوازن بين الشركاء المتقدمين كل في مكونه.

هل رأيتم لعنة اللغة الطائفية!

من ضمن هذه التعاريف يطلب باسيل «حكومة فاعلة على قاعدة احترام التوازنات الوطنية الناتجة عن الانتخابات النيابية!»

المشكلة أن باسيل أعلن في بداية مؤتمره الصحفي، أن هذه الحكومة فشلت في «بناء دولة حديثة، وتصحيح السياسات المالية النقدية، والاقتصادية، وتشبيد بنى تحتية، والكهرباء، والمطار، والنفايات، والبطاقة الصحية، وضمان الشيخوخة، وسواها...». هذا الكلام نفسه، عاد وأكدّه الرئيس سعد الحريري في حديث مع مارسيل غانم⁽⁶⁴⁾. فإذا كان الإتيان بحكومة كهذه قبل انتفاض الشعب في لبنان قد فشل في تأمين أبسط أساسيات الحياة، فلماذا يريدنا باسيل أن نصدق أن الإتيان بحكومة مشابهة، بعد الانتفاضة، سوف ينجح!

ما لم يستشره باسيل حين دافع دفاعه الشرس عن «الميثاقية» كما عرّفها، هو ما حصل بعد أيام. فقد ظهر المفتي دريان على شاشات التلفزة ليعلن، أن «أهل السنّة» لا يقبلون سوى بسعد الحريري رئيساً للوزارة. أما ما حدث لذلك التصريح حين لم يعترض السعوديون والأميريكيون ومن معهم على تكليف الدكتور دياب، فإنه يعيدنا إلى ما سبق ونشرناه عن «حقوق الطوائف» وفائض القوة التي تمنحها إياها القوى الخارجية، أو تحجبها عنها.

(64) <https://www.youtube.com/watch?v=4AH2H6gA5Zs>

كان يمكن لباسيل أن يحوّل اللحظة الاستثنائية إلى لحظة تاريخية لو أنه استخدم لغة وطنية عوضاً من الطائفية. واللغة الوطنية، عكس اللغة الطائفية، تنطلق من الثقة وليس الخوف. الميثاقية هي وليدة تلاقح مصالح رؤساء الدين والإقطاع مع مخاوف الناس وجهلها. ولرؤساء الدين والإقطاع مصلحة دائمة في أن يبقى الناس خائفين من بعضهم بعضاً، وجاهلين لمصالحهم. أما الوطنية فهي نتيجة الاشتراك في المصالح العامة للناس كلهم دون تمييز بين طائفة وأخرى. نقول كان يمكن للحظة أن تكون تاريخية لو أن باسيل قال إنه مستعد للبدء فوراً ببناء الدولة المدنية عوضاً من تركها «كهدف نهائي» للتيار الوطني الحر. وأنه من موقع مسؤوليته يدعو جميع السياسيين ورجال الدين لوضع الآليات فوراً لمثل هذا الهدف السامي. كان يمكن للحظة أن تكون تاريخية لو أن باسيل انقلب على تاريخه في «الدفاع عن حقوق المسيحيين» ليدافع عن حقوق الناس، كل الناس؛ لو أن باسيل اعتبر نفسه مواطناً في لبنان، وليس متقدماً في طائفته.

جلسة الموازنة اللبنانية

2020-1-28

لا شك أن خطاب النائب السوري القومي الاجتماعي في مجلس النواب اللبناني⁽⁶⁵⁾، سليم سعادته، عن الوضع الاقتصادي والمالي والنقدي، قد حظي بأكثر عدد من المشاهدات والتعليقات والنقل بين خطب البرلمانيين. لقد كان خطاباً جاداً وفكاهياً في آن. لقد خاطب أهل الاختصاص بلغتهم، ولكنه خاطب معظم البرلمانيين اللبنانيين بلغتهم اليومية التي يفهمون. كلمات النائب سعادته الجنسية الإيحاء خدشت حياءً ديماً صادقاً. ليت حياءها خُدش يوم اغتُصبت أموال الناس وكراماتهم.

وبراءة الأطفال سأل النائب سعادته عن «الناهيين» وهم حوله، وعن قادة الميليشيات وزعماء الطوائف وهو في وسطهم وعن بناء أهرامات Ponzi وهم يطوقونه في المجلس وفي المالية وفي المصرف المركزي وفي المصارف.

أما سخرية القدر الأكبر فهي أن رئيس كتلته النيابية هو واحد من كل هؤلاء وشريك لهم في تفليسة البلد. سخرية القدر هذه أجبرت سليم سعادته على التصويت مع الموازنة «اللقطة» كما سماها كونها أهون الشرين! في بدء كلمته، اعترف سعادته أنه انتخب نائباً سنة 1992 وأنه يتحمل مسؤولية القرارات التي اتخذت آنذاك. هل سيتحمل مسؤولية القرارات التي ستنتج عن الوضع الحالي!

كلمة أخيرة. لم يكن النائب سعادته دقيقاً في كل ما قاله. ليس في علمنا أن سياسياً لبنانياً واحداً يطعم دون أن يأكل.

(65) <https://www.youtube.com/watch?v=xPfiWD-u3co>

أموال الآباء في الأبناء

2020-6-27

نحن لسنا مع الآية التوراتية التي تقول، «لأنني أنا الرب إلهك إله غيور أفقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع»، حتى ولو حُدِّدَتْ بشرط يقول، «من الذين يبغضوني». (تثنية 9: 5) ولكننا مع افتقاد أموال الناهبين من الآباء في حسابات أبنائهم الشخصية وكذلك في حسابات زوجاتهم وأقاربهم والمقربين.

إن سرقة المال اللبناني، وضمناً الشامي المودع في المصارف اللبنانية، وقبله العراقي والفلسطيني لا يمكن أن يمر بدون عقاب. صحيح أن التقادم قد نظَّف الكثير من الأموال التي جُمعت من السرقة والقتل والتجويع، ولكن ليس هناك ما يمنع فئة مخلصه أو ناقمة تريد استرداد حق الشعب في تعبته، من تصفية الحساب مع مَصاصي الدماء هؤلاء وذرياتهم.

ليس لدينا بيانات موثقة، ولكننا لا نغالي إذا قلنا إن ثروات عقارية تضخمت في الحرب العالمية الأولى حين كان الوالد «يبيع» قطعة أرض بدراهم قليلة لمحظي لدى الأتراك لكي يطعم أولاده. أو في الحرب الأهلية حين كان «يبيع» شقته أو عقاره لأنه من الطائفة الخطأ في المنطقة الخطأ، أو لكي يؤمن ثمن بطاقة سفر تنقله من جحيم الحرب. بل لعل في هذا مادة لأطروحة جامعية ترصد حركة انتقال العقارات من وإلى أثناء الحروب الأهلية.

لماذا نقول هذا؟ لأن الأخبار تردنا اليوم عن أشخاص حرفيين واختصاصيين يبيعون عقاراتهم في لبنان والشام بأبخس الأسعار ثمنا لدواء أو عملية جراحية لوالدة مريضة.

لسبب ما، يعتقد السياسيون والفاقدون في الوطن أنهم في منأى من المحاسبة، ولعلمهم على حق في ذلك. فحتى الأمس القريب، كان الناس، خاصة في لبنان يعيشون دوخة المال

الوفير نتيجة فقاعة الاقتصاد الريعي، وهم «بونزي» الذي بدأه الحريري الأب بدعم من الطبقة السياسية اللبنانية وقطاع المصارف المرتبط بها. ولكن الأمر يختلف اليوم. فلبنان مفلس منهوب وحكوماته ترفض تحديد المسؤوليات واسترداد ما أمكن من المال المسروق. في هذا السياق، يصبح من الضروري مراجعة الجلسة التاريخية⁽⁶⁶⁾ لمجلس النواب اللبناني سنة 1998، التي شرّعت الاستدانة بالدولار ومحاسبة المستفيدين من التشريع الذي شكّل قاعدة الهرم المالي المقلوب الذي انهار مؤخراً بعد إزالة الدعامات عنه، وبعد أن هرب السياسيون الضالعون فيه أموالهم إلى الخارج.

كذلك يجب استبدال تماثيل الخونة وعمّال الاستعمار في شوارع بيروت بتماثيل ولوحات تمجّد تلك القلّة التي حاولت منع تلك المأساة في الجلسة التاريخية نفسها ودفعت الثمن، أمثال الرئيس سليم الحص، ونجاح واكيم، وحسين الحسيني، وزاهر الخطيب، وسواهم.

وللمقارنة فقط، حكمت محكمة في مدينة نيويورك على «برنارد مادوف» بالسجن لمدة 150 سنة لأنه خدع 4800 عميل بما قيمته حوالي الخمسة وستين مليار دولار. ترى ما يجب أن يكون الحكم على الطبقة السياسية اللبنانية التي يشته بسرقتها ما يزيد على المئة وستين مليار دولار من المودعين في المصارف اللبنانية؟!

وبعد،

تحفل كتب التاريخ بصفحات الانتقام والثأر. نحن لا نحب العنف ونُدينه ونفضل منطق القضاء والعدالة. ولكن التاريخ لا يأبه لما نحب أو نكره. التاريخ يقول إن بعض الناس ينتظرون عدالة إلهية خارج هذا الكون فيما يقوم بعض آخر بتنفيذ ما يروونه عدالة هنا، واليوم.

على الطبقة السياسية اللبنانية أن تعرف أن حساباتها في المصارف الخارجية لن تحميها. والذي يرى جنى عمره يتبخّر لكي يتنعم ابن سواه يَخْتِ في «خليج الزيتونة» لن يصبر طويلاً. نعتقد أنه في مصلحة الطبقة السياسية اللبنانية أن تبدأ برد ما سرقته من الشعب قبل فوات الأوان، عليها⁽⁶⁷⁾.

(66) <https://www.youtube.com/watch?v=8JfDWJfc11Y>

(67) <https://www.youtube.com/watch?v=QX-AxoCDQus>

القسم الرابع: بين العروبة والإسلام

يناقش هذا القسم موضوع العروبة والإسلام انطلاقاً من مقال للدكتورة بثينة شعبان،
وبعض التصريحات للرئيس بشار الأسد.

رد على الدكتورة بُثينة شعبان صانع الأزمة، صانع الحل

2016-5-25

أرسلنا هذ المقال إلى «الميادين» في التاسع عشر من أيار الحالي ردًا على مقالة الدكتورة بثينة شعبان التي نضع رابط لها في الهامش. لم نستلم إشعارًا لا بالاستلام، ولا ما إذا كان ثمة نيّة للنشر. وحين حاولنا الاتصال هاتفيا بمكتب الميادين في بيروت، ذهبنا في رحلة من هالكٍ إلى مالكٍ إلى أن كادت روحنا تزهب.

في التاسع من الشهر الجاري، أيار مايو، 2016، نشرت الميادين الغراء مقالا للدكتورة بثينة شعبان عنوانه «الدلالات والخطوات»⁽⁶⁸⁾، وقد استهلّت الدكتورة شعبان مقالها - ولعله كان كلمة موجهة إلى «الهيئة التأسيسية لجاليات الاغتراب في بلاد الشام» بالقول:

إن أحدًا في عالمنا العربي هذا لم يتوصل بعد إلى فكرة استراتيجية وخطة عمل تعتمد إلى إلغاء الواقع الذي أوصل العرب كلهم إلى هذا الحضيض، وتضع الرؤى والتصورات التي يمكن أن تنقذهم منه وتضع خريطة مستقبل مختلف وناجح لهم جميعًا. كي يحدث ذلك لا بدّ من الإيمان أولاً بفكرة أساسية بسيطة وسليمة وهي أن العروبة هي الحلّ.

هذه العبارة، في رأينا، هي العبارة الوحيدة المهمة في المقال. فكل ما عداها هو وصف

(68) <https://2u.pw/4KYxihBL>

عادي للوضع العام في العالم العربي، يليه وصف عن نهوض الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ببلاده في العقد الأخير، ومحاولة عقيمة في رأينا لإقامة مقارنة بين ما حصل بعد الانهيار السوفياتي وما يحصل بعد الانهيار العربي.

بلى، هناك عبارة أخرى ذات دلالة تقول فيها الدكتورة شعبان: «ومن المعروف أن صانعي الأزمة لا يمكن أن يكونوا هم أنفسهم من يجد حلاً لها مهما كانت مواصفاتهم ومهما عظمت محاولاتهم، ولا يمكن للأطر ذاتها التي أنتجت هذه الأزمات أن تكون عوناً في تقديم حلّ لها.» نحن نوافق الدكتورة شعبان في عبارتها الثانية فلا داعي لمناقشتها. ولكننا سوف نناقشها في فكرتها الأولى وهي من شقين: أولاً انتفاء وجود أية خطة استراتيجية وخطة عمل تعمد إلى إلغاء الواقع الحالي؛ ثانياً أن «العروبة هي الحل.»

إن الشق الأول من عبارة الدكتورة شعبان غير دقيق إطلاقاً. فحزب البعث العربي الاشتراكي كان لديه خطة استراتيجية، لا بد أن الدكتورة شعبان على دراية بها، تقوم على نظرة أساسية قوامها أن العالم العربي أمة واحدة من المحيط إلى الخليج، وأن هذه الأمة عليها واجب الوحدة انطلاقاً من شعار حزب البعث «وحدة حرية اشتراكية»، أو رؤيته العامة، «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.» بل إن حزب البعث في شقيه اللذين حكما كلا من العراق والشام لمدة خمس وثلاثين سنة في العراق وأكثر من أربعين سنة في الشام، حاول الوحدة أكثر من مرة، إحداها كانت ما عرف بـ «اتحاد الجمهوريات العربية» بين الجمهورية العربية السورية وليبيا ومصر سنة 1971، والتي نالت موافقة شعبية قاربت المئة بالمئة - حسب الإذاعة الرسمية في كل من هذه الجمهوريات آنذاك. كذلك كان هناك محاولة للوحدة بين الشام والعراق قادها الرئيس الراحل الراحلان أحمد حسن البكر وحافظ الأسد سنة 1978، والتي أجهضت بعد قيام الرئيس الراحل صدام حسين بانقلابه المشهور وقضائه على عدد كبير من قيادات حزب البعث العراقي.

وهناك مبادرة ثالثة للوحدة وهي تبدو أكثر واقعية من تلك المصرية الليبية السورية، وفي نفس مستوى الوحدة الشامية العراقية من الواقعية فيما لو قامت تلك الأخيرة، ونعني وحدة دول مجلس التعاون الخليجي والتي قامت سنة 1981.

إذن كان هناك رؤية للوحدة العربية الشاملة، وكان هناك محاولات جدية لقيامها، نجح بعضها وفشل البعض الآخر. ونحن إذ ندرس عوامل النجاح والفشل ننطلق من عاملين أساسيين: النظرة والممارسة. فيمكن أن تكون هناك نظرة وخطة سليمتان، ولكن لا تتوفر لهما عوامل النجاح بسبب ظروف معينة. كما يمكن أن تقوم خطة عملية على نظرة فاسدة تتأمن لها ظروف

نجاح، ولكن لا يمكن لها أن تستمر بسبب عيب في الأساس. ونعتقد أن وحدتي مصر - الشام سنة 1958 واتحاد الجمهوريات العربية سنة 1971 هما نموذج عن وحدات قامت على أساس غير سليم لأنه تخطى الواقع الاجتماعي، فانهارت بسرعة. أما وحدة الشام - العراق، فإنها، وبالرغم من قيامها على أساس علمي واجتماعي سليم، أجهضت، في تقديرنا، بسبب نزعة فردية طاغية التقت مع إرادات اجنبية طامعة. في المقابل، نرى أن وحدة دول الخليج، والتي بالرغم من عدم اشتغالها على اليمن، فإنها تبدو وحدة عملية ومستمرة، أقله لهذا التاريخ، وذلك يعود إلى أنها تستند إلى واقع اجتماعي منسجم هو مجتمع شبه الجزيرة العربية، وتلقى موافقة دولية.

هل هناك من نظرات وخطط استراتيجية أخرى لم يكتب لها النجاح؟ الجواب نعم. وسوف نلقي الضوء على نظرة وخطة وضعها أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وإن لم يكتب لها النجاح بعد.

قامت نظرة سعادة على «طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى». (الصراع الفكري في الأدب السوري). ولتحقيق ترقية الحياة هذه، درس سعادة ما سماه «الحقيقة الأساسية الكبرى» أي حقيقة الفرد والمجتمع - الواقع الاجتماعي - ووضع مجموعة من الخلاصات بعد دراسات مفصلة في علم الاجتماع نعرضها هنا باختصار شديد.

رفض سعادة نظرة «الأمة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج» بل رأى عالمًا عربيًا يتألف من أربع أمم هي الأمة السورية، والأمة العربية (شبه الجزيرة العربية كلها، من هنا فصاعداً «العربة»)، وأمة وادي النيل (مصر والسودان)، والمغرب الكبير (المغرب، وتونس، والجزائر، وليبيا).

أما على صعيد الاستراتيجية فكانت لدى سعادة استراتيجية من شقين: الأول داخلي، أن تقوم كل من هذه الأمم في جمع أجزائها في وحدة قومية اجتماعية خاصة بها، والثاني خارجي أن تقوم هذه الأمم الأربع بتشكيل «جبهة عربية» للدفاع عن مصالحها المشتركة والتصدي للمحاولات الخارجية الهادفة للنيل من مصالحها ومواردها، وضمنًا، لحل خلافاتها بأقل الأضرار الممكنة.

لم يكتف سعادة بوضع الأساس النظري والاستراتيجي للعالم العربي، بل وضع أساسا مناقبيًا جديدًا يقوم على ما سماه «الوجدان القومي» والذي هو النقيض «للنزعة الفردية»، التي تشكل أساس المبادئ الأخلاقية السائدة اليوم في العالم العربي والتي أدت وتؤدي في نظرنا إلى هذه الانهيارات الكبيرة. (يمكن مراجعة مقدمة كتاب نشوء الأمم لأنطون سعادة ومقالاته عن

النزعة الفردية في الأعمال الكاملة له، لمزيد من الاطلاع على هذين المفهومين). بالإضافة إلى ذلك، دعا سعادته أبناء شعبه وكل الشعوب الأخرى للأخذ بإيمان اجتماعي جديد قوامه المحبة. «المحبة التي إذا وُجدت في نفوس شعب بأكمله، أوجدت في وسطه تعاونًا خالصًا، وتعاطفًا جميلًا يملأ الحياة آمالًا ونشاطًا.» (الصراع الفكري في الأدب السوري).

وفي موازاة ذلك وضع سعادته الأساس العملي للوحدة الاجتماعية، أقله في أمته السورية، وذلك عبر مبادئ أساسية تتعلق بالهوية والحقوق، والمصالح والاتجاه، وإصلاحية تتعلق بترقية الحياة والعدالة الاجتماعية. فعرف السوريين بأنهم مزيج ناتج عن تفاعل كل الأقوام التي تمازجت في الهلال السوري الخصيب على مدى آلاف السنين، وأن حقوقهم في وطنهم ثابتة يقررونها هم أنفسهم، ولا تقررهما الإيرادات الأجنبية. أما في العدالة الاجتماعية، فإن السوريين متساوون في الحقوق والواجبات استنادًا إلى إزالة أخطر عوامل التجزئة الاجتماعية ونعني الخلط بين الدين والدولة، فدعا لفصل الاثنين أحدهما عن الآخر، ومنع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين. كما عالج الموضوع الثاني من عوامل التفسخ الاجتماعي ألا وهو التفاوت الشاسع في مستويات الدخل بين طبقة حاكمة تتحكم بالثروات عن طريق الفساد والعنف، وطبقة محكومة مُستعبدة، فوضع مبدأً اقتصاديًا يقوم على «إلغاء الإقطاع، وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج، وإنصاف العمل، وصيانة مصلحة الأمة والدولة.»

نحن فعلا نستغرب هذا النفي القاطع من الدكتوراة بثينة شعبان في القسم الأول من عبارتها أعلاه، إذ أنه يلغي قسمًا كبيرًا من تاريخنا، نظرات وخطط وعقائد بما فيها خطط حزب البعث، التي يجب دراستها نقدياً عوضاً من نفي وجودها.

نأتي الآن إلى القسم الثاني، أي الحل الذي تراه الدكتوراة شعبان والذي هو «العروبة.» قلنا إننا لن نناقش الدكتوراة شعبان في عبارتها الثانية، ولكن لا بد لنا من وضعها نصب أعيننا إذ يبدو لنا أن الدكتوراة شعبان فيما هي تقدم حلها، تنسى ما حذرنا منه: «ومن المعروف أن صانعي الأزمة لا يمكن أن يكونوا هم أنفسهم من يجد حلاً لها، مهما كانت مواصفاتهم، ومهما عظمت محاولاتهم، ولا يمكن للأطر ذاتها التي أنتجت هذه الأزمات أن تكون عوناً في تقديم حل لها.»

والسؤال المنطقي هنا هو التالي: هل جُربت العروبة وهل نجحت أم فشلت؟ وهل يجوز إعادة التجربة بها أم أنها جزء من «الأطر ذاتها التي أنتجت هذه الأزمات»؟ تستطرد الدكتوراة شعبان في وصفها للحل فتقول في مقالها:

«العروبة هي الحلّ للنزاعات القائمة بين البلدان العربية، والعروبة هي الحلّ لمواجهة الإرهاب في سورية والعراق ولبنان واليمن، وهي الحلّ من أجل بناء المستقبل، ولكن هل يمتلك العرب جميعاً الحرية أو الإرادة الحرّة للبحث عن سبل جريئة وعميقة للردّ الحاسم والنهائي على واقعهم المتردّي.»

إن هذه العبارة مليئة بالتعاميم المائعة التي تجعل من محاولة الاستناد إلى أساس صلب نقف عليه في محاولة تتبع الفكرة - الحل الذي تريدنا الدكتور شعبان أن نأخذ به، عملية شائقة. إن أكثر المنادين بالعروبة اليوم، وأعلاهم صوتاً في العالم العربي والعالم الخارجي، هم المملكة العربية السعودية وحلفائها المنتشرون في مختلف أقطار العالم العربي. بل إن هذا الصوت العالي يهدف إلى محاولة تقديم المملكة نفسها وحلفاءها على أنها المدافع الوحيد عن «العروبة والإسلام» في مواجهة محاولات «التفريس والتشيع» من قبل خصمها اللدود إيران. وها هو تيار المستقبل اللبناني يتبنى المقولة نفسها، فيقدم نفسه المدافع عن العروبة في لبنان «العربي» ضد «حزب الله الشيعي الفارسي.»

ونحن لا نشك لحظة في أن المملكة العربية السعودية فيما هي ترفع لواء العروبة شعاراً لها، ترى أنها تفعل ذلك انطلاقاً من «حريتها»، ومن الدفاع عن تلك الحرية، وأنها بسبب تمسكها الكبير بحرية «العرب والسنة» في مواجهة العدوان «الفارسي الشيعي»، قد استلّت من قواها النفسية والمادية ما يكفي من «الإرادة الحرّة»، بل والعزيمة لبذل مليارات الدولارات و«الشهداء» من سعوديين وخليجيين في معركة الحرية هذه.

بل يمكن للسعودية الاستطراد ما شاء لها ذلك، والقول إنها إنما تعاون «العرب والمسلمين» المضطهدين في سورية والعراق ضد الأعاجم الكفار، وكل ذلك باسم «العروبة» وتحت رايتها طبعاً!

ولا شك عندنا في أن نظرة العروبة لدى الدكتور شعبان تختلف جذريا عن تلك التي للسعودية، وهنا لبّ المشكل والسؤال العصي: إن لم يكن هناك من تعريف واحد للعرب والعروبة، فكيف يمكن للعروبة أن تكون «الحل للنزاعات العربية ولمواجهة الإرهاب»؟ ذلك أن السعوديين - في الحقيقة - لا ينظرون إلى السوريين على أنهم عرب بالضرورة، بل «شوام». إن موجة الإرهاب التي تظال «العروبة» السورية تمول من قبل دول «العروبة» العربية! ولا يزايدن أحد على عروبة السعودية أو عملائها والناطقين باسمها، فكلهم يدافع عن العروبة السعودية، وكلهم يدافع عن إرهابها، مسمياً إياه «ثورة تحرر ضد النظام العلوي الظالم».

غير أن المشكلة ليست حتى في الاتفاق على تعريف موحد للعروبة، بل إنها أعمق بكثير وتتناول المصالح المتضاربة بين أمم العالم العربي.

إن المراقب المتجرد، والدارس الموضوعي للتاريخ، يرى أن ثمة علاقة تاريخية ملتبسة بين ثلاث من أمم العالم العربي هي وادي النيل والعربة والأمة السورية، وأن هناك مناطق تنازع نفوذ بين هذه الأمم الثلاث أهمها سيناء وفلسطين وخليج العقبة وقوس الصحراء حيث تلتقي الصحراء العربية بالعمران السوري.

ومن الثابت التاريخي أيضاً أنه لا مصلحة داخلية اطلاقاً لا لمصر ولا للعربة في قيام وحدة سورية تشمل دول الهلال الخصيب السوري كلها. فالخوف التاريخي متبادل: كلما قامت وحدة في سورية تمددت جنوباً باتجاه مصر إذا ساحت لها الفرصة بذلك، والعكس صحيح من جهة مصر. أما السعودية، فإسكندر رياشي ينبئنا في كتابه «قبل وبعد ورؤساء لبنان كما عرفتهم»، (ص. 243 و244) عن المساعي السعودية لمنع قيام وحدة بين أي من اقطار الهلال الخصيب:

«... سياسة ابن سعود الأساسية التي اشتغلت دوماً لمنع أي تقارب بين العراقيين والسوريين والأردنيين ودون اتصالهم ووحدتهم، وعلى الأخص اتصالهم ووحدة لبنان معهم.... إذ أن السياسة السعودية بطبيعة الحال تريد لبنان مستقلاً استقلالاً تاماً عن سورية والبلدان العربية الأخرى، مما يتوافق مع سياستها العربية العامة في محاربة كل اتحاد يقوم على حدودها، ويستطيع به خصومها الهاشميون أو السوريون التوسع والزيادة في القوة.»

لقد كنا نتمنى لو أخذت الدكتورة شعبان بعض الوقت للتأمل في الحقائق الاجتماعية التي لا غنى لأي باحث وسياسي من التأمل فيها واستيعاب أبعادها من جهة، ومراجعة الخطط الاستراتيجية والسياسية القاتلة والقرارات الخاطئة التي شاركت هي نفسها فيها، والتي أوصلتنا إلى حيث نحن. ليست الدكتورة شعبان متفرجاً محايداً، أو باحثاً علمياً مجرداً. إنها جزء من منظومة عقيدية سياسية استلمت الحكم لأكثر من أربعين عاماً، وإن لم تكن هي - أي المنظومة - من صنع كل أزماتنا، فإنها ساهمت فيها إلى حد كبير.

إن صنّاع الأزمة معروفون، وكذلك صنّاع الحل. وقد أن الأوان للاعتراف بالأخطاء التاريخية القاتلة التي أوصلتنا إلى حيث نحن، عوضاً من إعادة تدوير حلول أثبت التاريخ فشلها.

الحقوق القومية بين العروبة والإسلام

2021-1-13

نص محاضرة أقيمت في 13 كانون الثاني 2021 عبر تطبيق زووم وتابعها عدد كبير من الرفقاء والمواطنين من شتى أنحاء العالم.

يعيش المواطن السوري - ابن الهلال الخصيب - سلسلة من الأزمات لا تنتهي واحدة منها حتى تبدأ أخرى أو أكثر. فمن الاحتلالات المتعددة التي نرزح تحتها، إلى الفساد ونهب المال العام والخاص، إلى تدني سعر صرف العملات المحلية، ما أوصل الإنسان إلى مرحلة المكافحة لسد الحاجات الحيوية له ولعائلته كالمأكل والمشرب والمدراء، مستغنياً عن تأمين مصالحه النفسية من علمية، ومنطقية، وفنية، وسواها. تحت هذا الخراب الكبير يوجد أسباب جوهرية لا بد من فهمها إذا أردنا أن نخرج من هذا النفق الطويل.

هناك من يعزو ما يحدث إلى رفض العروبة والإسلام، وإلى محاولة فصل الدين عن الدولة. راجع (كلمة الرئيس الأسد أمام الملتقى العربي، أيلول 2018.⁽⁶⁹⁾ وكذلك كلمته في جامع العثمان⁽⁷⁰⁾، وخطبة وزير الأوقاف السوري⁽⁷¹⁾ في طرطوس، وهاتان الأخيرتان في شهر كانون أول 2020. لن ندخل في تفاصيل الكلمات، بل بودنا النظر إلى ثابت أعمق في رأينا من الدين واللغة والعوالم الثقافية العابرة للقوميات كالعالم العربي، والفرنكوفوني، والإنجليزي، أو كالعالم

(69) https://www.youtube.com/watch?v=UUhw3HDuhUc&list=UUZxqzqKhqs8fFH_-BqHGkbQ&index=138

(70) <https://www.youtube.com/watch?v=sFNyEzbEliE>

(71) <https://www.youtube.com/watch?v=ygAEXIq3fGc>

المسيحي أو الإسلامي. إنه ثابت المصالح القومية الدائمة بغض النظر عن دين المجتمع أو لغته أو انتمائه إلى عالم ثقافي أو ديني واسع. فما هي المصالح القومية؟ ولماذا نرى أنها أعمق من الدين واللغة والعالم الثقافي الواسع؟ ولماذا يجب اعتمادها كأساس لاتخاذ القرارات المصيرية؟ في كتابه العلمي «نشوء الأمم»، يعطي أنطون سعادة الفصل الأخير منه عنواناً قد يبدو غريباً، ألا وهو «الإثم الكنعاني» وهو مصطلح يدل على تعلق الكنعانيين القدامى بوطنهم الأم. ولكن موضوع الفصل أوسع وأهم بكثير من هذه الجزئية إذ أنه يتناول بالدراسة موضوع المُتَّحد Community والمجتمع والأمة والمصالح. وهذا بحث نعتقد أنه جدير بالتأمل خاصة في هذه الأيام. فما هي المصلحة، وما علاقتها بالمُتَّحد والمجتمع والأمة؟ التعريفات التالية مأخوذة من هذا الفصل من «نشوء الأمم».

المصلحة عند سعادة، هي «طلب ارتياح النفس». إنها «سد الحاجة». فإذا كان الجوع حاجة، فسد الجوع هو مصلحة. التوسع في معنى المصلحة يشمل «كل ما تنطوي عليه النفس الإنسانية في علاقاتها». العلاقات الإنسانية لا يمكن أن تحصل خارج المُتَّحد، فما هو المُتَّحد الاجتماعي؟ «هو جماعة من النَّاس تحيا حياةً مشتركةً في بقعة معينة ذات حدود تفصلها عن غيرها. إنه مجمَّع الحياة الإنسانية». إنه القرية، أو المدينة، أو القطر، أو الأمة. بناء عليه، «رابطة المُتَّحد هي المصلحة، إنها ما يولَّد أو يسبب عملاً اجتماعياً، إنها وراء كل متحد. وكلما نمت الحياة وازدادت، ازدادت المصالح التي تولَّد الاجتماع وقلَّت المصالح المفرقة». ومصلحة المُتَّحد تعلق فوق أية مصلحة جزئية داخله، وتتميز عن مصالح متحدات أخرى. وهذا الأمر ينطبق على المصلحة القومية العليا التي تعلق فوق جميع المصالح الأخرى الداخلية، وتتميز عن مصالح الأمم الأخرى.

والمصالح أنواع، المصالح الأساسية من حيوية ونفسية؛ المصالح السياسية المتعلقة بالدولة وكل ما يتفرع عنها. وتحت هذا كله نجد المصالح الاقتصادية، «الرابطة الاقتصادية»، والتي هي «رابطة الاجتماع الأساسية، والمقصود بها ليس عملية اقتصادية، أو غرض من أغراض الربح الاقتصادي، بل مصلحة «تأمين حياة الجماعة وارتقاؤها».

من هذه التعريفات البسيطة ظاهراً، يصوغ سعادة تحديده للأمة، إنها: «جماعة من البشر تحيا حياةً موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية — المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه، في مجرى التطور، خصائص ومزايا تميّزها عن غيرها من الجماعات». وحدة المصالح تجمع الناس، والخصائص المكتسبة عبر التاريخ، تميزهم عن سواهم. وهذه

الوحدة وهذه الخصائص، هي الأساس الواضح للحقوق القومية. إن وحدة المصالح والمصير هي في أساس الحياة. وما هو أساسي للحياة يعتبر حقا لا يمكن التخلي عنه.

حيوية المجتمع

من الاشتراك في دورة الحياة تنشأ حيوية المُتَّحد أو المجتمع. وكلما انتظمت هذه الدورة وتأمين لها السلام لتنمو، فإنها تقوى وقد تمتد خارج حدودها، أما إذا تعطلت هذه الدورة، أو قُطعت أوصالها، كما هو حاصل اليوم، إذا ضُربت الأرضية الاقتصادية، ضُربت المصالح، وتعطلت الحياة ومات المُتَّحد وهجره الناس.

بهذه الرؤية وبهذه البساطة، يشرح لنا سعادهُ أسس الحياة السليمة لأي مُتَّحد بشري وصولاً إلى الأمة، المُتَّحد الأشمل. ويقول لنا إن المجتمع السوري، بروابطه الاقتصادية، ووحدة أرضه الجغرافية، وتفاعل الأقوام العديدة التي اشتركت في الحياة عليها، سلمًا وحرَبًا، عبر العصور، هذا المجتمع له خصائص مكتسبة تميّزه عن سواه، بغض النظر عن الدين الذي تؤمن به أكثريته اليوم، أو اللغة التي تتكلم بها أو العالم الثقافي الذي تنتمي له.

فهذا المجتمع قد عرف أدياناً عديدة، وعادة ما يتبع المجتمع الأديان التي تختارها ملوكه أو غزاته. وتكلم لغات عديدة أهمها الآرامية التي كانت لغة العالم القديم التجارية من فارس إلى شمال أفريقيا، وكان جزءاً من العالم الهيليني، قبل أن يصبح منطلقاً للمسيحية وجزءاً من عالمها، ومقرراً للمحمدية وقاعدة لانطلاقتها العالمية. وهو اليوم جزء من العالم العربي يتكلم لغته ويساهم في نهضته متى تمكن إلى ذلك سبيلاً.

الثابت والمتغير

من المقطعين السابقين نستطيع أن نميّز الثابت من المتغير. الثابت هو الأرضية الاقتصادية في قطر معين، المولدة للمصالح، والحقوق، والشخصية الاجتماعية ذات الخصائص المميزة، والمتغير هو اللغة والدين والعالم الثقافي.

ما يَسِمُ عصرنا هو استبدال الثابت بالمتغير وفي هذا أخطار عديدة يتجاهلها دعاة العروبة والإسلام من السوريين، أو لا يدرون بها. أهم هذه المخاطر التنازل عن الحقوق القومية والسيادة لدول عربية وإسلامية لها مطامع في أرضنا. إن دعاة العروبة في سورية يقفزون فوق المصالح القومية في سورية فيعطون للسعودية ومصر حق المشاركة في تقرير مصير فلسطين مثلاً، باسم العروبة. إنهم يعطون لإيران ولتركيا وللسعودية والمغرب، بل وللعالم الإسلامي كله، حق

المشاركة في تقرير مصير فلسطين باسم الإسلام. المشكلة أن مصالحنا القومية في سورية هي غير مصالح مصر فيها أو مصالح السعودية، أو إيران، أو تركيا، أو باقي العوالم من مسيحية ومحمدية فرنكوفونية وإنجليزية. بل إن الثابت في مصالح كل هؤلاء هو أن تبقى سورية مقسمة سياسياً، مفتتة اجتماعياً، تبحث عن شخصيتها في الكتابات والحوز والجوامع والكنائس والتجمعات الكبرى، غافلة عن الحقيقة الأساسية التي تربطها، الرابطة الاقتصادية.

والمشكلة التي يقفز فوقها دعاة العروبة والإسلام في سورية أن الإسلام المحمدي ليس إسلاماً واحداً، ولا العروبة عروبة واحدة. الإسلام كتاب واحد، ولكنه مذاهب، ومدارس، وطرق، وفتاوى. نحن في سورية اليوم بين أربع دول تستخدم ثلاثة أنواع من الإسلام السياسي للنفوذ إلى قلبنا. ولكل من هذه الدول أتباع ومناصرون مسلمون وعرب وسوريون يقاتلون السوريين في سورية.

والعروبة عربيات. عروبة السعودية غير عروبة الناصرية وهي غير عروبة البعث البعثية. ولا يستطيع كائن أن يقنع أياً من هؤلاء أن عروبه ليست عروبة، أو قل، إنها ليست «العروبة». وفيما العروبة المغربية والعربية (السعودية ودول الخليج) والمصرية تسبق الإسلام السياسي على التطبيع مع إسرائيل نجد دعاة العروبة والإسلام في الشام يريدون تحصين المجتمع «الإسلامي العربي السوري» ضد من؟ ضد السوريين الذي لا يرضون عن الهوية السورية بديلاً، أو ضد بعض الأقليات التي لا تعتبر نفسها عربية أو مسلمة!

وبعد،

مع هزيمة 1967، انكشفت العروبة السياسية التي وصفها سعاده قبل اغتياله سنة 1949، بأشهر، أنها «وهمية». الهزيمة خلقت فراغاً لم يتمكن الفكر السوري القومي الاجتماعي من ملئه، بل ابتداء الإسلام السياسي بذلك. وبدأت كلمة الإسلام ترافق العروبة بخجل أولاً، ثم بقوة، خاصة بعد انتصار الثورة الإيرانية. فإيران، التي لها مصالحها القومية، ولها حيويتها الممتدة خارج حدودها، تريد أن يكون لها يد في المسألة الفلسطينية. وبما أن إيران ليست عربية، فالمدخل لها هو الإسلام.

ليست العروبة والإسلام خطيئتنا الوحيدة حيال مصالحنا القومية. لقد سمحنا بعزل جزء من شعبنا عن حياتنا القومية. فيوم اعتبرنا الفلسطينيين «لاجئين» في دولنا السياسية، وليس «نازحين»، وضعناهم خارج شخصيتنا الاجتماعية وعاملناهم كغرباء. ويوم قبلنا أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية «الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني»، ثبتنا هذا العزل وأعطينا

لقسم من الشعب، في جيل من أجياله، حق تقرير مصير جزء من أرضنا القومية لأجيال وأجيال. وعندما فعلنا كل هذا قبلنا بما «يقبل به الفلسطينيون». وها هي فلسطين تكاد تختفي تحت وطأة المستعمرات التي تقيم العلاقات المباشرة مع مواطنين عرب ومسلمين يستضيفون فيها عتاة هؤلاء في منازلهم. (بعد نشر مقطع فيديو عن استضافة عائلة خليجية لأشخاص من غلاة المستعمرين الصهاينة في الضفة الغربية).

تحت هذا المشهد، يصبح مصير فلسطين وقفاً على «الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني» الذي تخلى، باعترافه، عن ثمانين بالمئة من أرض فلسطين التاريخية حين قبل باتفاقية أوسلو. وهو يرى اليوم ما تبقى من العشرين بالمئة يهرب من بين أصابعه، فيما دول عربية وإسلامية تتسابق على خطب ود إسرائيل وتقبيل أياديها.

هل يكون في التركيز السوري الأخير على «العرب والمسلمين» تمهيد للقبول بما يقبل به بعض «العرب والمسلمين» حيال فلسطين، أسوة بما سبق وقبل به «الممثل الشرعي والوحيد»؟ هذا ما ستكشفه الأيام.

استهللنا حديثنا بوصف المجتمع السوري المنهار الذي يكافح المواطن فيه لكي يؤمن المصالح الحيوية الابتدائية. لا مجال للخروج من هذا الوضع إلا بالعودة إلى مقومات الاقتصاد السوري - الأرضية الاقتصادية. وهذه الأرضية هي شبكة من الأنهار الكبيرة والمتوسطة والصغرى تشكل قاعدة للإنتاج الزراعي، وموارد طبيعية هائلة من نפט ومعادن ومواقع سياحية وتاريخية، وطاقات بشرية كامنة في الوطن وأكثر منها في المغتربات، وموقع استراتيجي مهم.

نقطة البداية هي في نظر أهل الحكم في الكيانات السورية إلى الأرضية الاقتصادية السورية والمصالح القومية القائمة عليها واتخاذ الخطوات الضرورية لبناء اقتصاد قومي قابل للحياة والتطور والنمو، ونظام سياسي يدير حياة المجتمع بما يؤمن له «حياة أجد في عالم أجمل وقيم أعلى»، والتعبير أيضاً لأنطون سعادة. لن ننظر الدول المحيطة بنا إلى مثل هذه الخطوة بعين الرضى، ونحن نفهم ذلك. ولكن هذه هي مصلحتنا وهذه هي حياتنا ونحن قوم مهددون بالفناء.

الدولة، قائد أم مرآة؟

2022-7-24

ورد في لسان العرب⁽⁷²⁾ أن الدولة والدول بمعنى «السُّنن التي تغيَّر وتُبدَّل»، و«الدَّوْلَةُ الفعل والانتقال من حال إلى حال».

في الأيام القليلة الماضية، كثر التداول بمقطع من فيديو للرئيس بشار الأسد⁽⁷³⁾ يعطي موقفًا رسميًا من موضوع فصل الدين عن الدولة. إن أهم ما يقوله الرئيس الأسد هو التالي: «من النقاط الأخرى التي طرحت أيضًا هو فصل الدين عن الدولة... وقد سُئلت، من ضمن الأسئلة، كيف يمكن فصل الدين عن الدولة؟ فقلت لهم ممكن، ولكن في حالة واحدة...عندما نفصل الدين عن المجتمع. لأن الدولة تتجذر حيث يتجذر المجتمع لا حيث تريد أن تتجذر هي. وعندما ينفصل المجتمع عن جذور محددة، فلا بد للدولة أن تنفصل عن هذه الجذور، فهي مرآة لهذا المجتمع.»

سوف نكتفي بمناقشة نقطة واحدة: «الدولة هي مرآة المجتمع» مستفيدين في ذلك من تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي.

المرآة شيء جامد لا يفعل أكثر من نقل صورة ما دون أن يكون له أي دور في تغيير الأصل. إذا كان هذا هو دور الدولة، فكيف نفسر الدور القيادي التغييري الكبير الذي حاوله حزب البعث العربي الاشتراكي في الدولة السورية - بما له وما عليه وبغض النظر عن النتائج - أقله في النواحي التالية:

(72) <https://www.lesanarab.com/kalima/%D8%AF%D9%88%D9%84>

(73) <https://www.youtube.com/watch?v=k0BCDLj1MaU>

1. إلغاء الإقطاع - الذي كان متجذراً في المجتمع، والإصلاحات الزراعية الواسعة ما أتاح للدولة السورية استقلالاً اقتصادياً برغم تعرضها لعقوبات وحصار.
2. فرض إلزامية التعليم ومجانيته لأعلى مراتب التعليم.
3. تأمين الطبابة المجانية لجميع أبناء المجتمع.
4. بناء عقيدة عسكرية مكنت الدولة من الوقوف في وجه ما جابهته من تحديات خلال قرن من الزمن.

لا داعي للاستفاضة أكثر، فالواضح هو أن الدولة السورية لم تكن مرآة، بل قائداً للتغيير. لقد «ألغت» و«فرضت» و«أمنت» و«بنت» ولم تنتظر أن ينفصل المجتمع عن جذوره. وهذه المفردات هي مفردات فعل لا استكانة ولا عكس للضوء. وهي تنطلق، كلها، من حيث يتجذر المجتمع فعلاً، في مصالحه العليا، وفي طليعتها رقي حياته وحياة أبنائه. ونعتقد أن الاستراتيجية لحفظ أمن سورية كانت من أهم النقاط التي وجهت فكر الرئيس الراحل حافظ الأسد طوال حياته.

لو كانت نظرية الرئيس بشار الأسد أن الدولة هي مرآة المجتمع صحيحة، لما عرف العالم تطوراً ولا المجتمعات تغييراً. لقد كانت الدولة فعل قيادة، في غالبية الأحيان، بما فيها الإسلام المحمدي، لقلة قليلة مؤمنة بعقيدة جديدة، تحدث التغيير في المجتمع.

هل يتجذر المجتمع في الدين؟ لا نعتقد. المجتمع يتجذر في مصالحه. بل نحن نرى أن الدين شيء مفروض على المجتمع من قبل الحكّام. ولعل الحكمة الشعبية تختصر ذلك: «الناس على دين ملوكها.» وكم من مجتمع غير دينه أو مذهبه غلبه، وليس آخرها بلادنا. فهي انتقلت من عبادة إيل إلى المسيحية فالمحمدية تحت وطأة الغزو العسكري الذي فرض دياناته. ونستطرد، أن المجتمع قام بهاتين الخطوتين ليس بالضرورة عن إيمان نفسي وروحي بالدين الجديد، بل حماية لما هو أهم من الدين، مصلحة المجتمع في حياة آمنة ومستقرة.

ولكن، وحتى إذا افترضنا جدلاً أن المجتمع متجذر في الدين، فأى دين هو؟ الأديان الثلاثة المعروفة بالسماوية، اليهودية والمسيحية والمحمدية تعاني من الانقسام والشرذمة إلى ما لا نهاية. بل إن أشرس الحروب التي عرفتتها البشرية وأكثرها دموية، هي الحروب الدينية، بين أتباع كل من هذه الديانات. هل فصل الدين عن الدولة هو فصل للدين عن المجتمع؟ طبعاً لا. إن فصل الدين عن الدولة عندنا نحن السوريين القوميين الاجتماعيين، هو الأول من ثلاثة مبادئ إصلاحية هدفها السلام داخل المجتمع الواحد عن طريق نزع عوامل التفرقة بين أبنائه. أما

المبدأ أن الأخران فهما منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين، وإزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.

إن هذه المبادئ الثلاثة، وفعاليتها، هي ما نحتاجه ليس فقط لمحاربة الإرهاب، بل لتجفيف المستنقعات المذهبية التي تولد الإرهاب، المحلي منه أو المستورد.

القسم الخامس:
فلسطين

قاموس الأراضي المحتلة - فلسطين: سورية الجنوبية

2019-12-29

«نحن نريد تحرير فلسطين لأنها جزء منا، ولأن حياتنا تنقص كثيراً إذا فقدنا فلسطين».

سعاد

«فيمكن، بعد هذا التأسيس المتين، أن نُجزأ بلادنا إلى مئة دولة وأن نسمي كل دولة باسم نخترعه، ويمكن أن يحتل بلادنا أجنبي واحد أو أكثر من أجنبي واحد، ويُقسم وطننا بين دولتين أو أكثر. يمكن أن تنشأ في بلادنا أشكال سياسية كثيرة، ويمكن أن تتبدل هذه الأشكال، لكن حقيقة واحدة تبقى ثابتة، هي حقيقة أمتنا وشخصيتنا القومية التي تغلب في الأخير على كل العوارض». سعاد

أما وقد أعلن وزير الخارجية الأميركية «مايك بومبيو» أن بلاده لم تعد ترى وجود المستوطنات الإسرائيلية فيما يسمى بالضفة الغربية لنهر الأردن «مخالفاً للقانون الدولي»، فإننا ندق المسمار الأخير في نعش ما سُمي بعملية السلام وحلّ الدولتين، ونعود إلى الحل القومي وقاموسنا القومي.

حين تتقدم «الفينيق» من مقارنة أي ملف من ملفات أراضينا السورية المحتلة، فإنها تتقدم من وحي عبارة سعاد الخالدة أعلاه والتي وردت في شرحه لغاية الحزب السوري القومي الاجتماعي في المحاضرة العاشرة. بكلام آخر، إننا دائماً نسأل، ما الذي فقدناه من حياتنا حين فقدنا هذه القطعة من أرضنا أو تلك؟ ما هي الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية؟ ما هو وضع الشعب السوري في تلك الأرض المحتلة اليوم؟ ما هو وضعهم في الشتات؟ ما هي الشروط الضرورية لاستعادة تلك الأرض؟

وحيث نتكلم عن شعبنا المحتلة أرضه، فإننا نتكلم انطلاقاً من كوننا شعباً واحداً. بالتالي، فالفلسطيني في لبنان أو الشام هو نازح وليس لاجئاً. إنه مواطن سوري اضطر للنزوح من حيفا إلى بيروت مثلاً. وفي قاموسنا، حيفا وبيروت هما مدينتان سوريتان يحق للمواطن التنقل بينهما دون أي رادع ودون خسارة أي من حقوقه القومية والمدنية كحق العمل والتملك والتعلم والطبابة والنشاط السياسي.

لقد أخطأت أنظمة سايكس - بيكو، لا بل أجمرت، بحق أبناء شعبنا من الفلسطينيين حين اعتبرتهم لاجئين وليس نازحين. لقد أخطأت، بل أجمرت حين علبتهم في مخيمات لجوء وشحذت من المنظمات الدولية على اسمهم وسرقت ما شحذت ودفعتهم لليأس وأحضان التطرف الديني والمذهبي.

حين نقارب ملف فلسطين نقاربه من زاوية الحق القومي الذي لا يزول بتغيّر الظروف السياسية، ولا بقرارات الهيئات السياسية المحلية منها أو الدولية. بكلام آخر، نحن نقارب الموضوع من زاوية أنه لا يحق لأية هيئة التخلي عن أي شبر من أرضنا القومية. فإن فعلت، فإن هذا التخلي لا يلزم الشعب بأجياله المتعاقبة. بل إننا نقول حتى إذا قرر جيل كامل من هذا الشعب، في رقعة ما من الأرض السورية، أن يتخلى عن حقوقه، فإن تخليه هذا غير ملزم، لا لبقية الشعب في باقي المناطق ولا للأجيال الآتية في تلك البقعة تحديداً.

نهج فلسطين، نهج التحرير

2020-1-28

لا أدري أي درجة من المازوشية دفعتني للاستماع إلى خطب كل من محمود عباس ودونالد ترامب وبنيامين نتنياهو بمناسبة ما سمي بصفقة القرن. ولكنني شعرت أنه إذا كان علينا مواجهة التحدي، علينا تحمّل ساعة من الألم. كان على الوجود أن يحرق لكي يصل إلى نقطة لا يعود يؤلم بعدها على حد تعبير الكاتبة الأميركية «آين راند».

كان المشهد سوراليًا على أكثر من صعيد. على منبر رام الله المسؤولون عن الكارثة الفلسطينية. على منبر البيت الأبيض، المسؤولون عن الانتصار الإسرائيلي. في قاعة رام الله صفّان من الشيوخ على حد وصف محمود عباس، يستمعون إليه يعدد إنجازاته، ويعترض على أخذ 30-40% من «دولة فلسطين» وهي الـ 22% الباقية من فلسطين التاريخية. يستغرب عباس: «رضينا بالبين والبين مش راضي فينا!» مسكين. لم يدرك أن ما وصل إليه هو نتيجة وقوفه في البيت الأبيض يوم توقيع اتفاقية أوسلو معلنا توبته عن «الإرهاب».

مسكين عباس؟ لا. إن شيبته تستحق إذلالًا كهذا.

في البيت الأبيض بعض الكهول، أما الأكثرية فشاب وشابات، بل وصبيّة، معظمهم يرتدي القلنسوة اليهودية يستمعون إلى نتياهو يقيم المقارنة بين ترامب وترومان، وبينه وبين بن غوريون. لقد كان يومًا إسرائيليًا بامتياز. المكاسب التي لم يذكرها ترامب عددها نتياهو: المستوطنات، غور الأردن، التعاون الأمني والاستخباراتي وتقنية المعلومات. أما للفلسطينيين فشعور بـ «الكرامة الوطنية» وخمسون مليار دولار شرط التخلي عن «الإرهاب» وتجريد غزّة من السلاح والقضاء على «حماس» و«الجهاد الإسلامي» وتوطين اللاجئين الفلسطينيين حيث هم، وعدم مساعدة أهالي الشهداء أو الأسرى أو جرحى الاعتداءات الإسرائيلية.

نتنياهو أعلن أنه على كامل الاستعداد لتبني هذه الخطة.
وطبعا لا يكتمل المشهد دون شهود الزور الظاهريين من سفراء عرب الإمارات والبحرين
وعمّان. أما ما خفي فهو أعظم.
هذا هو المشهد. ولا حاجة لوصفه أكثر، لن أضع الروابط. من يرغب بالمشاهدة عليه
البحث.
وبعد،

على المسؤولين عن أوصلو أن يقدموا استقالاتهم جميعا. لقد أخذونا في مسار فاشل
وعليهم تحمل مسؤولية ذلك. وعلى القيادة الفلسطينية الجديدة التي لا بد وأن تقوم، أن تعلن
موت نهج أوصلو وولادة نهج فلسطين، كل فلسطين. الباقي تفاصيل.

أن نزرع الأمل

2020-10-28

إذا مات الوطن في قلبك، فارثه بصمتٍ هناك. لا تُقم له مناخه عامة، فهو في نفوس
الكثيرين منا حيٌّ لا يموت.

مهمتنا، نحن السوريين القومييين الاجتماعيين ليس فقط أن نزرع الأمل، بل أن نسقيه
ونصونه ونحوّله خطأً وإنجازات تليق بطموحاتنا.

يحضرنى هذا الكلام فيما أقرأ على صفحة رفيق عزيز رثائية محمود درويش «خطبة الهندي
الأحمر - ما قبل الأخيرة» والتي قدّم لها رفيقنا بالقول، «إن صراع الحفاظ على الهوية هو
صراع المهزوم، وعلينا أن نعترف أننا هُزمنّا وخسرنا وأصبحت أكتافنا اليوم تنوء بحمل مسؤولية
الحفاظ على ما تبقى من الهوية اليوم... ليبقى لجبل كنعان اسمه الكنعاني.»

هذا كلام ربما يكون صحيحاً لو كان الفلسطينيون شعباً خالصاً ولد وعاش ويبدأ في أرض
فلسطين التاريخية حصراً... ولو لم يكن هناك أنطون سعادة.

نقول لو أن فلسطين جزيرة معزولة دخلها قوم غرباء وأبادوا سكانها عندها يكون لرتائية
محمود درويش قيمتها الجمالية. ولكن فلسطين ليست جزيرة ونحن لسنا أمة عاقر. لدينا
أنطون سعادة، اسمعه يقول:

«... فيمكن، بعد هذا التأسيس المتين، أن تجزأ بلادنا إلى مئة دولة وأن نسمي كل دولة
باسم نخترعه، ويمكن أن يحتل بلادنا أجنبي واحد أو أكثر من أجنبي واحد ويُقتسم
وطننا بين دولتين أو أكثر. يمكن أن تنشأ في بلادنا أشكال سياسية كثيرة ويمكن

أن تتبدل هذه الأشكال، لكن حقيقة واحدة تبقى ثابتة، هي حقيقة أننا وشخصيتنا القومية التي تغلب في الأخير على كل العوارض.»

مشكلة بعض القيادات الفلسطينية أنها أخذت بمنطق «الكتائب اللبنانية»، فأست لكيةانية فلسطينية لا تقل خطرًا عن صنوها اللبنانية. وليس غريبًا فيما الانعزالية اللبنانية تحتضر بعد مئة عام على تأسيسها، أن تحتضر الانعزالية الفلسطينية بعد نصف قرن على تأسيسها أو أقل. لا يا رفيقي، أن ما يحتضر هو فلسطين عرفات وأوسلو وعباس وليس فلسطين سعادة والحزب السوري القومي الاجتماعي.

«تنظير»! أسمعك تقول. لنبحث في الواقع.

حسب تعداد المكتبة اليهودية الافتراضية⁽⁷⁴⁾ يبلغ عدد اليهود في جميع أنحاء العالم، وفق إحصاء سنة 2019، أربعة عشر مليونًا وسبعمئة ألف شخص. ستة وأربعون بالمائة (46.5%) منهم يعيشون في فلسطين المحتلة وتسعة وثلاثون (38.8) في الولايات المتحدة والباقي موزع في مختلف دول العالم. يبلغ تعداد سكان الوطن السوري ما يقارب السبعين مليونًا.

الفرق بيننا وبين السكان الأصليين في الولايات المتحدة وغيرها من الدول التي أبيت شعوبها الأصلية، أنه بعد أن كُسر العمود الفقري العسكري لتلك الشعوب أغرقت بملايين الوافدين من مختلف أنحاء العالم فأصبح الأصليون أقلية لاجئة في بلادهم، يعيشون موتًا بطيئًا. هذه حقيقة.

ولكن هذه الحقيقة لا تنطبق علينا إلا إذا اعتبرنا أن فلسطين جزيرة معزولة. فحتى لو وفد جميع يهود العالم إلى فلسطين، بل إلى الوطن السوري كله، فإنهم يبقون أقلية عنصرية، لهم دولة مثل دولة «الأبارتيد» في جنوب أفريقيا. ونحن نعرف ما كان مصير دولة «الأبارتيد». لقد بادت.

في وضعنا الحالي، نحن نعيش وطأة أكثر من احتلال، بعضها إبادة ممنهجة، بعضها خارجي عسكري، وبعضها داخلي عميل، وبعضها يعود للفساد والسرقة. كلها مجتمعة، تجعل حياتنا، نحن السوريين، جحيمًا من بيروت إلى بغداد. هذه أيضًا حقيقة. ولكن هذه الحقيقة قابلة للعكس، وبسرعة قياسية إذا... إذا قرر السوريون القوميون الاجتماعيون ذلك.

أسمعك تصرخ، «تنظييير»! مرة ثانية. لتتابع البحث في الواقع.

(74) <https://www.jewishvirtuallibrary.org/jewish-population-of-the-world>

الواقع أننا مرضى نرفض أخذ الدواء الشافي. كنا نداوي عللنا برقية من هنا ووصفة مغربي من هناك. جاءنا سعادته وشخص المرض ووصف الدواء، وقال إن ثمة شروطاً ضرورية للشفاء، منها الثبات، ومنها إدراك عامل الوقت. أخذنا الدواء لبعض الوقت، ولكننا أهملنا الشروط الضرورية، فتراخينا، وعاد بعضنا إلى طلب الرقيات ووصفات المغربي. أهملنا قضيتنا وها نحن نبكي عليها. العدو قوي، ما من شك. ولكنه يقوى أكثر حين نياس ونبدأ بتلاوة المراثي لراحة نفس أمتنا عوضاً من صرف الأسنان والثبات على طلب حقنا. إن فينا قوىً كبيرة فاعلة، وهذا ما يجب علينا البحث عنه في داخلية كل واحد منا لعدم الاستسلام لليأس.

ولكن هذا لا يكفي. علينا أن نعيد استنهاض وتنظيم قوانا وأنفسنا بعد الانهيار الكبير الذي تعرض له الحزب. هذا ما تحاوله قلة من القوميين، وهذا ما يجب أن يكون التعويل عليه. من هذه القلة، من البذار الصالح، سوف نعيد بناء الأمل ومنه سنشيد خططنا لعكس مجرى التاريخ. فلسطين ليست جزيرة معزولة ونحن شعب لن يرضخ للإبادة.

ماذا عن اللاذقية؟

2021-12-31

وضربت إسرائيل اللاذقية، وبقي الاعتداء من دون رد. هذا كان قبل «طوفان الأقصى».

«معادلة الردع» المفترضة تقول إنه في حال هاجمت إسرائيل إيران فإن محور المقاومة من غزة إلى لبنان وربما الجولان سوف يُصلي إسرائيل بمئات الصواريخ بما يردعها ويجبرها على وقف الاعتداء، لا بل إنه يردعها حتى عن التفكير به.

ماذا عن اللاذقية؟

واللاذقية هنا جزءٌ نستخدمه مجازاً في وصف الكل. والكل هو بلادنا المستباحة من المتوسط إلى زغروس، ومن طوروس إلى سيناء. إنه العدوان الإسرائيلي المتكرر على الشام، والذي بلغ مع انصرام هذه السنة 29 (راجع عدد الأخبار اليوم)، غارة جوية تبقى كلها بلا رد، إضافةً إلى الاعتداءات على العراق ولبنان وفي فلسطين المحتلة وكل مكان.

هل هناك شيء يعصى على فهمنا أم أن معادلة الردع هذه معلولة؟ إذا كنا في محور مقاومة وممانعة واحد فإن أي اعتداء على الجزء هو اعتداء على الكل سواء أكان الجزء هو بوشهر أو البوكمال، أصفهان أو اللاذقية.

لا حاجة لتكرار ما هو معروف، وما وضحته مقال «سورية الروسية»⁽⁷⁵⁾ للأمين نزار سلوم. ولكن في اعتقادنا أنه ما لم تقم دمشق، وضمناً محور المقاومة، بمحاولة لقلب الطاولة فإن خنّاق المحور المعادي سوف يشتد.

(75) https://majalatalfiniq.com/_trashed-28/

ما الذي يريده المحور المعادي؟ إنه يريد للوطن السوري من بيروت إلى بغداد أن يبقى كما هو: منطقة مستباحة عسكرياً، متفسخة اجتماعياً، منهوبة الموارد، مسروقة مالياً ومدمرة اقتصادياً. ويريد أن تبقى إسرائيل نقيض كل هذا ما يتيح لها توسعاً ديموغرافياً من قلب فلسطين إلى الجولان والجليل، ونفوذاً من تل أبيب إلى كردستان، وقيادة عالم عربي مأخوذ بجده إبراهيم، ناسياً أنه، وفق هذه الخرافة، ما هو سوى ابن جارية في خدمة ابن الست.

والحلفاء؟ إيران تتفاوض من أجل مصالحها، وتستخدم ورقة الشام ولبنان في سبيل حماية هذه المصالح. ماذا يحدث لهذه الأوراق إذا تأمنت مصالح إيران مع الغرب؟ سؤال جدير بالتمعن. والروس؟ عودوا إلى مقالة سورية الروسية، فلن نصف الواقع خيراً منها.

كيف نقلب الطاولة؟ هناك أكثر من نموذج تاريخي لكسر الجمود يمكن لنا مراجعتها دون أن يعني ذلك أنها ما زالت صالحة أو أننا نتبناها. نسمي ثلاثة: طرد الخبراء السوفيات من مصر في شهر تموز سنة 1972، في وقت كانت مصر تبدو أحوج ما تكون لهم. وعملية أولمبياد ميونيخ بعد ذلك بشهرين، والتي أيقظت العالم على أن الفلسطينيين الذين نشأوا في مخيمات اللجوء قرروا الخروج منها. والثالثة هي حرب أكتوبر 1973، حين قررت كل من مصر والشام فتح حرب مشتركة ضد إسرائيل.

بغض النظر عن النتائج التي ترتبت عن كل من هذه القرارات التاريخية، فإن سؤالاً أساسياً يكمن وراء كل منها: ماذا يحدث إذا لم نغيّر المعادلة؟ ولا شك أن الإجابة كانت أن الوضع سيزداد سوءاً، أو أن ثمة فرصة تاريخية لن تتكرر. كل من هذه الأحداث كان نتيجة قرار دراماتيكي بكسر جمود قاتل يأكل من رصيد كل من المعنيين الثلاثة.

نطرح السؤال من وجهة نظرنا نحن. ماذا يحدث إذا لم نغير المعادلة؟ الجواب بسيط. إننا نخسر كل يوم شهداء ومواردٍ وأرضاً و... كرامة. ونخسر قوة استراتيجية في لبنان هي المقاومة التي يضيق الخناق عليها هي الأخرى سياسياً، وبهياً لضربها عسكرياً.

ماذا عن القوى الدولية؟ كل يبحث عن مصالحه عندنا، وفي شكل عام كلهم يلعب على إيقاع إسرائيلي ما فتى يبت في إعلامه والإعلام الأميركي أن الجمهورية العربية السورية ما هي سوى دولة تحكمها عصابات تصنع وتهرب الكبتاغون⁽⁷⁶⁾ عبر ميناء اللاذقية (النيويورك تايمز)، أو هي دولة تسعى لإعادة بناء منشآتها للسلاح الكيميائي (يديعوت وواشنطن بوست).

(76) <https://2u.pw/Kupmwnph>

هذا هو المشهد بكامل عريه وقتامته الذي نودع به السنة الحالية. إنه يُختصر بسؤال نعيد طرحه.

ماذا عن اللاذقية؟

كل عام أنتم بخير؛ كل عام سورية بخير.

نهاية كانون الأول 2021.

متساوون في العبودية!

2022-2-26

لم أقرأ في حياتي مقالاً يدعو للدهشة والغضب مثل مقال السيد علي القاسمي «إسمي المزوّد بالزهور» ما بين السومرية والفرعونية»⁽⁷⁷⁾، والذي نشرته صحيفة «الأخبار» التي نحترمها ونقدّر دورها، في عددها الصادر يوم الجمعة في 25 شباط 2022.

أسباب الغضب متعددة. لنبدأ مع التناقض الواضح بين فقرات المقال نفسه. فهو من جهة يشيد بالسومريين لناحية اختراع العجلة وتقسيم الدائرة والزراعة نفسها. ولكنه يجعل من المجتمع السومري الذي رد إليه كرايمر Samuel Noah Kramer أصل الحضارة الإنسانية في كتابه «التاريخ يبدأ من سومر» History Begins in Sumer، لما تفرّد به من «أوائل» في القانون والأسطورة والأدب والعلم والرياضيات والفلك، مجتمعاً ظالمًا:

«في المجتمع السومري كان هنالك ملوك المدن، وكل ملك يدّعي نسبًا لأحد الآلهة، ما يعطيه شرعية الحكم وظلم الناس، ويؤيده في ذلك كهنة يقيمون معبدًا للإله الذي ينتسب إليه ذلك الملك. ويفرضون على الناس طاعته واستعباده إياهم. ويتمتعون هم والملوك بالأموال والممتلكات. ويأخذون أجمل الفتيات للبهاء المقدّس، ومن يُشتمّ منه معارضة، يقومون بتضحية ابنه للإله. وعندما اخترعوا الكتابة، احتكروها لأبناء الملوك وأبنائهم. والمعرفة عمومًا — والكتابة خصوصًا — قوّة وسلطة. وراحوا يدبّجون الأساطير والأشعار، ويخلعون الصفات المقدّسة على ذلك الإله، ويعدّونه الأقوى والأوحد، لتمجيد حفيده ملكهم.»

(77) <http://links.al-akhbar.com/1OBx>

إن آخر المكتشفات في الرياضيات عند السومريين واستخداماتها التطبيقية⁽⁷⁸⁾ تؤكد أن هذه العلوم كانت متغلغلة في شتى مناحي الحياة، وفي خدمة المجتمع ورفاهية أبنائه.

السبب الثاني يعود إلى كيفية تعاطي السيد القاسمي مع إبراهيم والإطار التاريخي الذي نشأ فيه. فحسب السيد القاسمي، جاء إبراهيم «بشريعة متكاملة تُعدُّ ثورة اجتماعية كبرى في تاريخ البشرية، وتولدت منها أفكار الأديان السماوية الثلاثة».

ويقول القاسمي إبراهيم ما لا يمكن سوى لمنجم فك ألغازه: «جاء إبراهيم الخليل وقال: لا إله إلا الله. وهكذا نسف شرعية أولئك الملوك الطغاة. وقال: نحن جميعاً عبيد الله. فنحن متساوون في العبودية بحيث تتحقق لنا الحرية، فأنا لا يمكن أن أكون عبدَ عبدٍ آخر، لأننا جميعنا عبيد الله.»

ربما يكون السيد قاسمي قد استمد معلوماته عن إبراهيم من القرآن، فقوله ما قاله عنه. ولكن المرجح الأول لإبراهيم هو التوراة، والتي لو أخذ السيد القاسمي بعض الوقت في دراستها لوجد أولاً أن إبراهيم لم يكن أول من قال بالتوحيد، بل كان مذهب التوحيد قائماً في بلاد الشام، حيث ملكي صادق، ملك شاليم كان «كاهناً لله العلي» وهو الذي بارك إبراهيم وليس العكس، تكوين 18: 13-19، ولوجد ثانياً أن الدعوة اليهودية ليست لإله واحد للبشرية جمعاء، بل لإله اسمه «يهوه» يختص بجماعة واحدة وتختص به، وفق «العهد» الذي قطعه مع إبراهيم، والذي يمكن وصفه بالعهد المتدرج. (تكوين 12 و15 و17).

ليس الغرض من هذه العجالة أن نكتب بحثاً دينياً. الغرض هو أن نشير إلى السطحية التي لمسناها في هذه الاختزالات: اختزال السومريين وتشويه صورتهم واختزال إبراهيم وتقديس صورته.

السبب الثالث للغضب هو أن هذه المقالة لا يمكن إدراجها سوى في سياق التسويق لما يسمى «بالاتفاق الإبراهيمي» والذي يطلب منا أن نلغي كل معرفتنا بتاريخنا العظيم، وبعنصرية التوراة القائمة على عهد بين إبراهيم وربّه، يهوه، فنلحن تاريخنا ونقدّس تاريخهم.

نحن أحرار ليس لأننا «لسنا عبيداً لعبد، بل لأننا جميعاً عبيد لله». نحن أحرار لأننا نفكر بحرية ومن يفكر بحرية لا يمكن أن يكون عبداً لأحد.

أما الدهشة التي افتتحنا بها مقالنا، فهي في قيام صحيفة «الأخبار» التي تحمل لواء محاربة الاتفاق الإبراهيمي بنشر مثل هذه الترهات.

(78) <https://factsanddetails.com/world/cat56/sub402/item1511.html>

نقطة تحوّل

2022-10-26

أقرأ هذا المقال اليوم، فإذ به يتضمن استشرافًا خجولًا لما حدث في السابع من تشرين أول سنة 2023. العقيدة الفلسطينية الجديدة هي العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت في الضفة الغربية تحت اسم «عرين الأسود». أما الترسيم، فهو ترسيم الحدود البحرية بين لبنان والعدو الإسرائيلي، والذي كان «حزب الله» أحد الأطراف غير المباشرة فيه.

في الواقع إنها أكثر من نقطة تحوّل، ولكنها مجتمعة تشكل مادة للتأمل.

العقيدة العسكرية الفلسطينية الجديدة: الهجوم

هذه العقيدة بسيطة جدًّا، لكنها مكلفة للإسرائيلي. إنها تترك الأعمال تتكلم وتترجم هذه العقيدة أفعالاً لمن يحسن قراءتها. قوام الاستراتيجية حصار العدو من جهة، خاصة المستعمرات، والبطولات الفردية. ومع أنه ليس واضحًا ما إذا كانت هذه الاستراتيجية هي نتيجة خطة عمل وضعتها منظمة فلسطينية أو أكثر، أو نتيجة أبطال حطّموا أغلال الخوف، فإن نتائجها واضحة. إن عملية الشهيد عدي تميم، وإن انتهت باستشهاده، كلفت العدو الكثير من الأعصاب والمال. النقطة الأهم في الاستراتيجية الجديدة هي في تشكّل حالة وعي جديد لا تعبأ بأوسلو ولا برموزه. إنها ترى احتلالاً يجب تحرير البلاد منه.

للهجوم، هناك حاجة للسلاح. ولكن السلاح، خاصة الفردي منه، متوافر وبكثرة كما يبدو. وهذا ما سيزيد من صعوبة عمل «المؤسسة الأمنية الإسرائيلية» ويراكم في متاعبها.

من هي «عرين الأسود»؟ عدا عن كونها اسمًا لفلسطين، فليس هناك الكثير مما يعرف عنها. إنها ظاهرة جديدة وسيكون لأفعالها الكثير مما تقوله في المستقبل القريب.

الترسيم: مع أو ضد؟

قيل الكثير في موضوع الترسيم، وانقسم الناس حوله. بعضهم رَفَضَه انطلاقًا من المبدئية والخوف من التطبيع، وبعضهم الآخر رَحَّبَ به باسم الواقعية والحاجة الاقتصادية. وبعض ثالث حدّر من أن الغاز قد استولت عليه مافيا المال والسياسة والطائفية في لبنان حتى قبل استخراجها. بالنسبة لنا، الترسيم هو نتيجة لوضعنا العام. ووضعنا العام، كأمة، ضعيف. للخائفين من التطبيع نقول: إذا امتلكتنا القوة القادرة على تغيير مجرى التاريخ، فإن التطبيع والاتفاقيات المذلّة والموت الرخيص في الحروب أو على أبواب المستشفيات، تصبح صفحات مظلمة تخفيها عن نظر أحفادنا بطولات أبنائنا. أما إذا لم نفعل، فسيان اعترضنا على الترسيم أم وافقنا، فهذا كله كلام في كلام لن يغير في واقع الحال شيئًا.

المهم في موضوع الترسيم هو أن المقاومة لن تبادر إلى فتح جبهة الجنوب مع العدو إلا في حال الدفاع عن النفس أو في حال إخلاله بالتفاهم. هذا يعني استقرارًا في الجنوب سوف يحاول العدو الإفادة منه إلى أقصى حد، خاصة لناحية التركيز على جبهته الداخلية. ولكن عدم فتح المقاومة جبهة في الجنوب لا يعني بالضرورة انسحابها من الحرب أو انكفاءها عنها. إننا نأمل أن يقود ذلك الهدوء إلى تكثيف المقاومة جهودها داخل الأراضي المحتلة. عندها، قد نشهد تسابقًا بين مقاومة تعمل لدعم الاستراتيجية الفلسطينية الجديدة بكل ما تملك، وعدو يدفع بكل ما يملك لمنع ذلك.

الحزب السوري القومي الاجتماعي: تجذّر عقلية الانقسام

في الواقع، هذه ليست نقطة تحوّل إلا لدى قلة قليلة من القوميين. يبدو أن الراغبين بالمحافظة على الوضع القائم أقوى من المطالبين بتغيير جذري ينقذ الحزب من مستنقع الشردمة الذي يتخبط فيه. القوميون قد تمترسوا، بعضهم وراء هذا وبعضهم وراء ذاك. ولعل التشبيه الأدق الذي يمكن استخدامه هو «موارنة وروم». يصلبون يسوع مرتين في السنة ويقيمانه مرتين، ولا يعرف أحد منهم علام الاختلاف.

بالنسبة للقلة، حزب القضية غائب عن القضية. الأحزاب التي تحمل اسمه، أصبحت عبئًا

على الأمة والمجتمع. إنها تعمل من يوم ليوم، ومن فاتورة لفاتورة، تبحث عن ممول وداعم دون أدنى اعتبار لنظرة وغاية يجب تحقيقهما، أو لتخطيط لا بد منه.

من منظورنا، هذا هو الواقع. فهل نشهد ولادة تشكّلات تحاول أن تأخذ بالقضية التي من أجلها أسس سعادته حزبه، بمعزل كلي عن التنظيمات القائمة وبمعزل كلي عن الأشخاص والشخصيات التي ملّ الناس سماع صوتها، ولعلنا في عدادها. هل تستطيع هذه التشكّلات أن تخلق حالة لا تشبه حالة الحزب اليوم؟ هل تنتهي هذه التشكّلات كمذاهب وطوائف؟ هل يستطيع أحدها أن يكون له من قوة الجذب ما يكفي ليصبح حركة الشعب العامة التي أرادها سعادته؟ هذه بعض الأسئلة التي تدور في البال.

جدك قتل جدّي

2023-1-9

مع هذا المقال، نبدأ بمعالجة الأزمة الإسرائيلية التي انفجرت عقب محاولة بنيامين نتنياهو تغيير القواعد القضائية في دولة الكيان الصهيوني.

تأخذ الأزمة الإسرائيلية المتدحرجة بعداً جديداً بعد قرار المحكمة العليا في كيان الاحتلال إبطال توزيع آريه درعي كونه مداناً بجرم التهرب الضريبي. ففي كلمة ألقاها أمام بيت درعي، يقول أبشالوم أوهايون، المقرب من الوزير درعي، «عشرة قضاة من الأشكنازيم البيض الذين قتلوا أجدادنا»، في إشارة إلى أن عشرة قضاة من أصل أحد عشر قاضياً في المحكمة العليا - كلهم أشكنازيم، أي يهود غربيون - هم الذين اتخذوا القرار، في حين رفضه جزئياً القاضي الحادي عشر والذي ينتمي إلى طائفة السفارديم أي اليهود المتحدرين من شبه الجزيرة الأيبيرية في العصور الوسطى.

لم يوضح أوهايون ما يقصده بقوله «الأشكنازيم البيض الذين قتلوا أجدادنا». ولكن الاختلافات بين الطائفتين والتي تعود إلى أكثر من ألف سنة، ظهرت في دولة الاحتلال منذ تأسيسها، وتفاقت على أكثر من صعيد. فالأشكنازيم أكثر ثراء ونفوذاً في الدولة وينظرون إلى السفارديم نظرة دونية. في الانتخابات ما قبل الأخيرة، وفي محاولة منه لكسب أصوات اليهود الروسيين وإبعادهم عن حزب الليكود، قال يائير لابيد إن حزب الليكود قد أصبح «حزب السفارديم»، ما اعتُبر بمثابة سبة ضدّهم انعكست سلماً عليه وعلى حزبه فترجع عنها.

إسرائيل ما بعد قرار المحكمة، ليست كما قبله. إن الشقوق التي تتسع بسرعة بعد نتائج الانتخابات الأخيرة تتجاوز الخلافات السياسية بين اليمين واليسار إلى الخلافات العرقية والطائفية

والمالية بين اليهود أنفسهم، كما تشير كلمة أوهايون أعلاه. هذه الشقوق، بنظر البعض، تهدد إسرائيل وجوديًا ما يدفع بعدد من الشخصيات اليهودية وغير اليهودية لطلب المساعدة من أجل «تخليص إسرائيل من نفسها». أبرز هؤلاء كان توماس فريدمان في مقال نشرته له صحيفة نيويورك تايمز يطلب فيها من الرئيس بايدن «تخليص إسرائيل»⁽⁷⁹⁾. وكان سبق ذلك مقال في الصحيفة نفسها يحذر من الخطر على «الديموقراطية الإسرائيلية»⁽⁸⁰⁾.

إلى أين من هنا؟ مباشرة بعد قرار المحكمة، طلبت المدعي العام الإسرائيلي غالي مهاراف - ميارا من ننتياهو أن يطرد درعي من حكومته. لنتنياهو أن يستجيب لقرار المحكمة ما يضعف ائتلافه دون أن يفجره بالضرورة، أو أن يرفض الطلب، فيدخل فيما يصفه محللون إسرائيليون بمأزق دستوري مع المحكمة. المفارقة أن عبارة «مأزق دستوري» غير دقيقة إذ ليس هناك من دستور في إسرائيل، بل مجموعة من الأعراف.

بالنسبة للحكومة، قرار المحكمة يؤكد نظرتها أنه يجب قص أظافر السلطة القضائية عبر تشريعات جديدة تجيز للكنيست تجاوز قراراتها بأكثرية عادية. هذه التشريعات تحت مسمى «الإصلاح القضائي»، هي التي تدفع اليهود الأميركيين تحديدًا لرفع الصوت ومطالبة بايدن بإنقاذ إسرائيل. فغالبية اليهود الأميركيين هم أشكنازيم، ويقدر عددهم ما بين الخمسة والستة ملايين من أصل حوالي السبعة إلى ثمانية مليون يهودي أميركي، يليهم السفارديم، وهم في حدود الثلاثمائة ألف. بين اليهود الأشكنازيم، هناك حوالي المليونين تقريبًا ممن يتبعون الطقس المحافظ، أو الإصلاح. والطقسان غير مقبولين⁽⁸¹⁾ لدى اليهود الأرثوذكس في إسرائيل. من هنا يخشى اليهود الأميركيون تشريعات كهذه تُدخل إسرائيل في نفق الدولة المحكومة وفق الشريعة الأرثوذكسية، وتضعف اليهود المحافظين والإصلاحيين.

لا يجوز أن نفهم من هذا الكلام أن نهاية إسرائيل وشيكة، فدون هذا معطيات وعوامل شتى. ما يمكن استنتاجه هو أن الشقوق والفوالق داخل المجتمع الإسرائيلي تتزايد ما يدفع عددًا من السياسيين الإسرائيليين، وفي طليعتهم رئيس الدولة، هرتزوغ، لطلب التهدئة، ويدفع بعض اليهود الأميركيين لطلب تدخل الإدارة الأميركية ليس فقط من أجل إنقاذ إسرائيل من نفسها، بل حماية للمصالح الأميركية كما يقول فريدمان في مقاله المشار إليها أعلاه.

(79) <https://www.ynetnews.com/article/sjwnxvrjs>

(80) <https://www.nytimes.com/2022/12/17/opinion/israel-netanyahu.html>

(81) <https://www.timesofisrael.com/why-israel-detained-a-rabbi-for-performing-a-wedding-and-why-people-are-angry/>

حماية المصالح الأميركية؟ نعم. يقول فرديمان، «إن إسرائيل التي يعرفها بايدن تختفي، ويحل محلها إسرائيل جديدة. في هذه الحكومة، هناك عدد من الوزراء المعادين للقيم الأميركية... بايدن هو الشخص الوحيد القادر على منع ننتياهو من تحويل إسرائيل إلى قلعة للتعصب المعادي لليبرالية.» ولكن هل يكفي هذا لكي تهدد إسرائيل المصالح الأميركية؟ كلا. لهذا يُلمح فريدمان بعد عدد من المقاطع بالقول، «لقد منحت الولايات المتحدة إسرائيل كمية هائلة من المساعدات الاقتصادية بالإضافة إلى معلومات استخباراتية حساسة وأسلحة فائقة التطور. إنها المعلومات الاستخباراتية الحساسة والأسلحة الفائقة التطور التي، إذا وقعت في أيدي المتعصبين المعادين للقيم الأميركية»، تصبح أداة تهديد للمصالح الأميركية.

ماذا عن الموقف الأميركي من كل هذا؟ بين بايدن وننتياهو علاقة قديمة وملتبسة. بايدن يصرّح دائماً أنه صهيوني. ولكن في الوقت نفسه لا نخاله ينسى ما قام به ننتياهو حين فرض نفسه خطياً في الكونغرس، موجهاً النقد لإدارة أوباما وسط تصفيق الجمهوريين. ولكن ما يحكم العلاقة الأميركية الإسرائيلية لا يبنى على العلاقات الشخصية، بل على المصالح، مصلحة الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط، ودور إسرائيل فيها، والمنافسة بين الجمهوريين والديموقراطيين في خطب ود منظمات المؤسسة الإسرائيلية في الولايات المتحدة والتسابق على الظهور بمظهر صديق إسرائيل الأعظم.

لهذه اللحظة، المصالح متقاطعة ومتشابكة ، ولكنها عرضة للتغيير.

وعد كامبون Cambon بلفور الفرنسي يسبق نظيره البريطاني بستة أشهر

2023-1-28

نشر هذا المقال بالتزامن مع صحيفة الأخبار الغراء.

لماذا منحت بريطانيا الحركة الصهيونية وعد بلفور؟ ما هي العلاقة بينه وبين اتفاقية سايكس - بيكو؟ هل كانت تلك الاتفاقية خطوة في سلسلة خطوات من خطة محكمة للحركة الصهيونية؟ كيف وجد هذا الوعد طريقه إلى صك الانتداب على فلسطين؟ أسئلة لا تزال بحاجة إلى جواب. ذلك أننا إذا لم نفهم العلاقات السياسية التي نسجت ذلك الوعد، لن نفهم العلاقات السياسية التي لا تزال تحمي المآسي التي خلفها. نأمل أن يقدم هذا البحث بعضا من الأجوبة المطلوبة.

تمهيد

في الرابع من حزيران لسنة 1917 يسلم جول كامبون Jules Cambon، الناظر العام لوزارة الخارجية الفرنسية، رسالة إلى ناحوم سولوكوف، الأمين العام للكونغرس الصهيوني العالمي، يقول فيها:

«لقد تفضلتم بتقديم المشروع الذي تكرسون جهودكم من أجله والذي يهدف إلى تنمية الاستيطان اليهودي في فلسطين. أنتم تعتبرون أنه، إذا سمحت الظروف بذلك، ومع الحفاظ على استقلال الأماكن المقدسة من ناحية أخرى، سيكون عملاً عادلاً وتعويضاً مستحقاً أن نساعد، ومن خلال حماية دول الحلفاء، على نهضة القومية اليهودية في تلك الأرض التي نُفي منها شعب إسرائيل منذ قرون عديدة.»

إن الحكومة الفرنسية، التي دخلت هذه الحرب الحالية للدفاع عن شعب تعرض لهجوم ظالم، والتي تواصل النضال لتأكيد انتصار الحق على القوة، لا يسعها إلا أن تشعر بالتعاطف مع قضيتكم، التي يرتبط انتصارها بانتصار الحلفاء.

إنه ليسعدني أن أقدم لكم طيه مثل هذا التأكيد.»

هذه الرسالة تسبق رسالة - وعد - آرثر بلفور بستة أشهر.

ما هي قيمة هذا الخبر التاريخي ولماذا لم يأخذ هذا التأكيد مداه الإعلامي مثل وعد بلفور، مع أنه يفوقه تشددًا ووضوحًا لناحية «القومية اليهودية» وارتباطها بأرض فلسطين؟ لنبدأ من السؤال الثاني. من المرجح أن الخبر لم يلق الاهتمام لأن الفرنسيين تعمدوا طمسه، خاصة بعد أن أدركوا أنهم كانوا ضحية خدعة بريطانية - صهيونية. ولكن السؤال الأول هو المهم، خاصة لأولئك المهتمين بدراسة المنظمات التاريخية والعوامل الفاصلة في نجاحها. لنعد إلى البداية. في مئوية ذكرى وعد بلفور، نشرت مجلة موزايك مقالًا بقلم مارتن كرايمر، عنوانه الحقيقة المنسية عن وعد بلفور،⁽⁸²⁾ *The Forgotten Truth About the Balfour Declaration*. بالمختصر الشديد، يقدم هذا المقال صورة تفصيلية عن المفاوضات متعددة الجبهات التي قادها سوكولوف مع البريطانيين والفرنسيين والفايكان والطلين والأميركيين من أجل أن يحظى وعد بلفور، الذي كانت بريطانيا بصدده إعلان، بدعم من جميع الحلفاء المعنيين. في هذا الصدد تتركب أمامنا صورة معقدة يجب تفكيكها.

«الأسطورة اليهودية العظيمة»

يقول المقال إن الصورة النمطية للسبب الذي من أجله قررت بريطانيا منح وعد بلفور هو حاجتها لأن يبقى اثنان من الحلفاء في الحرب، وهما روسيا والولايات المتحدة. بنظر البريطانيين، كان النفوذ اليهودي في هذين البلدين ضروريًا، فقرروا أن يوظفوه. ويعلق كاتب المقال بالقول: «إن الكلام يبدو لنا اليوم كتضخيم لقوة اليهود في ذلك الوقت. ولكن السياسة البريطانيين كانوا يعتقدون بما سمّاه المؤرخ الصهيوني البريطاني، هاري ساخر، Harry Sacher، «الأسطورة اليهودية العظيمة». يقول ساخر:

«تجد هذه الأسطورة مثالها الأغبي والأكثر فظاظة في بروتوكولات حكماء صهيون. ولكن عددًا من الأشخاص، بمن فيهم أولئك الذين يرفضون هذه الكذبة والتزوير، لديهم

(82) <https://mosaicmagazine.com/essay/israel-zionism/2017/06/the-forgotten-truth-about-the-balfour-declaration/>

بقايا من اعتقاد بهذه القوة وبوحدة اليهود. إننا نعانى من هذا الأمر، ولكنه ليس بالكلية من غير مردود. إنه واحد من الأمور التي لا يمكن إدراك كنهها في السياسة، ولكنها تلعب، عن وعي أو عن غير وعي، دورها في حسابات وقرارات رجال الدول.» إضافة لهذا السبب النمطي، يعدد المقال عددًا من الأسباب التي اعتمدها المؤرخون، والتي تتمحور حول برّيطانية الوعد. ولكنه يخلص للقول، «حين ندرك القصة كاملة، سوف يظهر وعد بلفور بشكل مختلف تمامًا عما نعرفه. إنه لا يبقى استيلاء إمبريالياً برّيطانياً، بل نتيجة توافق دولي مبني بعناية من قبل الديموقراطيات الكبرى في ذلك الوقت.»

ليست برّيطانيا وحدها

ولفهم الموضوع بشكل أوضح، يشرح الكاتب أنه بما يخص فلسطين، لم يكن بإمكان برّيطانيا العمل بشكل منفرد إذ كانت عضواً في تحالف يضم كلا من برّيطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا والولايات المتحدة، فكان لا بد من تنسيق الخطوات فيما بينهم. بالتالي لم يكن بإمكان برّيطانيا منفردة أن تتعهد علناً بما يخص مستقبل إقليم تهدف إلى كسبه بالحرب دون موافقة حلفائها، خاصة أولئك الذين كانت لديهم مصالح في فلسطين. ويضيف الكاتب أن هذه الحقيقة تبدو مشوشة بسبب صيغة وعد بلفور. فالوعد صادر عن حكومة «جلالة الملك»، ولا أحد سواها. وهو موقّع من قبل وزير خارجية برّيطانيا ولا أحد سواه. ولكن، في الحقيقة، يعبر هذا الوعد عن توافق عريض بين الحلفاء حتى ليتمكن مقارنته بقرارات صادرة عن مجلس الأمن اليوم. يعطي كاتب المقال سوكلوف حصة الأسد من التقدير في الحصول ليس فقط على وعد بلفور، بل على موافقة كل من فرنسا وإيطاليا والفاتيكان والولايات المتحدة على هذا الوعد. فمن هو سوكلوف؟

ناحوم سوكلوف

ولد سوكلوف في منتصف القرن التاسع عشر في وسط بولندا وحصل على دراسة حاخامية، ولكنه لم يكتف بذلك، بل انغمس في الدراسات العلمانية بحيث أصبح متمكناً من عدد من اللغات والمواضيع، بما فيها تمكّنه من العبرية، التي أصبح من أهم الصحفيين والكتّاب بها. حضر سوكلوف المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1897، حيث وقع تحت سحر ثيودور هرتزل وأصبح من كبار دعاة الصهيونية. سافر إلى مناطق مختلفة من الإمبراطورية العثمانية وأوروبا والولايات المتحدة. سنة 1911، انتخب إلى الهيئة التنفيذية للحركة الصهيونية، ومع اندلاع

الحرب انتقل إلى بريطانيا ليعمل جنبًا إلى جنب مع حاييم وايزمن للحصول على اعتراف بأهداف الصهيونية من البريطانيين. مع دخول الحرب سنة 1917، كان للصهاينة هدفان، أن يريح الحلفاء الحرب وأن يضعوا فلسطين تحت حماية بريطانية خالصة. ففي بريطانيا وحدها كان لهم من الدعم والصداقات ما يؤهلهم لمواجهة المعارضة القاسية التي كانوا يواجهونها من أكثر من جهة في أوروبا، بما فيه عدد من كبار الشخصيات اليهودية الفاعلة. غير أن الصهاينة كانوا في مواجهة عقبتين كبيرتين، الأولى أن البريطانيين سبق وأن وعدوا بتقاسم فلسطين مع حلفائهم، والثانية أن الصهاينة لم يكونوا على معرفة بهذا الأمر.

اتفاقية سايكس - بيكو

سنة 1916، يتم الاتفاق الثلاثي بين بريطانيا وروسيا وفرنسا على تقسيم تركة الإمبراطورية العثمانية وفق «اتفاق آسيا الصغرى» أو الاسم الأكثر شيوعًا، اتفاقية سايكس - بيكو. في هذا الاتفاق، كان هناك عدد من المصالح المحمية للفرنسيين في فلسطين. فالجليل الأعلى كان لهم، والقدس كانت ستكون تحت وصاية دولية، لا يتم تقرير مصيرها دون التشاور مع باقي الحلفاء. لقد كان هذا الأمر يشكل خطرًا كبيرًا على الهدف الصهيوني، بحيث وصفه وايزمن لاحقًا، بأنه كان سيكون «قاتلاً لنا».

في السنة نفسها، يصل دافيد لويد جورج إلى سدة رئاسة الوزارة، ومن حسن حظ الصهاينة أنه كان يشعر في قرارة نفسه أن اتفاقية سايكس - بيكو تعطي الفرنسيين أكثر بكثير مما يستحقون، خاصة وأن البريطانيين هم الذين يقاتلون ويقتلون في سيناء وفلسطين. هنا كلف رئيس الوزراء لويد جورج، مارك سايكس، أحد طرفي المفاوضات مع الفرنسيين، إعادة توزيع حصص فلسطين بما يضمن للإنجليز حصة الأسد. حاول سايكس ذلك مع نظيره بيكو، الذي رفض الموضوع رفضًا قاطعًا وأصرَّ على أن تبقى حصة الفرنسيين مساوية لحصة الإنجليز في فلسطين.

حين اكتشف مارك سايكس الصهيونية

هنا، حسب المقال، «يكتشف» مارك سايكس الصهيونية. يقول سوكولوف لاحقًا، «إنها تبدو، لأول وهلة، قصة صعبة التصديق. ذات يوم ظهر شخص يدعى سايكس، قام ببعض الاستفسارات ثم أظهر رغبة بلقاء قادة الحركة الصهيونية». عُقد اللقاء في السابع من شهر شباط من سنة 1917، في أحد المنازل في لندن. وقد حضره كل من سوكولوف، وايزمن، اللورد والتر روتشيلد، جايمس دو روتشيلد وهربرت صموئيل. أي حضره، إضافة إلى مسؤولي الحركة، ممثلون عن

فرعي عائلة روتشيلد في كل من فرنسا وبريطانيا إضافة إلى هربرت صموئيل، أول وزير يهودي في حكومة بريطانية، ومن عتاة الصهاينة، والذي سيصبح أول مندوب سام بريطاني على فلسطين بعد الانتداب. في ذلك اللقاء يلوح سايكس باحتمال أن تمنح بريطانيا الحركة الصهيونية نوعا من الاعتراف، ولكن...

العقبة الفرنسية

«الفرنسيون يشكلون عقبة كبيرة. إنهم يريدون كل سورية ومشاركة في القرارات المتعلقة بفلسطين.» هذا ما قاله سايكس للحضور، حاضاً إياهم على التواصل مع الفرنسيين «لوضع وجهة نظر اليهود أمامهم، وإقناعهم.» بعد نقاش، كُلف سوكولوف بهذه المهمة.

سوف نتجاوز بعض التفاصيل التي يذكرها المقال لنركّز على ناحية مهمة. قابل سوكولوف جورج بيكو - المفاوض الفرنسي في اتفاقية سايكس - بيكو عدداً من المرات. في المرة الأولى، طرح وجهة نظره بأن تكون بريطانيا وحدها هي «الحامية» في فلسطين، ولكن بيكو رفض ذلك. من هنا، حين قابل سوكولوف فيما بعد، رئيس الوزراء الفرنسي، ألكسندر ريبو، وجول كامبون، الذي قابله ثلاث مرات، لم يأت على ذكر بريطانيا، بل ركّز على «جدوى المشروع الصهيوني، وعلى كونه محرّكاً حيوياً للرأي العام اليهودي في كل من روسيا والولايات المتحدة.» اكتفى الفرنسيون بالتعبير عن تأييد للمشروع بشكل عام. ولكن سوكولوف لم يكتف بهذا، بل كان لديه الجرأة لطلب هذه الموافقة خطياً، وحصل عليها بالفعل في الرسالة التي عرضناها في مقدمة هذا البحث، والتي يقول المؤرخون عنها إنها كانت، بالشكل والمضمون، أكثر ملاءمة للمشروع الصهيوني من وعد بلفور ذي اللغة المخففة. لقد ربط الفرنسيون موقفهم بما سموه «العدالة» و«التعويض» واعترفوا بـ «الرابط التاريخي» بين اليهود وفلسطين. كما أن الرسالة ربطت الصهيونية بقضية الحلفاء ولم تأت على أي ذكر لحقوق من هم من غير اليهود.

لقد تفوق سوكولوف على وزارة الخارجية الفرنسية بدهائه مهارةً وحسماً. لقد حصل منهم على تعهد خطي بدعم مشروعه، فيما لم يأخذوا منه أي تعهد على الإطلاق. «لقد تم تخطي العقبة الفرنسية.» هكذا وصف المؤرخان أندرو وكانيا أندرسون - فورسترن نتيجة جهد سوكولوف في فرنسا، كما يرد في المقال.

«سوف نكون جيراناً طبيين»

بهذه الكلمات لخص البابا بندكتوس الخامس عشر إلى سوكولوف موقف الفاتيكان من

الهدف الصهيوني. هذا الموقف كان عكس موقف البابا السابق بيوس العاشر الذي قال لهرتزل سنة 1904، وبكلام لا يعرف المواردية، «لقد رفض اليهود الاعتراف بسيدنا، لهذا لا يمكن لنا الاعتراف بالشعب اليهودي.» هذه الزيارة إلى روما كانت بتشجيع من الفرنسيين وتسهيل من البريطاني سايكس. ومثل البابا، قامت الحكومة الإيطالية بالتأكيد لوسوكولوف عن حسن نيتها تجاه المشروع الصهيوني وتعاطفها معه.

لم يبق سوى الأمريكيان

هنا أيضا، ظهرت لمسة سوكلوف الذي كان قد جذب القاضي الشهير لويس براندايز، Louis Brandeis، الذي عينه الرئيس الاميركي ولسن قاضياً في المحكمة العليا، والذي أقنع ولسن بدعم الحركة الصهيونية. بعد ذلك كرّرت السبحة بإصدار كل من اليابان وإيطاليا الدولتين اللتين سوف تشاركان في مؤتمر السلام في فرساي، وتصبحان من الدول دائمة العضوية في «مجلس عصبة الأمم»، تأييدهما للمشروع. بعد كل هذا أصبح إدخال نص وعد بلفور في صك الانتداب البريطاني على فلسطين من تحصيل الحاصل.

أين كان السوريون؟

أين كان السوريون من كل هذا؟ هل كان هناك من معرفة بما يدور ومحاولة ما لوقفه. الجواب نعم، ولكن تفصيله في حلقة قادمة من هذا البحث.

إبراهيم متري رحباني السوري المتنور في مواجهة الانتداب

2023-3-10

الفصل الثاني من البحث الذي بدأناه تحت عنوان «وعد كامبون، بلفور الفرنسي يسبق نظيره البريطاني بستة أشهر». في هذا الفصل نبحث في كيفية تعاطي السوريين، خاصة في المهجر، مع أحداث تلك المرحلة عبر أحد أعلامهم، إبراهيم متري رحباني من بلدة الشوير. نُشر هذا البحث بالتزامن مع الزميلة الأخبار.

ماذا كان يفعل السوريون في المرحلة التي كان فيها أقطاب الحركة الصهيونية وحلفاؤهم البريطانيون يحتالون للوصول إلى وعود دولية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؟ إن مراجعة وثائق تلك المرحلة جديرة بالبحث لاستخلاص العبر. فمع احتدام المعارك في نهاية الحرب العالمية الأولى، كان السوريون مقسومين حول من يجب أن يحكمهم بعد نهاية الحرب! فكان هناك معسكر قوي مع فرنسا ومعسكر أضعف مع بريطانيا، ومعسكر ثالث، في الولايات المتحدة، يفضلها على الاثنين. يمكن للقارئ المهتم مراجعة ما كتبه الباحث القدير الرفيق جان دايه في كتابه، «عقيدة جبران»، وكذلك كتابات الدكتور خليل سعاده من البرازيل عن تلك المرحلة وعن الصراعات التي كانت دائرة في الصحف السورية خاصة في المغتربات.

إبراهيم متري رحباني

في هذا البحث سوف نركز على شخص واحد عمل بجد وصمت ووفق رؤية متنورة وضعها في برنامج سياسي متكامل نشره سنة 1918، في كتاب تحت عنوان «أمريكا أنقذي الشرق الأدنى». هذا الشخص هو القس إبراهيم متري رحباني.

ولد إبراهيم متري رحباني في بلدة الشوير، جبل لبنان سنة 1869، وكان والده بَنَاءً كحال عدد كبير من الشويريين. انتقلت العائلة إلى بلدة بتاتر الشوف، سنة 1875، حيث تسلم رحباني الأب إدارة مصالح شخص فرنسي اسمه Lafortune، ويعرف باسمه المعرّب، «الفرتوني». في التاسعة من العمر بدأ العمل مع والده في مهنة العمار، ولكنه حين بلغ السابعة عشر من العمر قرر أن يتعلم، فالتحق بمدرسة البروتستانت في سوق الغرب سنة 1886، حيث درس فيها لمدة سنتين، وهناك تحول عن الأرثوذكسية إلى البروتستانتية. ثم علّم فيها وفي زحلة لمدة ثلاث سنوات، قبل أن يهاجر إلى أمريكا سنة 1891.

في أمريكا، عمل لسنة ونصف في متجر، ثم عيّن رئيس تحرير صحيفة «كوكب أمريكا»، أول صحيفة تصدر باللغة العربية في الولايات المتحدة. بعد سنة ترك الصحيفة وتجول في الغرب الأوسط متحدثاً في الكنائس عن «الأرض المقدسة»، بلغة إنجليزية ركيكة. في واحدة من تلك الجولات، عيّن مبشراً بديلاً في إحدى الكنائس ليستمر في حياة التبشير لحين وفاته سنة 1944. ألف رحباني عدداً من الكتب باللغة الإنجليزية هي «رحلة بعيدة»، سنة 1913، «المسيح السوري» سنة 1916، «أمريكا المتشددة ويسوع المسيح»، سنة 1917، «أمريكا أنقذي الشرق الأدنى»، سنة 1918، «حكماء من الشرق ومن الغرب»، سنة 1923، «سبعة أيام مع الله»، سنة 1926، و«الترجمات الخمس ليسوع»، سنة 1940. في أكثر كتبه شهرة، «المسيح السوري»، يشرح رحباني الخلفية الثقافية والفكرية والاجتماعية السوريّة لقرائه من الغربيين، كمدخل لفهم الإنجيل، ويقارن بين أساليب التفكير والتعبير لدى الشرق والغرب ونقاط الالتقاء والافتراق بينهما. لا شك أن رحباني كان ذو ذكاء فطري كبير، فهذا رجل يصل نيويورك سنة 1891، دون أن يجيد كلمة من اللغة الإنجليزية، يبدأ بنشر قصة حياته في مجلة «أتلنتك منثلي» Atlantic Monthly، واحدة من أعرق المجلات الأميركية وأكثرها رواجاً، سنة 1913، فتلقى نجاحاً كبيراً، فيجمعها وينشرها في كتاب تحت عنوان «رحلة بعيدة»، A Far Journey. ثم يتابع الأمر نفسه فينشر مقالات فيها تحت عنوان «المسيح السوري»، The Syrian Christ، ليعود ويجمعها في كتاب تحت نفس العنوان. هذا العمل يدلّ، ليس فقط على تمكنه من اللغة الإنجليزية، بل على إقامته شبكة من العلاقات بين مثقفين أمريكيين أتاحت له النشر في تلك المجلة العريقة. هذه الشبكة سوف يعود إلى توظيفها في خدمة مشروعه السياسي.

العمل السياسي

في «رحلة بعيدة»، نبدأ تلمس خطوط اهتمامه بالعمل العام وبالمسألة السورية. فهناك

نقرأ أن سبب قبوله العمل في الصحيفة كان إمكانية أن تكون منبرًا يوصل فيه أفكاره عن الإصلاح في سورية. فكيف اختط هذا الطريق؟

كان رحباني يكره العثمانيين وحكمهم وسلطانهم كرهًا شديدًا عبّر عنه في «رحلة بعيدة». مع احتدام المعارك في الحرب العالمية الأولى، ينشر كتابه «أمريكا المتشددة ويسوع المسيح (1917) الذي يقدم فيه الحجج «المسيحية» لوجوب مساهمة أمريكا ليس فقط في التغلب على قوى المحور، بل في الاندفاع شرقًا وتحرير سورية، «وطن المسيح»، من الحكم العثماني.

أمريكا أنقذ الشرق الأدنى

في العام التالي، ينشر كُتيبًا بعنوان «أمريكا أنقذ الشرق الأدنى» والذي يوظف فيه جميع قواعد فن اللوبي السياسي. منه، يتضح لنا أن رحباني كان ناشطًا سياسيًا بامتياز في سبيل استقلال سورية عن العثمانيين وعدم السماح بوقوعها فريسة في يد الإنجليز والفرنسيين. فنراه يقدم أطروحة كاملة متماسكة، لجمهور أمريكي مسيحي محافظ ومؤيد للعزلة الأمريكية عن شؤون العالم الخارجية، حول ضرورة مبادرة أمريكا إلى متابعة زحفها شرقًا وإلى إنقاذ سورية من براثن العثمانيين. وبدبلوماسية فائقة، نراه يتوجه بالشكر لما قدمه الإنجليز والفرنسيون لسورية، ولكنه يدعو إلى أن تتسلمها جهة «لا أطماع لها» بقواعد عسكرية أو بأسواق، بل تتولى مساعدتها من وجهة نظر بحت إنسانية.

كتب رحباني كتابه على ما يبدو بعد أحاديث مطولة مع أمريكيين وخصوصًا العاملين في حقل السياسة الخارجية ومن بينهم هنري كنج، الذي سيصبح عضوًا في لجنة كنج - كراين - التي أوفدها الرئيس ولسن لاستفتاء السوريين حول مصيرهم بعد الحرب العالمية الأولى - فجاء كتابه وكأنه خلاصة لتلك الأحاديث. وعلى ما يبدو، فقد تعمّد الإجابة في هذا الكتاب الصغير على معظم الطروحات التي كانت قيد التداول آنذاك حول سورية ومصيرها فنراه يطلب:

- ♦ ألا تبقى سورية تحت الحكم العثماني؛
- ♦ ألا تقع تحت أي من الانتدابين البريطاني والفرنسي مجتمعين أو منفردين؛
- ♦ ألا يقام فيها نظام ملكي؛
- ♦ ألا تقسم إلى دويلات سياسية طائفية؛
- ♦ ألا تقع فريسة الحركة الصهيونية.

أما الحل الذي يقترحه في آخر فصل من الكتاب فهو «قيام دولة فدرالية في سورية عاصمتها

دمشق، مع نوع من اللامركزية في الولايات أو المحافظات: فلسطين، لبنان، دمشق وحلب، التي تقوم كل منها بانتخاب حاكمها ومجلسها التشريعي فيما هي متحدة فيما بينها كأعضاء في دولة واحدة كبرى.» (صفحة 138)

في هذا الكتاب أيضًا نجد فصلًا كاملاً، وقد يكون الأول من نوعه، في نقد الحركة الصهيونية الفتية آنذاك. من قراءتنا لهذا الفصل يتضح لنا سعة إطلاع رحباني على دقائق البرنامج الصهيوني إذ يعرض لعدد من الحجج التي يقدمها بعض الكتاب الصهاينة أمثال Richard J. H. Gottheil و Lewis Brandeis، القاضي في المحكمة الأمريكية العليا، والذي أتينا على ذكره في الحلقة الأولى من هذا البحث، ليعود ويفند دعاوتهم بقوله:

«إن السوريين يعتقدون أن هدف الصهيونية هو إقامة دولة يهودية مستقلة في فلسطين، أو على الأقل، إقامة دولة حكم ذاتي يهودي تحت حماية قوة أجنبية. نتيجة الحكم الصهيوني هذا ستكون إما فصل فلسطين عن سورية، أو وضعها تحت دائرة نفوذ أجنبي. إن أيًا من هذين الاحتمالين مكروه من قبل السكان غير اليهود في «أرض الوعد» بالإضافة إلى الواعين من السوريين في أمريكا..» (صفحة 114).

ويتابع رحباني فيما يبدو الآن وكأنه نبوءة بالقول: «.. إن السوريين الواعين يدركون أن الاستقلال القومي ليس هو ما يصر عليها الصهاينة في الوقت الحاضر. ولكنهم يبدو واثقين من أن ما من شيء دون ذلك يمكن أن يجعل من البرنامج الصهيوني حقيقة.» (صفحة 116).

ويختم رحباني هذا الفصل بالنبوءة التالية: «لا يمكنني أن أتخيل كيف يمكن لليهود أن يعيشوا بسلام واطمئنان في 'أرض آبائهم' إذا ما فصلت البلاد استبدادياً عن سورية وأعطيت لهم. فعمل كهذا سيزرع اليهود بين أعداء لدودين مما سيزيد في مشاكل اليهود عوضاً عن المساهمة في التخفيف منها.» (صفحة 123)

على ما يبدو فإن هذا الكتاب كان له وقع مميز في أوساط الجاليات السورية في أمريكا وجمعياتها التي كانت ناشطة سياسياً، بالإضافة إلى أصدقاء رحباني الأمريكيين. فقد أعيد طبع الكتاب ثلاث مرات سنة 1918، وبعد سنة واحدة من نشره أي سنة 1919، يُوفد رحباني إلى مؤتمر الصلح في فرساي بصفته مندوباً عن الجمعيات السورية العاملة في أمريكا والتي على ما يبدو تبنت برنامج المنوه عنه أعلاه. (مع الأسف ليس لدينا معلومات عن هذه الجمعيات، ولكن أكثر من مرجع يذكر أن رحباني كان مندوباً عنها).

في مؤتمر الصلح

في فرساي، يلتقي رحباني بالأمر فيصل مندوب الثورة العربية إلى مؤتمر الصلح ويبقى معه لمدة ثلاثة أشهر وتقوم بينهما علاقة مودة وصداقة. ولكن المؤتمر كان مخيباً لآمال رحباني، فنراه يصف خيبته، بل مرارته، في رسالة سوداوية ومنتشائمة جداً يوجهها إلى صديقه، هنري كنغ، عضو لجنة كنغ - كراين التي أرسلها الرئيس ولسن لاستفتاء السوريين حول مستقبلهم، في حين كان قد تعهد للحركة الصهيونية سراً، بدعمها. يقول رحباني لهنري كنغ في رسالة تاريخها، 17 أكتوبر 2019:

«... وصلتني رسالتك فائقة اللطف قبيل مغادرتي لندن إلى هذه البلاد، وسافرت أنت إلى الشرق قبل أن أتمكن من الإجابة عليها. لقد تابعت أخبار رحلتك وتقدمها من خلال الصحف العربية في نيويورك، وكانت هذه التقارير تشجعني على التمسك بالأمل. أما الآن، فإني أحشى أن الظلام ينسدل على الشرق، وليس لدي أي أمل أن أمريكا سوف تكون هي المنتدبة على كل تركيا. كما أن تطور الأحداث في تلك البلاد يزيد خيبة أمني. أما بالنسبة لسورية، فما لا جدال حوله أن مصيرها قد ختم. لقد 'وافق' البريطانيون أن يحتل الفرنسيون قسماً كبيراً من شمال شرق سورية، ولا أخالهم بتركونها أبداً.»

يعود رحباني إلى ما حدث في مؤتمر الصلح في كتاب آخر ينشره سنة 1923، تحت عنوان «حكما من الشرق ومن الغرب»، وفيه يخصص فصلاً كاملاً عن الحركة الصهيونية انطلاقاً من الأحداث التي وقعت بين 1918 وتاريخ الكتابة. فيصف احتلال اليهود لفلسطين كما يلي:

«لو تم التفاوض على هجرة اليهود إلى فلسطين بين حكومة سورية حرة واليهود، لكان من الممكن التوصل إلى حلٍ يرضي الطرفين. ولو قام الصهاينة بالهجوم على فلسطين كقوة عسكرية لكان السيف هو الحَكْمُ في تقرير مستقبل الأحداث بين الغازي والمغزية أراضيه. وفي كلتا الحالتين، تكون النتيجة هي ما يقرره رجال أحرار سواء على طاولة المفاوضات، أو في ميدان المعركة.»

ولكن في هذه اللحظة يبدو الغزو أبعد ما يكون عن عملية تدعو إلى الفخر؛ فقد حصل في الظلام، ولم يكن للفلسطينيين أدنى معرفة به. فالصهاينة لا يأتون إلى فلسطين كغزاة يبارقهم مشرعة ولا كأصدقاء مدعويين. إنهم يدبّون إلى فلسطين خلسة، وعلى وجوههم ضحكة صفراء، فيما الجيش البريطاني يضغط على عنق الفلسطيني ويخنقه.»

(صفحة 257)

ويسهب في الدفاع عن حق السوريين في فلسطين ويفند ادعاءات اليهود والمسيحيين المتهودين في أن «إسرائيل»، إذا قامت ستكون التمهيد للمجيء الثاني للمسيح، فيقول:

«ماذا ستعني عودة اليهود إلى فلسطين اليوم؟ هناك العديد من المسيحيين الذين يعتقدون أن في ذلك تمهيداً للمجيء الثاني للمسيح. لكن ليس هذا ما يتوقعه اليهود الأرثوذكس. فبالنسبة إليهم، لم يأت المسيح للمرة الأولى بعد. إن مسيحيهم لم يأت بعد. فالذي أتى ورُفِض بالكلية منهم لم يكن المسيح الحقيقي. إن المسيح الذي ينتظرونه هو الذي سيجعل منهم حكاماً على جميع الأمم وبضمنها تلك المسيحية.» (صفحة 254)

مع كنغ وهاورد بلس

قلنا إن رحباني أقام شبكة من العلاقات عبر الكنيسة البروتستنتية المشيخية Presbyterian، التي أسست مدارسها في عبيه وبيروت، وتبدو لنا ذروتها مع هنري كنغ، دون أن يكون لدينا معلومات حول تشعباتها أكثر. ولكن ما نعرفه أن هنري كنغ كان على علاقة صداقة شخصية مع الرئيس الأمريكي، ودررو ولسون، الذي عينه عضواً في لجنة كنغ - كراين. كذلك كان الرئيس ولسون على صداقة شخصية مع «هاورد بلس»، ابن «دانيال بلس»، أحد مؤسسي الكلية البروتستنتية السورية، التي أصبحت الجامعة الأمريكية في بيروت. هاورد بلس، كان رئيس تلك الكلية غداة انعقاد مؤتمر الصلح في فرساي، وهناك ألقى كلمة مهمة مطالباً فيها نفس المطالب التي طلبها رحباني في كتابه، أمريكا أنقذي الشرق الأدنى، بما فيها بعض المفردات مثل «السوريون المتنورون».

ختام هذا الفصل

لقد تشرفت بترجمة كتابين من كتب رحباني إلى العربية، هما «المسيح السوري» و«الترجمات الخمس ليسوع»، ووضعت في كل منهما نبذة طويلة عن حياته. حين انتهيت من كتابة تلك النبذة، وجدتي أمام عدد كبير من الأسئلة التي تبقى لليوم بدون جواب. وإني لآمل فعلاً أن يتابع من يستطيع البحث من أجل جلاء أكبر قدر من المعلومات عن هذا العلامة السوري، ابن الشوير، التي أنجبت عدداً كبيراً من الشخصيات الفذة. هذه هي الأسئلة كما وردت في تلك النبذة.

«...لماذا لم نسمع برحباني من قبل؟ كيف يمكن لكتاب كالمسيح السوري، يُطبع إحدى

عشرة مرة في ست سنوات أن ينطفئ ذكره؟ لقد عاصر رحباني جبران خليل جبران والريحاني تاريخياً وجغرافياً، وعمل في الخط الوطني نفسه، بل كان هو مندوب الجمعيات السورية إلى مؤتمر الصلح في فرساي سنة 1919، والتقى هناك بالأمير فيصل وكتب مذكرات تفصيلية عن تلك المرحلة، فلماذا لم يرد ذكره بين أدباء المهجر وناشطيهم؟ هل يمكن ألا يكون رحباني قد التقى بجبران؟ لماذا وقع الاختيار عليه بالتحديد لأن يكون هو مندوب الجمعيات السورية؟ إن جميع كتب رحباني التي وجدناها مكتوبة بالإنجليزية، فهل نشر أي كتاب بالعربية؟ هل يعقل وهو العامل في سبيل وحدة سورية واستقلالها وعدم وقوعها تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني ألا يكون قد شارك في النقاشات التي كانت دائرة في أوساط السوريين في نيويورك بين مؤيد لفرنسا ومعارض لها؟

وأضيف اليوم أسئلة جديدة، هل يعقل ألا يكون هناك من اتصال بين الدكتور خليل سعادة وإبراهيم متري رحباني، وكلاهما من الشوير، ويعملان في الخط الوطني نفسه؟ (كان الدكتور سعادة أكبر من رحباني باثنتي عشرة سنة.) هل سمع رحباني بأنطون سعادة وبحزبه؟ هل هناك في مكان ما، رسائل أو مذكرات مكتوبة بالعربية؟ قد يعرف أحد مصير عائلته، هل بقي منهم أحد في بتاتر، هل هناك من أقرباء له يمكن الاتصال بهم؟

قد تكون الكتابة بالحرارة التي كتب بها رحباني السبب في طمس ذكره، يرافقها التغيير الجذري والسريع الذي أصاب المجتمع الأمريكي ما بين الحربين الكونيتين ومن ثم بعد قيام دولة إسرائيل والعطف الذي لقيته في أمريكا، والعداء الذي انصبّ على مواطني رحباني بشكل عام. وفي الوقت نفسه، لا ننسى أن فرنسا التي حاول رحباني بكل جهده منعها من السيطرة على سورية، نجحت وسيطرت وقسمت واستبدت وقتلت الأبرياء في لبنان والشام، وأقامت نظاماً موائياً لها ولحكمها. (يرجى مراجعة مذكرات المرحوم إسكندر رياشي «قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم» منشورات دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 443-443، حول مجازر الفرنسيين في تمين التحتا ووادي الحرير.)

إننا نأمل أن يقوم البحاثة بالتنقيب معنا عن تاريخ رحباني وإيفائه حقه من الدرس والتكريم.

«إرهاب الشعب الفلسطيني»

2023-2-1

في حديث تلفزيوني له⁽⁸³⁾ في مطلع هذه السنة، يقول رئيس وزراء العدو، نتياهو، إنه تحايل على الفلسطينيين بالالتفاف عليهم والتوجه مباشرة إلى الدول العربية وعقد «مفهوم جديد للسلام» معهم هو «اتفاقيات إبراهيم». «حين تنتهي من السلام مع العرب، عندها يمكن لنا العودة إلى الفلسطينيين، وعقد سلام معهم.» وحين سأله المذيع عن نوع السلام وما هي الصلاحيات التي ستمنح للفلسطينيين أجاب: «ليأخذوا جميع الصلاحيات التي يحتاجونها لحكم أنفسهم، ولكن بدون أي من الصلاحيات التي يمكن لها أن تهددنا، وهذا يعني أن الصلاحيات الأمنية تبقى حصراً في يدنا.» وحين سئل عن قلق إدارة بايدن من زيادة المستعمرات في الضفة، أشار إلى النجاح الكبير الذي حققته اتفاقيات إبراهيم في تطبيع العلاقات مع العرب!

ولكن التحايل سلاح ذو حدين. ففيما نتياهو يتحايل على الفلسطينيين بالتوجه إلى العرب، كان الفلسطينيون يتحايلون عليه وعلى العرب، وعلى السلطة الفلسطينية بتجاهلهم كليا، وتجاهل اتفاقاتهم السياسية والأمنية، والذهاب إلى الطريق الأقصر، المسدس. هذه مشكلة تؤرق الإسرائيليين وحلفاءهم وتدفعهم للضغط على الحلقة الأضعف، أي ما يسمى بالسلطة الفلسطينية، وهذا لن يجدي نفعاً. فسواء تعاونت تلك السلطة مع العدو، أو لم تتعاون، يقوم الشباب الفلسطيني بتغيير مسار المواجهة.

العدو، الذي يدرك خطر هذا الشباب، بدأ بالتمهيد لمرحلة جديدة، يطلق عليها اسم،

(83)<https://www.cnn.com/2023/01/31/middleeast/benjamin-netanyahu-cnn-interview-israel-intl/index.html>

«إرهاب الشعب الفلسطيني»، تمييزاً له عما يسميه العدو في جميع أدبياته، «إرهاب المنظمات الفلسطينية»، أو «المنظمات الفلسطينية الإرهابية». فما هو هذا الإرهاب؟ في مقال بقلم أفيدور هاسلكورن، نشرته يديعوت أحرونوت تحت عنوان «Palestinian «people's» terrorism»⁽⁸⁴⁾، يرفض الكاتب فكرة عمليات «الذئب المنفرد» التي لا علاقة للتنظيمات الفلسطينية بها. أما النتيجة التي يخلص إليها فيمكن تلخيصها كما يلي: إن توزع العمليات «الإرهابية» جغرافياً، وكثافتها، وتنوعها، منذ عملية غزة سنة 2021، سواء من الضفة أو من الأراضي المحتلة عام 1948، تشير إلى وجود «جيش ظل عربي». ويضيف الكاتب، «بالرغم من افتقار هذا الجيش لقائد أعلى، ووحدات منظمة، واستراتيجية موحدة، أو حتى خطة عمليات متناسقة، فثمة أربعة عوامل تجعل من هذا الجيش حقيقة قائمة.» ما هي هذه العوامل؟ ها هي، نقلها كما ترد في المقال:

أولاً: العداوة والحقد الواسع والعميق للسكان اليهود الذين يقطنون في نفس أماكن سكن الفلسطينيين أو بالقرب منهم. (أي المستعمرات الإسرائيلية).

ثانياً: وحدة الهدف، فسواء كان انتقاماً أو بسبب ضغائن أخرى يخفونها، يجتمع «الإرهابيون» على الرغبة المشتركة بقتل اليهود. هذا يعني استهداف مدنيين يهود وليس فقط العسكريين. ثالثاً: الوصول إلى الأسلحة.

رابعاً: الاستعداد منقطع النظير للعمل حتى ولو كلف ذلك حياة الشخص المعني، وذلك انطلاقاً من مثال طلب الشهادة والتمثل بالشهداء وفق العقيدة الإسلامية.

ويضيف الكاتب عاملاً آخر هو انتشار الانترنت ووسائل التواصل حيث «نشر التحريض الخبيث ضد اليهود، والاستخدام شبه الشامل لأجهزة الاتصالات المحمولة، يعني وجود مجموعة كبيرة من 'المجندين' الجدد في العالم العربي.» ويختم الكاتب بالقول: «يتم إعداد 'جيش الظل' على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع ويمكن استدعاؤه في أي لحظة.»

ما هو الغائب عن كل هذا الكلام؟ الغائب هو الأسباب الحقيقية التي يحاول الاحتلال تجاهلها كلياً، والتي يمكن اختصارها بكلمة واحدة، الاحتلال. إنها لظاهرة تكلم عنها كثيراً جاك إيلول، Jacques Elul، عالم الاتصالات الاجتماعية الفرنسي، حين تكلم عن البروبغندا الاجتماعية، حيث تغلق جماعة على نفسها ولا تعود تسمع سوى أسطوانتها هي، تكراراً ومراراً.

كيف تنوي الحكومة الإسرائيلية الجديدة مواجهة هذا الواقع؟ إنها تواجهه عبر تسليح

(84) <https://www.ynetnews.com/article/rjyxg4y2i>

المدنيين الإسرائيليين «المؤهلين». وبهذا، يقول الكاتب، «يعترف القادة الإسرائيليون بعجز الأجهزة الأمنية في تأمين الحل المناسب لخطر الإرهاب المتنامي. إن في هذا الحل اعترافاً ضمنياً أنه لمواجهة 'جيش الظل العربي' لا بد من قيام 'جيش ظل يهودي' وهذا ما قد يؤدي إلى اندلاع مواجهات شعبية حربية بين هذين الجيشين في إسرائيل والضفة.»

العدو يتحايل على العرب وعلى السلطة الفلسطينية، ويتحايل على الأمريكان والأوروبيين، ولكنه يتجاهل أن التحايل ليس حكراً على أحد. ما لا يمكن إهماله، أن نقل المعركة الإعلامية من «المنظمات الإرهابية» إلى «الشعب الإرهابي»، قد يكون مقدمة لأمر خطيرة جداً، ليس أولها عمليات انتقام جماعية، ولن يكون آخرها «الترانسفير» الذي يحلم به عتاة اليمين الإسرائيلي.

مشية العار

2023-2-15

تتسع الشقوق في دولة الاحتلال، ليس فقط السياسية، بل الاجتماعية والمالية والأمنية كذلك.

«وكان رد المبرقشة الأوحى حكاية كانت تدور منذ أيام في الحي اليهودي بغرناطة، وهي التي جعلتها تختار المنفى.»

«يحكى أن أحد حكماء جماعتنا وضع على نافذة من نوافذ بيته ثلاث حمامات إحداها منتوفة الريش علق في رقبتهما لوحة كتب عليها، كانت هذه المرتدة آخر العازمات على الرحيل؛ وكانت الحمامة الثانية منتوفة الريش، ولكن حية، وقد حملت لوحة عليها، رحلت هذه المرتدة قبل الأولى بقليل؛ وكانت الثالثة مكسوة بريشها، وكان بالإمكان قراءة ما يلي في لوحتهما، كانت هذه أول من رحل.» من رواية «ليون الأفريقي».

الحمامة

يبدو أن دولة الاحتلال الإسرائيلي تعيش كابوسًا يتراوح بين حكاية الحمامات الثلاث لمعظم الشعب، ومقطع «مشية العار» من مسلسل «لعبة العروش» Game of Thrones، لبعض القيادات الإسرائيلية. ففي «مشية العار»، تُجبر الملكة على السير وسط الغوغاء، عارية من الثياب، وسط سيل من الشتائم والقاذورات التي توجه ضدها. كل هذا بتحريض من رجل دين تحالفت معه ضد معارضيهما، فسيطر في النهاية على الجموع، محرصًا إياهم ضد العائلة المالكة. بالمختصر، الأزمة الإسرائيلية هي أن الأحزاب الدينية واليمينية المتطرفة تشعر بفائض قوة تستطيع معه تغيير ميزان السلطة في الدولة بما يخدم توجهاتها الدينية والعنصرية والتوسعية.

ومع أن الرابط الأول بين نتنياهو وبين هؤلاء، هو التوسع، أو «تعميق جذورنا في الأرض» حسب تعبيره مؤخرًا، إلا أن نتنياهو، كالبهلوان الذي يلعب بخمس كرات في الهواء، عليه إبقاء هذه الكرات متحركة طيلة الوقت، علمًا أن ما يلعب به ليس كرات، بل مشاعل حارقة.

الحلفاء الدوليون

للمرة الأولى منذ سنوات تواجه حكومة إسرائيلية بيانًا ناقداً لسياستها في الضفة الغربية يوقع عليه خمس من حلفائها هي الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا، وألمانيا. وما لبثت كندا أن أضافت صوتها هي الأخرى منددة بسياسة توسع الاستيطان ومؤكدة على تمسكها بحل الدولتين.

الرأسمال الجبان

نشرت الصحف الإسرائيلية تقارير عن هروب حوالي الأربعة مليارات شيقل، أي ما يزيد عن المليار دولار في الأسابيع القليلة الماضية من المصارف الإسرائيلية إلى الخارج. وجهة هذه الأموال في غالبيتها كانت إلى الولايات المتحدة وأوروبا. وقد عزت الصحف هذا الهروب إلى الصراع الدائر حول صلاحيات المحكمة العليا، والتغييرات التي تعزم الحكومة على إجرائها في الميدان القضائي.

فضيحة التدخل في الانتخابات

كرة أخرى سيكون على الحكومة التعامل معها هي فضيحة شركة «دمو مان» التي لها جيش من الشخصيات الإلكترونية الوهمية التي توظفها في التدخل في الانتخابات والمسائل الاجتماعية الشائكة في أكثر من ثلاثين دولة حول العالم. تتقاضى هذه الشركة، التي يديرها شخص يدعى «طال حانان» عشرات ملايين الدولارات في بعض الأحيان لقاء خدماتها. صحيفة الغارديان، مع عدد من الصحف العالمية، قامت بتحقيق خفي⁽⁸⁵⁾ على مدى أشهر، سجلت خلاله أكثر من فيديو لـ «طال حانان» وهو يتباهى بأنه قد نجح في التأثير في سبعة وعشرين انتخابًا من أصل ثلاثة وثلاثين انتخابًا رئاسيًا تدخل فيها. خدم «طال حانان» في الجيش الإسرائيلي وهو على علاقة وثيقة بالمؤسسة الأمنية الإسرائيلية

(85) <https://www.theguardian.com/world/2023/feb/15/revealed-disinformation-team-jorge-claim-meddling-elections-tal-hanan>

الإصلاحات القضائية

لا يتفق جميع الإسرائيليين على هذه التسمية، بل إن قسمًا كبيرًا منهم يصفها بأنها انقلاب تقوم به الحكومة وأحزابها اليمينية المتطرفة بغرض السيطرة الدينية من جهة والتهرب من المسائلة القضائية من جهة أخرى. هذه المعركة استنفرت عشرات الآلاف من الإسرائيليين للتظاهر أسبوعيًا ضدها، كما استدرجت قطاعات عديدة بما فيها المصارف والاستثمار وقطاع التكنولوجيا وسواها، ناهيك عن الإدارة الأميركية وبعض الدول الأوروبية التي تحذر من مغبة هذه الإصلاحات على «الديموقراطية الإسرائيلية».

صراع ديوك الأمن

هناك صراع حقيقي تزداد وتيرته يومًا بعد يوم بين كل من وزير الدفاع «يوعاف غالانت» من جهة، ووزير الأمن القومي «بن غفير»، ووزير المال والوزير في وزارة الدفاع (في أن معًا) «بزعليل سموترش»، من جهة ثانية. يقوم «غالانت» بتفكيك بعض المستوطنات «غير الشرعية» فتثور نائرة «بن غفير» و«سموترش». «نتنياهو» ساعة يرضي هذا وساعة يرضي ذاك. الصراع سوف يستمر.

خلاصة

إلام تشير كل هذه الصدوع. هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها، ألا وهي أن التيار الديني المتشدد يكبر ويزداد قوة، في حين أن مؤسسة المال/ والعسكر، تخسر من جمهورها. نحن لا نعتقد أنه بإمكان إسرائيل العودة إلى حكومة «مدنية» أو حتى وسطية. هناك إما حكومات يمينية دينية متطرفة أو انتخابات متكررة وصراع ديوك. مؤسسة المال/ العسكر لن تستطيع حسم الموضوع إلا عبر مغامرة انقلاب عسكري تمسك فيه بمقاليد السلطة وهذا أمر مستبعد. أما مؤسسة الدين/ الشريعة فالوقت لصالحها. للعلم، «أريه درعي» لديه تسعة أولاد. بن غفير لديه خمسة وسموترش لديه سبعة، وكلاهما شابان. نتنياهو لديه ثلاثة أولاد فقط. نعود إلى حمامات المبرقشة، ومشية العار. لقد بدأت حمامات المال بالرحيل، فمن سيتبعها؟ وهل نرى سارة نتنياهو يومًا وهي تمشي «مشية العار» في شوارع القدس؟

القسم السادس:
مواجهة التغول

مواجهة التّغول: القوميون في المغتربات

2022-11-7

كتب هذا المقال قبل سنة من طوفان الأقصى.

لا حاجة بنا لتكرار ما صار معروفًا: فلسطين المحتلة مقبلة على طوفان من دماء. السؤال هو، ما نحن فاعلون؟ والسؤال مطروح على القوميين في المغتربات بالدرجة الأولى.

الشباب الفلسطيني يواجه باللحم الحي حملة متغولة في شراستها منذ ما قبل الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة، في ظل انهيار تام سياسي أو اقتصادي أو الاثنين معًا في دول الطوق، لبنان، والشام، والأردن، والعراق. وفي ظل انتقال عربي من حالة التأييد اللفظي الخجول لفلسطين إلى التحالف الفظّ مع إسرائيل. وفي ظل حالة غموض على الحدود اللبنانية الفلسطينية نتيجة اتفاق الترسيم، بمعنى تحييد المقاومة عن الاشتباك مع الإسرائيليين بسبب ممارساتها ضد الفلسطينيين تحت عنوان «عدم التدخل في شؤون الغير».

هذا هو المشهد في الوطن. في هذا المقال، سوف نركز على دور الجاليات السورية في المغترب.

القاعدة الأولى التي سوف نطلق منها هي مواجهة التغول الإسرائيلي بحملة منظمة في المغتربات تهدف إلى استقطاب أكبر قدر من التأييد الشعبي لفلسطين في دول الاغتراب كافة. والقاعدة الثانية هي عدم الانسياق وراء وهم أن الحكومات الغربية سوف ترفض التعامل مع الحكومة الإسرائيلية الجديدة أو بعض وزرائها بسبب تطرفها اليميني. الغرب هذا اعترف وتعامل مع مناحيم بيغن الذي كان على لائحة الإرهاب البريطانية، واعترف وتعامل مع شارون المسؤول

عن مجزرة صبرا وشاتيلا، واعترف وتعامل مع بينيت الذي تباهى «بقتل العرب»، وسوف يعترف ويتعامل مع بن غفير وبزعليل سموتزش فهما وجه إسرائيل الحقيقي. ولا ننسى طبعًا تعامل الغرب مع نتنياهو على مدى سني حكمه الطويلة والتي توجت بتسع وعشرين وقفة «حفاوة بالغة» Standing Ovation وقفها له أعضاء الكونغرس الأمريكي سنة 2015، مقابل خمس وعشرين للرئيس أوباما في السنة نفسها.

للمواجهة لا بد من التخطيط. والتخطيط يبدأ من معرفة شعار المرحلة السياسية القادمة في إسرائيل. ونحن نعتقد أن الشعار هو «الترانسفير». أي طرد أكبر عدد من الفلسطينيين سواء من الضفة الغربية أو من فلسطين ما قبل 1948. المناخ العام لتنفيذ هذا الهدف قائم وهو عمليًا قد بدأ. فالإسرائيليون يقومون بتحويل الفلسطينيين إلى لاجئين داخل فلسطين، تمهيدًا لطردهم خارجها. هدم المنازل وقطع أشجار الزيتون وجرف الأراضي الزراعية وقتل الفلسطينيين بتهمة «الإرهاب» أو «التعاطف مع الإرهاب» أو «الشبهة بالإرهاب»، أصبحت شيئًا يوميًا عاديًا، ودخلت إلى الوعي الغربي وخطرت.

في كل هذا علينا ألا نغفل عمّا يسمى «السلطة الفلسطينية» الشريك المباشر لإسرائيل في جرائمها.

بالنسبة لفلسطينيي الأراضي المحتلة سنة 1948، من المرجح أن نرى قوانين تسنها الحكومة الجديدة ويوافق عليها الكنيست الجديد لناحية إسقاط الجنسية عن من لا يعترف بيهودية الدولة أو من يعارض سياساتها، وبديهي أن إسقاط الجنسية هو خطوة أولى للطرد.

لماذا نركّز على القوى الشعبية وليس الحكومية؟ في الديمقراطيات التمثيلية، تعمل الحكومات وفق موازين القوى التي تؤمن وصولها إلى سدة الحكم. وميزان هذه القوى، في معظم الدول الغربية يميل لصالح إسرائيل. والمنظمات الإسرائيلية أو تلك المتعاطفة معها لا تكفل عن العمل ليل نهار لتقوية هذه المنظومة المالية السياسية الدينية المتشابكة التي تعمل على إيصال من هو «صالح لإسرائيل» أولًا. ونحن غالبًا ما نسمع السؤال الذي طرحه المنظمات: Is this candidate good for Israel? «هل هذا المرشح صالح لإسرائيل؟» بغض النظر عما إذا كان صالحًا للمنطقة التي يمثلها. إذا استطعنا اكتساب القوى الشعبية، يصبح من الممكن إقامة الضغط الفعلي على الحكومات أو إيصال أصدقاء حقيقيين لفلسطين إلى مراكز القرار. ولكن هذا كله يحتاج إلى خطط وأدوات تنفيذية. ويسبق هذا كله اتخاذ قرار بالمواجهة.

والجهة المعنية في الدرجة الأولى لهذه المواجهة هم القوميون الاجتماعيون. إنهم الفئة الوحيدة في المغتربات القادرة على لعب دور المحفز للمنظمات والجمعيات الأخرى في عملية المواجهة المطلوبة.

هل يكون القوميون في المغتربات على قدر المسؤولية؟

مواجهة التّعول: الشروط الضرورية

2022-11-8

الشرط الأول لمواجهة التّعول القائم، وما سيليه، هو تغيير في نمط التفكير من «على قد بساطك مدّ رجلك»، إلى «على قدر طول رجلك حيّك بساطك». هذان المثلان المتناقضان يمثلان عقليتي تفكير سائدتين. الأولى تدعو للاكتفاء بالعمل ضمن الطاقات المتوفرة، والثانية تقول ببناء الطاقات لمواجهة التحديات القائمة. والفرق واضح في نتيجة كل من طريقتي التفكير هاتين. الأولى تؤدي إلى الاضمحلال؛ إذ تقصر عملك على طاقاتك الحالية دونما اهتمام بتنميتها، ينمو العالم من حولك ويتغير، وطاقاتك الحالية تتناقص. الثانية تُبقي نظرك ثابتاً على احتياجاتك المتغيرة والنامية باستمرار، محفزة إياك على العمل لابتكار وسائل عمل جديدة وبناء طاقات خلّاقة.

بعد هذه المقدمة نقول إننا إذا شئنا أن نواجه الحركة الصهيونية في المغتربات، وهي شيء لا يستهان به نتيجة تطورها لقدرات هائلة على مدار قرن من الزمن، يجب أن يكون لدينا حركة عالمية نظامية متواجدة في مراكز القرار الدولية وتحظى بدعم الجاليات السورية وبتأييد أصدقاء من مختلف التوجهات. هذه الحركة يجب أن يكون لها مؤسسة تنطق باسمها وتحدد أهدافها وتنظم تحركاتها بأكثر قدر من الفاعلية. هذا في رأينا يجب أن يكون الهدف الأول. والهدف يجب يكون محدداً، قياسياً، قابلاً للتحقيق، ذا صلة بما نحتاج إليه ومحكوماً بزمن معين للتنفيذ.

نحن نرى أن جميع هذه الشروط متوفرة في القوميين الاجتماعيين وأصدقائهم المتواجدين في شتى أنحاء العالم، وذوي قدراتٍ وطاقاتٍ كبيرة، ولكنها مهملة وغير منظمة وبالتالي غير فاعلة.

ما ستكون مهمة هذه المنظمة؟ لندرس إحدى منظمات العدو ففي مثل هذا الدرس إفادة. هناك منظمة اسمها مبادرة أصدقاء إسرائيل⁽⁸⁶⁾ تأسست سنة 2010 بمبادرة من خوسيه غارسيا أزنار، رئيس وزراء إسبانيا الأسبق، وبتنسيق واضح مع بنيامين نتنياهو رئيس وزراء العدو الإسرائيلي آنذاك، وعدد من غلاة قادة اليمين في العالم أمثال ستيفن هاربر، رئيس وزراء كندا السابق، اللورد دايفيد تريمبل، رئيس جمهورية إيرلندا الشمالية البروتستنتية، وجون بيرد، وزير خارجية كندا السابق، وروبرتو أوغستينلي، بليونير أميركي من حزب الجمهوريين، وسواهم.

ما هو هدف هذه المنظمة؟ فيما يلي مقتطفات من موقع المبادرة.

لماذا تأسست «المبادرة»؟ « تأسست بعد لقاء لعدد من كبار الفاعليات العالمية من أجل الدفاع عن حق إسرائيل في الوجود.»

ولماذا قامت الحاجة لمثل هذه المبادرة؟ «لمواجهة المحاولات المتنامية لنزع الشرعية عن دولة إسرائيل وعن حقها في الحياة ضمن حدود آمنة ويمكن الدفاع عنها... والتي يقودها أعداء إسرائيل المدعومون بطريقة خبيثة من قبل عدد كبير من المؤسسات الدولية.»

بماذا تختلف هذه المبادرة عن سواها؟ «إنها تختلف في كون مؤسسيها، في غالبيتهم، ليسوا يهوداً، ودافعهم يقين أن إسرائيل هي جزء لا يتجزأ من العالم الغربي. وفي الواقع، فإن القائمين بالمبادرة مع إدراكهم لأهمية مسار السلام، فإنهم يخشون أكثر ما يخشون من تصاعد المد الإسلامي والخطر الإيراني، اللذين يهددان العالم قاطبة.»

ما هو أسلوب عمل المبادرة؟ «تلتزم المبادرة بالعمل باستمرار وجدية في جهودها لنشر رؤية أعضائها لإسرائيل كدولة ديموقراطية ومنفتحة ومتقدمة مثل أي دولة أخرى، وأنه ينبغي النظر إليها والتعامل معها على هذا الأساس.»

هل من حافز إضافي لدعم المجموعة؟ «نعم. إن جميع التبرعات تعفى من ضريبة الدخل في الولايات المتحدة الأمريكية.»

لا شك عندنا في أن جميع القوانين التي سُنّت في عدد من الدول الأوروبية وفي كندا والولايات المتحدة، والتي تجرّم انتقاد إسرائيل، وتجعله موازياً لمعاداة السامية هي نتيجة جهود هؤلاء السياسيين.

نكتفي بهذا المقدار إذ يمكن لمن يرغب متابعة أهداف المبادرة ونشاطاتها. ما بودنا

(86) <http://www.friendsofisraelinitiative.org/>

الإضاءة عليه هو ما يلي: أولاً، تحديد المشكلة، ثانيًا، تحديد طريقة المعالجة، ثالثًا، اختيار الطاقات، رابعًا تحديد الصديق والعدو، خامسًا، تحديد أسلوب العمل وتأمين مستلزماته. هذه المبادرة هي واحدة من مئات المنظمات الدولية السياسية والخيرية التي تؤمن شبكة أمان لإسرائيل تحميها من المساءلة حيال جرائمها بحق الفلسطينيين طوال أكثر من قرن.

في مقالنا السابق، مواجهة التغول: القوميون في المغتربات، قلنا إن إسرائيل تعمل يوميًا لضرب مقومات وجود الفلسطينيين تمهيدًا لطرد أكبر عدد منهم. الهدف الأولي واضح أمامنا. المطلوب بناء عدّة العمل.

هامش: هذه الخطوة ضرورية اليوم، كما كانت ضرورية منذ عقود، وستبقى ضرورية في المستقبل القريب والبعيد.

الملزمة

2022-12-5

«أنا رجل ذو قضية واحدة، وقضيتي هي إسرائيل» (حاييم صبان⁽⁸⁷⁾، مؤسس مركز صبان لدراسات السياسات، في معهد بروكنغز).

هناك ملزمة تضغط على عنق الوطن السوري من بيروت إلى بغداد بغية خنقه. تصميم الملزمة إسرائيلي، صناعتها أميركية، أما الأيدي التي تدير عتلتها فمن الاثنين يضاف إليهما أياد عربية وغربية من أوروبا إلى كندا وأستراليا. هذا هو المشهد دونما حاجة للتفاصيل والنتائج القاتلة. ما يهمننا هو كيف ن فك هذه الملزمة عن عنقنا.

حيث إن اليد التي تدير العتلة هي يد خارجية، فلا بد من خلق قوة في الخارج تعمل لوقفها. وهذا لا يتم دون قيام منظمة - أو منظمات - دولية تعمل ليس فقط لفك الحصار، ولكن لمنع قيامه مرة واحدة وإلى الأبد. وهذا يعني قيام مجموعة من المخلصات والمخلصين يقولون «لدينا قضية واحدة، وقضيتنا هي سورية»، ويعملون لانتصار هذه القضية.

أما أن هذه العملية صعبة وطريقها شاقة، فهذا بديهي، ويتطلب ما سبق لنا الكتابة حوله عن طريقة التفكير. إما أن تمدّ رجلك على طول بساطك القصير، فتبقى قاصرًا، أو أن تحيك بساطًا جديدًا يتلاءم مع طموحاتك الكبيرة، فتتنصر.

هذه المنظمة الخارجية يجب أن تضع لنفسها غايات معقولة، وأهدافًا قابلة للتطبيق في

(87) <https://www.nytimes.com/2004/09/05/business/yourmoney/schlepping-to-moguldom.html>

فترة زمنية معينة. ويجب أن تعمل باستقلال تام عن أي تنظيم أو مجموعة في الوطن وذلك لأسباب عملية وقانونية لا مجال للخوض في تفاصيلها الآن.

ما الذي سوف تواجهه هذه المنظمة؟ إنها سوف تواجه الصهيونية بوجهيها الأساسيين المسيحية منها واليهودية، وركز على الصهيونية المسيحية لأنها سابقة لأختها اليهودية في الدفع للاستعمار اليهودي لفلسطين، وإن يكن لأسباب مختلفة. وهذا بحث طويل يحتاج إلى مقالات خاصة به. كذلك سوف تواجه المنظمة المقترحة الصهيونية العربية وامتداداتها الخارجية بعد «الاتفاق الإبراهيمي»، كما سبق وواجه السوريون صهيونية بعض الأقليات في الوطن التي تحالفت مع إسرائيل بشكل أو بآخر.

وسوف تواجه محاولات ربط أي نقد لإسرائيل بتهمة اللسامية والتشريعات التي وضعت لذلك وتلك التي هي قيد التشريع. وسوف تواجه التشرذم واللامبالاة لدى قسم كبير من السوريين في المغتربات. نعم، على هذه المنظمة مواجهة كل هذا. ونحن إذ نضع هذه الحقائق أمام القراء، خاصة أولئك المهتمين في المغتربات، فليس للتخويف أو الإحباط، بل لمعرفة حجم المعركة وكم سيلزمها من تخطيط وإعداد. ونحن لدينا ملء الثقة أنه كما يواجه أبناء شعبنا في الوطن الاحتلال ببطولة عزّ نظيرها، والفساد والحصار بصبر لا يماثل، فإن بين أهلنا في المغتربات من سيخوض معركة منع الأسباب التي تؤدي إلى الويل، عوضاً عن معالجة نتائجها. رب قائل، إنك تدعو لقيام مثل هذه المنظمة منذ فترة، فهل ستبقى هذه الدعوة دعوة أم سوف نرى تحقيقاً لها؟ إن التغيير يبدأ بوعي ضرورة التغيير. ونعتقد أن هذا الوعي ينمو، وبسرعة. كلنا أمل أن هناك من لم يزل يقول: «نحن لدينا قضية واحدة، وقضيتنا هي سورية»، ولكن سوف يقرنون القول بالفعل.

المظلة

2023-2-20

تعقيماً على عبارة ترد في هذا المقال، أقول اليوم، بعد «طوفان الأقصى»، إن أولادنا لم يتبرأوا منا، ولكنهم لم ينتظرونا.

اتصلت بي البارحة صديقة وطنية وناشطة مخلصه من أحد كيانات الوطن لتعلمني بنيّتهم القيام بنشاط ما لكسر الحصار عن الشام، وسألت إذا كان بإمكان الجمعيات في كندا والولايات المتحدة المشاركة في عمل كهذا خلال أيام. قلت لها إني سوف أسعى، ولكنني استبعد أن يكون هناك قدرة على التواصل والتنسيق للمساهمة في عمل كهذا خلال أيام؟ ولا أخفي القارئ أن جوابي أزعجني، والأرجح أكثر بكثير مما قد يكون أزعجها أو فاجأها. فلماذا يأخذنا كل هذا الوقت للمشاركة في عمل وطني يجب أن يكون بديهياً؟ الجواب هو أننا نفتقر إلى المظلة التنظيمية التي نستطيع العمل في ظلها لتحقيق ما هو مطلوب منا كحد أدنى، أو لتحقيق طموحاتنا، كائناً ما كانت هذه الطموحات. فما هي هذه المظلة التي نتكلم عنها. قبل الجواب، دعونا نسأل هل ثمة حاجة لجهاز يتكلم باسم الجاليات الاغترابية، سواء سميتها سورية، أم لبنانية أم عربية، أم كلها معاً؟ الجواب نعم. هل من الضروري أن تتفق كل هذه الجمعيات على كل الأمور؟ كلا. ما هو الإطار الجامع لها؟ حد أدنى من الرؤية وصيغة للتعامل مع المسائل طويلة الأمد التي تحتاجها جالياتنا الاغترابية، وصيغة للتعامل مع المسائل الطارئة مثل الزلزال الأخير، وقبله انفجار مرفأ بيروت وانهيار النقد في لبنان، والمآسي الاجتماعية التي تخلفها كل هذه الكوارث. هذه تكون مظلة للعمل الاجتماعي الخيري.

هل يمكن أن يكون لدينا مظلة للعمل السياسي؟ ليس فقط يمكن، بل لا بد. لماذا؟ لأننا في خضم أحداث سياسية هائلة، بل هناك تحرك صفائح تكنولوجية على المستوى السياسي العالمي، تنذر بتغيرات في النظام الدولي برمته، وما الحرب في أوكرانيا، سوى الهزات الأولية لهذا التحرك. إن لم يكن لنا وجود عبر مؤسسة ما، تستطيع أن تعبّر عن مصالحنا في صراع القوى هذه، سيكون مصيرنا أسوأ مما حذرنا منه سعادته قبل الحرب العالمية الثانية.

يقول الدكتور طلال أبو غزالة في مقابلة له⁽⁸⁸⁾ نُشرت مؤخراً إننا دخلنا الحرب العالمية الثالثة، وأن ما ينتظر التفجير الكبير أو الإعلان عن هذه الحرب هو شرارة ممكن أن تحدث في أية لحظة. (لقد وضعت رابطاً للمقابلة، مع رفضي لبعض ما يرد فيها). كلامه عن الحرب العالمية دفعني لنبش صورة لقادة الدول المنتصرة في مؤتمر يالطا. كانوا ثلاثة، ولكن، ونتيجة الوضع الدولي السائد، هناك صراع لإضافة صورة لقائد رابع يمثل الصين، تقوده الصين، أو إزالة صورة لمن يمثل روسيا، وتقوده الولايات المتحدة. هذا هو الصراع الحقيقي وسوف يكون له ارتدادات كارثية علينا. فنحن، في نظر هذه القوى، أوراق مساومة. «نعطيكم هنا، أعطونا هناك». ما علاقة مؤتمر يالطا بمظلة تنظيمية للجمعيات السورية في المغرب سواء أكانت اجتماعية خيرية أو سياسية؟

ما يعيننا هنا أن ذلك المؤتمر كان مؤتمر المنتصرين. هناك منتصر رابع لا يظهر في الصورة هو الحركة الصهيونية. هذه الحركة كانت قد ضمنت تعهدات من الإنجليز والأمريكان والفرنسيين والitalians والفاثيكان حول إقامتهم لدولة يهودية في فلسطين. وبعد ثلاث سنين من هذه الصورة، سوف يعترف نصف العالم بها. هذه الحركة كانت «المظلة» لعدد من الشخصيات والجمعيات والمنظمات، التي تكلمت باسمها. هذه الحركة فاوضت، وقامت، وخادعت، وعملت كل ما يلزمها لتحقيق أهدافها، وقد فعلت. فما الذي ينقصنا؟

ما ينقصنا هو القرار. ما ينقصنا هو الإدراك التام أن الوقت ليس في صالحنا. إن جيلنا في المغربيات يتساقط كأوراق الخريف. ولا يمكن لنا أن نقول، «بكرا ولادنا بيعملوا» أو «لننتظر أجيالاً لم تولد بعد». هذا هروب. إن لم نؤسس، اليوم، لمظلة تنظم أعمالنا وتوجهها، تخطيطاً وتنفيذاً ونجاحاً، فإن أولادنا سوف يتبرأون منا.

بالعودة إلى الحركة الصهيونية، مع كل مفصل تاريخي تتقدم هذه الحركة أشواطاً. في منتصف الحرب العالمية الأولى، أخذت تعهدات دولية تمثلت بوعده بلفور. مع نهايتها حصلت

(88) <https://www.youtube.com/watch?v=EvLFXLZulwg>

على الانتداب البريطاني، تحت إشراف حاكم صهيوني. مع نهاية الحرب العالمية الثانية حصلت على التقسيم فالاعتراف. في الحرب الباردة عمّقت جذورها. في حال اندلاع حرب عالمية ثالثة، لن نستبعد أن تقوم بأكبر عملية تنظيف عرقي، فالأرض مؤهلة وهي جاهزة لذلك. ماذا عن العالم؟ ماذا عنه؟ العالم قد تبدل لمثل هذه الجرائم وهذا النزوح بعد كل ما حدث في الشام وقبله العراق. الغرب مع إسرائيل والشرق ليس ضدها، ونحن غائبون عن الملعب.

هل لازلنا بحاجة لبحث ما إذا كنا بحاجة إلى مظلة تدير شؤوننا؟

الاغتراب بين الواقع والمرتجى

2023-8-19

واحد: «سورية ... حاقّة الجوع»⁽⁸⁹⁾ عنوان صحيفة الاخبار الرئيسي لنهار السبت، 19 آب، 2023. اثنين: نقلاً عن صفحة الصديقة إنانا مهلوبي:

«أنا مع أنو كل إنسان يختار حياته ووين يعيش ووين يشتغل وشو يشتغل، حتى يلي بيختار ينضم للمافيا هو حرّ... ويلي بدو يشتغل بأميركا وكندا وأوروبا كمان هو حرّ ومالي عندو، بس كمان ما إله عندي وما دخله بقراراتي وأنو بدي أبقى بسورية ومن قلبي بدي عمرها. أنا بعرف شو يعني اليوم إنسان عايش بسورية ومانو حرامي ولا نصاب كيف عايش، يا أما عم ينبقوا عيونو وينهد حيلو ليل نهار ليعرف يعيش شوي، يا أما عايف حاله ما بيعرف يكمل أسبوع ... بقى نحنا يلي عايشين هالواقع ولاء مو الحق علينا، منتحمل مسؤولية بس ما بتجي شي مقابل كل التخريب والسرقة والنهب يلي مارسوه أمريكا وأوروبا ولا يزالوا علينا. كل ما منعمر حجر بهدوه هو ومليون حجر غيرو وكل ما منزرع شجرة بيحرقوها هي وغبات، كل شي عم ينسرق جوا البلد ما بيجي نقطة من البترول يلي عم تطلعه أمريكا برا البلد ولا الغابات يلي هنن سبب حرقها ولو كان بإيديين سوريين هنن السبب بالمصري والإغراءات. إذا العراق بعثتلنا قافلة بتروال الشتوية الماضية قصفوها الأميركيان وجمدنا كل الشتوية لحتى أجي الزلزال ورجعوا بعثتوا وما حدا اتجرأ يقصفها لأنو في زلزال ورأي عالمي الوجد مغرقنا لا تكونوا

(89) <http://links.al-akhbar.com/1XqZ>

سبب إضافي لوجعنا مو لأنو بتقولوا كلام بيوجع لأنو أنتوا من القلب طالعين وظلمكون
اقسى.»

ثلاثة: حدثني سيدة فرنسية (من فرنسا) تعمل في مقاطعة كيبيك الكندية منذ سنوات
عن حوار دار بينها وبين كندي من كيبيك يعتبر نفسه من السكان الفرنسيين الأصليين لهذه
المقاطعة، ننقله بتصريف.

هو: «أشعر أنني فرنسي (من فرنسا) أكثر من شعوري أنني كندي. وأرى أن ارتباطي بفرنسا
أقوى من ارتباطي ببقية كندا.»

هي: «ولكنني أرى أنك أمريكي شمالي ناطق بالفرنسية أكثر من كونك فرنسيًا، وأن ثقافتك
هي أمريكية شمالية أكثر مما هي فرنسية.»
هو: «كيف؟! (باستهجان واضح).

هي: «إن طعامكم وأدبكم وموسيقاكم ورياضتكم المفضلة (الهوكي والبايسبول يليها كرة
القدم الأميركية) وطريقة لبسكم ومواردكم ونمطكم الاقتصادي وعلاقاتكم الاقتصادية، حتى
مزيجكم الاثني (فرنسي مع السكان الأصليين) كلها أمريكية شمالية وتتمحور حول علاقتكم
بالولايات المتحدة. الفارق الوحيد هو أنكم تتكلمون أحد أشكال اللغة الفرنسية، وهي من حيث
العديد من المصطلحات، لا علاقة لها بلغتنا.»

بعد سنة، تابعت محدثتي، ذهب هذا الشخص في زيارة هي الأولى له إلى فرنسا. بعد
عودته قال لي، «الآن أفهم ما قصدت بكلامك.»

أربعة: التقيت منذ أيام بشخصين، الأول من ولاية توكومان في الأرجنتين وصديقه من
الإكوادور. الأول قال إن والدته من أصل «تركو» ولكنه لا يعرف من أين، وما إذا كانت من لبنان
أو فلسطين أو سورية؟ سألته عن اسم عائلتها، فقال إنها «أبو دبا»، وحين لاحظ أنني أحلل اسم
العائلة في ذهني، أضاف، «أبو دبا، ساباتو». سألته، «هل تقصد أبو ضبان؟» فقال «سي سي، أبو
ضبان». أشرت إلى مكان الضبان في الحذاء، وضحكنا سوية.

صديقه من عائلة خيرالله، وهي أيضًا لا تعرف من أين وفد أجدادها. كل ما تعرفه أن عائلة
أمها الثرية الأكوادورية من أصل فرنسي برتغالي رفضت زواج ابنتهم من ابن خيرالله «التركو»،
ففرت معه، ولكنه مات شابًا، فانتقلت إلى الولايات المتحدة مع ابنتها الطفلة. وتدور الحياة
دورتها فتتعرف ابنة خيرالله إلى ابن عم لها وتزوجه. إحدى بناتها مجندة في الجيش الأمريكي

وقد خدمت في العراق والأردن، وهي الوحيدة التي تتكلم بعض العربية، إذ درست ذلك تمهيداً لخدمتها في هذين البلدين.

هل يعرف هذا الشاب وصديقه أي شيء عن بلاد أجدادهم الأصلية؟ أبداً.

خمسة: فقرتان من رسالة الزعيم إلى وليم بحليس بتاريخ 1942 / 7 / 20، «... ولكن المجموع واسع وإذاعتنا ضعيفة، وهناك أوساط لا تزال مقفلة لإذاعتنا، لأننا لم نهتم بإيصال صوتنا إليها أو بإيجاد الوسائل الفعالة لبلوغها والدخول فيها. وما الفائدة من كتابة بحث جليل لحفنة صغيرة من الناس، في حين إلحاح الحاجة لتحريك جماعات كبيرة بسرعة؟

«... يجب أن نقبل بعضنا بعضاً على علّاتنا بشرط أن يكون القصد العمل بإخلاص لنجاح

القضية.»

هذه الفقرات تقدم صورة مترابطة عن الواقع السوري المقيم والمغترب والذي لم يتغير منذ رسالة سعادته سنة 1942، إلا نحو الأسوأ. فالمقيم هو ويل تلو الويل، والمغترب هو جهل أو تجاهل مطبق بالمأساة السورية. وسوف نقسم بحثنا إلى موضوعين، الهوية والعلاقة بين الوطن والمغترب. في موضوع الهوية، ينطبق حديث السيدة الفرنسية عن الكندي من مقاطعة كيبيك على الحوار - الصراع بين الهوية العربية والهوية السورية، والذي له علاقة كبيرة بموضوع الوطن والمغترب. لا شك أن هناك عدداً كبيراً من السوريين يمكن لهم رد أصولهم إلى الغزو العربي لبلاد الشام. ولكن علاقتهم ببلاد العرب هي كعلاقة ابن كيبيك بفرنسا. إنه يتكلم لغتها، ويشعر بحنين ما إلى ثقافة من يفترض أنهم أجداده، دون أن يعي أن «الواقع الاجتماعي» الذي يعيشه هو واقع أميركي بامتياز حتى ولو تكلم اللغة الفرنسية!

ما علاقة هذا الموضوع بالمأساة السورية؟ الهوية ووعيها يحددان اتجاه المجتمع، وما إذا كان هذا الاتجاه مبنياً على حقائق علمية أو على وهم وتغنيات. إن واقع سورية الاجتماعي بكل ما يدخل ضمنه من عوامل نفسية واقتصادية وكل ما يتعرض له من أخطار وتحديات يختلف جذرياً عن الواقع الاجتماعي لبلاد العرب كما يختلف جذرياً عن وادي النيل والمغرب الكبير. وما لم يبدأ الحكام في كل من هذه الأقطار بدراسة واقعهم الاجتماعي ومصالحهم من ضمنه سوف يبقى العالم العربي في حالة التخبط والفوضى والاحتلال التي يعيشها.

إن القول بالجمهورية «العربية» السورية، يضع الحقوق السورية في يد العرب، دون أن يكون للسوريين أي حق للتدخل في شؤون العرب وحقوقهم. وهذه حقيقة يتجاهلها أو يجهلها السوريون الذي يضعون الهوية العربية فوق السورية.

ماذا عن الشخصين من الإكوادور والأرجنتين؟ إنهما لا يعرفان أن أصلهما سوري، بل يردونه إلى أكثر حقب التاريخ كرهًا من السوريين وأعني الاحتلال التركي العثماني لبلادنا، فيلبسون عبارة «تركو» كهوية لهم. إنهما، كنموذج، يمثلان ملايين السوريين الذين ذابوا في مجتمعات العالم، ولا يعرفون أي شيء عن القضية السورية وما إذا كان بإمكانهم تقديم أي دعم لها. ونحن هنا نتكلم عن أحفاد وربما أحفاد المهاجرين السوريين. ما تذكره الصديقة إنانا عن تعليقات المهاجرين السوريين يتعلق أكثر بالهجرة الحديثة. ولكن النتيجة واحدة. إن جهل القضية السورية ورؤيتها من زاوية المأساة الفردية، وزاوية المصلحة الفردية يعكّر الرؤية وربما يقود إلى قرارات غير مستحبة.

بالنسبة للعدو الإسرائيلي، الأمر معكوس تمامًا. فمن الفوارق الأساس بين واقعنا الاجتماعي في سورية وتحدياته، وواقع باقي الأمم العربية وتحدياتها، الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين مباشرة، وهيمنة المؤسسة الإسرائيلية على مقدرات الوطن السوري، مداورة، عبر إمساكها بمفاصل القرار في واشنطن. هذا الاحتلال بدأ مع تأسيس الحركة الصهيونية في الخارج ويستمر بدعم من الخارج. والخارج هنا هو الدول الصناعية الكبرى من الولايات المتحدة وأوروبا، وصولاً إلى الهند وإلى حد ما الصين.

إن عدد اليهود في فلسطين المحتلة هو سبعة ونصف مليون يهودي، مقابل حوالي العشرة ملايين يهودي في مختلف دول العالم. يلعب الصهاينة المقيمون في الخارج دورًا أساسيًا في تثبيت الاحتلال وامتداده عبر مؤسساتهم التي بنوها، كذلك في فرض الحصار على لبنان وغزة والشام وفي الدفع لغزو العراق. عدد السوريين المغتربين ابتداء من القرن التاسع عشر حتى اليوم، يزيد عن عدد اليهود خارج الوطن السوري بكثير، ولكن لا دور لهم في تغيير الصورة القاتمة التي رسمتها لنا صحيفة الأخبار، أو الصورة التي نقلتها لنا الصديقة إنانا. لماذا؟ لأن هويتهم - خارج هوية بلاد الاغتراب التي اكتسبوها - تتراوح بين التركو والعربي وأي من الهويات الإثنية أو المذهبية، وما أكثرها في بلادنا. أما الوعي للقضية السورية انطلاقًا من الهوية السورية التي أسس لها سعادته، فهو لم يزل على حاله مذ كان الزعيم يتعذب في منفاه.

الغرب، وبعض الشرق، ومعظم الدول العربية يفعلون ما يفعلون بنا لأن لا قوة لنا لوقفهم. والقوة تبدأ من جماعة تقرر تنكب القضية القومية بكل تفرعاتها، وحشد الطاقات لدعمها، بما فيها تلك التي يتحدّر منها صديقانا من الأرجنتين والإكوادور. الجماعة التي كان من المفترض أن تلعب هذا الدور غائبة ولا دور لها. هذا هو واقع الحال والمرشح أن يستمر في منحاه الانحداري إلى مأساة ربما تكون أشد هولاً من كل ما شهدناه لهذا التاريخ من مأس.

والحل؟

لا حل قبل أن نستوعب العبرة من هاتين العبارتين من رسالة الزعيم: «وما الفائدة من كتابة بحثٍ جليلٍ لحفنةٍ صغيرةٍ من الناس، في حين إلحاح الحاجة لتحريك جماعات كبيرة بسرعة؟ و... يجب أن نقبل بعضنا بعضًا على علّاتنا بشرط أن يكون القصد العمل بإخلاص لنجاح القضية.»

«العمل بإخلاص لنجاح القضية». هذا هو بيت القصيد.

ختام

2024-12-27

فيما أقوم بالمراجعة النهائية لمادة هذه المجموعة قبل دفعها للطباعة، شعرت أن هناك كلمة أخيرة لا بد منها. فمنذ آخر مقال في أي من جزئي الكتاب وقعت أحداث جسام بدءاً من عملية «طوفان الأقصى»، مروراً بالإبادة الممنهجة لأهلنا في غزة، وبعملية تهويد الضفة الغربية المتسارع، ووصولاً إلى استشهاد أمين عام حزب الله، سماحة السيد حسن نصرالله، وعدد كبير من القادة الميدانيين، وما تلى ذلك من وقف لإطلاق النار في لبنان، ومن ثم سقوط نظام البعث في الشام لصالح الفصائل المدعومة من قبل تركيا وقطر، وضمناً الولايات المتحدة وإسرائيل. نحن الآن في الشام تحت احتلال إسرائيلي مباشر وتركي بالإنابة، والاثنان يتمددان وسوف يتنافسان على خيارات بلادنا تحت المظلة الأمريكية.

وبغض النظر عن النتائج النهائية لكل ما يدور، فإنه على أي مسؤول اليوم إعادة النظر بمستقبل مؤسسته انطلاقاً من «طوفان الأقصى» وما تلاها. هذا يحتّمه علينا جميعاً ما شهدناه من إرادةٍ وتخطيطٍ وحشدٍ للقدرات واستعدادٍ للتضحية القصوى، ومن مقدرةٍ على التنفيذ وإدارة حرب استنزاف بهذه الحرفية العالية. ولكن الأهم هو القدرة على التخطيط وحشد القوى لمواجهة الاحتلالات المذكورة أعلاه، وربما ما سيكون أدهى وأشد في قادم الأيام. على أية مؤسسة أن تكون على مستوى هذه التحديات وإلا لا مكان لها في حلبة الصراع ومعتزك الأمم. هذا يقودنا إلى وضع الحزب السوري القومي الاجتماعي، موضوع هذه المجموعة بجزئها. لم يسبق لحزب أن تجلّت عقيدته وانتشرت أفكاره وقِيمُه بعد استشهاد مؤسسه بعقود، كما هي عقيدته اليوم. ولم يسبق لحزب أن بقي أداؤه متديناً كما هو اليوم، بالرغم من هذا التجلي.

إنها لمفارقة جديرة بالاهتمام.

وهذا يقودنا أيضاً إلى إعادة تلخيص القصد من هذه المجموعة وهو من شقين: الأول عرض تاريخي لأزمة الحزب المستمرة. والثاني، عرض لما يمكن أن يكون عليه هذا الحزب العظيم إذا قامت له إدارة تحسن الربط بين منطلقاته العقيدية ومفاهيم الإدارة العصرية. نأمل أن نكون قد سدنا القصد لما فيه مصلحة سورية.

كتب وترجمات للمؤلف:

- إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية، مؤسسة سعاد، بيروت، 2009.
- منحاز بلا حدود - مقالات سياسية، دار أطلس، دمشق، 2005.
- خوفاً من ولكن - مقالات سياسية، دار أطلس، دمشق، 2002.
- المستحيل الممكن - مقالات سياسية، كندا، 2000.
- The Creation of a Myth in the 20th Century: Media content analysis 1982, Ottawa, Canada.
- ترجمة كتابين من كتب إبراهيم متري رحباني (1869-1944):
- المسيح السوري، ترجمة لكتاب The Syrian Christ. بيروت، ثلاث طبعات، 2001-2004.
- الترجمات الخمس ليسوع، ترجمة لكتاب The Five Interpretations of Jesus، دمشق، 2005.

هذه المجموعة

"إذا ضعف النظام السوري أو إذا أزيل بالكامل، فسيكون من الضروري رصد الحزب السوري القومي الاجتماعي كعامل مهم في إعادة ترتيب المنطقة الذي سيلي انهيار الفرع السوري من حزب البعث العربي الاشتراكي." (من كتاب بحثًا عن سورية الكبرى للكاتب الأمريكي كريستوفر سلمون، 2022).

هذه المجموعة من جزئين يتعلقان بالحزب السوري القومي الاجتماعي حاضراً ومستقبلاً. حاضراً الحزب هو أزمة تبدو مستعصية تتمثل بانقسامات تنظيمية حادة وضعف إداري شامل. مستقبل الحزب يتوقف على ما يقوم به جيل اليوم، وإما تبتدئ، وإما انطلاقة جديدة.

لقد وضع مؤسس الحزب، أنطون سعادة، 1904-1949، منظومة فكرية متكاملة تنطلق من واقع المجتمع السوري لتنتج على أوسع الآفاق الإنسانية. هذه المنظومة بحاجة إلى الفكر الإداري القادر على ترجمتها إلى مشاريع عملية بغية تحقيق غايتها العليا. الخطوة الأولى هي إنهاء الانقسام، الثانية هي الإدارة السليمة. يرافق الجزء الأول من المجموعة حالة الانقسام التاريخي، أما الثاني، فيغوص في نمط الإدارة المطلوب لقيادة منظمة عقائدية كالحزب السوري القومي الاجتماعي.

أسامة عجاج المهتار

خبير دولي في إدارة الاستراتيجية والتغيير ومن المروجين لمفهوم "الإدارة بالنتائج". يعمل مستشاراً لدى الحكومة الكندية، وقد قدم خدمات استشارية لعدد من الدول في أفريقيا وآسيا. ولد في بيروت وانتقل إلى كندا سنة 1976، حيث يقيم الآن.

كتب عن مسيرة الحزب السوري القومي الاجتماعي وحاضر عن مفاهيمه باللغتين العربية والإنجليزية. سنة 2009 وضع مؤلفاً عن النمط الإداري لدى أنطون سعادة، وإطار إدارة الاستراتيجية الذي اعتمده. من مؤسسي مجلة الفينيق الإلكترونية سنة 2017 ويتولى رئاسة تحريرها حالياً.



مؤسسة عجلة الثقافة

ISBN 978-969-649-269-6

